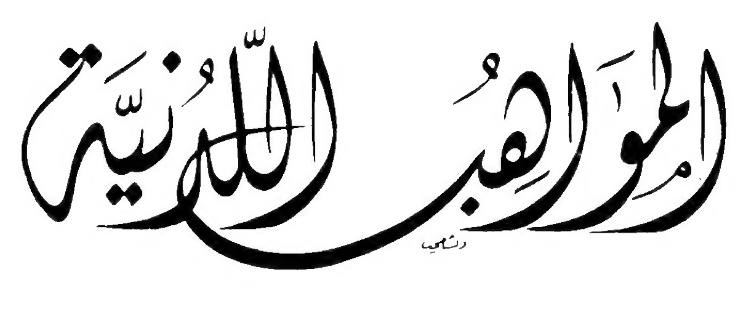


المواهب اللدنية

بالمنح المحمدية

تأليف

العلامة أحمد بن محمد القسطلاني
(٨٥١ - ٩٢٣هـ)

الجزء الثالث

تحقيق

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب: ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

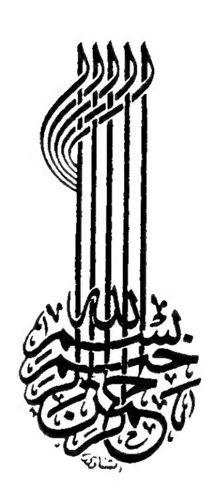
دمشق : ص.ب: ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب: ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

المواهب اللدنية

بالمنح المحمدية

الجزء الثالث



المقصد الخامس

الاسراء والمعراج



المقصد الخامس: في تخصيصه ﷺ بخصائص المعراج والإسراء[1]، وتعميمه بلطائف التكريم في حضرة التقريب بالمكالمة والمشاهدة والآيات الكبرى.

[الآية العظيمة]

اعلم ـ منحني الله وإياك الترقي في معارج السعادات، وأوصلنا به إليه في حظائر الكرامات ـ أن قصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات، وأظهر البراهين البينات، وأقوى الحجج المحكمات، وأصدق الأنباء، وأعظم الآيات، وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه ﷺ بعموم الكرامات.

[تحديد نقاط الاختلاف]

وقد اختلف العلماء في الإسراء.

هل هو إسراء واحد في ليلة واحدة؟ يقظة أو مناماً؟ أو إسراءان كل واحد في ليلة، مرة بروحه وبدنه يقظة، ومرة مناماً، أو يقظة بروحه وجسده؟ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم مناماً من المسجد الأقصى إلى العرش، أو هي أربع إسراءات؟

---

(١) سبق الحديث عن تحديد وقت الإسراء في الجزء الأول.

[مناقشة الخلاف]

● احتج القائلون بأنه رؤيا منام ـ مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء وحي ـ بقوله تعالى: ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس**﴾[1]، لأن الرؤيا مصدر الحُلميَّة، وأما البصرية: فالرؤية بالتاء، وقد أنكر ابن مالك والحريري وغيرهما ـ كما أفاده الشيخ بدر الدين الزركشي ـ ورود «الرؤيا» للبصرية، ولحنوا المتنبي في قوله:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وأجيب: بأنه إنما قال «الرؤيا» لوقوع ذلك في الليل، وسرعة تقضيه كأنه منام، وبأن «الرؤيا» و«الرؤية» واحدة كقربى وقربة، ويشهد له قول ابن عباس في الآية ـ كما عند البخاري ـ: هي رؤيا عين أريها ﷺ ليلة أسري به. وزاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث: وليس رؤيا منام. ولم يصرح في رواية البخاري بالمرئي.

وعند سعيد بن منصور أيضاً من طريق أبي مالك قال: هو ما أري في طريقه إلى بيت المقدس/ وهذا مما يستدل به على إطلاق لفظ «الرؤيا» على ما يرى بالعين في اليقظة. وهو يرد على من خطأ المتنبي.

١/٢٢٣

على أنه اختلف المفسرون في هذه الآية،

فقيل: أي الرؤيا التي أريناك ليلة المعراج. قال البيضاوي ففسر الرؤيا بالرؤية.

وقيل: رؤيا عام الحديبية، حين رأى أنه دخل مكة فصده المشركون وافتتن بذلك ناس.

---

(١) سورة الإسراء. الآية ٦٠.

وقيل: رؤيا وقعة بدر. وسأل ابن النقيب شيخه أبا العباس القرطبي[1] عن الآية فقال: الصحيح أنها رؤية عين يقظة، أراه جبريل مصارع القوم ببدر، فأرى النبي ﷺ الناس مصارعهم التي أراه جبريل، فتسامعت به قريش واستسخروا منه. انتهى.

● واحتج القائلون بأنه رؤيا منام أيضاً بقول عائشة: «ما فقدت جسده الشريف».

وأجيب بأن عائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن إذ ذاك زوجاً، ولا في سن من يضبط، أو لم تكن ولدت بعد على الخلاف في الإسراء متى كان.

وقال التفتازاني: أي ما فقد جسده عن الروح، بل كان مع روحه، وكان المعراج للجسد والروح جميعاً. انتهى.

● واحتج القائلون بأنه بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، بقوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾[2]، فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب به بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسراء. قالوا: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ بالمدح.

وأجيب: بأن حكمة التخصيص بالمسجد الأقصى سؤال قريش

---

(١) أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي. المالكي الفقيه المحدث، نزيل الاسكندرية، ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وصنف المفهم في شرح صحيح مسلم واختصر الصحيحين مات سنة ست وخمسين وستمائة.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١.

لـه عنه عـلى سبيل الامتحـان عما شـاهدوه وعـرفوه من صفـة بيت المقدس، وقد علموا أنه لم يسافر إليه، فيجيبهم بما عاين ويوافق ما يعلمونه، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع، ولهذا لم يسألوه عما رأى في السماء، إذ لا عهد لهم بذلك[1].

وقال النووي في فتاويه: وكان الإسراء به ﷺ مرتين: مرة في المنام، ومرة في اليقظة.

وذكر السهيلي تصحيح هذا المذهب عن شيخه القاضي أبي بكر ابن العربي، وأن مرة النوم توطئة له وتيسير عليه، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة ليسهل عليه أمر النبوة، فإنه أمر عظيم تضعف عنـه القوى البشرية، وكذلك الإسراء قد سهله الله عليه بالرؤيا، لأن هوله عـظيم، فجاء في اليقـظة على تـوطئة وتقـدمة، رفقـاً من الله بعبده وتسهيلاً عليه.

وقد جوز بعض قائلي ذلك أن تكون قصة المنام قبل المبعث، لأجل قول شريك في رواية: «وذلك قبل أن يوحى إليه». واستشهدوا له بقول عائشة رضي الله عنها: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح[2] وسيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى.

● واحتج القائلون بأنه أربع إسراءات يقظة بتعدد الروايات في

---

(١) الذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أنهم لم يسألوه عن المعراج لأنه لم يقص عليهم ذلك، وهذا من حكمته ﷺ حيث ذكر لهم ما يمكن إقامة الدليل عليه حساً بوصف المسجد الأقصى [م].

(٢) من قوله «واستشهدوا. .» لم يرد في (ش، ب).

الإسراء، واختلاف ما يذكر فيها، فبعضهم يذكر شيئاً لم يذكره الآخر، وبعضهم يسقط شيئاً ذكره الآخر.

وأجيب: بأنه لا يدل على التعدد، لأن بعض الرواة قد يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه. وقال الحافظ ابن كثير: من جعل كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يحصل على مطلب. ولم ينقل ذلك عن أحد من السلف. ولو تعدد هذا التعدد لأخبر ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار. انتهى.

وقد وقع في رواية عبثر بن القاسم ـ بموحدة ثم مثلثة بوزن جعفر ـ في رواية عن حصين بن عبد الرحمن، عند الترمذي والنسائي: لما أسري برسول الله ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد، الحديث. فإن كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأن الذي وقع بالمدينة أيضاً غير الذي وقع بمكة.

قال في فتح الباري: والذي يتحرر في هذه المسألة أن الإسراء الذي وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة، من استفتاح أبواب السماء باباً باباً، و من التقاء الأنبياء كل واحد في سماء، ولا المراجعة معهم، ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلاة، ولا في طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك. وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها ﷺ / فمنها بمكة البعض، ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض، ومعظمها ٢٢٣/ب في المنام والله أعلم. انتهى.

وقال بعض العارفين: إن له ﷺ أربعة وثلاثين مرة، الذي

أسري به منها إسراء واحد بجسمه، والباقي بروحه رؤيا رآها. انتهى[1].

[رأي الجمهور]

فالحق: أنه إسراء واحد، بروحه وجسده يقظة، في القصة كلها.

وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله.

قال الرازي: قال أهل التحقيق: الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر:

أما القرآن فهو قوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾. وتقرير الدليل: أن «العبد» اسم للجسد والروح، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً بجميع الجسد والروح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى**﴾[2] ولا شك أن المراد هنا مجموع الروح والجسد، وأيضاً: قال سبحانه وتعالى في سورة الجن: ﴿**وأنه لما قام عبد الله يدعوه**﴾[3]، والمراد: مجموع الروح والجسد وكذا هاهنا، انتهى.

---

(١) هذا قول بغير دليل ولذا فلا قيمة له [م].

(٢) سورة العلق. الآية ٩.

(٣) سورة الجن، الآية ١٩.

واحتجوا أيضاً: بظاهر قوله ﷺ: (أسري بي) لأن الأصل في الأفعال أن تحمل على اليقظة حتى يدل دليل على خلافه.

وبأن ذلك لو كان مناماً لما كان فيه فتنة للضعفاء، ولا استبعده الأغبياء.

وبأن الدواب لا تحمل الأرواح وإنما تحمل الأجسام، وقد تواترت الأخبار بأنه أسري به على البراق.

[حكمة كون الإسراء ليلاً]

فإن قلت: ما الحكمة في كونه تعالى جعل الإسراء ليلاً؟

أجيب: بأنه إنما جعله ليلاً تمكيناً للتخصيص بمقام المحبة، لأنه تعالى اتخذه ﷺ حبيباً وخليلاً، والليل أخص زمان للمحبين لجمعهما فيه، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل[1].

قال ابن المنير: ولعل تخصيص الإسراء بالليل ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم. إذ الليل أخفى حالاً من النهار، قال؛ ولعله لو عرج به نهاراً لفات المؤمن فضيلة الإيمان بالغيب، ولم يحصل ما وقع من الفتنة على من شقي وجحد، انتهى[2].

---

(١) هذا الجواب غير مناسب، كما لا يليق بذاته تعالى، فإنه تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ [م].

(٢) وهذا التعليل غير مقنع، والأولى الاعتراف بقصور العقل عن إدراك هذه الحكمة والوقوف عند التسليم [م].

وفي ذلك حكمة أخرى على طريقة أهل الإشارات، ذكرها العلامة ابن مرزوق، وهي: أنه قيل لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر قلب الليل، فجبر بأن أسري فيه بمحمد ﷺ . وقيل: افتخر النهار على الليل بالشمس فقيل له: لا تفتخر، إن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيعرج شمس الوجود في الليل إلى السماء. وقيل: لأنه ﷺ سراج، والسراج إنما يوقد بالليل، وأنشد:

قلت يا سيدي تؤثر الليـ ... ـل على بهجة النهار المنير

قال لا أستطيع تغيير رسمي ... هكذا الرسم في طلوع البدور

إنما زرت في الظلام لكيما ... يشرق الليل من أشعة نوري

[ليلة الإسراء وليلة القدر]

1/224 /فإن قلت: أيما أفضل، ليلة الإسراء أو ليلة القدر؟

فالجواب: ـ كما قاله الشيخ أبو أمامة بن النقاش ـ أن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ ، وليلة القدر أفضل في حق الأمة، لأنها لهم خير من عمل في ثمانين سنة لمن قبلهم، وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف. ولذلك لم يعينها النبي ﷺ لأصحابه، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلى الآن ولا إلى أن تقوم الساعة فيها شيء، ومن قال فيها شيئاً فإنما قاله من كيسه لمرجح ظهر له استأنس به، ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها على شيء، ولو تعلق بها نفع للأمة ـ ولو بذرة ـ لبينه لهم نبيهم ﷺ ، انتهى.

[الإسراء خاص به ﷺ]

فإن قلت: هل وقع الإسراء لغيره ﷺ من الأنبياء؟

أجاب العارف عبد العزيز المهدوي: بأن مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية لم تكن لأحد من الأنبياء، إلا لنبينا ﷺ. انتهى.

[جوانب من تفسير الآية الكريمة]

وإنما قال تعالى: ﴿**أسرى بعبده**﴾ إشارة إلى أنه تعالى هو المسافر به، ليعلم أن الإسراء من عنده عز وجل هبة إلهية، وعناية ربانية، سبقت له ﷺ مما لم يخطر بسره، ولا اختلج في ضميره.

وأدخل «باء» المصاحبة في قوله تعالى: ﴿**بعبده**﴾ ليفيد أنه تعالى صحبه في مسراه، صحبة بالألطاف والعناية والإسعاف والرعاية، ويشهد له قوله ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر».

وتأمل قوله تعالى: ﴿**يسيركم في البر والبحر**﴾[1]، وقوله ﴿**أسرى بعبده**﴾ يلح لك خصوصية مصاحبة الرسول ﷺ للحق دون عموم الخلق[2].

وقرن سبحانه وتعالى «التسبيح» بهذا المسرى، لينفي بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن يحكم عليه خياله من أهل التشبيه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق تعالى من الجهة والحد والمكان، ولذا قال: ﴿**لنريه من آياتنا**﴾ يعني ما رأى في تلك الليلة من عجائب الآيات،

---

(١) سورة يونس، الآية ٢٢.

(٢) لأنه أتى بـ(باء) المصاحبة في (بعبده)، وأتى بـ(في) في العموم، إشارة إلى الفرق بين لطفه بعبده وبين غيره من الخلق.

كأنه تعالى يقول: ما أسريت به إلا لنريه الآيات، لا «إلي» فإنه لا يحدني مكان، ونسبة الأمكنة إلي نسبة واحدة، فكيف أسري به إلي، وأنا عنده، وأنا معه أينما كان. ولله در القائل:

سبحان من أسرى إليه بعبده ... ليرى الذي أخفاه من آياته
كحضوره في غيبه وكسكره ... في صحوه والمحو في إثباته[1]
ويرى الذي عنه تكون سره ... في صنعه[2] إن شاءه وهباته
ويريه ما أبدى له من جوده ... بوجوده والفقد من هيئآته
سبحانه من سيد ومهيمن ... في ذاته وسماته وصفاته

وأكده تعالى بقوله: ﴿ليلاً﴾ مع أن الإسراء لا يكون في اللسان العربي إلا ليلاً، لا نهاراً، ليرتفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسرى بروحه فقط، ويزيل من خاطر من يعتقد أن الإسراء ربما يكون نهاراً، فإن القرآن ـ وإن كان نزل بلغة العرب ـ فإنه خاطب به الناس أجمعين، أصحاب اللسان وغيرهم.

وقال البيضاوي تبعاً لصاحب الكشاف: وفائدته الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء، ولذلك قرئ «من الليل» أي بعضه: كقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾[3] وتعقبه القطب في حاشيته على الكشاف كما نبهت عليه في حاشية الشفاء[4].

---

(١) هذه مصطلحات صوفية: فالغيب بإزاء الشهادة، والسكر: غيبة بوارد قوي، والصحو هو الرجوع إلى الإحساس، والمحو: رفع أوصاف العادة، والإثبات: إقامة أحكام العادة، مقابل للمحو.

(٢) في ش: منعه.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٧٩.

(٤) ونص هذا التعقب: وفيه نظر: لأن التنكير للتقليل لا يكون إلا فيما يقبل القلة والكثرة، والليل لا يقبلهما.

[مراحل المعراج]

والمعاريج ليلة الإسراء عشرة سبع إلى السماوات، والثامن إلى سدرة المنتهى. والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة[1] والكشف الحقيقي.

وقد وقع له ﷺ في سني الهجرة العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة لهذه المعاريج العشرة، ولهذا ختمت سني الهجرة بالوفاة، وهي لقاء الحق/ جل جلاله، والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ٢٢٤/ب والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق، وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة، وهي المنزلة الرفيعة. كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس.

[تصانيف في الإسراء]

وقد أفاد الإمام الذهبي أن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الإسراء في جزأين، ولم يتيسر لي الوقوف عليهما بعد الفحص.

وقد صنف الشيخ أبو إسحاق النعماني ـ رحمه الله ـ في الإسراء والمعراج كتاباً جامعاً للأطناب بزيادة الرقائق والإشحان بفواضل الحقائق، ولم أقف عليه حالة كتابتي هذا المقصد الشريف.

ويرحم الله تعالى شيخ الإسلام والحفاظ الشهاب ابن حجر العسقلاني، فإنه قد جمع في كتابه «الفتح» كثيراً مما تشتت من طرق

(١) المكالمة بلا واسطة ـ كما في هامش ب ـ [م].

حديث الإسراء وغيره من الأحاديث، مع تدقيق مباحث فقهية، والكشف عن أسرار معاني كلمه وبدائع ألفاظه وحكمه(١).

وكل من صنف في شيء من المنح النبوية، والمناقب المحمدية لا يستغني عن استجناء معارف اللطائف من رياض «عياض» والاستشفاء من أدواء المشكلات بدواء «شفائه» المبرئ لمعضل الأمراض(٢).

فالله تعالى يفيض عليه وعلى سائر علماء هذه الأمة سجال رحمته ورضوانه ويسكننا معهم في بحبوحة جناته.

[رواة حديث الإسراء]

وقد وردت أحاديث الإسراء من حديث أنس، وأبي بن كعب، وجابر بن عبدالله، وبريدة، وسمرة بن جندب، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عمرو، وحذيفة بن اليمان، وشداد بن أوس، وصهيب، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، ومالك بن صعصعة، وأبي أمامة، وأبي أيوب، وأبي حبة، وأبي ذر، وأبي سعيد الخدري، وأبي سفيان بن حرب، وأبي هريرة، وعائشة، وأسماء بنت أبي بكر، وأم هانئ، وأم سلمة، وغيرهم [رضي الله تعالى عنهم أجمعين](٣).

---

(١) جاء ذلك في فتح الباري في الأماكن التالية: ١/٤٥٨ ـ ٤٦٤، ٦/٣٠٢، ٧/١٩٦ ـ ٢١٨ ٨/٦٠٦ ـ ٦١٠، ١٣/٤٧٨ ـ ٤٨٧ [م].

(٢) أورد القاضي عياض حديث الإسراء في ستة فصول من الباب الثالث من الشفاء بدءاً من الفصل الثاني [م].

(٣) في ش.

وفي تفسير الحافظ ابن كثير من ذلك ما يكفي ويشفي.

وبالجملة: فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون، ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**﴾[١].

[رواية الإمام البخاري لحديث الإسراء]

وقد روى البخاري[٢]، عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به.

(بينما أنا نائم في الحطيم - وربما قال: في الحِجر - مضطجعاً، إذ أتاني آت فقدَّ - قال: سمعته يقول: فشق - ما بين هذه إلى هـذه. قال: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته. فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد.

ثم أتيت بدابة، دون البغل وفوق الحمار أبيض - فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم - يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

---

(١) سورة الصف، الآية ٨.

(٢) رقم الحديث في البخاري: ٣٨٨٧ وكذا رواه مسلم والنسائي.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح لنا، فلما خلصت إذا بيحي وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

١/٢٢٥ ثم صعد بي حتى أتى السماء/ الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا

موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها[1] مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات.

ثم رفع إلي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فاخترت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت علي الصلاة، خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: فقلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً،

---

(١) النبق هو ثمر السدر.

فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي).

[روايات أخرى]

وفي رواية له[1]: (ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه).

وفي رواية شريك[2]: (فحشا به صدره[3] ولغاديده) وهي بلام مفتوحة وغين معجمة، أي عروق حلقه، وفي النهاية: جمع لغدوده: وهي لحمة مشرفة عند اللهاة.

والشك في قوله: (ربما قال في الحِجر) من قتادة، كما بينه أحمد عن عفان، ولفظه: (بينما أنا في الحطيم، وربما قال قتادة: في الحجر) والمراد بالحطيم هنا: الحجر.

---

(١) أي للبخاري وهي برقم ٣٤٩، وكذلك عند مسلم.
(٢) عند الشيخين، وهي في البخاري برقم ٧٥١٧.
(٣) في (أ، ط) صدري.

ووقع عند البخاري في أول بدء الخلق[1] بلفظ (بينما أنا عند البيت) وهو أعم.

وفي رواية الزهري عن أنس عن أبي ذر/ (فرج سقف بيتي وأنا بمكة)[2]. ٢٢٥/ب

وفي رواية الواقدي بأسانيده: أنه أسري به من شعب أبي طالب.

وفي حديث أم هانئ ـ عند الطبراني ـ أنه بات في بيتها، قالت: ففقدته من الليل، فقال: إن جبريل أتاني.

[الجمع بين الروايات]

والجمع بين هذه الأقوال ـ كما في فتح الباري ـ أنه بات في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه، فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد، فكان به مضطجعاً وبه أثر النعاس، ثم أخذه الملك فأخرجه من المسجد، فأركبه البراق. قال: وقد وقع في مرسل الحسن عند ابن إسحاق أن جبريل أتاه فأخرجه إلى المسجد فأركبه البراق، وهو يؤيد هذا الجمع[3].

[حكمة انفراج سقف البيت]

فإن قيل: لم فرج سقف بيته ﷺ ونزل منه الملك، ولَمَ لم يدخل عليه من الباب، مع قوله تعالى: ﴿وائتوا البيوت من أبوابها﴾[4]؟

---

(١) برقم ٣٢٠٧.

(٢) عند الشيخين ورقمه في البخاري ٣٤٩.

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٠٤

(٤) سورة البقرة، الآية ١٨٩.

أجيب: بأن الحكمة من ذلك أن الملك انصب من السماء انصبابة واحدة، ولم يعرج على شيء سواه، مبالغة في المفاجأة، وتنبيهاً له على أن الطلب وقع على غير ميعاد، كرامة له ﷺ.

وهذا بخلاف موسى عليه الصلاة والسلام، فكانت كرامته بالمناجاة عن ميعاد واستعداد بخلاف نبينا ﷺ فإنه حمل عنه ألم الانتظار، كما حمل عنه ألم الاعتذار. ويؤخذ من هذا: أن مقام نبينا ﷺ بالنسبة إلى مقام موسى عليه السلام مقام المراد بالنسبة إلى مقام المريد. ويحتمل أن يكون توطئة وتمهيداً لكونه فرج عن صدره، فأراه الملك بإفراجه عن السقف ثم التأم السقف على الفور كيفية ما يصنع به، وقرب له الأمر في نفسه بالمثال المشاهد في بيته، لطفاً في حقه ﷺ وتثبيتاً لصبره، والله أعلم.

[إيضاح بعض نقاط النص]

• وقوله: (مضطجعاً) زاد في بدء الخلق (بين النائم واليقظان).

وهو محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج به إلى باب المسجد فأركبه البراق، استمر في يقظته.

• وأما ما وقع في رواية شريك عنده أيضاً (فلما استيقظت) فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال، وإلا حمل على أن المراد استيقظت: أفقت، يعني أنه أفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي، فالمراد: الإفاقة البشرية من الغمرة الملكية.

• وقوله: (إذ أتاني آت) هو جبريل عليه السلام، وفي رواية شريك (أنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ قال أوسطهم: هو خيرهم، فقال

آخرهم: خذوا خيرهم وكانت تلك الليلة ـ أي كانت القصة الواقعة تلك الليلة ما ذكر هنا ـ فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه..).

وقد أنكر الخطابي قوله:(قبل أن يوحى إليه) وكذا القاضي عياض والنووي، وعبارة النووي: وقع في رواية شريك ـ يعني هذه ـ أوهام أنكرها العلماء، أحدها قوله:(قبل أن يوحى إليه) وهو غلط فلم يوافق عليه، وأجمع العلماء على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء، فكيف يكون قبل الوحي. انتهى. فقد صرح هؤلاء بأن شريكاً تفرد بذلك.

لكن قال الحافظ ابن حجر: في دعوى التفرد نظر، فقد وافقه كثير بن خنيس ـ بالمعجمة ونون مصغراً ـ عن أنس، كما أخرجه سعيد ابن يحيى بن سعيد الأموي في كتاب المغازي له من طريقه. قال: ولم يقع التعيين بين المجيئين، فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد الوحي، وحينئذٍ وقع الإسراء والمعراج. وإذا كان بين المجيئين مدة فلا فرق بين أن تكون تلك المدة ليلة واحدة أو ليالي أو عدد سنين/. ١/٢٢٦ وبهذا يرتفع الإشكال من رواية شريك، ويحصل به الوفاق أن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة وسقط تشنيع الخطابي وغيره بأن شريكاً خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة، وأقوى ما يستدل به على أن المعراج كان بعد البعثة، قوله في هذا الحديث نفسه: أن جبريل قال لبواب السماء إذ قال له: أبعث؟ قال: نعم، فإنه ظاهر في أن المعراج كان بعد البعثة[1].

(١) عن فتح الباري ١٣/٤٨٠ ـ ٤٨١.

● ووقع في رواية ميمون بن سياه ـ عند الطبراني ـ: فأتاه جبريل وميكائيل، فقالا: أيهم؟ وكانت قريش تنام حول الكعبة، فقال: أمرنا بسيدهم، ثم ذهبا، ثم جاؤوه وهم ثلاثة. وفي رواية مسلم: سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت فانطلق بي. والمراد بالرجلين: حمزة وجعفر وكان النبي ﷺ نائماً بينهما.

● وقوله: «فقدَّ» بالقاف والدال المهملة الثقيلة.

«من ثغرة» بضم المثلثة وسكون الغين المعجمة، وهو الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين.

«إلى شعرته» بكسر الشين المعجمة، أي شعر العانة الشريفة.

وفي رواية مسلم: إلى أسفل بطنه.

وفي رواية البخاري: إلى مراق البطن.

وفي رواية شريك ـ عنده ـ: فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته ـ بفتح اللام وتشديد الموحدة ـ وهو موضع القلادة من الصدر.

[شق الصدر قبل الإسراء]

وقد أنكر القاضي عياض في «الشفاء» وقوع شق صدره الشريف ليلة الإسراء، وقال: إنما كان وهو صبي قبل الوحي في بني سعد.

ولا إنكار في ذلك ـ كما قاله الحافظ أبو الفضل العسقلاني رحمه الله ـ فقد تواترت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، ولكل منها حكمة:

فالأول: وقع فيه من الزيادة، كما عند مسلم من حديث أنس:

فأخرج علقة فقال: هـذا حظ الشيطان منـك. وكان هـذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. ولعل هذا الشق كان سبباً في إسلام قرينه المروي عند البزار من حديث ابن عباس[1]. ويحتمل أن يكون إشارة إلى حظ الشيطان المباين كالعفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه.

وأما شق الصدر عنـد المبعث، فلزيادة الكـرامة، وليتلقى مـا يوحى إليه بقلب قوي على أكمل الأحوال من التطهير.

وأما شقه عند إرادة العروج إلى السماء، فللتهيؤ للترقي إلى الملأ الأعلى، والثبوت في المقام الأسنى، والتقوي لاستجلاء الأسماء الحسنى، ولهذا لما لم يتفق لموسى عليه الصلاة والسلام مثل هذا التهيؤ لم تتفق له الرؤية، وكيف يثبت الرجل لما لا يثبت له الجبل؟!

ويحتمـل أن تكون الحكمـة في هذا الغسـل، لتقع المبـالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه ﷺ.

ثم إن جميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعـادة، مما يجب التسليم لـه دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك.

قال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن قدرة الله عز وجل لا يعجزها ممكَن، ولا تتوقف لعدم شيء ولا لوجوده، وليست مربوطة بالعادة إلا حيث شاءته القدرة، لأنه على ما يعهد ويعرف أن البشر مهما شق بطنه كله وانجرح القلب مات ولم يعش، وهذا النبي ﷺ قد

---

(١) وهو ـ كما رفعه ابن عباس ـ: فضلت على الأنبياء بخصلتين، كان شيطاني كافراً فأعانني الله عليه فأسلم. قال ونسيت الأخرى.

شق بطنه المكرمة، حتى أخرج القلب فغسل، وقد شق بطنه كذلك أيضاً وهو صغير وشق قلبه وأخرجت منه نزغة الشيطان. ومعلوم أن القلب مهما وصل له الجرح مات صاحبه، وهذا النبي ﷺ شق بطنه في هاتين المرتين، ولم يتألم بذلك، ولم يمت لما أن أراد/ الله تعالى أن لا يؤثر ما أجرى به العادة، أن يؤثر موت صاحبها، فأبطل تلك العادة. وقد رمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فلم تحرقه، وكانت عليه برداً وسلاماً. انتهى.

٢٢٦/ب

[الصبر على شق الصدر]

وقد حصل من شق صدره الكريم إكرامه ﷺ بتحقيق ما أوتي من الصبر، فهو من جنس ما أكرم به إسماعيل الذبيح بتحقيق صبره على مقدمات الذبح شداً وكتفاً وتلاً للجبين، وإهواء بالمدية إلى المنحر فقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[1]، ووفى بما وعد الله، فأكرمه الله بالثناء على صبره إلى الأبد.

ولا مرية أن الذي حصل من صبر نبينا ﷺ على شق الصدر أشق وأجل، لأن تلك مقدمات وهذه نتيجة، وتلك معاريض وهذه حقيقة، والمنحر مقتل وما أصابه من إسماعيل إلا صورة القتل لا فعله، وشق صدر نبينا ﷺ واستخراج قلبه ثم شقه ثم كذا ثم كذا مقاتل عديدة وقعت كلها، ولكن انخرقت العادة ببقاء الحياة، فهذا الابتلاء أعظم من ابتلاء الذبيح بما ذكر.

فإن قلت: إنما يتحقق الصبر لو كان هناك مشقة، فلعل العادة لما انخرقت في إبقاء الحياة انخرقت في رفع المشاق وحمل الآلام.

---

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

أجيب: بأنه ورد في حديث شق صدره: فأقبل وهو منتقع اللون أو ممتقع اللون، بالميم بدل النون، وهو يدل على أن الصبر على مشقة المعالجة المذكورة محقق.

قال القاضي عياض: وأصل «انتقع» صار كلون النقع، والنقع الغبار، وهو شبيه بلون الأموات، وهذا يدل على غاية المشقة.

وأما قول ابن الجوزي: فشقه وما شق عليه، فيحمل على أنه صبر صبر من لا يشق عليه. انتهى.

وكذلك الابتلاء أيضاً من حيث السن، فإن ذلك وقع لنبينا ﷺ بعيد ما فطم، وأيضاً: فإنه كان منفرداً عن أمه ويتيماً من أبيه، واختطف من بين الأطفال، وفعل به ما فعل من الأفعال تسهيلاً لما يلقاه في المآل، وتعظيماً لما يناله على الصبر من الثواب والثناء، ولهذا لما شج وجرح وكسرت رباعيته قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، زاده الله شرفاً.

[الغسل بطست من ذهب]

وقوله: (ثم أتيت بطست من ذهب) إنما أتي بالطست لأنه أشهر آلات الغسل عرفاً.

فإن قلت: إن استعمال الذهب حرام في شرعه ﷺ فكيف استعمل الطست الذهب هنا؟

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأن تحريم الذهب إنما هو لأجل الاستمتاع به في هذه الدار، وأما في الآخرة فهو للمؤمنين خالصاً، لقوله ﷺ: (هو لهم في الدنيا وهو لنا في الآخرة) قال: ثم إن الاستمتاع

بهذا الطست لم يحصل منه ﷺ وإنما كان غيره هو السائق له والمتناول لما كان فيه حتى وضعه في القلب المبارك.

فسوقان الطست المبارك[1] من هناك، وكونه كان من ذهب دال على ترفيع المقام فانتفى التعارض بدليل ما قررناه. انتهى.

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأنه لا يكفي أن يقال: إن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة، لأنه لو كان قد حرم عليه استعماله لنزه أن يستعمله غيره في أمر يتعلق ببدنه المكرم. ويمكن أن يقال: إن تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، وما وقع في تلك الليلة كان الغالب أنه من أحوال الغيب، فيلحق بأحوال الآخرة، أو لعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة. ويظهر هاهنا مناسبات: منها أنه من أواني الجنة، ومنها أنه لا تأكله النار ولا التراب، وأنه لا يلحقه الصدأ، ومنها أنه أثقل الجواهر فناسب قلبه ﷺ لأنه من أواني أحوال الجنة، ولا تأكله النار ولا التراب، وإن الله حرم على/ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، ولا يلحقه الصدأ، وأنه أثقل من كل قلب عدل به، وفيه مناسبة أخرى وهي ثقل الوحي فيه. انتهى.

١/٢٢٧

قلت: قوله: «ولعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة». قد جزم هو في أول الصلاة من كتابه فتح الباري: بأن تحريم الذهب إنما وقع بالمدينة.

وقال السهيلي وابن دحية: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه ولكونه عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه، فلوضاءته ونقائه وصفائه. انتهى.

---

(١) كلمة «المبارك» في (أ، ط).

[هل تجسد المعاني؟]

والمراد بقوله: (ملئ حكمة وإيماناً) أن الطست جعل فيها شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة، فسمي حكمة وإيماناً مجازاً.

ويحتمل أن يكون على حقيقته، وتجسد المعاني جائز، كما أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها ظلة، والموت في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك.

وقال البيضاوي: لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيراً، كما مثلت له ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس.

وقال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن الإيمان والحكمة جواهر محسوسات لا معاني، لأنه ﷺ قال عن الطست: إنه أتي به مملوءاً إيماناً وحكمة، ولا يقع الخطاب إلا على ما يفهم ويعرف، والمعاني ليس لها أجسام حتى تملأ، وإنما يمتلئ الإناء بالأجسام والجواهر، وهذا نص من الشارع ﷺ بضد ما ذهب إليه المتكلمون في قولهم: إن الإيمان والحكمة أعراض.

والجمع بين الحديث وما ذهبوا إليه، هو أن حقيقة أعيان المخلوقات التي ليس للحواس فيها إدراك، ولا من النبوة إخبار عن حقيقتها غير محققة، وإنما هي غلبة ظن، لأن للعقل ـ بالإجماع من أهل العقل المؤيدين بالتوفيق ـ حداً يقف عنده، ولا يتسلط فيما عدا ذلك، ولا يقدر أن يصل إليه، فهذا وما أشبهه منها، لأنهم تكلموا على ما ظهر لهم من الأعراض الصادرة عن هذه الجواهر التي ذكرها الشارع ﷺ في الحديث، ولم يكن للعقل قدرة أن يصل إلى هذه الحقيقة التي أخبر بها ﷺ . فيكون الجمع بينهما أن يقال: ما قاله

المتكلمون حق لأنه الصادر عن الجواهر وهو الذي يدرك بالعقل. والحقيقة ما ذكره ﷺ في الحديث.

ولهذا نظائر كثيرة بين المتكلمين وآثار النبوة، ويقع الجمع بينهما على الأسلوب الذي قررناه وما أشبهه. ثم مثل بمجيء الموت في هيئة كبش أملح، ثم بالأذكار والتلاوة، ثم قال: لأن ما ظهر منها هنا معان، وتوجد يوم القيامة جواهر محسوسات لأنها توزن، ولا يوزن في الميزان إلا الجواهر.

قال: وفي ذلك دليل لأهل الصوفية وأصحاب المعاملات[1] والتحقيق القائلين بأنهم يرون قلوبهم وقلوب إخوانهم، وإيمانهم وإيمان إخوانهم بأعين بصائرهم جواهر محسوسات، فمنهم من يعاين إيمانه مثل المصباح، ومنهم من يعاينه مثل الشمعة، ومنهم من يعاينه مثل المشعل وهو أقواها. ويقولون: بأنه لا يكون المحقق محققاً حتى يعاين قلبه بعين بصيرته، كما يعاين كفه بعين بصره فيعرف الزيادة فيه من النقصان[2].

---

(١) هي عند المتصوفة: أن يتوجه الإنسان إلى نفسه أي إلى باطنها الذي هو الروح والسر واستمداده منها ما يزيل به الحجب عن نفسه فيحصل لها قبول المراد. ومنازل هذه المعاملات عشر: الرعاية والمراقبة والحرمة والإخلاص والتهذيب والاستقامة والتوكل والتفويض والثقة والتسليم.

(٢) إن معرفة إيمان الآخرين ومقداره أمر لم يحصل لجيل الصحابة، فكيف يحصل لغيرهم فقد قال ﷺ لأسامة بعد أن قتل ذلك الرجل: هلا شققت عن قلبه؟! وقد خفي حال المنافقين على الصحابة، وإنما عرف ذلك حذيفة بتعريف رسول الله له وبيانهم... أما ما يتعلق بالإنسان نفسه فقد قال تعالى ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أما على غيره فلا. [المحقق].

[حكمة شق الصدر]

فإن قيل: مـا الحكمة في شق صـدره الشريف ثم ملئ إيمـاناً وحكمة، ولِمَ لم يوجد الله تعالى ذلك فيه من غير أن يفعل فيه ما فعل؟

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأنه ﷺ لما أعطي كثرة الإيمـان والحكمة وقوي التصديق إذ ذاك، أعطي برؤية شق البـطن والقلب عدم الخوف من جميع العادات الجارية بالهلاك، فحصلت له ﷺ قوة الإيمان من ثلاثة أوجه: بقوة التصديق، والمشاهدة، وعدم الخوف من العادات المهلكات فكمل له ﷺ/ بذلك ما أريد منه من قوة الإيمان ٢٢٧/ب بالله عز وجل، وعدم الخوف مما سواه.

ولأجل ما أعطيه مما أشرنا إليه كان ﷺ في العـالمين أشجعهم وأثبتهم وأعلاهم حالاً ومقالاً.

ففي العلوي: كان ـ كما أخبر ﷺ ـ أن جبريل لما وصل معه إلى مقامه قال: ها أنت وربك، وهذا مقامي لا أتعداه، فزج فيه ـ أي في النور ـ زجة ولم يتوان ولم يلتفت، فكان هناك في الحضرة كما أخبر عنه ربه عز وجل بقوله: ﴿**ما زاغ البصر وما طغـــى**﴾[1].

وأما حاله ﷺ في هذا العالم: فكان إذا حمي الوطيس في الحرب ركض بغلته في نحر العدو، وهم شاكون في سلاحهم، ويقول: أنا ابن عبد المطلب، أنا النبي لا كذب.

ثم إن العناية بتطهير قلبه المقدس، وإفراغ الإيمان والحكمة، فيه إشارة إلى مذهب أهل السنة في أن محـل العقل ونحـوه من أسباب

---

(١) سورة النجم، الآية ١٧.

الإدراكات كالنظر والفكر إنما هو القلب لا الدماغ، خلافاً للمعتزلة والفلاسفة.

وأما الحكمة في غسل قلبه المقدس بماء زمزم، فقيل لأن ماء زمزم يقوي القلب ويسكن الروع. قال الحافظ الزين العراقي: ولذلك غسل به قلبه ﷺ ليلة الإسراء ليقوى على رؤية الملكوت. واستدل شيخ الإسلام البلقيني، بغسل قلبه الشريف به على أنه أفضل من ماء الكوثر، قال: لأنه لم يكن يغسل قلبه المكرم إلا بأفضل المياه، وإليه يومئ قول العارف ابن أبي جمرة في كتابه «بهجة النفوس».

[هل غسل القلب أم الصدر]

وأما قوله ﷺ: (فغسل صدري) فالظاهر أن المراد به القلب، كما في الرواية الأخرى، وقد يحتمل أن تحمل كل رواية على ظاهرها، ويقع الجمع بأن يقال: أخبر ﷺ مرة بغسل صدره الشريف ولم يتعرض لذكر قلبه، وأخبر مرة بغسل قلبه ولم يتعرض لذكر صدره، فيكون الغسل قد حصل فيهما معاً مبالغة في تنظيف المحل المقدس. ولا شك أن المحل الشريف كان طاهراً مطهراً وقابلاً لجميع ما يلقى إليه من الخير، وقد غسل أولاً وهو ﷺ طفل، وأخرجت من قلبه نزغة الشيطان، وإنما كان ذلك إعظاماً وتأهباً لما يلقى هناك، وقد جرت الحكمة بذلك في غير ما موضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان متنظفاً، لأن الوضوء في حقه إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، فلذلك غسل جوفه الشريف هنا، وقد قال تعالى: ﴿**ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾[1] فكان الغسل له ﷺ من

---

(١) سورة الحج، الآية ٣٢.

تعظيم شعائر الله، وإشارة لأمته بالفعل بتعظيم شعائر الله، كما نص لهم عليه بالقول.

[البراق والمعراج]

وأما قوله: (ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا) وفي رواية عنده[1] في الصلاة (ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء).

فظاهره: أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء.

قال العارف ابن أبي جمرة: أفاد ذلك أنهم كانوا يمشون في الهواء، وقد جرت العادة بأن البشر لا يمشي في الهواء، سيما وقد كان راكباً على دابة من ذوات الأربع، لكن لما أن شاءت القدرة ذلك كان، فكما بسط الله تعالى لهم الأرض يمشون عليها، كذلك يمشون في الهواء، كل ذلك بيد قدرته، لا ترتبط قدرته تعالى بعادة جارية. وقد سئل ﷺ حين أخبر عن الأشقياء الذين يمشون على وجوههم يوم القيامة فقال ﷺ: الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم قادر أن يمشيهم يوم القيامة على وجوههم. انتهى.

وقد استدل بعضهم بهذا الحديث على أن المعراج كان في ليلة غير ليلة الإسراء إلى بيت المقدس، لكون الإسراء إليه لم يذكر هنا.

فأما المعراج ففي غير هذه الرواية من الأخبار أنه لم يكن على البراق، بل رقي في المعراج وهو السلم، كما وقع التصريح به في

---

(١) عند البخاري.

حديث عند ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

1/228 ويمكن أن يقال/: ما وقع هنا اختصار من الراوي، والإتيان بـ«ثم» المقتضية للتراخي لا ينافي وقوع الإسراء بين الأمرين المذكورين، وهما: الانطلاق والعروج. وحاصله: أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، وثابت البناني قد حفظ الحديث. ففي روايته عند مسلم: أنه أتى بيت المقدس فصلى فيه ثم عرج إلى السماء كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

[حكمة الإسراء به راكباً]

وقد قيل: إن الحكمة في الإسراء به راكباً، مع القدرة على طي الأرض له، الإشارة إلى أن ذلك وقع تأنيساً له بالعادة، في مقام خرق العادة، لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركوب سني يحمله عليه في وفادته إليه.

وفي كلام بعض أهل الإشارات: لما كان ﷺ ثمرة شجرة الكون، ودرة صدفة الوجود، وسرَّ معنى كلمة «كن» ولم يكن بد من عرض هذه الثمرة بين يدي مثمرها رفعها إلى حضرة قربه، والطواف بها على ندمان حضرته، أرسل إليه أعز خدام الملك عليه، فلما ورد عليه قادماً، وافاه على فراشه نائماً، فقال له قم يا نائم، فقد هيئت لك الغنائم. قال: يا جبريل إلى أين؟ قال: يا محمد ارفع «الأين» من البين، إنما أنا رسول القدم[1] أرسلت إليك لأكون من جملة الخدم، يا محمد أنت مراد الإرادة، الكل مراد لأجلك، وأنت مراد لأجله، أنت

(1) في ش للقدم. قال الشارح: أي لذي القدم وهو الحق تعالى.

صفوة كأس المحبة، أنت درة هذه الصدفة، أنت شمس المعارف، أنت بدر اللطائف، ما مهدت الدار إلا لأجلك، ما حمي ذلك الحمى إلا لوصلك، وما روِّق كأس المحبة إلا لشربك. فقال ﷺ : يا جبريل فالكريم يدعوني إليه، فما الذي يفعل بي؟ قال: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: يا جبريل هذا لي، فما لعيالي وأطفالي؟ قال: ولسوف يعطيك ربك فترضى، قال: يا جبريل الآن طاب قلبي ها أنا ذاهب إلى ربي، ثم قال جبريل: يا محمد إنما جيء بي إليك الليلة لأكون خادم دولتك، وحاجب حاشيتك، وحامل غاشيتك، وجيء بالمركوب إليك لإظهار كرامتك، لأن من عادة الملوك إذا استزاروا حبيباً أو استودعوا قريباً وأرادوا ظهور إكرامه واحترامه أرسلوا أخص خدامهم وأعز نوابهم لنقل أقدامهم، فجئناك على رسم عادة الملوك وآداب السلوك، ومن اعتقد أنه وصل إليه بالخُطا فقد وقع بالخطأ، ومن ظن أنه محجوب بالغطا فقد حرم العطا. انتهى.

[تسمية البراق وشكله وسرعته]

والحكمة في كون البراق دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، ولم يكن على شكل الفرس، إشارة إلى أن الركوب كان في سلم وأمن لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة بوقوع الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة. وذكره بقوله: أبيض، باعتبار كونه مركوباً، أو عطفاً على لفظ البراق.

واختلف في تسميته بذلك، فقيل: من البريق، وقال القاضي عياض: لكونه ذا لونين، يقال: شاة برقاء، إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود، وقيل: من البرق، لأنه وصف بسرعة السير، ويحتمل أن لا يكون مشتقاً.

ووصفه بأنه يضع خطوه عند أقصى طرفه ـ بسكون الراء وبالفاء ـ أي يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره. وقال ابن المنير: يقطع ما انتهى إليه بصره في خطوة واحدة، قال: فعلى هذا يكون قطع من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة، لأن بصر الذي في الأرض يقع على السماء، فبلغ أعلى السماوات في سبع خطوات. انتهى.

وفي حديث ابن مسعود عند أبي يعلى والبزار ـ كما أفاده في الفتح ـ: إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يداه.

٢٢٨/ب وفي رواية لابن سعد عن/الواقدي بأسانيده: له جناحان. قال الحافظ ابن حجر: ولم أرها لغيره.

وعند الثعلبي ـ بسند ضعيف ـ عن ابن عباس، في صفة البراق: له خد كخد الإنسان وعرف كعرف الفرس، وقوائم كالإبل، وأظلاف وذنب كالبقر، وكان صدره ياقوتة حمراء.

وفي رواية أبي سعد[1] في «شرف المصطفى» فكان الذي أمسك بركابه جبريل، وبزمام البراق ميكائيل.

وفي رواية معمر عن قتادة عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما حملك على هذا، ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه، قال: فارفض عرقاً. أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب وصححه ابن حبان.

---

(١) كذا في (ط، ش) وفي المخطوطات: ابن سعد، وخطأ الشارح ذلك.
قال الشارح: هو عبد الرحمن بن الحسن الأصفهاني الحافظ المشهور الثقة المتوفى سنة سبع وثلاثمائة. وصفه الذهبي في تاريخه بالحافظ.

وذكر ابن إسحاق عن قتادة: أنه لما شمس وضع جبريل ـ عليه السلام ـ يده على معرفته وقال: أما تستحي وذكر نحوه، لكنه مرسل لأنه لم يذكر أنساً.

وفي رواية وثيمة[1] عند ابن إسحاق: نعست حتى لصقت بالأرض فاستويت عليها.

وفي رواية للنسائي وابن مردويه من طريق يزيد بن أبي مالك عن أنس نحوه موصولاً، وزاد: وكانت تسخر للأنبياء قبله، ونحوه من حديث أبي سعيد عند ابن إسحاق.

[هل ركب الأنبياء البراق؟]

وفيه دلالة على أن البراق كان معداً لركوب الأنبياء، خلافاً لمن نفى ذلك، كابن دحية، وأوَّل قول جبريل: «فما ركبك أكرم على الله منه» أي: ما ركبك أحد قط، فكيف يركبك أكرم منه؟ فيكون مثل قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى لمناره

فيفهم أن له مناراً لا يهتدى له، وليس المراد: إلا أنه لا منار له البتة فكيف يهتدى به، فتأمله.

وقد جزم السهيلي بأن البراق إنما استصعب عليه لبعد عهد ركوب الأنبياء قبله.

وقال النووي: قال صاحب مختصر العين، وتبعه صاحب

(١) في ط: وعند ابن إسحاق.

التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق. قال: وهذا يحتاج إلى نقل صحيح، انتهى وقد تقدم النقل بذلك.

قال في الفتح: ويؤيده ظاهر قوله: (فربطته بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء) انتهى. فليتأمل فإنه ليس فيه فربطته بالحلقة التي كانت تربطه بها الأنبياء، وإنما قال: تربط بها الأنبياء وسكت عن ذكر المربوط ما هو؟ فيحتمل ـ كما قال ابن المنير ـ أن يكون غير البراق، ويحتمل أن يكون ارتباط الأنبياء أنفسهم بتلك الحلقة، أي تمسكهم بها، ويكون من جنس العروة الوثقى، انتهى.

ولكن وقع التصريح بذلك في حديث أبي سعيد عند البيهقي ولفظه: فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيها. وقد وقع عند ابن إسحاق من رواية وثيمة في ذكر الإسراء: فاستصعب البراق وكانت بعيدة العهد بركوبهم، لم تكن ركبت في الفترة.

وفي مغازي ابن عائذ، من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب قال: البراق هي الدابة التي كان يزور إبراهيم عليها إسماعيل. وعلى هذا فلا يكون ركوب البراق من خصائصه ﷺ. نعم قيل: ركوبه مسرجاً ملجماً لم يرد لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

[تعليل استصعاب البراق]

فإن قلت: ما وجه استصعاب البراق عليه؟

أجيب: بأنه تنبيه على أنه لم يذلل قبل ذلك، إن قلنا إنه لم يركبه أحد قبله، أو لبعد العهد بركوبه إن قلنا إنه ركب قبله.

ويحتمل أن يكون استصعابه تيهاً وزهواً بركوبه ﷺ، وأراد

جبريل «أبمحمد تستصعب» استنطاقه بلسان الحال أنه لم يقصد الصعوبة وإنما تاه زهواً لمكان الرسول ﷺ منه، ولهذا قال: فارفض عرقاً، فكأنه أجاب بلسان الحال متبرئاً من الاستصعاب، وعرق من خجل العتاب، ومثل هذا رجفة الجبل به حتى قال: (اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان)/ فإنها هزة الطرب لا هزة الغضب. وكذلك ١/٢٢٩ البراق لما قال له جبريل: اسكن فما ركبك أحد أكرم على الله منه استقر وخجل من ظاهر الاستصعاب وتوجه الخطاب فعرق حتى غرق.

[هل ركب جبريل البراق]

ووقع في حديث حذيفة عند الإمام أحمد قال: أتي رسول الله ﷺ بالبراق فلم يزل على ظهره هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس. وهذا لم يسنده حذيفة عن النبي ﷺ، فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد، ويحتمل أن يكون قوله: «هو وجبريل» متعلقاً بمرافقته في السير، لا في الركوب. وقال ابن دحية معناه: وجبريل قائد أو سائق أو دليل، قال: وإنما جزمنا بذلك لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبي ﷺ، فلا مدخل لغيره فيها.

وقد تعقب الحافظ ابن حجر التأويل المذكور: بأن في صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود: أن جبريل حمله على البراق رديفاً له، وفي رواية الحارث في مسنده: أتي بالبراق فركبه خلف جبريل فسار بهما. فهذا صريح في ركوبه معه، والله أعلم، انتهى.

[ما رآه ﷺ ليلة الإسراء]

وقد وقع في غير هذه الرواية بيان ما رآه في ليلة الإسراء، فمن ذلك:

ما وقع في حديث شداد بن أوس - عند البزار والطبراني، وصححه البيهقي في الدلائل - أنه أول ما أسري به مرَّ بأرض ذات نخل، فقال له جبريل: انزل فصل، فصلى، فقال: صليت بيثرب، ثم مر بأرض بيضاء فقال: انزل فصل، فصلى، فقال: صليت بمدين، ثم مر ببيت لحم فقال: انزل فصل، فنزل فصلى، فقال: صليت حيث ولد عيسى.

وفي حديث أنس عند البيهقي في الدلائل: لما جاء جبريل بالبراق إليه ﷺ فكأنها أصرت أذنيها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله ما ركبك مثله، فسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جنب الطريق، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا هو بشيخ يدعوه متنحياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر، وأنه مرَّ بجماعة فسلموا عليه فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد عليهم السلام، فرد، الحديث. وفي آخره فقال له جبريل: أما العجوز التي رأيت جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، والذي دعاك إبليس، والعجوز الدنيا، أما لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، قال الحافظ عماد الدين ابن كثير: **في ألفاظه نكارة وغرابة**.

وفي حديث: أنه مر بموسى عليه السلام، وهو يصلي في قبره[1]. قال أنس: ذكر كلمة فقال: أشهد أنك رسول الله. ولا مانع أن الأنبياء عليهم السلام يصلون في قبورهم لأنهم أحياء عند ربهم

---

(١) الحديث في مسلم والنسائي.

يرزقون، فهم يتعبدون بما يجدون من دواعي أنفسهم، لا بما يلزمون به، كما يلهم أهل الجنة الذكر. وستأتي الإشارة إليه في حجة الوداع إن شاء الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار: أنه ﷺ مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل عليه السلام: ما هذا؟ فقال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين، ثم مرَّ على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة، ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام، يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء/ الذين لا يؤدون زكاة ٢٢٩/ب أموالهم، وما ظلمهم الله وما ربك بظلام للعبيد. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر، ولحم آخر نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون النيء الخبيث، ويدعون النضيج، [فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟][1] قال جبريل: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح. ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عليه[2] أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل

---

(١) زيادة في (ط، ش).

(٢) في (ب، ش): عنده.

عليهـا. ثم أتى على قـوم تقـرض ألسنتهم وشفـاههم بمقـاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة، قال: ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يـرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها. ثم أتى على واد فوجد فيه ريحاً طيبة بـاردة، وريح مسـك، وسمع صـوتاً، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت الجنة، تقول: رب آتني بما وعدتني، فقد كـثرت غرفي واستـبرقي وحريـري وسندسي وعبقـريي ولؤلؤي ومـرجـاني وفضتي وذهبي، وأكـوابي وصحـافي وأبـاريقي، ومراكبي، وعسلي ومائي ولبني وخمري، فائتني بما وعدتني، فقال: لك كل مسلم ومسلة ومؤمن ومؤنة، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً، ولم يشرك بي شيئاً، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني أجزيته[1]، ومن توكل علي كفيته، إنني أنا الله، لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، قـد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: رضيت، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم، تقول: رب آتني ما وعـدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وفساقي وعذابي، وقـد بعد قعـري واشتد حـري، فائتني بمـا وعدتني، قـال: لك كـل مشرك ومشركة وكـافر وكافرة، وكل جبار عنيـد لا يؤمن بيوم الحسـاب، قالت: رضيت. قال: فسار حتى أتى بيت المقدس[2].

---

(١) في ش: جازيته.

(٢) ورواه أيضاً البيهقي وابن جرير وأبو يعلى.

وفي رواية أبي سعيد[١] عند البيهقي[٢]: دعاني داع عن يميني: انظرني أسألك، فلم أجبه، ثم دعاني آخر عن يساري كذلك فلم أجبه، وفيه: إذا امرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى فقالت: يا محمد انظرني أسألك، فلم ألتفت إليها، وفيه أن جبريل قال له: أما الداعي الأول فهو داعي اليهود، ولو أجبته لتهودت أمتك، وأما الثاني فداعي النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك، وأما المرأة فالدنيا. وفيه: أنه صعد إلى السماء الدنيا ورأى فيها آدم، وأنه رأى أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد، وأخرى عليها لحم منتن عليها ناس يأكلون، قال جبريل: هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام، وفيه: أنه مرَّ بقوم بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خرَّ، وأن جبريل قال له: هم أكلة الربا، وأنه مرَّ بقوم مشافرهم كالإبل، يلتقمون **جمراً**، فيخرج من أسافلهم، وأن جبريل قال: إن هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، وأنه مرَّ بنساء تعلقن بثديهن وأنهن الزواني، وأنه مرَّ بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيطعمون وأنهم الغمازون اللمازون[٣].

[اللقاء بالأنبياء والملائكة]

وفي حديث أبي هريرة ـ عند البزار والحاكم ـ أنه ﷺ صلى ببيت المقدس مع الملائكة، وأنه أتي هناك بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله. وفيه قول إبراهيم: لقد فضلكم محمد.

---

(١) أبو سعيد الخدري.
(٢) وكذا عند ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه.
(٣) الغمازون: المشيرون بأعينهم أو حواجبهم لمعايب الناس، اللمازون: العيابون.

وفي رواية عبد الرحمن بن هشام عن أنس: ثم بعث له آدم فمن دونه فأمهم تلك الليلة.

وفي حديث أم هانئ عند أبي يعلى: ونشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم وموسى وعيسى.

وفي رواية أبي سلمة ثم حانت الصلاة فأممتهم. أخرجه مسلم.

١/٢٣٠ وفي حديث أبي أمامة/ عند الطبراني في الأوسط: ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً ﷺ.

[اختيار الفطرة]

● وفي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم قال: فربطته، يعني البراق، بالحلقة ـ وهي بإسكان اللام على الأشهر ـ التي تربط به الأنبياء ـ بضمير المذكر، إعادة على معنى الحلقة وهو الشيء، والمراد حلقة باب مسجد بيت المقدس. قاله صاحب التحرير ـ قال ﷺ: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة[1].

أي اخترت اللبن الذي عليه بنيت الخلقة، وبه نبت اللحم ونشز العظم، أو اخترته لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام بخلاف الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأمر.

وقال النووي: المراد بالفطرة هنا، الإسلام والاستقامة، قال: ومعناه ـ والله أعلم ـ: اخترت علامة الإسلام والاستقامة، قال: وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين، سليم

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٢٥٩.

العاقبة، أما الخمر فإنها أم الخبائث، وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل، انتهى.

وقال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لكونه أول شيء يدخل جوف المولود، ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفاً له أولاً، انتهى.

وإذا كانت الخمر مباحة ـ لأنها إنما حرمت بالمدينة والإسراء كان بمكة ـ فما وجه تعيينه ﷺ لأحد المباحين، وما وجه عد ذلك صواباً، وعد الآخر خطأ، وهما سواء في الإباحة؟

فيحتمل أن يكون توقاها تورعاً وتعريضاً بأنها ستحرم، وأنه لما وافق الصواب في علم الله تعالى قال له جبريل: أصبت الفطرة، أو أصبت أصاب الله بك، كما رويا. وإذا قلنا: بأنها كانت من خمر الجنة فيكون سبب تجنبها صورتها ومضاهاة الخمر المحرمة، أي في علم الله تعالى، وذلك أبلغ في الورع.

ويستفاد منه: أن من اتخذ من ماء الرمان أو غيره، ولو ماء قراحاً، وضاهى به الخمر في الصورة وهيأه بالهيئة التي يتعاطاها أهل الشهوات من الاجتماعات والآلات فقد أتى منكراً، وإن كان لا يحد عليها. قاله ابن المنير.

وينظر فيما يعمله كثير من فقراء اليمن وغيرهم بمكة المشرفة وجدة وغيرهما من ماء قشر البن ويسمونه بالقهوة، وهي اسم من أسماء الخمر(١).

● وفي حديث ابن عباس ـ عند أحمد ـ: فلما أتى المسجد

---

(١) ثبت علمياً أن القهوة ليست خمراً وليست مسكراً [م].

الأقصى قام يصلي، فلما انصرف جيء بقدحين في أحدهما لبن، وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن.

● وفي رواية البزار: بثلاثة أواني، وأن الثالث كان خمراً، وأن ذلك وقع ببيت المقدس، وأن الأول كان ماء، ولم يذكر العسل.

● وفي حديث شداد بن أوس[١]: فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين أحدهما لبن والآخر عسل، ثم هداني الله تعالى فأخذت اللبن. فقال شيخ بين يدي - يعني لجبريل -: أخذ صاحبك الفطرة.

وقد كان إتيانه بالأواني مرتين، مرة عند فراغه من الصلاة، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة.

وممن صرح بأنه كان مرتين الحافظ عماد الدين بن كثير[٢]، وعلى هذا فيكون تكرار جبريل عليه السلام للتصويب حيث اختار اللبن تأكيداً للتحذير مما سواه.

[مناقشة ربط البراق]

وقد أنكر حذيفة[٣] ربط البراق بالحلقة، فروى أحمد والترمذي من حديث حذيفة قال: يحدثون أنه ربطه، أخاف أن يفر منه، وقد سخره له عالم الغيب والشهادة؟ وكذا أنكر حذيفة أيضاً صلاته ﷺ ببيت المقدس.

(١) عند البزار والطبراني والبيهقي.
(٢) هذا التصريح على طريق الترجي لا الجزم كما يوهمه المصنف. فعبارته: لعله قدم مرتين، أي جمعاً بين الروايات.
(٣) أي: حذيفة بن اليمان.

وتعقبه البيهقي وابن كثير: بأن المثبت مقدم على النافي، يعني من أثبت ربط البراق والصلاة في بيت المقدس معه زيادة علم على من نفى، فهو أولى بالقبول.

ووقع ذلك في رواية بريدة عند البزار: لما/ كان ليلة أسري به، ٢٣٠/ب فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشد بها البراق، ونحوه للترمذي.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيه، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين[1].

[الصلاة بالنبيين]

• وفي رواية ابن مسعود[2] نحوه، وزاد: ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم.

• وفي حديث ابن مسعود أيضاً ـ عند مسلم ـ: وحانت الصلاة فأممتهم.

• وفي حديث ابن عباس، عند أحمد: فلما أتى ﷺ الأقصى قام يصلي، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه.

---

(١) وفي بعض أحاديث الفقرة التالية ما يؤكد إثبات الربط أيضاً [م].

(٢) عند الحسن بن عرفة وأبي نعيم.

● وفي حديث أبي سعيد: ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل، فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله خاتم النبيين، قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة. ثم لقوا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم.

فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجعلها علي برداً وسلاماً.

ثم إن موسى عليه الصلاة والسلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، واصطفاني، وأنزل علي التوراة، وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم إن داود عليه الصلاة والسلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن معي والطير وآتاني الحكمة وفصل الخطاب.

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين، يعملون ما شئت من محاريب وتماثيل، وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والجن والطير، وآتاني ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل لي ملكاً طيباً ليس علي فيه حساب.

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي

جعلني كلمته، وجعلني مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلني أخلق [أي أسوي][1] من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم. فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

قال: وإن محمداً ﷺ أثنى على ربه فقال: كلكم أثنى على ربه وأنا أثني على ربي: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان، فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحاً وخاتماً.

فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد. ثم ذكر أنه عرج به إلى السماء الدنيا، ومن سماء إلى سماء. ذكره القاضي عياض في «الشفاء» مختصراً من حديث أبي هريرة من غير عزو[2].

ورواه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري، وهذا لفظه.

• وفي رواية ابن أبي حاتم في تفسيره، عن أنس: فلما بلغ بيت المقدس، فبلغ المكان الذي يقال له: باب محمد، أتى إلى الحجر الذي به، فغمز جبريل بأصبعه فنقبه، ثم ربطها، ثم صعدا[3]، فلما استويا

---

(١) في ط.

(٢) وقد أخرجه أبو يعلى والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي كلهم من حديث أبي هريرة.

(٣) أي مرا، قال الشارح: وإلا فلا معنى للصعود هنا، وأكثر النسخ بإسقاطها.

في سرحة[1] المسجد قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ قال: نعم، قال: فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن، قال: فسلمت عليهن فرددن علي/ السلام، فقلت لمن أنتن؟ فقلن: خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا[2]، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا، قال: ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً، حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، قال فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل عليه السلام فقدمني فصليت بهم، فلما انصرفت قال لي جبريل: أتدري من صلى خلفك؟ قلت: لا، قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله.

1/231

قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون ﷺ صلى بالأنبياء جميعاً في بيت المقدس، ثم صعد منهم من ذكر أنه ﷺ رآه في السماوات، ويحتمل أن يكون صلى بهم بعد أن هبط من السماء، فهبطوا أيضاً، والأظهر أن صلاته بهم في بيت المقدس كان قبل العروج. انتهى.

وقال ابن كثير: صلى بهم ببيت المقدس قبل العروج وبعده، فإن في الحديث ما يدل على ذلك، ولا مانع منه، انتهى.

[الكلام على هذه الصلاة]

وقد اختلف في هذه الصلاة، هل هي فرض أو نفل؟ وإذا قلنا إنها فرض، فأي صلاة هي؟

قال بعضهم: الأقرب أنها الصبح، ويحتمل أن تكون العشاء،

---

(١) أي فناء.

(٢) أي لم يصبهم درن وهو الوسخ.

وإنما يتأتى على قول من قال: إنه صلى بهم قبل عروجه إلى السماء، وأما على قول من قال: إنه صلى بهم بعد العروج فتكون الصبح.

قال ابن كثير: ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه، لأنه لما مرَّ بهم في منازلهم جعل يسأل جبريل عنهم واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، ثم قال: وهذا هو اللائق، لأنه أولاً كان مطلوباً إلى الجناب العلوي، ليفرض الله عليه وعلى أمته ما يشاء، ثم لما فرغ مما أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه عليهم بتقديمه في الإمامة.

[صفة المعراج]

وفي رواية ابن إسحاق: أنه ﷺ قال: لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أتي بالمعراج ولم أر قط شيئاً أحسن منه، وهو الذي يمد إليه الميت عينيه إذا احتضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء.

وفي رواية كعب: فوضعت له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب حتى عرج هو وجبريل.

وفي «شرف المصطفى» أنه أتي بالمعراج من جنة الفردوس، وأنه منضد عن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة.

وفي رواية أبي سعيد ـ عند البيهقي ـ ثم أتيت بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإن ذلك عجبه بالمعراج.

[لم يقل جبريل: أنا]

وقد تقدم في حديث البخاري السابق: فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قِيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم.

ولم يقل جبريل عليه السلام: أنا، حيث قيل له: من هذا؟ إنما سمى نفسه فقال: جبريل، لأن لفظ «أنا» فيه إشعار بالعظمة. وفي الكلام السائر: أول من قال «أنا» إبليس، فشقي، وأيضاً فقوله «أنا» مبهمة لافتقار الضمير إلى العود، فهي غير كافية في البيان.

وعلى هذا فينبغي للمستأذن إذا قيل له من أنت؟ أن لا يقول: «أنا»، بل يقول: فلان.

[استبشار أهل السماء]

وفي رواية للبخاري ومسلم: فعرج. وهو بفتح العين بمعنى صعد.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، وعليه ملك يقال له إسماعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك.

وفي رواية شريك ـ عند البخاري أيضاً ـ ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء الدنيا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء، لا يعلم

أهل السماء بما يريد الله به في/ الأرض حتى يعلمهم، أي على لسان ٢٣١/ب
من شاء كجبريل.

[ذكر الأنهار]

ووقع في هذه الرواية أنه رأى في سماء الدنيا النيل والفرات عنصرهما.

وظاهره يخالف حديث مالك بن صعصعة فإن فيه بعد ذكر سدرة المنتهى: فإذا في أصلها أربعة أنهار.

ويجمع بينهما: بأن أصل نبعهما من تحت سدرة المنتهى ومقرهما في السماء الدنيا، ومنها ينزلان إلى الأرض.

ووقع في هذه الرواية أيضاً: ثم مضى به في سماء الدنيا فإذا هو بنهر آخر، عليه قصور من لؤلؤ وزبرجد، وأنه الكوثر.

وهو مما استشكل من رواية شريك، فإن الكوثر من الجنة، والجنة فوق السماء السابعة. ويحتمل أن يكون تقديره: ثم مضى في السماء الدنيا إلى السابعة فإذا هو بنهر.

[فتح أبواب السماء]

ثم إن في قوله في الحديث «افتح» دلالة على أنه صادف أبواب السماء مغلقة، والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ التنويه بقدره ﷺ، وتحقيق أن السماوات لم تفتح أبوابها إلا من أجله، ولو وجدها مفتوحة لم يتحرر أنها فتحت لأجله، فلما فتحت له تحقق ﷺ أن المحل مصون، وأن فتحه له كرامة وتبجيل.

[معنى قوله: «أرسل إليه؟»]

وأما قوله في الحديث: «أرسل إليه؟» وفي رواية «بعث إليه؟» فيحتمل أن يكون استفهم عن الإرسال إليه للعروج إلى السماء، وهو الأظهر لقوله: «إليه» لأن أصل بعثته قد اشتهر في الملكوت الأعلى.

وقيل: سألوه تعجباً من نعمة الله عليه بذلك، واستبشاراً به، وقد علموا أن بشراً لا يترقى هذا الترقي إلا بإذن من الله تعالى، وأن جبريل لا يصعد إلا بمن أرسل إليه.

وقد قيل: إن الله تعالى أراد إطلاع نبيه على أنه معروف عند الملأ الأعلى، لأنهم قالوا: أبعث إليه؟ أو: أرسل إليه؟ فدل على أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سيقع له، وإلا لكانوا يقولون: ومن محمد مثلاً؟ ولذلك أجابوا بقولهم: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، وكلامهم بهذه الصيغة أول دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالته وتحقيق رسالته، ولأن هذا أجل ما يكون من حسن الخطاب والترفيع، على المعروف من عادة العرب.

وأما قوله: «من معك؟» فيشعر بأنهم أحسوا به ﷺ، وإلا لكان السؤال بلفظ: أمعك أحد؟ وهذا الإحساس إما بمشاهدة لكون السماء شفافة، وإما بأمر معنوي كزيادة أنوار ونحوها. قاله الحافظ ابن حجر.

ولعله أخذه من كلام العارف ابن أبي جمرة، حيث قال في «بهجته»: الثاني أن يكون سؤالهم له لما رأوا حين رأوا إقباله عليهم من زيادة الأنوار وغيرها من المآثر الحسان زيادة على ما يعهدونه منه. قال: وهذا هو الأظهر، كأنهم قالوا: من الشخص الذي من أجله هذه

الزيادة معك؟ فأخبرهم بما أرادوا وهو تعيين الشخص باسمه حتى عرفوه، انتهى.

وقد قال بعض العلماء: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[1] أنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة[2].

[قولهم: مرحباً به]

وأما قولهم له: «مرحباً به ولنعم المجيء جاء» فيحتمل أن يكونوا قالوه لما عاينوه من بركاته ﷺ التي سبقته للسماء مبشرة بقدومه. وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: جاء فنعم المجيء مجيئه، وإنما لم يقل الخازن: مرحباً بك، بصيغة الخطاب، بل قال بصيغة الغيبة لأنه حياه قبل أن يفتح الباب، وقبل أن يصدر من النبي ﷺ خطاب، ويحتمل أن يكون حياه بصيغة الغيبة تعظيماً له، لأن «هاء» الغيبة ربما كانت أفخم من كاف الخطاب.

[آدم وأعمال أبنائه]

وأما قوله في الحديث: (فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه/ وشماله نسم بنيه. فأهل 1/232

(1) سورة النجم، الآية ١٨.

(2) هذا القول لا يقبل إلا إذا كان هناك ما يؤيده من النصوص، وإلا فهو تفسير بالهوى. [م].

اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى).

فالأسودة: بوزن أزمنة، هي الأشخاص.

والنسم: ـ بالنون والسين المهملة المفتوحتين ـ جمع نسمة، وهي الروح.

وقد قال القاضي عياض: جاء أن أرواح الكفار في سجين، وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، يعني: فكيف تكون مجتمعة في سماء الدنيا؟

وأجاب: بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتاً، فوافق عرضها مرور النبي ﷺ، ويدل على كونهم في النار إنما هو في أوقات دون أوقات، قوله تعالى: ﴿**النار يعرضون عليها غدواً وعشياً**﴾[٢].

واعترض: بأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء، كما هو نص القرآن[٣].

والجواب: ما أبداه هو احتمال أن الجنة كانت في جهة يمين آدم، والنار في جهة شماله: وكان يكشف له عنهما، ولا يلزم من رؤية آدم لها ـ وهو في السماء ـ أن تفتح لهم أبواب السماء ولا تلجها.

وفي حديث أبي هريرة عند البزار: فإذا عن يمينه باب تخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب تخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر عن يمينه

---

(١) من رواية البخاري في كتاب الصلاة رقم الحديث ٣٤٩.

(٢) سورة غافر، الآية ٤٦.

(٣) في قوله تعالى: ﴿**إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء**﴾ سورة الأعراف الآية/ ٤٠.

استبشر، وإذا نظر عن شماله حزن. وهذا - لو صح - لكان المصير إليه أولى من جميع ما تقدم، ولكن سنده ضعيف. قاله الحافظ ابن حجر.

[الجمع بين الروايات بشأن مكان الأنبياء]

وأما قوله في الحديث: (ثم صعد بي، حتى أتى السماء الثانية، فقيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصنا إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت عليهما فردا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. إلى قوله: ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام وقال مرحباً بالابن الصالح)[1].

فهذه الرواية موافقة لرواية ثابت عن أنس عند مسلم[2]: أن في السماء الأولى؛ آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم.

وخالف في ذلك ابن شهاب الزهري في روايته عن أنس عن أبي

---

(١) من رواية البخاري برقم ٣٨٨٧.

(٢) في صحيح مسلم، كتاب الإيمان رقم الحديث ٢٥٩.

ذر ـ كما في أول الصلاة من البخاري[1] أيضاً ـ أنه لم يثبت كيف منازلهم. وقال فيه: وابراهيم في السماء السادسة.

وفي رواية شريك[2] عن أنس أن إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وابراهيم في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله[3]. وسياقه يدل على أنه لم يضبط منازلهم كما صرح به الزهري.

ورواية من ضبط أولى، ولا سيما في اتفاق قتادة وثابت، وقد وافقهما يزيد بن أبي مالك عن أنس، إلا أنه خالف في إدريس وهارون، فقال: هارون في الرابعة، وإدريس في الخامسة.

ووافقهم أبو سعيد إلا أن في روايته: يوسف في الثانية، وعيسى ويحيى في الثالثة.

والمشهور في الروايات: أن الذي في السابعة هو إبراهيم، وأكد ذلك في حديث مالك بن صعصعة: بأنه كان مسنداً ظهره إلى البيت المعمور.

فمع التعدد[4]: لا إشكال.

ومع الاتحاد فقد جمع: بأن موسى كان حالة العروج في السادسة وإبراهيم في السابعة على ظاهر حديث مالك بن صعصعة. وعند الهبوط: كان موسى في السابعة، لأنه لم يذكر في القصة أن إبراهيم كلمه في شيء مما يتعلق بما فرض على أمته من الصلاة، كما كلمه

---

(١) عند البخاري برقم ٣٤٩.

(٢) عند البخاري برقم ٧٥١٧.

(٣) أي بسبب تفضيل موسى بكلام الله تعالى له. [المحقق].

(٤) أي تعدد المعراج.

موسى عليه السلام، والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة/ ٢٣٢/ب الهبوط، فناسب أن يكون موسى بها، لأنه هو الذي خاطبه في ذلك، كما ثبت في جميع الروايات.

ويحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأصعد معه إلى السابعة تفضيلاً له على غيره من أجل كلام الله تعالى، وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة. قاله في فتح الباري. وقال: إن النووي أشار إلى شيء من ذلك.

[مكانة موسى عليه السلام]

وفي رواية شريك عن أنس في قصة موسى: (لم أظن أن أحداً يرفع علي).

قال ابن بطال: فهم موسى عليه السلام من اختصاصه بكلام الله تعالى له في الدنيا دون غيره من البشر: لقوله تعالى: **﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾**[1] أن المراد بالناس هنا: البشر كلهم، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحد، فلما فضل الله تعالى محمداً ﷺ بما أعطاه من المقام المحمود وغيره، ارتفع على موسى وغيره بذلك.

وفي حديث أبي سعيد قال موسى: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله، وهذا أكرم على الله مني. زاد الأموي في روايته: ولو كان هذا وحده هان، ولكن معه أمته، وهم أفضل الأمم عند الله.

وفي حديث مالك بن صعصعة: (فلما جاوزته - يعني موسى -

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٤.

بكى، فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب، هذا غلام بعثته بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي).

ولم يكن بكاء موسى حسداً، معاذ الله، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع من آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى، بل كان آسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجات له بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم، المستلزمة لتنقيص أجره، لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ، مع طول مدتهم بالنسبة لمدة هذه الأمة.

وقال العارف ابن أبي جمرة: قد جعل الله تعالى في قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الرأفة والرحمة لأمتهم، وركبهم على ذلك، وقد بكى نبينا ﷺ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء[1]، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أخذوا من رحمة الله أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم، فلأجل ما كان لموسى عليه السلام من الرحمة واللطف بكى إذ ذاك رحمة منه لأمته، لأن هذا وقت إفضال وجود وكرم، فرجا لعل أن يكون وقت القبول والإفضال فيرحم الله أمته ببركة هذه الساعة.

فإن قال قائل: كيف يكون هذا، وأمته لا تخلو عن قسمين: قسم مات على الإيمان، وقسم مات على الكفر، فالذي مات على الإيمان لا بد له من دخول الجنة، والذي مات على الكفر لم[2] يدخل

---

(١) رواه الشيخان عن أسامة.

(٢) كذا في النسخ، وفي ش: لا.

الجنة أبداً، فبكاؤه لأجل ما ذكر لا يسوغ، لأن الحكم فيهم قد مرَّ ونفذ.

قيل: إن الله تعالى قدر قدره على قسمين، فقدر قدراً وقدر أن ينفَذ على كل الأحوال، وقدر قدراً وقدر أن لا ينفذ، ويكون رفعه بسبب دعاء أو صدقة أو غير ذلك، فلأجل ما ركب في موسى عليه السلام من اللطف والرحمة بالأمة طمع لعل أن يكون ما اتفق لأمته من القدر الذي قدره الله تعالى وقدر ارتفاعه بسبب الدعاء والتضرع إليه، وهذا وقت يرجى فيه التعطف والإحسان من الله تعالى، لأنه وقت أسري فيه بالحبيب الكريم، ليخلع عليه خلع القرب والفضل الجسيم، فطمع الكليم لعل أن يلحق لأمته من هذا الخير العظيم نصيباً. وقد قال نبينا ﷺ: إن لله نفحات فتعرضوا لنفحات الله[1]. وهذه نفحة من النفحات فتعرض لها موسى، فكان أمراً[2] قد قدر، والأسباب لا تؤثر إلا بما سبقت القدرة بأنها فيه/ تؤثر، وما كان قضاء نافذاً لا تؤثر فيه ولا ترده الأسباب، حتم قد لزم. 1/233

وفي بكائه عليه السلام وجه آخر، وهو البشارة لنبينا ﷺ وإدخال السرور عليه، وذلك قول موسى عليه السلام ـ الذي هو أكثر الأنبياء أتباعاً ـ: إن الذين يدخلون الجنة من أمة محمد ﷺ أكثر مما يدخلها من أمتي.

---

(١) جاء في الحديث (اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله نفحات تصيب من يشاء من عباده) أخرجه البيهقي من حديث أنس وأبي هريرة.

(٢) كذا في (ط، ش) وفي النسخ أمر.

[وصفه ﷺ بـ(الغلام)]

وأما قول موسى عليه السلام: (لأن غلاماً) ولم يقل غير ذلك من الصيغ، فإشارة إلى صغر سنه بالنسبة إليه.

وفي القاموس: الغلام: الطار الشارب، والكهل ضده.

وقال الخطابي: العرب تسمي الرجل المستجمع السن غلاماً، ما دامت فيه بقية من القوة.

قال في فتح الباري: ويظهر لي أن موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في أول سن الشيخوخة، ولم يدخل على بدنه هرم، ولا اعتراه في قوته نقص، حتى إن الناس في قدومه المدينة لما رأوه مردفاً أبا بكر، أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ، مع كونه في العمر أسن من أبي بكر والله أعلم. وقد ذكرت ذلك في الهجرة من المقصد الأول.

[جمال يوسف عليه السلام]

وقد وقع في حديث أبي هريرة عند الطبراني في ذكر إبراهيم: فإذا هو برجل أشمط[1] جالس عند باب الجنة على كرسي.

وفي رواية مسلم من حديث ثابت عن أنس: ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، وفيه: فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن.

---

(١) أبيض الرأس يخالطه سواده.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وأبي هريرة عند الطبراني: فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله: قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

وهذا ظاهره أن يوسف عليه السلام كان أحسن من جميع الناس، لكن روى الترمذي من حديث أنس: ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً. فعلى هذا يحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي ﷺ. ويؤيده قول من قال: إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه.

وحمل ابن المنير حديث الباب على أن المراد: أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا ﷺ.

[هل كان إدريس جداً له ﷺ؟]

وأما قوله في الحديث عن إدريس: ثم قال: (مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح) فيحمل على أخوة النبوة والإسلام، لأنها تجمع الوالد والولد، وقال ابن المنير: وفي طريق شاذة: مرحباً بالابن الصالح، وهذه هي القياس، لأنه جده الأعلى.

وقيل: إن إدريس الذي لقيه ليس هو الجد المشهور، ولكنه إلياس، فإن كان كذلك ارتفع الإشكال.

[حكمة كون بعض الأنبياء في السماء]

فإن قلت: لم كان هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في السماوات دون غيرهم من الأنبياء؟

وما وجه اختصاص كل واحد منهم بسماء تخصه؟

ولم كان في السماء الثانية بخصوصها اثنان؟

أجيب[1] عن الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء، بأنهم أمروا بملاقات نبينا ﷺ، فمنهم من أدركه في أول وهلة، ومنهم من تأخر فلحقه، ومنهم من فاته.

وقيل: إشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه، من نظير ما وقع لكل منهم:

فأما آدم عليه السلام فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض، بما سيقع لنبينا ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة، وكراهة فراق ما ألفه من الوطن، ثم كان عاقبة كل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه.

وبعيسى ويحيى ـ عليهما السلام ـ على ما وقع له أول الهجرة من عداوة اليهود وتماديهم على البغي عليه، وإرادتهم السوء به. / ٢٣٣/ب

وبيوسف، بما وقع له من إخوته على ما وقع لنبينا ﷺ من قريش، من نصبهم الحرب له، وإرادتهم إهلاكه، وكانت العاقبة له، وقد أشار ﷺ إلى ذلك يوم الفتح بقوله لقريش: أقول لكم كما قال يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء، أي العتقاء.

وبإدريس على رفيع منزلته عند الله تعالى.

وبهارون على أن قومه رجعوا إلى محبته بعد أن آذوه.

---

(١) يلاحظ في هذه الإجابات أنها غير معقولة، وترك هذه الأمور والتسليم بها أولى طالما أنه لا يوجد نص في ذلك [م].

وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه، وقد أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر.

وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور بما ختم له ﷺ في آخر عمره من إقامة مناسك الحج، وتعظيم البيت الحرام.

وأجاب العارف ابن أبي جمرة عن وجه اختصاص كل واحد منم بسماء:

بأن الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء، وأول الآباء، وهو الأصل، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة.

وأما عيسى فإنما كان في السماء الثانية لأنه أقرب الأنبياء إلى النبي ﷺ، ولا انمحت شريعة عيسى عليه السلام إلا بشريعة محمد ﷺ، ولأنه ينزل في آخر الزمان لأمة محمد ﷺ على شريعته ويحكم بها، ولهذا قال ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى[١] فكان في الثانية لأجل هذا المعنى.

وإنما كان يحيى عليه السلام معه هناك لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد، فلأجل التزام أحدهما بالآخر كانا هناك معاً.

وإنما كان يوسف عليه السلام في السماء الثالثة لأن على حسنه تدخل أمة محمد ﷺ الجنة، فأري له هناك لكي يكون ذلك بشارة له ﷺ فيسر بذلك.

وإنما كان إدريس عليه السلام في السماء الرابعة لأنه هناك توفي ولم تكن له تربة في الأرض على ما ذكر[٢].

---

(١) الحديث في الصحيحين وغيرهما.

(٢) هذا مروي عن كعب الأحبار، قال الحافظ: إن هذا من الإسرائيليات، =

وإنما كان هارون عليه السلام في السماء الخامسة لأنه ملازم لموسى عليه السلام، لأجل أنه أخوه وخليفته في قومه، فكان هناك لأجل هذا المعنى. وإنما لم يكن مع موسى في السماء السادسة لأن لموسى مزية وحرمة وهي كونه كليماً، واختص بأشياء لم تكن لهارون فلأجل هذا المعنى لم يكن معه في السادسة.

وإنما كان موسى عليه السلام في السماء السادسة لأجل ما اختص به من الفضائل، ولأنه الكليم، وهو أكثر الأنبياء أتباعاً بعد نبينا ﷺ.

وإنما كان إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة لأنه الخليل والأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بلقياه أنس، لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وهو اختراق الحجب، وأيضاً لأنه الخليل، ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب، والحبيب هاهو قد علا ذلك المقام فكان الخليل فوق الكل لأجل خلته وفضله، وارتفع الحبيب فوق الكل لأجل ما اختص به بما زاد به عليهم، قال الله تعالى: **﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾**[1] فحصل لهم الكمال والدرجة الرفيعة وهي درجة الرسالة والنبوة، ورفعوا بعضهم فوق بعض بمقتضى الحكمة ترفيعاً للمرفوع دون تنقيص بالمنزول. انتهى فليتأمل.

[كيفية رؤيته ﷺ للأنبياء]

وقد اختلف في رؤية نبينا ﷺ لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام،

= والله أعلم بصحته وإن رفع إدريس وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة قوية.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

فحمله بعضهم على رؤية أرواحهم إلا عيسى، لما ثبت من رفع جسده. وقد قيل في إدريس أيضاً ذلك.

وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس، فيحتمل، الأرواح خاصة، ويحتمل: الأجساد بأرواحها.

وقيل: يحتمل أن يكون ﷺ عاين كل واحد منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي ذكر أنه عاينه فيه، فيكون الله عز وجل قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك، ويشهد له رؤيته ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط/ وهو محتمل ١/٢٣٤ لأن يكون ﷺ رآهما في ذلك الموضع أو مثل له صورتهما في عرض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما.

وقيل: يحتمل أن يكون الله سبحانه وتعالى لما أراد بإسراء نبينا ﷺ، رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبيه ﷺ وتعظيماً له حتى يحصل له من قبلهم ما أشرنا إليه من الأنس والبشارة، وغير ذلك مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن.

وكل هذه الوجوه محتمل، ولا ترجيح لأحدها على الآخر إذ القدرة صالحة لكل ذلك. انتهى.

[الأنهار المشاهدة ليلة الإسراء]

وأما قوله في الحديث: (ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: وما هذا يا جبريل: قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات)

وفي رواية عند البخاري أيضاً: (فإذا في أصلها - أي سدرة المنتهى - أربعة أنهار).

وعند مسلم: (يخرج من أصلها)

وعنده أيضاً من حديث أبي هريرة: (أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان)

فيحتمل: أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من أصلها، فيصح أنها من الجنة.

ووقع في حديث شريك، كما عند البخاري في التوحيد: أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان، فقال له جبريل: هما النيل والفرات عنصرهما.

والجمع بينهما: أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نهري الجنة، وأراد بـ«العنصر» عنصر انتشارهما بسماء الدنيا، كذا قاله ابن دحية.

ووقع في حديث شريك أيضاً: (ومضى به إلى السماء، وإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك)[1].

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أنه ﷺ بعد أن رأى إبراهيم قال: ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى إلى نهر عليه جام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر، أنعم طير رأيت، قال جبريل: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا فيه آنية الذهب

(١) هذه الفقرة من قوله: «ووقع في حديث شريك أيضاً» في الأصل فقط.

والفضة يجري على رضراض من الياقوت والزمر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، قال: فأخذت من آنيته فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: فإذا فيها عين تجري يقال لها السلسبيل، فينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، والآخر يقال له نهر الرحمة. وسيأتي مزيد لما ذكر هنا من الكوثر في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى.

[سدرة المنتهى]

وقد وقع في حديث ثابت عن أنس عند مسلم: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها).

وقد جاء في حديث ابن مسعود عند مسلم أيضاً بيان سبب تسميتها بـ«سدرة المنتهى»، ولفظه: (لما أسري برسول الله ﷺ قال: انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها).

وهو معنى قول ابن أبي جمرة: لأن إليها تنتهي الأعمال، ومن هناك ينزل الأمر والنهي وتتلقى الأحكام، وعندها تقف الحفظة وغيرهم لا يتعدونها، فكانت منتهى، لأن إليها ينتهي ما يصعد من السفلي، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العلي.

وقال النووي: لأن علم الملائكة ينتهي إليها. ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ.

ولا يعارض قوله في حديث ابن مسعود هذا، أنها في السادسة، ما دل عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن/ دخل في السماء السابعة، لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، قاله في فتح الباري.

٢٣٤/ب

وجاء في حديث أبي ذر عند البخاري في الصلاة: (فغشيها ألوان لا أدري ما هي).

وفي حديث ابن مسعود، المذكور عند مسلم، (قال الله تعالى: إذ يغشى السدرة ما يغشى، قال: فراش من ذهب).

وفي حديث يزيد بن أبي مالك عن أنس (جراد من ذهب).

قال البيضاوي: وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل، لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب حقيقة، والقدرة صالحة لذلك.

وفي حديث أبي سعيد وابن عباس (فغشيها الملائكة).

وفي حديث علي (وعلى كل ورقة منها ملك).

وفي رواية ثابت عن أنس عند مسلم (فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها).

وفي رواية حميد عن أنس عند ابن مردويه: نحوه لكن قال: تحولت ياقوتاً، ونحو ذلك.

قال ابن دحية: واختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل مديد وطعم لذيذ، ورائحة زكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول.

وقال العارف ابن أبي جمرة: وهل الشجرة مغروسة في شيء أم لا؟ يحتمل الوجهين معاً، لأن القدرة صالحة لكليهما. فكما جعل الله في هذه الدار الأرض مقراً للشجر، كذلك يجعل الهواء لتلك مقراً، وكما رجع ﷺ يمشي في الهواء كما كان يمشي في الأرض، ولأن بالقدرة استقرت الأرض مع أنها على الماء، فلا مانع من أن تكون الشجرة في الهواء، ويحتمل أن تكون مغروسة بأرض، وأن تكون من تراب الجنة، والله قادر على ما يشاء.

[كان عرض الآنية مرتين]

وأما قوله ﷺ في الحديث: (ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها).

فيدل على أنه عرض عليه الآنية مرتين، مرة ببيت المقدس، ومرة عند وصوله سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة.

وأما الاختلاف في عدد الآنية وما فيها، فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، ومجموعها أربعة أوانٍ، فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى.

ووقع في حديث أبي هريرة عند الطبري: سدرة المنتهى يخرج

من أصلها أنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى.

فلعله عرض عليه من كل نهر إناء.

وجاء عن كعب[1]: أن نهر العسل نهر النيل، ونهر اللبن نهر جيحان، ونهر الخمر نهر الفرات، ونهر الماء نهر سيحان.

ولنهر النيل فضائل ولطائف أفردها بالتأليف غير واحد من الأئمة.

ووقع في بعض الطرق: أنه ﷺ صلى بالأنبياء في السماوات[2].

[البيت المعمور]

وأما قوله ﷺ في الحديث: (ثم رفع إلي البيت المعمور)

فمعناه أنه أري له، وقد يحتمل أن يكون المراد الرفع[3] والرؤية معاً، لأنه قد يكون بينه وبين البيت المعمور عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرفع إليه وأمد في بصره وبصيرته حتى رآه.

وروى الطبري من حديث ابن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: البيت المعمور مسجد في السماء بحذاء الكعبة لو خرَّ لخرَّ عليها، يدخله سبعون ألف ملك كل يوم، إذا خرجوا منه لم يعودوا.

---

(١) عند البيهقي وغيره.

(٢) قدم المصنف عن ابن كثير ما حاصله أن هذا لم يصح، والذي تظاهرت به الروايات أنه إنما أمهم في بيت المقدس.

(٣) كذا في (د)، وفي (ا، ش): الرفوع، وفي (ب، ط): المرفوع، قال الشارح: صوابه الرفع.

وفي هذا دليل عظيم على قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء ممكن، لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق الله تعالى الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبداً. ومع أنه قد روي أنه ليس في السماوات ولا في الأرض موضع شبر إلا وملك واضع جبهته/ هناك ساجداً، ثم البحار ما من قطرة ١/٢٣٥ إلا وبها ملك موكل، فإذا كانت السماوات والأرض والبحار هكذا، فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون؟ هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء.

وفي هذا دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه إذا كان سبعون ألف ملك كل يوم تصلي في البيت المعمور على ما تقدم، ثم لا يعودون، مع أن الملائكة في السماوات والأرض والبحار[١].

[أحاديث ضعيفة]

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه وابن أبي حاتم: أن في السماء نهراً يقال له: الحيوان، يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه، ثم يخرج فينتفض، فيخرج منه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً، فهم الذين يصلون فيه، أي في البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه. وإسناده ضعيف[٢].

وذكر الإمام فخر الدين الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويخلق

(١) حذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه، وتقديره: لزم أن تكون الملائكة أكثر من جميع المخلوقات.

(٢) قال الحافظ عبد الغني: منكر لا أصل له، قاله في اللآلى المصنوعة [م].

ما لا تعلمون﴾[1] أنه روى عن عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال: إن عن يمين العرش نهراً من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة، يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيه، فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله، ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة.

وقد روي أن ثم ملائكة يسبحون الله تعالى، فيخلق الله بكل تسبيحة ملكاً.

هذا ما عدا الملائكة التي للتعبد، وما عدا الملائكة الموكلين بالنبات والأرزاق، والحفظة، والملك الموكل بتصوير ابن آدم، والملائكة الذين ينزلون في السحاب، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وخزنة الجنة، والملائكة الذين يتعاقبون، والذين يؤمنون على قراءة المصلي، والذين يقولون: ربنا ولك الحمد، والذين يدعون لمنتظر الصلاة، والذين يلعنون من هجرت فراش زوجها.

وروي[2] أن في السماء الدنيا - وهي من ماء ودخان - ملائكة خلقوا من ماء وريح عليهم ملك يقال له الرعد، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت.

---

(١) سورة النحل، الآية ٨.

(٢) هكذا لم يعزه المصنف وكذا الشارح، وهو حديث موضوع ينسب إلى ابن عباس كذباً. وكنا نتمنى أن المصنف لم يذكره. وقد مضت فقرات منه أشار الشارح إلى وضعها. ومن المعلوم أن هذه القضايا - أي الغيبيات - هي قضايا اعتقادية لا يقبل فيها الحديث الضعيف فضلاً عن الموضوع. بل ذهب بعضهم إلى عدم قبول الصحيح إلا إذا كان متواتراً في شأن الاعتقاد. [م].

وأن في الثانية ملائكة على ألوان شتى، رافعين أصواتهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وأن فيها ملكاً نصف جسده من نار ونصف جسده من ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفئ النار، وهو يقول: يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين.

وأن في الثالثة - وهي من حديد - ملائكة ذوي أجنحة شتى ووجوه شتى وأصوات شتى، رافعي أصواتهم بالتسبيح يقولون: سبحانك أنت الحي الذي لا يموت، وهم صفوف قيام، كأنهم بنيان مرصوص، لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية الله.

وأن في السماء الرابعة - وهي من نحاس - ملائكة يضعفون على ملائكة الثالثة، وكذلك كل سماء أكثر عدداً من التي تليها، وأن ملائكة السماء الرابعة قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة، يبعث الله الملك منهم إلى أمر من أموره، فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي إلى جنبه من شدة العبادة وهم يقولون: سبوح قدوس، ربنا الرحمن الذي لا إله إلا هو.

وأن في الخامسة - وهي من فضة - ملائكة يزيدون على ملائكة الأربع سماوات، وهم سجود وركوع لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قالوا: ربنا، لم نعبدك حق عبادتك.

وأن في السماء السادسة - وهي من ذهب - جند الله الأعظم الكروبيون، لا يحصر عددهم إلا الله تعالى، وعليهم ملك له سبعون ألف ملك جنده، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك، وهم الذين يبعثهم الله في أموره إلى أهل الدنيا، رافعو أصواتهم بالتسبيح والتهليل.

وأن في السابعة ـ وهي ياقوتة حمراء ـ من الملائكة ما يزيدون على ما تقدم، وعليهم ملك مقدم/ على سبعمائة ألف ملك، منهم جنود مثل قطر السماء، وتراب الثرى والرمل والسهل، وعدد الحصى والورق، وعدد كل خلق في السماوات والأرض، ويخلق الله تعالى في كل يوم ما يشاء، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

٢٣٥/ب

وأن حملة العرش ثمانية يتجاوبون، لكل ملك منهم وجوه شتى وأعين شتى في جسده، لا يشبه بعضها بعضاً، رافعة أصواتهم بالتهليل، ينظرون إلى العرش لا يفترون، لو أن الملك منهم نشر جناحيه لطبق الدنيا بريشة من جناحه، لا يعلم عددهم إلا الله.

وحملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم، تقول أربعة منهم: سبحانك اللهم وبحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول أربعة: سبحانك اللهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك.

[روايات أخرى عن الملائكة]

وقد روى الطبراني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: على أي شيء أنت؟ قال على الريح والجنود، قال: وعلى أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر، قال: وعلى أي شيء ملك الموت؟ قال: على قبض الأرواح، الحديث، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وقد ضعف لسوء حفظه ولم يترك.

وروى الترمذي[1] من حديث أبي سعيد مرفوعاً: وزيراي من أهل السماء: جبريل وميكائيل الحديث.

(١) قال الشارح: بإسناد صحيح والحاكم وصححه.

وروى النقاش أن إسرافيل أول من سجد من الملائكة، وأنه جوزي بولاية اللوح المحفوظ.

وفي كتاب «العظمة» لأبي الشيخ ابن حيَّان من ذلك العجب العجاب، وعندي منه الجزء الثاني.

[روايات أخرى في الإسراء]

وقد وقعت في غير رواية البخاري هنا زيادات:

فمنها ما وقع في رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي في دلائله: ثم صعدت إلى السماء السابعة فإذا إبراهيم الخليل ساند ظهره إلى البيت المعمور، كأحسن الرجال، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي، وإذا بأمتي شطرين، شطر عليهم ثياب بيض كأنهم القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمدة، قال: فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدة، فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور.

وفي رواية الطبراني: فإذا هو برجل أشمط[1] جالس على باب الجنة على كرسي، وعنده قوم بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه وخرجوا وقد خلصت ألوانهم وصارت مثل ألوان البيض الوجوه، فقال: من هذا ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها

---

(١) أبيض شعر الرأس يخالطه سواده.

وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء النفر الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب الله عليهم، وأما الأنهار، فأولها رحمة، والثانية نعمة الله، والثالث وسقاهم ربهم شراباً طهوراً.

[سماع صريف الأقلام]

وفي رواية البخاري في الصلاة (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام) الحديث.

والمستوى: المصعد.

وصريف الأقلام: ـ بفتح الصاد المهملة ـ تصويتها حالة الكتابة.

والمراد: ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى. والقدر المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة، وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ فرغ من كتابته، وجف القلم بما فيه قبل خلق السماوات والأرض، وإنما هذه الكتابة في صحف الملائكة كالفروع المنتسخة من الأصل، وفيها الإثبات والمحو على ما ذكر في الآية.

وذكر ابن القيم: أن الأقلام اثنا عشر قلماً، وأنها متفاوتة في الرتب:

فأعلاها وأجلها قدراً، قلم القدر السابق، الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود، عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ / يقول: إن أول ما خلق الله تعالى القلم، قال له: اكتب، قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء

١/٢٣٦

حتى تقوم الساعة. فهذا أول قلم وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

والقلم الثاني: قلم الوحي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله.

والرابع: قلم طب الأبدان الذي تحفظ به صحتها.

والخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وبه تساس الممالك.

والسادس: قلم الحساب، وهو الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصرفها[1] ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق.

والسابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا.

والثامن: قلم الشهادة الذي تحفظ به الحقوق.

والتاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره.

والعاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه.

والحادي عشر: قلم اللغة وتفاصيلها.

والثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ودفع شبه المحرفين.

فهذه الأقلام التي بها انتظام مصالح العالم. قال: ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأنه تعالى أقسم به في كتابه. انتهى ملخصاً من كتاب «أقسام القرآن».

---

(١) في (أ، د): مصروفها.

[وصف الجنة]

وقد وقع في رواية أبي ذر عند مسلم وغيره من الزيادة أيضاً: (ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك) الحديث.

والجنابذ: ـ بالجيم ثم النون المفتوحتين ثم ألف ثم موحدة ثم ذال معجمة ـ هي القباب. ويؤيده ما في «التفسير» من البخاري من حديث قتادة عن أنس: (لما عرج به ﷺ قال: أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ. وأما ما في «كتاب الصلاة» من البخاري (وإذا فيها حبائل اللؤلؤ) ـ بالمهملة والموحدة وآخره لام ـ فقال القاضي عياض وغيره: هو تصحيف.

وفي حديث الإمام أحمد من رواية حذيفة: (فتحت لهما أبواب السماء، قال: فرأيت الجنة والنار).

وفي حديث أبي سعيد[1]: أنه عرضت عليه الجنة، وأن رمانها كأنه الدلاء، وإذا طيرها كأنه البخت[2]، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها.

ووقع عند مسلم من طريق همام عن قتادة عن أنس: (بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر.

وفي رواية أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه: أن إبراهيم عليه السلام قال للنبي ﷺ يا بني، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك

---

(١) عند البيهقي وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) نوع من الإبل.

آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك في أمتك فافعل[1].

ووقع في حديث أبي سعيد الخدري، عند البيهقي: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تغطي هذه الأمة، وإذا فيها عين تجري يقال لها: السلسبيل، فيشق منها نهران، أحدهما الكوثر، والآخر يقال له: الرحمة، فاغتسلت فيه فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، ثم رفعت إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لزيد بن حارثة. وفيه: فإذا رمانها أنه الدلاء عظماً، ثم عرضت علي النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أغلقت دوني.

وفي الطبراني من حديث عائشة: لما كان[2] ليلة أسري بي إلى السماء، أدخلت الجنة، فوقفت على شجرة من أشجار الجنة لم أر في الجنة أحسن منها، ولا أبيض منها، ولا أطيب منها ثمرة، فتناولت ثمرة من ثمارها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة. وهو حديث ضعيف[3]. وفيه التصريح بأن الإسراء كان قبل ولادة فاطمة، وهي ولدت قبل النبوة بسبع سنين وشيء، ولا ريب أن/ الإسراء كان بعد النبوة. ٢٣٦/ب

---

(١) هذا الحديث ساقه الشامي في قصة الإسراء. وفيه أن لقاءه بإبراهيم كان في بيت المقدس لا كما أوهمه المصنف.

(٢) في (ب) كانت، وكان هنا تامة بمعنى حصل.

(٣) بل هو موضوع كما قال الذهبي والحافظ وابن الجوزي.

[حديثان موضوعان؟!]

وذكر أبو الحسن بن غالب، فيما تكلم فيه على أحاديث الحجب السبعين والسبعمائة والسبعين ألف حجاب وعزاها لأبي الربيع بن سبع في شفاء الصدور من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر مبدأ حديث الإسراء، كما ورد في الأمهات:

أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربي، إلى أن انتهى إلى مقام ثم وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل، في مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور، فقال النبي ﷺ: يا جبريل، هل لك من حاجة؟ قال: يا محمد، سل الله أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه، قال النبي ﷺ: ثم زج بي في النور زجاً، فخرق بي إلى السبعين ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه حجاباً، وانقطع عني حس كل إنسي وملك، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف إن ربك يصلي، فبينا أنا أتفكر في ذلك فأقول: هل سبقني أبو بكر؟ فإذا النداء من العلي الأعلى، ادن يا خير البرية، ادن يا أحمد، ادن يا محمد، ليدنو[1] الحبيب، فأدناني ربي حتى كنت كما قال تعالى: ﴿**ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾[2] قال: وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي ـ بلا تكييف ولا تحديد ـ فوجدت بردها بين ثديي، فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلمني علوماً شتى، فعلم أخذ علي كتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيرني فيه، وعلمني القرآن فكان جبريل عليه السلام يذكرني به، وعلم أمرني

---

(١) كذا في النسخ، وفي ش: ليدن، وهو الصواب.

(٢) سورة النجم، الآية ٩.

بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي. ولقد عاجلت جبريل عليه السلام في آية نزل بها علي، فعاتبني ربي وأنزل علي **﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾**[١]، ثم قلت: اللهم إنه لما لحقني استيحاش قبل قدومي عليك سمعت منادياً ينادي بلغة تشبه لغة أبي بكر فقال لي: قف[٢] إن ربك يصلي، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر إلى المقام؟ وإن ربي لغني عن أن يصلي، فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلي لأحد، وإنما أقول: سبحاني سبحاني، سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمد: **﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾**[٣] فصلاتي رحمة لك ولأمتك، وأما أمر صاحبك يا محمد، فإن أخاك موسى كان أنسه بالعصا، فلما أردنا كلامه قلنا: **﴿وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي﴾**[٤]، وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة. وكذلك أنت يا محمد، لما كان أنسك بصاحبك أبي بكر وأنك خلقت أنت وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خلقنا ملكاً على صورته يناديك بلغته ليزول عنك الاستيحاش، فلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك. ثم قال الله تعالى: وأين حاجة جبريل؟ فقلت: اللهم إنك أعلم، فقال: يا محمد، قد أجبته فيما سأل، ولكن فيمن أحبك وصحبك[٥].

---

(١) سورة طه، الآية ١١٤.

(٢) في ط: قف مكانك.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

(٤) سورة طه، الآية ١٨.

(٥) قال في «أسنى المطالب» حديث: قف إن ربك يصلي، باطل. وتبرأ منه المصنف بعد الرواية الثانية.

وفي رواية: فتقدمت وجبريل على أثري، حتى انتهى بي إلى حجاب فراش الذهب فحرك الحجاب، فقيل من هذا؟ قال: أنا جبريل ومعي محمد ﷺ فقال الملك: الله أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني فوضعني بين يديه في أسرع من طرفة عين، وغلظ الحجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلق بي الملك في أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللؤلؤ، فحرك الحجاب، فقال الملك من وراء الحجاب: من هذا؟ فقال أنا فلان صاحب حجاب الذهب، وهذا محمد ﷺ رسول رب العزة معي، فقال: الله أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب/ فاحتملني حتى وضعني بين يديه، فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب، حتى جاوزت سبعين حجاباً، غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلق بي الملك، ثم دلي لي رفرف أخضر يغلب ضوؤه ضوء الشمس، فالتمع بصري، ووضعت على ذلك الرفرف، ثم احتملت حتى وصلت إلى العرش، فأبصرت أمراً عظيماً لا تناله الألسن، ثم دلي لي قطرة من العرش، فوقعت على لساني، فما ذاق الذائقون شيئاً قط أحلى منها، فأنبأني الله بها نبأ الأولين والآخرين، ونور قلبي، وغشي نور عرشه بصري فلم أر شيئاً فجعلت أرى بقلبي ولا أرى بعيني، ورأيت من خلفي ومن بين كتفي، كما رأيت أمامي، الحديث.

1/237

رواه والذي قبله في كتاب «شفاء الصدور» كما ذكره ابن غالب والعهدة عليه في ذلك[1].

---

(١) قال الشامي بعد نقل كلام المصنف: وهو كذب بلا شك.

[الحجب ومعناها]

وتكثير الحجب لم يرد في طريق صحيح، ولم يصح في ذلك غير ما في مسلم: (حجابه النور)[1].

والرفرف: البساط، وقيل إنه في الأصل ما كان من الديباج وغيره رقيقاً حسن الصنعة ثم اتسع فيه.

واعلم أن ما ذكر في هذا المحل الرفيع من الحجب فهو في حق المخلوق، لا في حق الخالق عز وجل، والله سبحانه وتعالى منزه عما يحجب، إذ الحجب إنما تحيط بمقدر محسوس، فالخلق كلهم محجوبون عنه تعالى بمعاني الأسماء والصفات والأفعال، وسائر المخلوقات من معاني الأنوار والظلمات كل له مقام من الحجب معلوم، وحظ من الإدراك والمعرفة مقسوم، وأقرب الخلق إلى الله تعالى الملائكة الحافون[2] والكروبيون، وهم محجوبون بنور المهابة والعظمة والكبرياء والجلال والقدس والقيومية، حجب الذات بالصفات. وهم في الحجب عنه على طبقات مختلفات، كل على مقام معلوم ودرجات.

وبالجملة، فالمخلوقات كلها ما كانت حجاباً[3] عن الخالق؟ فقوم حجبوا برؤية النعم عن المنعم، وبرؤية الأحوال عن المحول، وبرؤية الأسباب عن المسبب، وقوم حجبوا بالعلم عن المعلم وبالفهم عن المفهم، وبالعقل عن المعقل، وذلك كله من معنى حجاب النعم عن المنعم، والمواهب عن الواهب.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٢٩٣.

(٢) في ط: المحافون. والحافون: أي بالعرش.

(٣) كذا في النسخ وفي (ش): حجاب، فهي خبر «المخلوقات». أي المخلوقات مذ كانت هي حجاب عن الخالق.

وقوم حجبوا بالشهوات المباحة، وقوم بالشهوات المحرمات والمعاصي والسيئات، وقوم حجبوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا.

اللهم لا تحجب قلوبنا عنك في الدنيا ولا أبصارنا عنك في الآخرة يا كريم.

[تفسير «ثم دنا فتدلى»]

وقد ورد في الصحيح عن أنس قال: (لما عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى. ودنا الجبار رب العزة جل جلاله فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده[1] ما أوحى) الحديث.

وهذا الدنو والتدلي المذكور في هذا الحديث[2] وغيره من أحاديث المعراج غير الدنو والتدلي المذكور في قوله تعالى في سورة النجم: ﴿**ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾[3] وإن اتفقا في اللفظ.

فإن الصحيح أن المراد في الآية جبريل، لأنه الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى**﴾[4] هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح.

قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه

---

(١) في الأصل: فأوحى إليَّ. قال الشارح: ولفظ البخاري: فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة.

(٢) رواية شريك عند البخاري رقم ٧٥١٧.

(٣) سورة النجم، الآية ٩.

(٤) سورة النجم الآية ١٤.

الآية فقال: ذاك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين[1].

ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿**علمه شديد القوى**﴾. وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير.

الثاني: أنه قال: ﴿**ذو مرة**﴾ أي حسن الخلق وهو الكريم الذي في سورة التكوير.

الثالث: أنه قال: ﴿**فاستوى وهو بالأفق الأعلى**﴾ وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل عليه السلام، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿**ثم دنافتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾ فهذا دنو جبريل وقد نزل إلى الأرض حيث كان رسول الله ﷺ بها. وأما الدنو والتدلي/ في حديث المعراج فرسول الله ﷺ كان فوق السماوات فهناك دنى الجبار جل جلاله منه وتدلى. ٢٣٧/ب

الخامس: أنه قال: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى**﴾ والذي عند سدرة المنتهى قطعاً هو جبريل، وبهذا فسره النبي ﷺ فقال: ذاك جبريل.

السادس: أن نفس الضمير في قوله: ﴿**ولقد رآه**﴾ وقوله: ﴿**دنا فتدلى**﴾ وقوله: ﴿**فاستوى**﴾ وقوله: ﴿**وهو بالأفق الأعلى**﴾ واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسرين من غير دليل.

---

(١) أخرجه مسلم.

السابع: أنه سبحانه وتعالى أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء، بل تحتها فدنا من الأرض فتدلى من رسول الله ﷺ، ودنو الرب تبارك وتدليه ـ على ما في حديث شريك ـ كان فوق العرش لا إلى الأرض.

ثم نفى سبحانه وتعالى عن نبيه ﷺ بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يميناً وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانباً ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أريه دون التفاته إلى غيره ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال.

وقال في «مدارج السالكين»:

وفي هذه الآية أسرار عجيبة هي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر، صلوات الله وسلامه عليه، تواطأ هناك بصره وبصيرته وتوافقا وتصادقا، فما شاهده بصره فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر، فتواطأا في حقه، أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره، ولهذا قرأها هشام وأبو جعفر ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ بتشديد الذال، أي لم يكذب القلب البصر بل صدقه وواطأه بصحة الفؤاد والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً. وقرأ الجمهور ﴿ما كذب الفؤاد﴾ بالتخفيف، وهو متعد، و«ما رأى» مفعوله، أي: أي ما كذب قلبه ما رأت عيناه بل واطأه ووافقه.

فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته، لم

يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده، ولم يمل عن المرئي فيزيغ، بل اعتدل البصر على المرئي لم يتجاوزه ولا مال عنه لما اعتدل القلب في الإقبال على الله بكليته والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته وأعرض عما سواه بكليته.

وللقلب زيغ وطغيان، كما أن للبصر زيغاً وطغياناً وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله تعالى الذي لا يلحقه فيه سواه، فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى إلى موسى عليه السلام، لما أقيم مقام التكليم والمناجاة طلبت نفسه الرؤية، ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه، ولم يتلفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة، ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد، حتى جاوز السماوات السبع فلم تعقه إرادة منه لشيء، ولم تقف به دون كمال العبودية همة، ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلاً لحال راكبه وبعد شأوه الذي يسبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يتخلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتخلف عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة عبوديته له، حتى خرق/ حجب السماوات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت له هناك أقسام القرب انصباباً، وانقشعت سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً، وأقيم مقاماً غبطه فيه الأنبياء والمرسلون.

١/٢٣٨

فإذا كان في المعاد[1] أقيم مقاماً من القرب تاماً، يغبطه فيه الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله تعالى، ما زاغ البصر وما طغى، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط على الحق والهدى، وأقسم بكلامه القديم على ذلك في الذكر الحكيم فقال: **﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾**[2] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط، فيسأل السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزوا إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ثم إن ما ذكر هنا من القرب والدنو، المراد به تأكيد المحبة والقربة، ورفع المنزلة والرتبة، قال جعفر الصادق: لما قرب الحبيب من الحبيب غاية القرب، نالته غاية الهيبة، فلاطفه الحق تعالى بغاية اللطف، وذلك قوله جل جلاله: **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** أي كان ما كان وجرى ما جرى، وقال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب للحبيب: وألطف به الطاف الحبيب بالحبيب، فخفي السر ولم يطلع عليه أحد، ما أوحى إلا الذي أوحى.

[«فأوحى إلى عبده ما أوحى»]

وقال غيره في قوله: **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، فهو مبهم لا يطلع عليه بل يتعبد بالإيمان به.

---

(١) أي يوم القيامة. وفي الأصل (أ): الميعاد.

(٢) سورة يس، الآيات ١ ـ ٤.

وقيل: بل هو مفسر بالأخبار الواردة، قال سعيد بن جبير: أوحى الله تعالى إليه ﷺ، ألم أجدك يتيماً فآويتك، ألم أجدك ضالاً فهديتك، ألم أجدك عائلاً فأغنيتك، ﴿**ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك**﴾[1].

وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك. ذكره الثعلبي والقشيري.

وقيل: أوحى الله إليه: خصصتك بحوض الكوثر، فكل أهل الجنة أضيافك بالماء، ولهم الخمر واللبن والعسل. ذكره القشيري.

وذكر أيضاً: أنه أوحى إليه ما أوحى إلى الرسل لقوله تعالى: ﴿**ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك**﴾[2].

وقيل: أوحى إليه الصلوات الخمس.

[حديث ضعيف]

وفي رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي: أن الله تعالى قال له صلوات الله وسلامه عليه: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الإنس والجن والشياطين، وسخرت له الرياح، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعذته

(١) سورة الشرح، الآيات ١ ـ ٤.
(٢) سورة فصلت، الآية ٤٣.

وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل. فقال له ربه تعالى: قد اتخذتك حبيباً، فهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن، وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولون وهم[1] الآخرون[2]، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبياً قبلك، ٢٣٨/ب وأعطيتك الكوثر/ وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. وفي إسناده أبو جعفر الرازي ضعفه بعضهم، وقال أبو زرعة: إنه متهم، وقال ابن كثير: الأظهر أنه سيء الحفظ.

[الوصف بالعبد]

وذكر الفخر الرازي عن والده قال: سمعت أبا القاسم سليمان الأنصاري يقول: لما وصل محمد ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم شرفك؟ قال: يا رب، بنسبتي إليك بالعبودية. فأنزل الله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً**﴾ فسماه تعالى بهذا الاسم لتحققه ﷺ بالاسم

(١) ضمير «هم» سقط في (ب، ش).
(٢) في (د): هم الأولين وهم الآخرين.

الأعظم[1] واتصافه بجميع صفاته، فلا يصلح هذا الاسم بالحقيقة إلا له ﷺ وللأقطاب من بعده بتبعيته لا بالحقيقة، وإن أطلق على غيره مجازاً، ويرحم الله الأديب برهان الدين القيراطي فلقد أجاد حيث قال:

ودعتني بالعبد يوماً فقالوا قد دعته بأشرف الأسماء

[كلام إشاري]

ولبعض أهل الإشارات:

كأن الله تعالى قال له: يا محمد، قد أعطيتك نوراً تنظر به جمالي، وسمعاً تسمع به كلامي، يا محمد، إني أعرفك بلسان الحال معنى عروجك إلي، يا محمد، أرسلتك إلى الناس شاهداً ومبشراً ونذيراً، والشاهد مطالب بحقيقة ما يشهد به، فأريك جنتي لتشاهد ما أعددت فيها لأوليائي، وأريك ناري لتشاهد ما أعددت فيها لأعدائي، ثم أشهدك جلالي، وأكشف لك جمالي لتعلم أني منزه في كمالي عن الشبيه والنظير، والوزير والمشير، فرآه ﷺ بالنور الذي قواه من غير إدراك ولا إحاطة فرداً صمداً، لا في شيء، ولا من شيء، ولا قائماً بشيء، ولا على شيء، ولا مفتقراً إلى شيء، ليس كمثله شيء، فلما كلمه شفاها، وشاهده كفاحاً، فقيل له: يا محمد لا بد لهذه الخلوة من سر لا يذاع ورمز لا يشاع، فأوحى إلى عبده ما أوحى، فكان سراً من سر، لم يقف عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأنشد لسان الحال:

---

(١) هذا من كلام المتصوفة وفيه إشكال، ولعل المقصود تحققه بمقام العبودية الكامل إذ هو عبدالله.

بـين المحبـين سر ليس يفشيـه قـول ولا قلم في الكـون يحكيـه
سر يمـازجـه أنس يـقـابـله نـور تحـير في بحـر من التيـه

ولما انتهى إلى العرش تمسك العرش بأذياله، وناداه بلسان حاله: يا محمد، أنت في صفاء وقتك من مقتك أشهدك جمال أحديته، وأطلعك على جلال صمديته، وأنا الظمآن إليه اللهفان عليه المتحير فيه لا أدري من أي وجه آتيه، جعلني أعظم خلقه، فكنت أعظمهم منه هيبة، وأكثرهم فيه حيرة، وأشدهم منه خوفاً. يا محمد، خلقني فكنت أرعد لهيبة جلاله، فكتب على قائمتي، لا إله إلا الله فازددت لهيبة اسمه ارتعاداً وارتعاشاً، فكتب محمد رسول الله، فسكن لذلك قلقي، وهدأ روعي، فكان اسمك لقاحاً لقلبي، وطمأنينة لسري، فهذه بركة كتابة اسمك علي، فكيف إذا وقع جميل نظرك إلي، يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين، ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة، ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبه أهل الزور إلي، وتقوله أهل الغرور علي، زعموا: أني أسع من لا مثيل له، وأحيط بمن لا كيفية له. يا محمد، من لا حدَّ لذاته، ولا عدَّ لصفاته كيف يكون مفتقراً إلي؟ أو محمولاً علي؟ إذا كان الرحمن اسمه، والاستواء صفته وصفته متصلة بذاته فكيف يتصل بي أو ينفصل عني؟ يا محمد، وعزته، لست بالقريب منه وصلاً، ولا بالبعيد عنه فصلاً، ولا بالمطيق له حملاً، أوجدني رحمة منه وفضلاً، ولو محقني لكان حقاً منه، وعدلاً، يا محمد، / أنا محمول قدرته، ومعمول حكمته. 1/239

فأجاب لسان حال سيدي، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه، ووالى صلاته وسلامه عليه: أيها العرش إليك عني، أنا مشغول عنك، فلا تكدر علي صفوتي، ولا تشوش علي خلوتي، فما أعاره ﷺ منه طرفاً، ولا أقرأه من مسطور ما أوحي إليه حرفاً، ما زاغ البصر وما طغى.

وقد ورد في بعض أخبار الإسراء مما ذكره العلامة ابن مرزوق في شرحه لبردة المديح: أنه ﷺ لما كان من ربه تعالى قاب قوسين قال: اللهم إنك عذبت الأمم بعضهم بالحجارة وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالمسخ، فما أنت فاعل بأمتي؟ قال: أنزل عليهم الرحمة وأبدل سيئاتهم حسنات، ومن دعاني منهم لبيته، ومن سألني أعطيته، ومن توكل علي كفيته، وفي الدنيا أستر على العصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه لما حاسبت أمتك.

ولما أراد ﷺ الانصراف قال: يا رب، لكل قادم من سفره تحفة، فما تحفة أمتي؟ قال الله تعالى: أنا لهم ما عاشوا، وأنا لهم إذا ماتوا، وأنا لهم في القبور، وأنا لهم في النشور.

[رؤيته ﷺ ربه تعالى]

واعلم أنه قد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في رؤيته ﷺ لربه ليلة الإسراء.

[رأي أم المؤمنين عائشة]

فروى البخاري من حديث مسروق قال: (قلت لعائشة: يا أمتاه، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن[1] فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾[2] ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من**

(١) كذا في المخطوطات وفي البخاري، وفي ط: حدثك بهن وفي ش: حدث بهن.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.

وراء حجاب﴾[1] ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت **﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾**[2] ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾**[3] الآية، ولكنه[4] رأى جبريل في صورته مرتين)[5].

وفي رواية مسلم (من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية).

وقولها: «قف شعري» أي قام من الفزع، لما حصل عندها من هيبة الله، واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك.

قال النووي ـ تبعاً لغيره ـ: لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقاً، انتهى.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: جزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع، تبع فيه ابن خزيمة، وهو عجيب، فقد ثبت عنها في صحيح مسلم ـ الذي شرحه الشيخ ـ فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق، في الطريق المذكورة، قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: ألم يقل الله: **﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾**

(١) سورة الشورى، الآية ٥١.

(٢) سورة لقمان، الآية ٣٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٤) كذا في النسخ والذي في البخاري: ولكن.

(٥) رواه البخاري برقم ٤٨٥٥.

فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عن هذا فقلت: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ فقال: لا، إنما رأيت جبريل منهبطاً.

[رأي ابن عباس]

نعم، احتجاج عائشة ـ رضي الله عنها ـ بالآية، خالفها فيه ابن عباس. فأخرج الترمذي من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: (رأى محمد ربه، فقلت: أليس يقول الله: (لا تدركه الأبصار) قال: ويحك، ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين).

وقال القرطبي: «الأبصار» في الآية جمع محلى بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثبت دليل ذلك سمعاً في قوله تعالى: ﴿كلا/ إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾[1] فيكون المراد: الكفار، بدليل قوله في الآية الأخرى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[2]، وإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى المرئي، انتهى وهو استدلال جيد.

٢٣٩/ب

وقال القاضي عياض: رؤية الله تعالى جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها: سؤال موسى ـ عليه السلام ـ لها، ثم قال: وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ لاختلاف التأويلات في الآية، انتهى.

---

(١) سورة المطففين، الآية ١٥.

(٢) سورة القيامة، الآية ٢٣.

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن إسماعيل بن علية في تأويل هذه الآية قال: هذا في الدنيا.

وقال آخرون: لا تدركه الأبصار، أي جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة.

[إثبات الرؤية في الآخرة]

وقال آخرون من المعتزلة، بمقتضى ما فهموا من هذه الآية: أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة.

فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى.

وأما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله منهم.

[آراء في «لا تدركه الأبصار»]

وقيل: المنفي في الآية، إدراك العقول: قال الحافظ ابن كثير: وهو غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم.

ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، وإن رآه المؤمنون. كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك، وله المثل الأعلى.

وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة، قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية: كما لا يلزم من عدم الرؤية عدم العلم. وفي صحيح مسلم (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ولا يلزم من هذا عدم الثناء فكذلك هذا.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: **﴿لا تدركه الأبصار﴾** فقال: لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا، صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً. قال ابن كثير: **غريب، لا يعرف إلا من هذا الوجه** ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم.

ومما نسب لإمام الحرمين في «لمع الأدلة» أنه قال: من أصحابنا من قال: إن الرب تعالى يُرى ولا يُدرَك، لأن الإدراك ينبي عن الإحاطة، ودرك الغاية، والرب جل جلاله تقدس عن الغاية والنهاية، ثم قال: فإن عارضوا بقوله تعالى في جواب موسى عليه السلام: **﴿لن تراني﴾**[1] وزعموا: أن «لن» تفيد النفي على التأبيد، قلنا: هذه الآية أوضح الأدلة على جواز الرؤية، فإنها لو كانت مستحيلة لكان معتقد

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

جواز الرؤية ضالاً وكافراً، وكيف يعتقد ما لا يجوز على الله تعالى من اصطفاه لرسالته واختاره لنبوته، وخصه/ بكرامته، وشرفه بتكليمه، وجعله أفضل أهل زمانه، وأيده ببرهانه، وكيف يجوز على الأنبياء الريب في أمر يتعلق بعلم الغيب. فيجب حمل الآية على أن ما اعتقد موسى عليه السلام جوازه جائز، لكن ظن أن ما اعتقد جوازه ناجز، فرجع النفي في الجواب إلى الإنجاز، وما سأل موسى عليه السلام ربه رؤيته في المآل، فصرف النفي إليه، والجواب يدل على قضية الخطاب، انتهى.

1/240

وقال البيضاوي: في هذه الآية دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة، لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله تعالى، ولذلك رده بقوله: ﴿لن تراني﴾ دون: لن أرى، انتهى.

ونقل القاضي عياض عن أبي بكر الهذلي، في الآية، أن المراد: ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليَّ في الدنيا، وأنه من نظر إليَّ مات. قال: وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: أن رؤيته تبارك وتعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة، غرضاً للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيباً آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم، قووا بها على الرؤية. قال: وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس ـ رحمه الله ـ قال: لم ير في الدنيا لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني. فإذا كان في الآخرة رزقوا أبصاراً باقية، رؤي الباقي بالباقي، وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القوة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه، انتهى.

والاستثناء في قوله: «إلا من حيث ضعف القوة» ينبغي أن يكون منقطعاً، على معنى: لكن من حيث ضعف القوة، وإلا فضعف القوة قصاراه أن يكون مانعاً، أي امتنع من جهة ضعف القوة لا من جهة كونه مستحيلاً، ويدل على هذا قوله: «فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه».

وقد وقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه (واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا). وأخرجه ابن خزيمة أيضاً من حديث أبي أمامة، ومن حديث عبادة بن الصامت.

[امتناع الرؤية شرعاً]

فإن جازت الرؤية في الدنيا عقلاً فقد امتنعت شرعاً، لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه. وفي كلام ابن كثير: أن في بعض كتب الله المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى لما سأله الرؤية، يا موسى، إنه لن يراني حي إلا مات.

وقد جزم القشيري ـ في الرسالة ـ بأنها لا تجوز في الدنيا على جهة الكرامة، وادعى حصول الإجماع عليه.

وحكى القاضي عياض امتناعها في الدنيا عن جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وقال القشيري أيضاً: سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يحكي عن أبي الحسن الأشعري في ذلك قولين في كتاب الرؤية الكبير. انتهى.

[الآراء في رؤيته ﷺ ربه تعالى]

وقد ذهبت عائشة وابن مسعود إلى أنه ﷺ لم ير ربه ليلة الإسراء.

واختلف عن أبي ذر.

وذهب جماعة إلى إثباتها. وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن: أنه حلف أن محمداً رأى ربه. وأخرج ابن خزيمة عن عروة ابن الزبير إثباتها، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس. وجزم به كعب الأحبار والزهري، وصاحبه معمر وآخرون وهو قول الأشعري وغالب أتباعه.

ثم اختلفوا: هل رآه بعينيه أو بقلبه؟

وجاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة، وأخرى مقيدة، فيجب حمل مطلقها على مقيدها، فمن ذلك، ما أخرجه النسائي بإسناد صحيح، وصححه الحاكم أيضاً من طريق عكرمة عن ابن عباس قال/ أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ. ٢٤٠/ب

ومنها: ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾** قال: رآه بفؤاده مرتين.

وله: من طريق عطاء عن ابن عباس قال: رآه بقلبه.

وأصرح من ذلك: ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينيه وإنما رآه بقلبه.

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب.

لكن روى الطبراني في الأوسط بإسناد رجاله رجال الصحيح، خلا جهور بن منصور الكوفي، وجهور بن منصور قد ذكره ابن حبان في الثقات، عن ابن عباس أنه كان يقول: إن محمداً ﷺ رأى ربه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده.

ثم المراد «برؤية الفؤاد» رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام. بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت له في قلبه كما تخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين.

وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: (رأى محمد ربه)

وفي مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: (نور أنى أراه) أي حجابه نور فكيف أراه، ومعناه: أن النور منعني من الرؤية.

وعند أحمد قال: (رأيت نوراً) ومن المستحيل أن تكون ذات الله تعالى نوراً، إذ النور من جملة الأعراض، والله تعالى يتعالى عن ذلك.

وعند ابن خزيمة عنه، قال: (رآه بقلبه ولم يره بعينه). وبهذا يتبين مراده في حديث أبي ذر بذكر النور، أي أن النور حال بينه وبين رؤيته له ببصره.

وجنح ابن خزيمة في كتاب التوحيد إلى ترجيح الإثبات، وأطنب

في الاستدلال بما يطول ذكره، وحمل ما ورد عن ابن عباس على أن الرؤية وقعت مرتين: مرة بقلبه ومرة بعينه.

[رأي في الجمع بين الروايات]

ومما يعزى للأستاذ عبد العزيز المهدوي: أنه ﷺ لما رجع من سفر الإسراء، أخبر العوالم من حيث فلكهم ومراتبهم، وسقى كل واحد من كأسه، وعلى قدر عقله، فخاطب الكفار، وهم آخر العوالم، بما رأى في الطريق، وما كان في المسجد الأقصى على العيان وبما يعرفون، لأنهم في فلك الأجسام، حتى صدقوا بالإسراء، ثم ارتقى حتى حدث عن فلك السماء، وكذلك في كل سماء، وأخبر عما شاهد ورأى في كل فلك وما يليق أن يحدث به - أعني الصحابة - كلا على قدر مرتبته بلا ضيق ولا مزاحم إلى السماء السابعة، ولما وصل مقام جبريل تحدث عن الأفق المبين، وعما فوق إلى الدنو وإلى التدلي إلى موضع الإيحاء عند حضرة إسقاط الصور والخلق، فأخبر بذلك أصحابه، فمنهم من قال: رأى جبريل بالأفق المبين، وبالأفق الأعلى، وصدق، ومنهم من قال برؤية الفؤاد والبصيرة وصدق، وهي عائشة ومن معها، ومنهم من قال: بعيني رأسه رأى وصدق.

فكل أخبر بما حدثه ﷺ من مقامه وسقاه من كأسه وما يليق به، فإذا صح هذا المعراج عرفت الأمر(١)، ومقامات الرؤية والقائلين بذلك وقولهم: الجميع الحق، انتهى.

---

(١) كذا في ش، وفي النسخ: الإسراء.

[رأي الإمام أحمد]

ومن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد. فروى الخلال في «كتاب السنة» عن المروزي: قلت لأحمد: إنهم يقولون إن عائشة قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي معنى يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: (رأيت ربي) فقول النبي أكبر من قولها.

وقد أنكر صاحب «الهدي» على/ من زعم أن أحمد قال: رأى ربه بعيني رأسه. قال: وإنما قال مرة: رأى محمد ربه، وقال مرة: بفؤاده. وحكي عن بعض المتأخرين: رأى بعيني رأسه. وهذا من تصرف الحاكي، فإن نصوصه موجودة انتهى. ١/٢٤١

[القول بالوقف في المسألة]

وقد رجح القرطبي في «المفهم» قول الوقف في هذه المسألة، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه: بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغاية ما استدل به الطائفتان ظواهر متعارضة، قابلة للتأويل.

قال: وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي. والله أعلم.

[فرض الصلاة]

[روايات الحديث]

وأما قوله في الحديث: (ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة في كل يوم)

ففي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم (ففرض الله علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة).

ونحوه في رواية مالك بن صعصعة عند البخاري أيضاً.

ويحتمل أن يقال: ذكر الفرض عليه يستلزم الفرض على الأمة، وبالعكس، إلا ما استثني من خصائصه.

وفي حديث ثابت عن أنس عند مسلم (فنزلت إلى موسى، فقال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في اليوم والليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقلت: لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه.

وفي رواية النسائي عن أنس: فقال لي: إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك، وذكر مراجعته مع موسى، وفيه: فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما. وقال في آخره: فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. قال: فعرفت أنها عزمة من الله فرجعت إلى موسى فقال: ارجع، فلم أرجع.

فإن قلت: لم قال موسى عليه السلام لنبينا ﷺ : إن أمتك لا يطيقون ذلك، ولم يقل: أنت وأمتك لا تطيقون ذلك؟

أجيب: بأن العجز مقصور على الأمة لا يتعداهم إلى النبي ﷺ ، فهو لما رزقه الله تعالى من الكمال يطيق ذلك وأكثر منه، وكيف لا وقد جعلت قرة عينه في الصلاة.

[حكمة الفرض ليلة الإسراء]

قال العارف ابن أبي جمرة: والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به ورأى في تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات كلها في ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

[موسى وفرض الصلاة]

وقد وقع من موسى عليه السلام من العناية بهذه الأمة في أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار، قال ﷺ : كان موسى أشدهم علي حين مررت، وخيرهم لي حين رجعت.

وفي حديث أبي سعيد: فأقبلت راجعاً فمررت بموسى، ونعم الصاحب كان لكم، فسألني كم فرض عليك ربك. الحديث.

قال السهيلي: وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة، وإلحاحه على نبيها أن يشفع لها ويسأل التخفيف/ عنها، فكقوله ـ والله ٢٤١/ب

أعلم ـ حين قضي إليه الأمر بجانب الغربي، ورأى صفات أمة محمد ﷺ في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا، اللهم اجعلهم أمتي، فيقال له: تلك أمة أحمد، وهو حديث مشهور وقد تقدم ذكره في خصائص هذه الأمة. قال: فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم من هو منهم. لقوله: اللهم اجعلني منهم، انتهى.

وقال القرطبي: الحكمة في أمر موسى بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلوات يحتمل أن تكون لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها، فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمة محمد ﷺ مثل ذلك، ويشير إليه قوله: إني جربت الناس قبلك. انتهى.

[تعليل «إشاري» لموقف موسى]

ووقع في كلام بعض أهل الإشارات: لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقتبس فاحتبس، فلما نودي من النادي، اشتاق إلى المنادي، فكان يطوف في بني إسرائيل: من يحملني رسالة إلى ربي، ومراده أن تطول المناجاة مع الحبيب، فلما مر عليه نبينا ﷺ ليلة المعراج، ردده في أمر الصلوات ليسعد برؤية حبيب الحبيب.

وقال آخر: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية، ولم تحصل له البغية، بقي الشوق يقلقه، والأمل يعلله، فلما تحقق أن سيدنا محمداً الحبيب منح الرؤية، وفتح له باب المزية، أكثر السؤال ليسعد برؤية من قد رأى. كما قيل:

واستنشق الأرواح من نحو أرضكم　　لعلي أراكم أو أرى من يراكم
وأنشد من لاقيت عنكم عساكم　　تجودون لي بالعطف منكم عساكم
فأنتم حياتي إن حييت وإن أمت　　فيا حبذا إن مت عبد هواكم

وقال آخر:

وإنما السر في موسى يردده　　ليجتلي حسن ليلى حين يشهده
يبدو سناها على وجه الرسول فيا　　لله در رسول حين أشهده

وقال آخر: لما جلس الحبيب في مقام القرب، دارت عليه كؤوس الحب، ثم عاد، وهلال ما كذب الفؤاد ما رأى بين عينيه، وسرٌّ[1] فأوحى إلى عبده ما أوحى ملء قلبه وأذنيه، فلما اجتاز بموسى عليه السلام، قال لسان حاله [لنبينا ﷺ][2].

يا وارداً من أهيل الحي يخبرني　　عن جيرتي شنف الأسماع بالخبر
ناشدتك الله يا راوي حديثهم　　حدث فقد ناب سمعي اليوم عن بصر

فأجاب لسان حال نبينا ﷺ يقول:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا　　سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرة أملتها　　فغدوت معروفاً وكنت منكرا

فكل قوم يلحظون مذهبهم، وقد علم كل أناس مشربهم، والله بفضله وإحسانه يوالي انسجام سحائب عفوه ورضوانه على العارف الرباني أبي عبد الرحمن السلمي، فلقد أجاد إذ أفاد بما أفرد من لطائف المعراج حسبما جمعه من كلام أهل الإشارات، بأقوم منهاج.

---

(١) في (ط، ش): وبِشْر.
(٢) في (ط، ش).

[الاستدلال بحديث فرض الصلاة]

وقد استدل العلماء بقوله في الحديث (فهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون):

[١]على عدم فرضية ما زاد على الصلوات الخمس، كالوتر.
[٢]وعلى دخول النسخ قبل الفعل.

قال ابن بطال وغيره: ألا ترى أنه عز وجل نسخ الخمسين بالخمس قبل أن تصلى؟ ثم تفضل عليهم بأن أكمل لهم الثواب.

وتعقبه ابن المنير فقال: هذا ذكره طوائف من الأصوليين والشراح وغيرهم، وهو مشكل على من أثبت النسخ قبل الفعل كالأشاعرة، أو منعه كالمعتزلة. لكونهم اتفقوا جميعاً على أن النسخ لا يتصور قبل البلاغ. وحديث الإسراء وقع فيه النسخ قبل البلاغ، فهو مشكل عليهم جميعاً.اهـ .

فإن أراد قبل البلاغ لكل أحد فممنوع، وإن أراد قبل البلاغ إلى بعض الأمة فمسلَّم، لكن قد يقال: ليس هو بالنسبة إليهم نسخاً، لكن هو نسخ بالنسبة إلى النبي ﷺ لأنه كلف بذلك قطعاً، ثم نسخ بعد أن بلغه وقبل أن يفعله، فالمسألة صحيحة التصوير في حقه ﷺ .

[موقف قريش من الإسراء]

ولما رجع ﷺ من سفر الإسراء، مر في طريقه بعير لقريش تحمل طعاماً، فيها جمل يحمل غرارتين: غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت وانصرع ذلك البعير[1].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن أنس.

وفي رواية[1]: [مر بعير قد][2] أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان. قال ﷺ: فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتى مكة قبل الصبح وأخبر قومه بما رأى، وقال لهم: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعيركم في مكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان، وأن مسيرهم ينزلون بمكان كذا وكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى إذا كان قريب[3] من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه ﷺ.

وفي رواية [البيهقي][4]: سألوه آية، أخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله تعالى فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف[5].

وعن عائشة: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس كانوا آمنوا، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس

---

(١) هي أيضاً لابن أبي حاتم عن أنس. أقول ذكرها ابن كثير عن البيهقي من طريقين وقال البيهقي إسناده صحيح. ووافقه ابن كثير على ذلك بعد أسطر من ذكره ٣/١٤ [م].

(٢) في (ط، ش).

(٣) كذا في النسخ، ولعل «كان» هنا تامة [م].

(٤) في ط.

(٥) وهذا مخالف للرواية قبلها، وهو حديث ضعيف رواه البيهقي في الدلائل، وقد عارض ما هو أصح منه فلا يعتد به. [م].

وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي الصديق. رواه الحاكم في المستدرك، وابن إسحاق. وزاد:

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس في هذه الليلة؟ قال: نعم، فقال: يا نبي الله صفه لي فإني قد جئته، قال الحسن: فقال رسول الله ﷺ :فرفع لي المسجد حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، فيقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئاً.

وقول أبي بكر: صفه لي، لم يكن عن شك، فإنه صدقه من أول وهلة، ولكنه أراد إظهار صدقه لقومه، فإنهم كانوا يثقون بأبي بكر، فإذا طابق خبره ﷺ ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم.

وفي رواية البخاري (فجلا الله لي بيت المقدس) أي كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته.

وفي رواية مسلم: (فسألوني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كرباً شديداً لم أكرب مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به).

فيحتمل أن يكون حمل إلى أن وضع بحيث يراه، ثم أعيد، ففي حديث ابن عباس عند أحمد والبزار: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار/ عقيل فنعته وأنا أنظر إليه. ٢٤٢/ب

وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين.

وأما ما وقع في حديث أم هانئ عند ابن سعد: فخيل إلي بيت المقدس، وطفقت أخبرهم عن آياته، فإن ثبت احتمل أن يكون مُثِل قريباً منه، كما قيل في حديث: (أريت الجنة والنار) ويؤول قوله: جيء بالمسجد، أي جيء بمثاله.

وفي حديث أم هانئ المذكور: أنهم قالوا له: كم للمسجد من باب، قال: ولم أكن عددتها قال: فجعلت أنظر إليه وأعدها باباً باباً.

وعند أبي يعلى: إن الذي سأله عن صفة بيت المقدس هو المطعم بن عدي، والدجبير بن مطعم.

[حكمة الإسراء]

وأشار ابن أبي جمرة: إلى أن الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس إظهار الحق للمعاند، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، حيث سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها، وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق أنه أسري به إلى بيت المقدس. وإذا صح البعض لزم تصحيح الباقي، فكان ذلك سبباً لقوة إيمان المؤمنين، وزيادة في شقاء من عاند وجحد من الكافرين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

المقصد السادس

فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره ﷺ ورفعة ذكره، وشهادته تعالى بصدق نبوته، وثبوت بعثته، وقسمه تعالى على تحقيق رسالته، وعلو منصبه الجليل ومكانته، ووجوب طاعته، واتباع سنته، وأخذه تعالى له الميثاق على سائر النبيين فضلاً ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه، والتنويه به في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل وغير ذلك.

[تمهيد]

اعلم أطلعني الله وإياك على أسرار التنزيل، ومنحنا بلطفه تبصرة تهدينا إلى سواء السبيل، أنه لا سبيل لنا أن نستوعب الآيات الدالة على ذلك، وما فيها من التصريح والإشارة إلى علو محله الرفيع ومرتبته، ووجوب المبالغة في حفظ الأدب معه، وكذلك الآيات التي فيها ثناؤه تعالى عليه وإظهار عظيم شأنه لديه، وقسمه تعالى بحياته، ونداؤه بـ«الرسول» وبـ«النبي» ولم يناده باسمه بخلاف غيره من الأنبياء، فناداهم بأسمائهم إلى غير ذلك مما يشير إلى أناقة قدره العلي عنده، وأنه لا مجد يساوي مجده. ومن تأمل القرآن العظيم وجده طافحاً بتعظيم الله تعالى لنبيه ﷺ. ويرحم الله ابن الخطيب الأندلسي حيث قال:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على علياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قصار كل فصيح

وهذا المقصد ـ أكرمك الله ـ يشتمل على عشرة أنواع:

النوع الأول

في آيات تتضمن تعظيم قدره ورفعة ذكره وجليل رتبته وعلو درجته على الأنبياء وتشريف منزلته

[تفاوت مراتب الرسل]

قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله﴾[1].

قال المفسرون: يعني موسى عليه السلام، كلمه بلا واسطة، وليس نصاً في اختصاص موسى عليه السلام بالكلام، فقد ثبت أنه تعالى كلم نبينا ﷺ أيضاً كما مر.

فإن قلت: إذا ثبت أنه ﷺ كلمه ربه وقام به هذا الوصف، فلِمَ لم يشتق له من الكلام اسم الكليم، كما اشتق لموسى؟

أجيب: بأن اعتبار المعنى قد يكون لتصحيح الاشتقاق كاسم الفاعل فيطرد، بمعنى أن كل من قام به ذلك الوصف يشتق له منه اسم وجوباً، وقد يكون للترجيح فقط، كالكليم والقارورة[2] فلا يطرد،

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

(٢) كذا في جميع النسخ.

وحينئذ فلا يلزم في كل من قام به ذلك الوصف أن يشتق له منه اسم، كما حققه القاضي عضد الدين[1]، وهذا ملخصه وتحريره، كما قاله المولى سعد الدين التفتازاني. انتهى.

وقوله: (ورفع بعضهم درجات) يعني محمداً ﷺ رفعه الله تعالى من ثلاثة أوجه:

بالذات في المعراج.

وبالسيادة على/ جميع البشر. 1/243

وبالمعجزات لأنه ﷺ أوتي من المعجزات ما لم يؤته نبي قبله.

قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس، انتهى.

وقد بينت هذه الآية وكذا قوله تعالى: ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض**﴾[2] أن مراتب الرسل والأنبياء متفاوتة، خلافاً للمعتزلة القائلين: بأنه لا فضل لبعضهم على بعض، وفي هاتين الآيتين رد عليهم.

وقال قوم: آدم أفضل لحق الأبوة.

وتوقف بعضهم فقال: السكوت أفضل.

والمعتمد الذي عليه جماهير السلف والخلف: أن الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض بشهادة هاتين الآيتين وغيرهما.

---

(1) عبد الرحمن بن أحمد الأيجي، المحقق، يروى تصانيف البيضاوي.

(2) سورة الإسراء، الآية ٥٥.

قال بعض أهل العلم ـ فيما حكاه القاضي عياض ـ: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أظهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله تعالى به من كرامته واختصاصه: من كلام أو خلة أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه، انتهى.

[فضيلته ﷺ]

فلا مرية أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر وأبهر وأكثر وأبقى وأقوى، ومنصبه أعلى ودولته أعظم وأوفر وذاته أفضل وأظهر، وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من أن تذكر، فدرجته أرفع من درجات جميع المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين. وتأمل حديث الشفاعة في المحشر، وانتهائها إليه، وانفراده هناك بالسؤدد، كما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة) رواه ابن ماجه. وفي حديث أنس عند الترمذي: (أنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر).

لكن هذا لا يدل على كونه أفضل من آدم، بل من أولاده، فالاستدلال بذلك على مطلق أفضليته ﷺ على الأنبياء كلهم ضعيف.

واستدل الشيخ سعد الدين التفتازاني لمطلق أفضليته ﷺ بقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[1] قال: لأنه لا شك أن خيرية الأمة بحسب كمالهم في الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه.

واستدل الفخر الرازي ـ في المعالم ـ بأنه تعالى وصف الأنبياء

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

بالأوصاف الحميدة، ثم قال لمحمد ﷺ: **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾**[1]، فأمره أن يقتدي بأثرهم، فيكون إتيانه به واجباً، وإلا فيكون تاركاً للأمر، وإذا أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة فقد اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم، فيكون أفضل منهم.
وبأن: دعوته ﷺ في التوحيد والعبادة وصلت إلى أكثر بلاد العالم بخلاف سائر الأنبياء، فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوته ﷺ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء. انتهى.

وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي)[2].

وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً ـ عند البخاري ـ: (أنا سيد الناس يوم القيامة) وهذا يدل على أنه أفضل من آدم عليه السلام ومن كل أولاده [بل أفضل من الأنبياء، بل أفضل الخلق كلهم][3].

وروى البيهقي في فضائل الصحابة، أنه ظهر علي بن أبي طالب من البعد، فقال ﷺ: هذا سيد العرب/ فقالت عائشة: ألست بسيد العرب؟ فقال: أنا سيد العالمين وهو سيد العرب. وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء، بل أفضل خلق الله كلهم.

٢٤٣/ب

وقد رى هذا الحديث ـ أيضاً ـ الحاكم في صحيحه عن ابن

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٠.
(٢) وكذا رواه أحمد وابن ماجه وصححه الحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٣) زيادة في ش.

عباس، لكن بلفظ: أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب. وقال: إنه صحيح ولم يخرجاه.

وله شاهد من حديث عروة عن عائشة، وساقه من طريق أحمد ابن عبيد عن ناصح قال حدثنا الحسين عن علوان ـ وهما ضعيفان ـ عن هشام بن عروة عن أبيه، [عن عائشة][1] بلفظ: ادعوا لي سيد العرب، قالت: فقلت يا رسول الله ألست سيد العرب؟ فقال: وذكره.

وكذا أورده من حديث عمر بن موسى الوجيهي ـ وهو ضعيف أيضاً ـ عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً: ادعوا لي سيد العرب فقالت عائشة: ألست بسيد العرب وذكره.

قال شيخنا: وكلها ضعيفة. بل جنح الذهبي إلى الحكم على ذلك بالوضع. انتهى.

ولم يقل ﷺ: أنا سيد الناس عجباً وافتخاراً على من دونه، حاشاه الله من ذلك، وإنما قاله ﷺ إظهاراً لنعمة الله تعالى عليه، وإعلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله تعالى، وعلو منزلته لديه، لتعرف نعمة الله عليه وعليهم. وكذا العبد إذا لاحظ ما هو فيه من فيض المدد، وشهده من عين المنة ومحض الجود، وشهد مع ذلك فقره إلى ربه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين[2] أنشأ له ذلك في قلبه سحائب السرور، فإذا انبسطت هذه السحائب في سماء قلبه وامتلأ أفقه بها أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور، فإن لم يصبه وابل فطل، وحينئذ يجري على لسانه الافتخار

(١) في (أ، ش).
(٢) من قوله «ومحض الجود» سقط من الأصل.

من غير عجيب ولا فخر، بل فرح بفضل الله وبرحمته،كما قال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾[1] فالافتخار على ظاهره، والافتقار والإنكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر، وإلى هذا المعنى يشير قول العارف الرباني سيد علي الوفائي في قصيدته التي أولها:

من أنت مولاه حاشا	علاه أن يتلاشا
والله يا روح قلبي	لا مات من بك عاشا
قوم لهم أنت ساقٍ	لا يرجعون عطاشا
لا قص دهر جناحا	له وفاؤك راشا
بك النعيم مقيم	لمن وهبت انتعاشا
ومن بحولك يقوى	لن يضعف الدهر جاشا
عبد له بك عز	فكيف لا يتحاشا
حاشا وفاؤك يرمي	من أنت مولاه حاشا

[مناقشة القائلين بعدم التفضيل]

فإن قلت: فما الجمع بين هاتين الآيتين، وبين قوله تعالى: **﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾**[2].

---

(١) سورة يونس، الآية ٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٣٦.

والحديث الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم اليهودي وقال: أي خبيث، وعلى محمد؟ فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ واشتكى على المسلم فقال ﷺ: (لا تفضلوني على الأنبياء) وفي رواية (لا تفضلوا بين الأنبياء).

وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: (لا تخيروا بين الأنبياء)

وحديث ابن عباس عند البخاري ومسلم مرفوعاً (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى).

وحديث أبي هريرة عند الشيخين، (من قال: أنا خير من يونس ابن متى فقد كذب).

أجاب العلماء: بأن قوله عز وجل: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ يعني: في الإيمان بما أنزل إليهم والتصديق بهم، والإيمان بأنهم رسل الله وأنبياؤه، والتسوية بينهم في هذا لا تمنع أن يكون بعضهم أفضل من بعض.

وأجابوا/ عن الأحاديث بأجوبة: 1/٢٤٤

فقال بعضهم: أن نعتقد أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الجملة. ونكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا، قال ابن طغر بك: فإن أراد هذا القائل أن نكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا فصحيح، وإن أراد أنا لا نذكر في ذلك ما فهمناه من كتاب الله وروي لنا من حديث رسول الله ﷺ فسقيم.

وقال آخر: تفضل من رفع الله درجته بخصائص الحظوة والزلفى، ولا نخوض في تفضيل بعضهم على بعض في سياسة المنذرين والصبر على الدين، والنهضة في أداء الرسالة، والحرص على هدى الضلاّل[1]، فإن كلا منهم قد بذل في ذلك وسعه الذي لا يكلفه الله تعالى أكثر منه.

وقال آخر ـ مما حكاه القاضي عياض ـ: إن نهيه ﷺ عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل إذ يحتاج إلى توقيف، وإن من فضل بلا علم فقد كذب.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: وفي هذا نظر. انتهى.

ولعل[2] وجه النظر من جهة معرفة المتقدم تاريخاً من ذلك. ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن وجه النظر ـ من جهة[3] ـ أن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام خيبر متأخراً، فيبعد أنه لم يعلمه بهذا إلا بعد هذا.

وقال آخر: إنما قاله ﷺ عن طريق التواضع ونفي التكبر والعجب.

قال القاضي عياض: وهذا لا يسلم من الاعتراض.

وقيل: لا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو الغض منه.

وقيل: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء عليهم

---

(١) في (د): الضالين.
(٢) في ط: وهل.
(٣) في (أ، ش).

الصلاة والسلام فيها على حد واحد، لا يتفاضل. وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل وأولو عزم، انتهى، وهذا قريب من القول الثاني.

وقال ابن أبي جمرة في حديث يونس: يريد بذلك نفي التكييف والتحديد على ما قاله ابن خطيب الري، لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس، لأن النبي ﷺ أسري به إلى فوق السبع الطباق، ويونس نزل به إلى قعر البحر، وقد قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة) وقال ﷺ: (آدم ومن دونه تحت لوائي)، وقد اختص ﷺ بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام. فهذه الفضيلة وجدت بالضرورة، فلم يبق أن يكون قوله ﷺ: (لا تفضلوني على يونس بن متى) إلا بالنسبة إلى القرب من الله سبحانه وتعالى والبعد، فمحمد صلوات الله وسلامه عليه وإن أسري به لفوق السبع الطباق واخترق الحجب، ويونس عليه الصلاة والسلام وإن نزل به لقعر البحر فهما بالنسبة إلى القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى على حد واحد. انتهى.

وهو مروي عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس وعزي نحوه لإمام الحرمين.

وقال ابن المنير: إن قلت إن لم يفضل على يونس باعتبار استواء الجهتين بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، فقد فضله باعتبار تفاوت الجهتين في تفضيل الحق فإنه تعالى فضل الملأ الأعلى على الحضيض الأدنى، فكيف لا يفضله عليه الصلاة والسلام على يونس، فإن لم يكن التفضيل بالمكان فهو بالمكانة/ بلا إشكال. ٢٤/ب

ثم قال: قلت لم ينه عن مطلق التفضيل، وإنما نهى عن تفضيل مقيد بالمكان يفهم منه القرب المكاني فعلى هذا يحمل جمعاً بين القواعد، انتهى.

[هل البشر أفضل أم الملائكة؟]

واختلف هل البشر أفضل من الملائكة؟

فقال **جمهور أهل السنة والجماعة**: خواص بني آدم، وهم الأنبياء، أفضل من خواص الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، والمقربون والكروبيون والروحانيون. وخواص الملائكة أفضل من عوام بني آدم - قال التفتازاني: بالإجماع بل بالضرورة - وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة. فالمسجود له أفضل من الساجد، فإذا ثبت تفضيل الخواص على الخواص ثبت تفضيل العوام على العوام، فعوام الملائكة خدم عمال الخير، والمخدوم له فضل على الخادم، ولأن المؤمنين ركب فيهم الهوى والعقل، مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى ولا سبيل للشيطان عليهم.

فالإنسان - كما قاله في شرح العقائد - يحصل الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة والغضب وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات، ولا شك أن العبادة والكمالات مع الشواغل والصوارف أشق وأدخل في الإخلاص فتكون أفضل.

والمراد بعوام بني آدم - هنا - الصلحاء لا الفسقة، كما نبه عليه العلامة كمال الدين بن أبي شريف المقدسي، قال: ونص البيهقي عليه

في الشعب وعبارته: قد تكلم الناس قديماً وحديثاً في الملائكة والبشر، فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، وأن الأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. انتهى.

وذهب المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة. وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني، وأبي عبدالله الحليمي، وتمسكوا بوجوه:

الأول: أن الملائكة أرواح مجردة كاملة بالفعل مبرأة عن مبادئ الشرور والآفات كالشهوة والغضب، وعن ظلمات الهيولى والصورة، قوية على الأفعال العجيبة عالمة بالكوائن ماضيها وآتيها من غير غلط.

والجواب: أن مبنى ذلك على الأصول الفلسفية دون الأصول الإسلامية.

الثاني: أن الأنبياء مع كونهم أفضل البشر يتعلمون ويستفيدون منهم بدليل قوله تعالى: ﴿**علمه شديد القوى**﴾(١) وقوله تعالى: ﴿**نزل به الروح الأمين على قلبك**﴾(٢) ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم.

والجواب: أن التعليم من الله تعالى والملائكة إنما هم مبلغون.

الثالث: أنه اطرد في الكتاب والسنة تقديم ذكرهم على ذكر الأنبياء، وما ذلك إلا لتقدمهم في الشرف والرتبة.

والجواب: أن ذلك لتقدمهم في الوجود، أو لأن وجودهم أخفى فالإيمان بهم أقوى وبالتقديم أولى.

---

(١) سورة النجم، الآية ٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٩٣.

الرابع: قوله تعالى: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾**[1]، فإن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة على عيسى، إذ القياس في مثله الترقي من الأدنى إلى الأعلى، يقال: لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان، ولا يقال: السلطان ولا الوزير. ثم لا قائل بالفصل بين عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام.

والجواب: أن النصارى استعظموا المسيح بحيث يترفع أن يكون عبداً من عباد الله، بل ينبغي أن يكون ابنا له، لأنه مجرد لا أب له، وكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، بخلاف سائر العباد من بني آدم، فرد عليهم بأنه لا يستنكف من ذلك المسيح ولا من هو أعلى منه في هذا المعنى وهم الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم، ويقدرون بإذن الله على أفعال أقوى وأعجب من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى فالترقي والعلو إنما هو في أمر التجرد وإظهار الآثار القوية لا في مطلق الشرف والكمال، فلا دلالة على أفضلية الملائكة، انتهى.

[مراتب الملائكة]

ثم الملائكة بعضهم أفضل من بعض، وأفضلهم الروح الأمين جبريل، المزكى من رب/ العالمين، المقول فيه من ذي العزة **﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين﴾**[2] فوصفه بسبع صفات، فهو أفضل الملائكة الثلاثة - الذين هم أفضل الملائكة على الإطلاق - وهم: ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل. ١/٢٤٥

(١) سورة النساء، الآية ١٧٢.

(٢) سورة التكوير، الآية ٢٠.

[نبوة آدم عليه السلام]

وكذلك الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء والرسل، كما تقدم.

وأول الأنبياء آدم وآخرهم نبينا محمد ﷺ.

فأما نبوة آدم فبالكتاب الدال على أنه قد أمر ونهي، مع القطع بأنه لم يكن في زمنه نبي آخر، فهو بالوحي لا غير، وكذا السنة والإجماع، فإنكار نبوته على ما نقل عن البعض يكون كفراً.

[عدد الأنبياء والرسل]

وقد اختلف في عدد الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك ما في حديث أبي ذر عند ابن مردويه في تفسيره، قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير، قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم، ثم قال: يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم[1] وشيت ونوح وخنوخ ـ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم ـ، وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك.

وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان في كتابه «الأنواع والتقاسيم» وقد وسمه بالصحيح.

---

(١) كيف يكون آدم منسوباً إلى السريان وهو أبو البشر؟ [م].

وخالفه ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام.

قال الحافظ ابن كثير: ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث، فالله أعلم.

وروى أبو يعلى عن أنس مرفوعاً: كان من خلى من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى بن مريم، ثم كنت أنا والذين نص الله تعالى على أسمائهم في القرآن: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم، ولوط وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب، وموسى وهارون ويونس، وداود وسليمان وإلياس واليسع، وزكريا ويحيى وعيسى. وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين والله أعلم.

[﴿ورفعنا لك ذكرك﴾]

وقال الله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾

روى ابن جرير من حديث أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: أتاني جبريل عليه السلام فقال: إن ربي وربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله أعلم قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي. وذكره الطبراني، وصححه ابن حبان.

وروينا عن الإمام الشافعي قال: أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح: معناه لاأذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قال الإمام الشافعي يعني ـ والله أعلم ـ ذكره عند الإيمان بالله، والأذان، قال: ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية انتهى.

وقيل: رفعه بالنبوة. قاله يحيى بن آدم.

وعن ابن عطاء: جعلتك ذكراً من ذكري. فمن ذكرك ذكرني، وعنه أيضاً: جعلت تمام الإيمان بذكري معك.

وعن جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية.

قال البيضاوي: وأي رفعة مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، انتهى، يشير إلى قوله تعالى: **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**[1] **﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾**[2] **﴿ومن يطع الله ورسوله﴾**[3] **﴿وأطيعوا الله والرسول﴾**[4].

وقول قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، انتهى.

٢٤٥/ب فهو مذكور معه في الشهادة/ والتشهد، ومقرون ذكره بذكره في القرآن والخطب والآذان، ويؤذن باسمه في موقف القيامة.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رفعه: لما نزل آدم عليه السلام بالهند استوحش فنزل جبريل عليه السلام فنادى بالأذان:

---

(١) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٦٢.

(٣) سورة النساء، الآية ١٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٣٢.

الله أكبر، الله أكبر مرتين، أشهد أن لاإله إلا الله مرتين، أشهد أن محمداً رسول الله مرتين، الحديث[1].

وكتب اسمه الشريف على العرش وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر[2].

وأخرج البزار عن ابن عمر مرفوعاً: لما عرج بي إلى السماء، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي مكتوباً فيها: محمد رسول الله.

وفي الحلية عن ابن عباس رفعه: ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأخرج الطبراني من حديث جابر مرفوعاً: كان نقش خاتم سليمان بن داود عليهما السلام لا إله إلا الله محمد رسول الله. وعزاه الحافظ ابن رجب في كتاب أحكام الخواتيم لجزء أبي علي الخالدي، وقال: إنه باطل موضوع.

وشق اسمه الكريم من اسمه تعالى، كما قال حسان:

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وسماه من أسمائه الحسنى بنحو سبعين اسماً، كما بينت ذلك في أسمائه صلوات الله وسلامه عليه، وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، فقال تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾[3] فأخبر عباده

(١) ورواه أيضاً الحاكم وابن عساكر.
(٢) عن كعب الأحبار وهو من الإسرائيليات، وقيل إنه موضوع.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، فيجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً.

وكتبه نبياً وآدم بين الروح والجسد، وختم به النبوة والرسالة، وأعلن بذكره الكريم في الأولين والآخرين، ونوه بقدره الرفيع حين أخذ الميثاق على جميع النبيين، وجعل ذكره في فواتح الرسائل وخواتمها، وشرف به المصاقع على المنابر، وزين بذكره أرباب الأقلام والمحابر، ونشر ذكره في الآفاق شرقاً وغرباً، براً وبحراً، حتى في السماوات السبع وعند المستوى وصريف الأقلام، والعرش والكرسي، وسائر الملائكة المقربين من الكروبيين والروحانيين والعلويين والسفليين، وجعله في قلوب المؤمنين بحيث يستطيعون ذكره فترتاح أرواحهم، وربما تميل من طرب سماع اسمه أشباحهم.

وإذا ذكرتكمُ أميل كأنني من طيب ذكركمُ سقيت الراحا

كأنه تعالى يقول: أملأ الوجود كله من أتباعك، كلهم يثنون عليك، ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة، فهم متمسكون في الفريضة بأمري، وفي السنة بأمرك، وجعلت طاعتي طاعتك، وبيعتي بيعتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون بليغ وعظك، والملوك والسلاطين يقفون في خدمتك ويسلمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق إلى أبد الآبدين، والحمد لله رب العالمين.

[﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾]

وقال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[1].

اعلم أن للمفسرين في (طه) قولين، أحدهما: أنها من حروف التهجي، والثاني أنها كلمة مفيدة.

وعلى الأولى: قيل معناها، يا مطمع الشفاعة للأمة، ويا هادي الخلق إلى الملة، وقيل: «الطاء» في الحساب بتسعة/ والهاء بخمسة، فالجملة أربعة عشر، ومعناه: يا أيها البدر، وهذه الأقوال لا يجب أن يعتمد عليها إذ هي، كما قاله المحققون، من بدع المفسرين، ومثلها قول الواسطي، فيما حكاه القاضي عياض في «الشفاء»، أراد: يا طاهر يا هادي.

١/٢٤٦

وأما على قول من قال: إنها كلمة مفيدة، ففيه وجهان: أحدهما، أن معناه: يا رجل، وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة. قال سعيد بن جبير: بلسان النبطية، وقال قتادة: بلسان السريانية، وقال عكرمة: بلسان الحبشية. وقال البيضاوي: إن صح أن معناه: يا رجل فلعل أصله: يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، انتهى.

وقال الكلبي: لو قلت في «عَكّ»[2] يا رجل، لم يجبك حتى تقول: طه.

---

(١) سورة طه، الآية ١ ـ ٢.

(٢) هو عك بن عدنان، أخو معد، وهم باليمن وليس في لغتهم لفظ «رجل» ويقابلها لفظ: طه.

وقال السدي: معنى طه يا فلان.

وقال الزمخشري: لعل «عكاً» تصرفوا في «يا هـذا» كأنهم في لغتهم قـالبون «اليـاء» «طاء» فقـالوا: في «يـاطـاء» واختصروا هـذا فاقتصروا على «ها»، وأثر الصيغة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به:

إن السفـاهــة طــه في خــلائـقكـم   لا قــدس الله أخــلاق المــلاعــين

قال في البحر: وقد كان قدم أن «طه» في لغة «عك» في معنى يا رجل، ثم تخوض وتجرأ على «عك» بما لا يقوله نحـوي، وهو أنهم قلبوا «الياء» «طاء» وهذا لا يوجد في لسان العرب قلب «الياء» التي للنداء «طاء» وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرار «ها» التي للتنبيه، انتهى.

وقيل: معناه يا إنسان.

وقرئ (طه) بإسكان الهاء، على أنه أمر له ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه.

وقد روي أنه ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً، وأن الأصل «طاء» فقلبت همزته هاء، كما قالوا «هياك» في: إياك، و«هرقت» في: أرقت. ويجوز أن يكون الأصل من وطئ على ترك الهمزة، فيكون أصله «طا» يا رجل ثم أثبتت الهاء فيها للوقف. وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل «طه»: طاها، والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية عن الأرض. لكن يرد ذلك: كتبهما على صورة الحرف.

وأما قوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، فذكروا في سبب نزولها أقوالاً:

أحدها: أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك، فقال ﷺ: بل بعثت رحمة للعالمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم، وتعريفاً له ﷺ بأن دين الإسلام والقرآن هو السلَّم إلى نيل كل فوز، والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها.

وثانيها: أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل: أبق على نفسك، فإن لها عليك حقاً. أي ما أنزلناه عليك لتنتهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحاء.

وروي أنه كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام. وقال بعضهم: كان يسهر طول الليل.

وتعقب: بأنه بعيد، لأنه ﷺ إن فعل شيئاً من ذلك فلا بد أن يكون قد فعله بأمر الله تعالى، وإذا فعله عن أمره فهو من باب السعادة[1] لا من باب الشقاوة[2].

وثالثها: قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد، لا تشق على نفسك وتعذبها بالأسف على كفر هؤلاء، فإنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به من آمن، فمن آمن وأصلح فلنفسه، ومن كفر فلا يحزنك

---

(١) في ط: الشقاوة.

(٢) سقطت هذه الجملة في ط.

كفره، فما عليك إلا البلاغ، وهذا كقوله: ﴿**لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين**﴾ ﴿**ولا يحزنك كفرهم**﴾.

رابعها: أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، وفي ذلك الوقت كان ﷺ مقهوراً مع أعدائه، فكأنه تعالى قال: لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة، بل يعلو أمرك ويظهر/ قدرك، فإنا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقياً، بل تصير معظماً مكرماً، زاده الله تعالى تعظيماً وتكريماً وتشريفاً. ٢٤٦/ب

[﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾]

وقال تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ السورة.

قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: في هذه السورة كثير من الفوائد، منها: أنها كالتتمة لما قبلها من السور، وذلك لأن الله تعالى جعل سورة (والضحى) في مدح نبينا ﷺ، وتفصيل أحواله، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته وهي قوله: ﴿**ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ ثم ختمها كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً**﴾ أي عن علم الحكم والأحكام ﴿**فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى**﴾. ثم ذكر في سورة ﴿**ألم نشرح**﴾ أنه تعالى شرفه ﷺ بثلاثة أشياء وهي ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾ أي: ألم نفسحه حتى وسع[1] مناجاة الحق ودعوة الخلق، ﴿**ووضعنا عنك وزرك**﴾ أي عناءك الثقيل ﴿**الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك**﴾ وهكذا سورة سورة، حتى قال: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ أي أعطيناك

(١) في ط: يسع.

هذه المناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها. وإذ[1] أنعمنا عليك بهذه النعم فاشتغل بطاعتنا ولا تبال بقولهم.

ثم إن الاشتغال بالعبادة إما أن يكون بالنفس وهو قوله: ﴿**فصل لربك**﴾، وإما بالمال وهو قوله: ﴿**وانحر**﴾

وتأمل قوله: ﴿**إنا أعطيناك**﴾ كيف ذكر بلفظ الماضي، ولم يقل: سنعطيك، ليدل على أن هذا الإعطاء حصل في الزمان الماضي، قال ﷺ : كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد. ولا شك أن من كان في الزمان الماضي عزيزاً مرعي الجانب أشرف ممن سيصير كذلك، كأنه تعالى يقول: يا محمد قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، فكيف أمرك بعد وجودك واشتغالك بعبوديتنا يا أيها العبد الكريم، إنا لم نعطك هذا الفضل العميم لأجل طاعتك، وإنما اخترناك بمجرد فضلنا وإحساسنا من غير موجب.

واختلف المفسرون في تفسير (الكوثر) على وجوه:

منها: أنه نهر في الجنة، وهذا هو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف، فروى أنس أن رسول الله ﷺ قال: (بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه مسك إذفر) رواه البخاري.

وقيل: الكوثر أولاده، لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم الأولاد، وعلى هذا فالمعنى: أنه يعطيه نسلاً يبقون على

---

(١) كذا في ش. وفي النسخ: إذا.

ممر الزمان. فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يتفق ذلك لنبي من الأنبياء غيره.

وقيل: الكوثر الخير الكثير. وقيل: النبوة، وهي الخير الكثير.

وقيل: علماء أمته، وقيل الإسلام، ولا ريب أنهما من الخير الكثير، فالعلماء ورثة الأنبياء، كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وأما «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» فقال الحافظ ابن حجر، ومن قبله الدميري والزركشي، أنه لا أصل له. نعم روى أبو نعيم في فضل العالم العفيف بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد.

وقيل: الكوثر كثرة الأتباع والأشياع.

وعن بعضهم: المراد بالكوثر العلم، وحمله عليه أولى لوجوه: أحدها أن العلم هو الخير الكثير، والثاني: إما أن يحمل الكوثر على نعم الآخرة أو على نعم الدنيا، قال: والأول غير جائز لأنه قال: إنا أعطيناك الكوثر، والجنة سيعطيها لا أنه أعطاها، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة، فوجب حمل اللفظ على العلم،/ والثالث: أنه لما قال ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ قال عقبة: ﴿**فصل لربك وانحر**﴾ والشيء الذي يتقدم على العبادة هو المعرفة، ولأن «الفاء» في قوله (فصلِ) للتعقيب، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم. 1/247

وقيل الكوثر الخلق الحسن [كما في حديث: ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة. رواه الطبراني][1]. وعن ابن عباس: جميع نعم الله على نبيه ﷺ.

---

(١) زيادة في ش.

وبالجملة: فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي، فوجب حملها على الكل، ولذا روي أن سعيد بن جبير لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم: إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: قال بعض العلماء: ظاهر قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ يقتضي أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله من النبوة والقرآن والذكر العظيم والنصر على الأعداء. وأما الحوض وسائر ما أعدَّ له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال: إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله فهو كالواقع، إلا أن الحقيقة ما قدمناه، لأن ذلك وإن أعدَّ له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه الكوثر في حال نزول هذه السورة بمكة، ويحتمل أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بشيء له، يصح أن يقال: أعطاه ذلك الشيء، مع أن الصبي في ذلك الحال ليس أهلاً للتصرف. انتهى.

وقد روينا في صحيح مسلم من حديث أنس (بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما يضحكك أضحك الله سنك، يا رسول الله؟ قال: نزلت على آنفاً سورة فقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، . إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج

العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك)[1].

وهذا تفسير صريح منه ﷺ بأن المراد بالكوثر ـ هنا ـ الحوض، فالمصير إليه أولى، وهذا هو المشهور كما تقدم.

فسبحان من أعطاه هذه الفضائل العظيمة وشرفه بهذه الخصال العميمة، وحباه بما أفاضه عليه من نعمه الجسيمة.

[تكريمه ﷺ بالخطاب]

وقد جرت عادة الله مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أن يناديهم بأسمائهم الأعلام نحو: **﴿يا آدم اسكن﴾**[2] **﴿يا نوح اهبط﴾**[3] **﴿يا موسى إني أنا الله﴾**[4] **﴿يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك﴾**[5]، وأما نبينا محمد ﷺ فناداه بالوصف الشريف من الإنباء والإرسال فقال: (يا أيها الرسول) (يا أيها النبي). ولله در القائل:

فدعا جميع الرسل كلاً باسمه ودعاك وحدك بالرسول وبالنبي

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا عبيده بأفضل ما أوجد لهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف

---

(١) هو في كتاب الصلاة عند مسلم برقم ٥٣.
(٢) سورة البقرة، الآية ٣٥.
(٣) سورة هود، الآية ٤٨.
(٤) سورة القصص، الآية ٣٠.
(٥) سورة المائدة، الآية ١١٠.

من الأوصاف، ولا بخلق من الأخلاق، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم، وهذا معلوم بالعرف: أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه. انتهى.

وانظر ما في نحو قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[1] من ذكر «الرب» تعالى وإضافته إليه ﷺ، وما في ذلك من التنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه، وما في ذلك من الإشارة اللطيفة، وهي أن المقبل عليه بالخطاب، له الحظ الأعظم، والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها إذ هو في الحقيقة أعظم/ خلفائه. ٢٤٧/ب

ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه، وجعله أفضل أنبيائه، أمَّ بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسمائه، وفي دار تكليفه وجزائه.

وبالجملة: فقد تضمن الكتاب العزيز من التصريح بجليل رتبته، وتعظيم قدره، وعلو منصبه، ورفعة ذكره ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم، ويكفي إخباره تعالى بالعفو عنه وملاطفته قبل ذكر العتاب في قوله تعالى: ﴿**عفا الله عنك، لم أذنت لهم**﴾[2] وتقديم ذكره على الأنبياء تعظيماً له، مع تأخره عنهم في الزمان في قوله تعالى: ﴿**ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم**﴾[3] وإخباره بتمني أهل النار طاعته في قوله تعالى: ﴿**يوم تقلب وجوههم في**

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٤٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٧.

النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾[1]، وهذا بحر لا ينفد وقطر لا يعد.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦٦.

النوع الثاني

في أخذ الله الميثاق له على النبيين فضلا ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه

قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ الآية[1].

أخبر تعالى أنه أخذ الميثاق على كل نبي بعثه، من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ أن يصدق بعضهم بعضاً، قاله الحسن وطاووس وقتادة.

وقيل معناه: أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممهم، واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم.

وعن علي بن أبي طالب وابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ ـ وهو حي ـ ليؤمنن به ولينصرنه. وما قاله قتادة والحسن وطاووس لا يضاد ما قاله علي وابن عباس، ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٨١.

وقيل معناه: أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ أن يؤمنوا به وأن ينصروه، واحتج له بأن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه، وكان الأنبياء عند مبعث محمد ﷺ من جملة الأموات، والميت لا يكون مكلفاً، فتعين أن يكون الميثاق مأخوذاً على الأمم. قالوا: ويؤكد هذا، أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق بأنهم لو تولوا لكانوا فاسقين، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء، وإنما يليق بالأمم.

وأجاب الفخر الرازي[1]: بأن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ. ونظيره قوله تعالى ﴿**لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾[2]، وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط، ولكنه خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض، وقال تعالى: ﴿**ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين**﴾[3] وقال في الملائكة: ﴿**ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم**﴾[4] مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم ﴿**لا يسبقونه بالقول**﴾[5] وبأنهم ﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾[6]، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير. وإذا نزلت هذه الآية على أن الله تعالى

---

(١) في الأصل: وأجيب.
(٢) سورة الزمر، الآية ٦٥.
(٣) سورة الحاقة، الآية ٤٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية ٢٩.
(٥) سورة الأنبياء، الآية ٢٧.
(٦) سورة النحل، الآية ٥٠.

[لما][1] أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ لو كانوا في الأحياء، وأنهم لو تركوا ذلك لكانوا في زمرة الفاسقين، فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجباً على أممهم من باب أولى. فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المقصود.

وقال السبكي في هذه الآية: إنه ﷺ على تقدير مجيئهم في زمانه يكون مرسلاً إليهم. فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق، من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، ويكون قوله ﷺ: (وبعثت إلى الناس كافة) لا يختص به الناس في زمانه إلى/ يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضاً، وإنما أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنه المتقدم عليهم، وأنه نبيهم ورسولهم. ١/٢٤٨

وفي أخذ المواثيق - وهي في معنى الاستحلاف، ولذلك دخلت «لام» القسم في (لتؤمنن به ولتنصرنه) - لطيفة: وهي كأنها أيمان البيعة التي تؤخذ للخلفاء، ولعل أيمان الخلفاء أخذت من هنا.

فانظر إلى هذا التعظيم العظيم للنبي ﷺ من ربه تعالى، فإذا عرف هذا فالنبي محمد ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه، وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أممهم اتباعه والإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم، فنبوته عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل لهم في حياتهم، وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه. وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل، فهاهنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من ذات النبي ﷺ الشريفة، وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل

[1] في (ط، ب).

عليه، فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك، ولهذا يأتي عيسى عليه السلام في آخر الزمان على شريعته، وهو نبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبي ﷺ، وإنما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بالقرآن والسنة، وكل ما فيهما من أمر ونهي، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة، وهو نبي كريم على حاله لم ينقص منه شيء.

وكذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه أو في زمان موسى وإبراهيم ونوح وآدم كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، والنبي ﷺ نبي عليهم ورسول إلى جميعهم، فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم. وتتفق مع شرائعهم في الأصول، لأنها لا تختلف، وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع، إما على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أو: لا نسخ ولا تخصيص بل تكون شريعة النبي ﷺ في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم، وفي هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة الشريفة، والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات، وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيا عنا.

أحدهما: قوله ﷺ: (بعثت إلى الناس كافة)[1]، كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه إلى جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ: (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد)[2]، كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك، وإنما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده ﷺ وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والبخاري في التاريخ وأبو نعيم وغيرهم.

المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه لا بالنسبة إليه ولا إليهم، لو تأهلوا قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف فهاهنا التعليق إنما هو بحسب المحل القابل، وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذي يخاطبهم بلسانه.

وهذا كما يوكل الأب رجلاً في تزويج ابنته إذا وجدت كفءاً، فالتوكيل صحيح وذلك الرجل أهل للوكالة، ووكالته ثابتة، وقد يحصل توقف التصرف على وجود الكفء، ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدح في صحة الوكالة وأهلية الوكيل، انتهى.

النوع الثالث

في وصفه له ﷺ بالشهادة وشهادته له بالرسالة

[﴿وابعث فيهم رسولاً منهم﴾]

٢٤٨/ب /قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عند بناء البيت الحرام: ﴿**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم**﴾(١).

فاستجاب الله دعاءهما، وبعث في أهل مكة رسولاً منهم بهذه الصفة من ولد إسماعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليهما السلام بهذا الدعاء.

فإن قلت: من أين علم أن الرسول هنا المراد به محمد ﷺ؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: إجماع المفسرين وهو حجة.

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩.

الثاني: قوله ﷺ: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى)[1] قالوا: وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى هي ما ذكر في سورة الصف من قوله: ﴿**ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾[2].

الثالث: إن إبراهيم إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين كانوا بها وبما حولها، ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة إلا محمداً ﷺ . وقد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعث هذا النبي منهم على هذه الصفة فقال تعالى: ﴿**لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ الآية[3]، فليس لله منة على المؤمنين أعظم من إرساله محمداً ﷺ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم النعم، لأن النعمة به ﷺ تمت بها مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده.

وقوله: ﴿**من أنفسهم**﴾ يعني أنه بشر مثلهم، وإنما امتاز عليهم بالوحي.

وقرئ في الشواذ (من أنفَسهم) - بفتح الفاء - يعني من أشرفهم، لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل من غيرهم.

ثم قيل: لفظ (المؤمنين) عام، ومعناه خاص في العرب، لأنه ليس حي من أحياء العرب إلا وقد ولده، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به أكثر، فالمنة عليهم أعظم.

---

(١) أخرجه الطيالسي والديلمي وابن عساكر.

(٢) سورة الصف، الآية ٦.

(٣) سورة آل عمران، ١٦٤.

فإن قلت: هل العلم بكونه ﷺ بشراً، ومن العرب، شرط في صحة الإيمان، أو هو من فروض الكفاية.

أجاب الشيخ ولي الدين بن العراقي: بأنه شرط في صحة الإيمان. قال: فلو قال شخص: أومن برسالة محمد ﷺ إلى جميع الخلق، ولكني لا أدري هل هو من البشر أو الملائكة، أو من الجن، أو لا أدري أهو من العرب أو العجم، فلا شك في كفره لتكذيبه للقرآن وجحده ما تلقته قرون الإسلام خلفاً عن سلف، وصار معلوماً بالضرورة عند الخاص والعام، ولا أعلم في ذلك خلافاً. فلو كان غبياً لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه، فإن جحده بعد ذلك حكمنا بكفره. انتهى.

فإن قلت: هل هو ﷺ باق على رسالته إلى الآن؟

أجاب أبو المعين النسفي[1]: بأن الأشعري قال: إنه ﷺ الآن في حكم الرسالة، وحكم الشيء يقوم مقام أصل الشيء، ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح. انتهى.

وقال غيره: إن النبوة والرسالة باقية بعد موته ﷺ حقيقة، كما يبقى وصف الإيمان بعد موته، لأن المتصف بالنبوة والرسالة، والإيمان هو الروح وهي باقية لا تتغير بموت البدن. انتهى.

---

(١) ميمون بن محمد بن سعيد النسفي الحنفي صاحب التبصرة في علم الكلام، والتمهيد لقواعد التوحيد وغيرهما، وهو غير صاحب «الكنز» عبدالله بن أحمد، وغير صاحب التفسير، عمر بن محمد وغير صاحب العقائد البرهان محمد بن محمد، وكلهم حنفيون من «نسف» مدينة بما وراء النهر.

وتعقب: بأن الأنبياء أحياء في قبورهم، فوصف النبوة باق للجسد والروح معاً.

وقال القشيري: كلام الله تعالى لمن اصطفاه: أرسلتك أن تبلغ عني، وكلامه تعالى قديم، فهو ﷺ / قبل أن يوجد كان رسولاً. وفي حال كونه وإلى الأبد رسولاً، لبقاء الكلام وقدمه، واستحالة البطلان على الإرسال الذي هو كلام الله تعالى. ١/٢٤٩

ونقل السبكي في طبقاته، عن ابن فورك أنه قال إنه ﷺ حي في قبره، رسول الله أبد الآباد على الحقيقة لا المجاز. انتهى.

[﴿بعث في الأميين رسولاً﴾]

وقال تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**(١).

والمراد بالأميين: العرب، تنبيهاً لهم على قدر هذه النعمة وعظمها حيث كانوا أميين، لا كتاب لهم، وليس عندهم شيء من آثار النبوة، كما عند أهل الكتاب، فمنَّ الله تعالى عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضل الأمم وأعلمهم، وعرفوا ضلالة من ضل قبلهم من الأمم.

وفي كونه ﷺ منهم فائدتان:

إحداهما: أن هذا الرسول كان أيضاً أمياً كأميَّة المبعوث إليهم،

---

(١) سورة الجمعة، الآية ٢.

لم يقرأ كتاباً قط ولم يخطه بيمينه، كما قال تعالى: **﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾**[1]، ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم، بل لم يزل أمياً بين أمة أمية لا يكتب ولا يقرأ حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين، وهذه الشريعة الباهرة، وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق أهل الأرض ونظارها أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه، وفي هذا برهان عظيم على صدقه ﷺ.

الفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم وهم الأميون، خصوصاً أهل مكة، يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، وأنه نشأ بينهم معروفاً بذلك، وأنه لم يكذب قط، فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز وجل؟ هذا هو الباطل. ولذلك سأل هرقل عن هذه الأوصاف واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

وقد قال الله تعالى خطاباً له: **﴿فإنهم لا يكذبونك﴾**[2]. ويروى أن رجلاً قال: والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ولكنا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

وعن مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذب النبي ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب.

ويروى أن المشركين كانوا إذا رأوه ﷺ قالوا: إنه لنبي.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٣٣.

وعن علي: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى الآية.

والمعنى: أنهم ينكرونه مع العلم بصحته. إذ الجحد هو الإنكار مع العلم.

فإن قلت: فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: **﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾**[1]؟

أجيب: بأنه على طريق الجحد، وهو يختلف باختلاف أحوالهم في الجهل، فمنهم من وقع منه ذلك لجهله، فحيث علم آمن، ومنهم من علم وأنكر كفراً وعناداً كأبي جهل. فيكون المراد بقوله فإنهم لا يكذبونك، قوماً مخصوصين منهم لا كلهم، وحينئذٍ فلا تعارض.

وروي أن أبا جهل لقيه فصافحه فقيل له: أتصافحه؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف؟ فأنزل الله الآية، رواه ابن أبي حاتم.

والقرآن كله مملوء بالآيات الدالة على صدق هذا الرسول الكريم، وتحقيق رسالته، فكيف يليق بكمال الله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته ويرفع شأنه، ويجيب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على يده من الآيات والبراهين والأدلة ما يضعف عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه، مفترٍ ساعٍ / في الأرض بالفساد؟؟ ٢٤٩/ب

ومعلوم أن شهادته سبحانه وتعالى على كل شيء، وقدرته على

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٤.

كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء، ومن ظن ذلك به وجوزه عليه فهو من أبعد الخلق عن معرفته إن عرف منه بعض صفاته كصفة القدرة وصفة المشيئة(١).

والقرآن كله مملوء من هذه الطريق، وهذه طريقة الخاصة، بل خاصة الخاصة الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك ويبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿**ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾(٢)، أفتراه سبحانه وتعالى يخبر أن كماله وحكمه يأبى أن يقرَّ من تقول عليه بعض الأقاويل، بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سننه في المتقولين عليه.

وقال تعالى: ﴿**أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك**﴾(٣) هاهنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق أنه يمحو الباطل ويحق الحق.

وقال تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء**﴾(٤)، فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي ولا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن

---

(١) أي أن جميع الناس يدركون كثيراً من صفاته ويقرون بها، ومن حق من عرف شيئاً منها أن يعترف بما ظهر له من الأدلة باتصافه ﷺ بجميع صفات الكمال اللائقة به.

(٢) سورة الحاقة، رقم الآية ٤٧.

(٣) سورة الشورى، الآية ٢٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٩١.

أن الله ينصر الكاذب المفتري عليه، ويؤيده ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟

وهذا في القرآن كثير يستدل تعالى بكماله المقدس وأوصافه وجلاله على صدق رسوله، وعلى وعده ووعيده، ويدعو عباده إلى ذلك.

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿**أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون**﴾[1]، فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله يكفى من كل آية، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب. ثم قال: ﴿**قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض**﴾ فإذا كان سبحانه عالماً بجميع الأشياء كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام محيط بالمشهود به، وهو سبحانه وتعالى يذكر علمه عند شهادته وقدرته، وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه، وأمره ورحمته عند ذكر إرسال رسله، وحلمه عند ذنوب عباده. فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر والثواب والعقاب. انتهى.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٥١ ـ ٥٢.

[﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾]

وقال تعالى: **﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾**[1].

أي شاهداً على الوحدانية، وشاهداً في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط، وشاهداً في الآخرة بأحوال الدنيا، وبالطاعة والمعصية والصلاح والفساد، وشاهداً على الخلق يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**[2].

كأنه تعالى يقول: يا أيها المشرَّف من قبلنا، إنا أرسلناك شاهداً بوحدانيتنا ومشاهداً كمال فردانيتنا، تبشر عبادنا عنا، وتحذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعياً الخلق إلينا، وسراجاً يستضيئون بك، وشمساً تبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من اتبعك وخدمك وقدمك، فبشر بفضلنا وطولنا عليهم/ وإحساننا إليهم. ١/٢٥٠

ولما كان الله تعالى قد جعله ﷺ شاهداً على الوحدانية، والشاهد لا يكون مدعياً، فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوحدانية مدعياً لها، لأن المدعي من يقول شيئاً على خلاف الظاهر، والوحدانية أظهر من الشمس، والنبي ﷺ كان ادعى النبوة، فجعل الله تعالى نفسه شاهداً له في مجازاة كونه شاهداً له تعالى فقال سبحانه: **﴿والله يعلم**[3]

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٣) في جميع النسخ، يشهد، ولكنها في المصحف يعلم، ولعله أراد نقل المعنى تفسيراً للآية.

إنك لرسوله﴾[1]، ومن هذا قوله تعالى: **﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾**[2] فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. وكذلك قوله تعالى: **﴿قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم﴾**[3]، وقوله: **﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾**[4] وقوله: **﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾**[5] وقوله: **﴿محمد رسول الله﴾**[6]، فهذا كله منه تعالى شهادة لرسوله قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم بكونه سبحانه شاهداً لرسوله.

[﴿أرسل رسوله بالهدى﴾]

وقال تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾**[7].

فيظهر ظهورين: ظهوراً بالحجة والبيان، وظهوراً بالنصر والغلبة والتأييد حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصوراً.

---

(١) سورة المنافقون، الآية ١.
(٢) سورة الرعد، الآية ٤٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٩.
(٤) سورة النساء، الآية ١٦٦.
(٥) سورة المنافقون الآية ١.
(٦) سورة الفتح، الآية ٢٩.
(٧) سورة الفتح، الآية ٢٨.

[شاهد الفطرة]

ومن شهادته تعالى أيضاً ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم، واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن الله تعالى فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطرة على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره. ولهذا ندب الحق سبحانه إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له علماً ضرورياً ويقيناً جازماً أنه حق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[1]، فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علماً ضرورياً كسائر الأمور الوجدانية باللذة والألم أنه من عند الله، تكلم به حقاً، وبلغه رسوله جبريل إلى رسوله محمد ﷺ. فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد. انتهى ملخصاً من مدارج السالكين.

[﴿إني رسول الله إليكم﴾]

وقال تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾[2].

ففي هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة الثقلين.

---

(١) سورة محمد، الآية ٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

وقالت العيسوية من اليهود ـ وهم أتباع عيسى الأصبهاني ـ: إن محمداً صادق مبعوث إلى العرب، غير مبعوث إلى بني إسرائيل.

ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية، لأن قوله: ﴿**يا أيها الناس**﴾ خطاب يتناول كل الناس، ثم قال: ﴿**إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس.

وأيضاً: فلأنا نعلم بالتواتر أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى الثقلين. فإما أن تقول: كان رسولاً حقاً، أو ما كان كذلك، فإن كان رسولاً حقاً امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقاً في كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي كونه مبعوثاً إلى جميع الثقلين، وجب كونه صادقاً، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثاً إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل.

وإذا ثبت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾ من الناس من يقول إنه عام دخله التخصيص، ومنهم من أنكر ذلك.

أما الأولون فقالوا: دخله التخصيص/ من وجهين: ٢٥٠/ب

الأول: أنه رسول إلى الناس إذا كانوا من جملة المكلفين، فأما إذا لم يكونوا من جملة المكلفين لم يكن رسولاً إليهم، وذلك لأنه ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق» رواه ابن جرير عن ابن عباس[1].

والثاني: أنه رسول إلى من وصله خبر وجوده، وخبر معجزاته

(١) في (أ، ط) عن ابن عساكر، ولم يذكر الراوي في (د، ش). قال الشارح رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وشرائعه، حتى يمكنه عند ذلك متابعته. أما لو قدرنا حصول قوم في طرف من أطراف الأرض لم يبلغهم خبره وخبر معجزاته وشرائعه حتى لا يمكنهم عند ذلك متابعته فلا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوته. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم. ومفهومه: أن من لم يسمع به ﷺ ولم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، على ما تقرر في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح. وفي هذا الحديث نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ.

[﴿قد جاءكم رسولنا﴾]

وقال تعالى: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل[1]، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾**[2].

خاطب تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول. بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال تعالى: **﴿على فترة من الرسل﴾** أي بعد مدة متطاولة، ما بين إرساله وعيسى بن مريم.

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال النهدي وقتادة في رواية عنه: ستمائة سنة. ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وعن

---

(١) هذا ما ذكر من الآية في (ا، د) وجاء إتمامها في (ب، ش).

(٢) سورة المائدة، الآية ١٩.

قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة، وعن الشعبي - فيما ذكره ابن عساكر - تسعمائة وثلاث[1] وثلاثون سنة.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: والمشهور أنها ستمائة سنة، قال: وكانت هي الفترة بين عيسى بن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمد آخر النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي» وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي[2] وغيره.

والمقصود: أن الله بعث محمداً على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم والنفع به أعم.

وفي حديث عند الإمام أحمد مرفوعاً: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل»[3] وفي لفظ مسلم «من أهل الكتاب»[4]. فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى به الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشريعة الغراء، صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) كذا في ش، وجاء في النسخ «ثلاثة» وهو غلط.
(٢) في ش القاضي، قال: وفي نسخ القضاعي.
(٣) المسند ١٦٢/٤.
(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة رقم ٦٣.

[﴿رسول من أنفسكم﴾]

وقال تعالى: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**(١).

أي: عزيز عليه عنتكم، أي إثمكم بالشرك والمعاصي، حريص عليكم أن تهتدوا. قال الحسن: عزيز عليه أن تدخلوا النار، حريص عليكم أن تدخلوا الجنة، ومن حرصه ﷺ علينا أنه لم يخاطبنا بما يريد إبلاغه إلينا، وفهمنا إياه على قدر منزلته، بل على قدر منزلتنا، وإلى هذا أشار صاحب البردة بقوله:

لم يمتحنا بما تعيى العقول به   حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

أي لم نتحير ولم نشك فيها ألقاه إلينا. وقال: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(٢) ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم.

ومن حرصه ﷺ على هدايتنا أنه كان كثيراً ما يضرب المثل بالمحسوس ليحصل/ الفهم، وهذه سنة القرآن، ومن تتبع الكتاب والسنة رأى من ذلك العجب العجاب، ولما ساوى الله سبحانه وتعالى بين الناس في حرص رسوله ﷺ على إسلامهم، خص المؤمنين برأفته ورحمته لهم.

١/٢٥١

وقال تعالى: **﴿من أنفسكم﴾** ولم يقل: من أرواحكم، فقيل

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

يحتمل أن يكون مراده: أنه منا بجسده المنفس[1]، لا بروحه المقدس، ويرحم الله القائل:

إذا رمت مدح المصطفى شغفاً به	تبلد ذهني هيبة لمقامه
فأقطع ليلي ساهر الجفن مطرقاً	هوى فيه أحلى من لذيذ منامه
إذا قال فيه الله جل جلاله	رؤوف رحيم في سياق كلامه
فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز	بمختلفيه نثره ونظامه

[توجيه كلام «الشفاء»]

تنبيه: أما قول القاضي عياض بعد ذكره الآية:

«ثم وصفه بعدُ بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم، ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضربهم في دنياهم وأخراهم، وعزته عليه..»[2].

فهو وإن كان المقصد صحيحاً، ففي ظاهره شيء، لأنه يوهم أن قوله «وشدة ما يعنتهم» معطوف على متعلق المصدر الذي هو «الحرص» فيكون مخفوضاً به.

ومما يقوي هذا التوهم قوة إعطاء الكلام، أن الضمير الأول من قوله «وعزته عليه» عائد على النبي ﷺ، والضمير الثاني عائد على الله عز وجل، فلا تبقى «الشدة» إلا أن تكون معطوفة على متعلق المصدر. ولا يخفى ما في هذا.

---

(١) قال في هامش ب: أي النفيس، وقال الشارح: أي المكرم.
(٢) جاء هذا النص في الفصل الأول من الباب الأول ١/٥٣ تحقيق قره علي وزملائه.

وقد تأوله بعض العلماء على حذف مضاف أي: وكراهة شدة ما يعنتهم، أو نحو ذلك من المضافات.

والأولى - أو الصواب، إن شاء الله تعالى - أن تكون «الشدة» معطوفة على نفس المصدر الذي هو «الحرص» ويكون قوله «وعزته» معطوفاً على «وشدة» والضمير فيه راجع إلى الموصول وهو «ما» في قوله «ما يعنتهم» والهاء الثانية في «عليه» عائدة على النبي ﷺ. انتهى.

[﴿رحمة للعالمين﴾]

وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1].

يجوز أن يكون «رحمة» مفعولاً له، أي لأجل الرحمة، ويجوز أن ينتصب على الحال مبالغة في أن جعله نفس الرحمة، وإما على حذف مضاف أي: ذا رحمة، أو بمعنى: راحم. قاله السمين[2].

وقال أبو بكر بن طاهر[3] - فيما ذكره القاضي عياض -: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، انتهى.

وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٢) الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، النحوي نزيل القاهرة مات سنة ست وخمسين وسبعمائة، له إعراب القرآن وأيضاً تفسير كبير في عدة أجزاء.

(٣) ابن مفوز بن أحمد المعافري الشاطبي.

أهلك الله من كذبه. ومحمد أخَّر من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة.

وقال السمرقندي[1]: رحمة للعالمين يعني: الجن والإنس.

وقيل: لجميع الخلق للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

فذاته ﷺ - كما قيل - رحمة تعم المؤمن والكافر، قال الله تعالى: ﴿**وما كانَ الله ليعذبهم وأنت فيهم**﴾[2]، وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» رواه الدارمي والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة[3].

وقال بعض العارفين: الأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، ولقد أحسن القائل:

غنيمة عمر الكون بهجة عيشه ... سرور حياة الدهر فائدة الدهر
هو النعمة العظمى هو الرحمة التي ... تجلى بها الرحمن في السر والجهر

فبيانه ﷺ ونصحه رحمة، ودعاؤه واستغفاره رحمة، فرزِقَ ذلك مَنْ قبله، وحرمه من رده. /

٢٥١/ب

فإن قلت: كيف كان رحمة، وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟

فالجواب من وجهين:

---

(١) نصر بن محمد الفقيه الحنفي الإمام المشهور، له تصانيف توفي سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٣.
(٣) ورواه الحاكم وصححه على شرطهما، وأقره الذهبي.

أحدهما: أنه إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند، ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف الله تعالى: الرحمن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة، وقد قال تعالى: ﴿**ونزلنا من السماء ماء مباركاً**﴾[1] ثم قد يكون سبباً للفساد.

وثانيهما: أن كل نبي من الأنبياء قبل نبينا إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق، وقد أخر الله تعالى عذاب من كذب نبينا إلى الموت، أو إلى القيامة.

لا يقال: إنه تعالى قال: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**ليعذب الله المنافقين**﴾[3]، لأنا نقول: تخصيص العام لا يقدح فيه.

وفي «الشفاء» للقاضي عياض: وحكى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت، لثناء الله تعالى عليَّ بقوله عز وجل: ﴿**ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين**﴾[4]. انتهى[5].

وذكره السمرقندي في تفسيره بلفظ[6]: وذكر أن النبي ﷺ قال لجبريل يقول الله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ فهل أصابك

---

(١) سورة ق، الآية ٩. وقد وردت في المخطوطات و(ط) (وأنزلنا) خطأ.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٤.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٧٣ وقد سقط من المخطوطات و(ط) لفظ الجلالة (الله) خطأ.
(٤) سورة التكوير، الآية ٤٠.
(٥) قال السيوطي: ولم أجده مخرجاً في شيء من كتب الحديث.
(٦) انظر التعليق السابق.

من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، أصابني من هذه الرحمة شيء، كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك، لثناء الله تعالى عليَّ في قوله: ﴿**ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾.

وهذا يقتضي أن محمداً ﷺ أفضل من جبريل، وهو الذي عليه الجمهور، خلافاً لمن زعم أن جبريل أفضل واستدل: بأن الله تعالى وصف جبريل بسبعة أوصاف من صفات الكمال في قوله: ﴿**إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين**﴾، ووصف محمداً ﷺ بقوله: ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾.

ولو كان محمد ﷺ مساوياً لجبريل في صفات الفضل أو مقارباً له لكان وصف محمداً بمثل ذلك.

وأجيب بأنا متفقون على أن لمحمد ﷺ فضائل أخرى سوى ما ذكر في هذه الآية، وعدم ذكر الله تعالى لتلك الفضائل هنا لا يدل على عدمها بالإجمال، وإذا ثبت أن لمحمد ﷺ فضائل أخر زائدة فيكون أفضل من جبريل.

وبالجملة: فإفراد أحد الشخصين بالوصف لا يدل ألبتة على انتفاء تلك الأوصاف عن الثاني، وإذا ثبت بالدليل القرآني أنه ﷺ رحمة للعالمين، والملائكة من جملة العالمين، وجب أن يكون أفضل منهم، والله أعلم.

[﴿وخاتم النبيين﴾]

وقال تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[1].

(1) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس، كما قدمنا ذلك في أسمائه الشريفة من المقصد الثاني.

وبذلك وردت الأحاديث عنه ﷺ:

فروى أحمد من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: (مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً، فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة فلم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة) ورواه الترمذي عن بندار عن أبي عامر العقدي، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي حديث أنس بن مالك مرفوعاً: (إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي) رواه الترمذي وغيره.

وفي حديث جابر مرفوعاً: (مثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، وأنا موضع هذه اللبنة، ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) رواه أبو داود الطيالسي، وكذا البخاري ومسلم.

١/٢٥٢ وفي حديث أبي سعيد/ الخدري: (فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة). رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون).

فمن تشريف الله تعالى له ﷺ ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه، أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تحذق وتشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات[1]، فكلها محال وضلالة عند أولي الألباب.

ولا يقدح في هذا نزول عيسى بن مريم عليه السلام بعده، لأنه إذا نزل كان على دين نبينا ﷺ ومنهاجه، مع أن المراد: أنه آخر من نبئ.

قال أبو حيان: ومن ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع، أو إلى أن الولي أفضل من النبي فهو زنديق يجب قتله والله أعلم.

---

(١) قال في القاموس: النيرنج: أخذ كالسحر وليس به [م].

النوع الرابع

في التنويه به ﷺ في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل

قال الله تعالى: ﴿الـذين يتبعون الـرسول النبي الأمي الـذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾[1].

وهذا يدل على أنه لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيـما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول مقاله، فلما قال لهم ﷺ هذا دل على أن ذلك النعت كان مذكـوراً في التوراة والإنجيـل. وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

لكن أهـل الكتاب كـما قـال الله تعـالى: يكتمـون الحق وهم يعلمون[2] و﴿يحرفون الكلم عن مواضعـه﴾[3]، وإلا فهم ـ قاتلهم

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

(٢) الآيـة الكريمـة ﴿وإن فريقـاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمـون﴾ سـورة البقرة، الآية ١٤٦.

(٣) سورة المائدة، الآية ١٣.

الله ـ قد عرفوا محمداً ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم حرفوهما وبدلوهما ليطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فدلائل نبوة نبينا ﷺ في كتابيهما ـ بعد تحريفهما ـ طافحة، وأعلام شريعته ورسالته فيهما لائحة، وكيف يغني عنهم إنكارهم، وهذا اسم النبي ﷺ بالسريانية «مشفح»[1]، فمشفح، محمد بغير شك، واعتباره أنهم يقولون: «شفحا لاها» إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله، وإذا كان الحمد، شفحا، فمشفح: محمد، ولأن الصفات التي أقروا بها هي وفاق لأحواله وزمانه، ومخرجه ومبعثه وشريعته ﷺ، فليدلونا على من هذه الصفات له، ومن خرجت[2] له الأمم من بين يديه، وانقادت له واستجابت لدعوته. ومن صاحب الجمل الذي هلكت بابل وأصنامها به؟

على أنا لو لم نأت بهذه الأنباء والقصص من كتبهم، ألم يك فيما أودع الله عز وجل القرآن دليل على ذلك؟ وفي تركهم جحد ذلك وإنكاره ـ وهو يقرعهم به ـ دليل على اعترافهم له؟ فإنه يقول: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل). ويقول حكاية عن المسيح: ﴿**إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾[3]

(١) كذا في ش بالفاء، وفي (ب، ا): مشفحا، وفي ط(أمشقحاً) وسقطت منها كلمة بالسريانية.

(٢) في (ب، ط) خرت.

(٣) سورة الصف، الآية ٦.

ويقول: ﴿**يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون**﴾[1] ويقول: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾[2]، وكانوا يقولون لمخالفيهم عند القتال: هذا نبي قد أظل مولده، ويذكرون من صفته ما يجدون في كتابهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً وخوفاً على الرياسة.

٢٥/ب ويحتمل/ أنهم كانوا يظنون أنه من بني إسرائيل، فلما بعثه الله من العرب، من نسل إسماعيل عظم ذلك عليهم، وأظهروا التكذيب، فلعنة الله على الكافرين.

وقد كان ﷺ يدعوهم إلى اتباعه وتصديقه، فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج، ثم يحيل ذلك على ما عندهم وما في أيديهم، ويقول من علامة نبوتي وصدقي أنكم تجدوني عندكم مكتوباً وهم لا يجدونه كما ذكر؟! أوليس ذلك مما يزيدهم عنه بعداً، وقد كان غنياً أن يدعوهم بما ينفرهم، ويستميلهم بما يوحشهم[3]. وقد[4] أسلم من أسلم من علمائهم كعبدالله بن سلام، وتميم الداري، وكعب، وقد وقفوا منه على مثل هذه الدعاوى.

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق محمد بن حمزة ابن عبدالله بن سلام عن جده عبدالله بن سلام: أنه لما سمع بمخرج النبي ﷺ بمكة، خرج فلقيه، فقال له النبي ﷺ: أنت ابن سلام عالم أهل يثرب؟ قال: نعم، قال: ناشدتك الله الذي أنزل التوراة على

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧١.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

(٣) في (أ، ط): يوجسهم.

(٤) في المخطوطات: وكم.

موسى، هل تجد صفتي في كتاب الله؟ قال: انسب ربك يا محمد، فارتج النبي ﷺ فقال له جبريل: **﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾**(١)، فقال ابن سلام: أشهد أنك رسول الله، وإن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك في كتاب الله: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب(٢) في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة المعوجة(٣)، حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

وقوله: «ليس بفظ ولا غليظ» موافق لقوله تعالى: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**(٤) ولا يعارض قوله: **﴿واغلظ عليهم﴾**(٥) لأن النفي محمول على طبعه الكريم الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة إلى المؤمنين والأمر بالنسبة إلى الكفار والمنافقين كما هو مصرح به في نفس الآية.

و«قلوباً غلفاً»: أي مغشاة مغطاة، واحدها: أغلف، ومنه غلاف السيف وغيره.

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أم الدرداء ـ امرأة أبي الدرداء ـ

---

(١) سورة الإخلاص.

(٢) أي لا يرفع صوته، وكذلك صخاب.

(٣) في (ط، ش): العوجاء.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٥) سورة التوبة، الآية ٧٣.

قالت: قلت لكعب، كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: كنا نجده موصوفاً فيها: محمد رسول الله اسمه المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، وأعطي المفاتيح، ليبصر الله به أعيناً عوراً، ويسمع به آذاناً صماً، ويقيم به ألسنة معوجة، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف.

وفي البخاري: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: (أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً)[1].

وعند ابن إسحاق: ولا صخب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده بكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، / وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد ١/٢٥٣

(١) هو في البخاري برقم ٤٨٣٨.

العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قدم الجارود فأسلم فقال: والذي بعثك بالحق لقد وجدت وصفك في الإنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول.

وأخرج ابن سعد قال: لما أمر إبراهيم بإخراج هاجر حمل على البراق، فكان لا يمر بأرض عذبة سهلة إلا قال: انزل هاهنا يا جبريل، فيقول: لا، حتى أتى مكة فقال جبريل: انزل يا إبراهيم، قال: حيث لا ضرع ولا زرع؟ قال: نعم، هاهنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتم[1] به الكلمة العليا.

وفي التوراة ـ مما اختاروه بعد الحذف والتبديل والتحريف، مما ذكره ابن ظفر في «البشر» وابن قتيبة في «أعلام النبوة» ـ: تجلى الله من سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران.

و«سينا» هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى.

و«ساعير» هو الجبل الذي كلم الله فيه عيسى، وظهرت فيه نبوته.

وجبال «فاران» وهو اسم عبراني ـ وليست ألفه الأولى همزة ـ هي جبال بني هاشم التي كان رسول الله ﷺ يتحنث في أحدها وفيه فاتحة الوحي، وهو أحد ثلاثة جبال، أحدها: أبو قبيس، والمقابل له قعيقعان إلى بطن الوادي، والثالث: الشرقي فاران، ومنفتحه الذي

---

(١) في (ب) تستمر.

يلي قعيقعان إلى بطن الوادي، وهو شعب بني هاشم، وفيه مولده ﷺ على أحد الأقوال.

قال ابن قتيبة: وليس بهذا غموض، لأن تجلي الله من سينا، إنزاله التوراة على موسى عليه السلام بطور سيناء، ويجب أن يكون إشراقه من «ساعير» إنزاله على عيسى الإنجيل، وكان المسيح يسكن من ساعير أرض الخليل، بقرية تدعى ناصرة، وباسمها سمي من اتبعه نصارى، فكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله على المسيح الإنجيل فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران بإنزاله القرآن على محمد ﷺ، وهي جبال مكة، وليس بين المسلمين وأهل الكتاب في ذلك اختلاف في أن فاران هي مكة.

وإن أدعي أنها غير مكة قلنا: أليس في التوراة: إن الله أسكن هاجر واسماعيل فاران؟ وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح، أوليس «استعلن» و«علن» بمعنى واحد، وهو ما ظهر وانكشف. فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه.

وفي التوراة أيضاً ـ مما ذكره ابن ظفر ـ خطاباً لموسى، والمراد به الذين اختارهم لميقات ربه الذين أخذتهم الرجفة خصوصاً، ثم بني إسرائيل عموماً: والله ربك يقيم نبياً من إخوتك، فاستمع له كالذي سمعت ربك في حوريت يوم الاجتماع حين قلت لا أعود اسمع صوت الله ربي لئلا أموت، فقال الله لي: نعم ما قالوا، وسأقيم لهم نبياً مثلك من إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل شيء أمرته به، وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي فإني أنتقم منه.

قال: وفي هذا الكلام أدلة على نبوة محمد ﷺ:

فقوله: «نبياً من إخوتهم»، وموسى وقومه من بني إسحاق، وإخوتهم بنو إسماعيل، ولو كان هذا النبي الموعود به من بني إسحاق لكان من أنفسهم لا من إخوتهم.

وأما قوله: «نبياً مثلك» وقد قال في التوراة: لا يقوم في بني إسرائيل أحد مثل موسى، وفي ترجمة أخرى: مثل موسى لا يقوم في بني إسرائيل أبداً. فذهبت اليهود إلى أن هذا النبي الموعود به هو يوشع بن نون، وذلك باطل، لأن يوشع لم يكن كفؤاً لموسى عليهما السلام، بل كان خادماً له في حياته، ومؤكداً لدعوته بعد وفاته، فتعين أن يكون المراد به محمداً ﷺ فإنه كفؤ موسى لأنه مماثله في نصب الدعوة، والتحدي بالمعجزة، وشرع الأحكام، وإجراء النسخ على الشرائع السالفة.

وقوله/ تعالى: «اجعل كلامي في فمه» فإنه واضح في أن المقصود به محمد ﷺ لأن معناه أوحي إليه بكلامي، فينطق به على نحو ما سمعه، ولا أنزل صحفاً ولا ألواحاً لأنه أمي، لا يحسن أن يقرأ المكتوب. ٢٥٣/ب

وفي الإنجيل ـ مما ذكره ابن طغر بك في «الدر المنظم» قال يوحنا في إنجيله عن المسيح أنه قال: أنا أطلب من الأب أن يعطيكم «فار قليط» آخر يثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه.

وهو عند ابن ظفر بلفظ: إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكم «فار قليط» آخر يكون معكم الدهر كله.

قال: فهذا صريح بأن الله تعالى سيبعث إليهم من يقوم مقامه،

فينوب عنه في تبليغ رسالة ربه وسياسة خلقه منابه، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً، فهل هذا إلا محمد ﷺ ؟ انتهى.

ولم يذكر فصول «الفارقليط» ـ كما أفاده ابن طغر بك ـ سوى يوحنا، دون غيره من نقلة الأناجيل.

وقد اختلف النصارى في تفسير «الفارقليط».

فقيل هو: الحامد، وقيل: المخلص.

فإن وافقناهم على أنه المخلص أفضى بنا الأمر إلى أن المخلص رسول يأتي لخلاص العالم، وذلك من غرضنا، لأن كل نبي مخلص لأمته من الكفر، ويشهد له قول المسيح في الإنجيل: إني قد جئت لخلاص العالم، فإذا ثبت أن المسيح هو الذي وصف نفسه بأنه مخلص العالم، وهو الذي سأل الأب أن يعطيهم «فارقليط» آخر، ففي مقتضى اللفظ ما يدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتي آخر.

وإن تنزلنا معهم على القول بأنه: الحامد، فأي لفظ أقرب إلى أحمد ومحمد من هذا؟

قال ابن ظفر: وفي الإنجيل ـ مما ترجموه ـ ما يدل على أن الفارقليط: الرسول، فإنه قال: إن هذا الكلام الذي تسمعونه ليس هو لي، بل الأب الذي أرسلني بهذا الكلام لكم، وأما «الفارقليط» روح القدس الذي يرسله أبي باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كلما قلته لكم.

فهل بعد هذا بيان؟ أليس هذا صريحاً في أن «الفارقليط» رسول يرسله الله، وهو روح القدس، وهو يصدق بالمسيح، ويظهر اسمه أنه رسول حق من الله، وليس بإله، وهو يعلم الخلق كل شيء،

ويذكرهم كل ما قاله المسيح عليه السلام لهم،وكل ما أمرهم به من توحيد الله.

وأما قوله «أبي» فهذه اللفظة مبدلة محرفة، وليست منكرة الاستعمال عند أهل الكتابين، إشارة إلى الرب سبحانه، لأنها عندهم لفظة تعظيم، يخاطب بها المتعلم معلمه الذي يستمد منه العلم. ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالآباء الروحانية، ولم تزل بنو إسرائيل وبنو عيصو يقولون نحن أبناء الله بسوء فهمهم عن الله تعالى.

وأما قوله «يرسله أبي باسمي» فهو إشارة إلى شهادة المصطفى ﷺ له بالصدق والرسالة، وما تضمنه القرآن من مدحه عما افتريَ في أمره.

وفي ترجمة أخرى للإنجيل، أنه قال: «الفارقليط» إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ما يسمع يكلمهم به، ويسوسهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث.

وهو عند ابن طغر بك بلفظ: فإذا جاء روح الحق، ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم.

فقوله «ليس ينطق من عنده» وفي الرواية الأخرى: «ولا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم بكل ما يسمع» أي: من الله الذي أرسله، وهذا كما قال تعالى في حقه ﷺ: **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾**[1].

---

(1) سورة النجم، الآية ٣.

وقوله: «وهو يمجدني» فلم يمجده حق تمجيده إلا محمد ﷺ، **لأنه** وصفه بأنه رسول الله، وبرأه وبرأ أمه - عليهما السلام - مما نسب إليهما، وأمر أمته بذلك.

قال ابن ظفر: فمن ذا الذي وبخ العلماء على كتمان الحق، وتحريف/ الكلم عن مواضعه، وبيع الدين بالثمن البخس، ومن ذا الذي أنذر بالحوادث وأخبر بالغيوب إلا محمد ﷺ، ولله در أبي محمد عبدالله الشقراطسي حيث قال في قصيدته المشهورة:

١/٢٥٤

توراة موسى أتت عنه فصدقها ... إنجيل عيسى بحق غير مفتعل

أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت ... عما رأوا ورووا في الأعصر الأول

ويعجبني قول العارف الرباني[1] أبي عبدالله بن النعمان.

هذا النبي محمد جاءت به ... توراة موسى للأنام تبشر

وكذاك إنجيل المسيح موافق ... ذكراً لأحمد معرب ومذكر

ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

لمبعثه في كل جيل علامة ... على ما جلته الكتب من أمره الجلي

فجاء به إنجيل عيسى بآخر ... كما قد مضت توراة موسى بأول

وفي الدلائل للبيهقي عن الحاكم - بسند لا بأس به - عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الأموي قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فذكر الحديث، وأنه أرسل إليهم ليلاً، قال: فدخلنا عليه، فدعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح واستخرج حريرة

---

(١) كلمة (الرباني) لم تذكر في (ب، ط).

سوداء، فنشرها فإذا فيها صورة حمراء، فإذا رجل ضخم العينين عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله تعالى، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا آدم عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، فإذا رجل أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام، قال: ثم فتح باباً آخر وأخرج حريرة فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا فيها ـ والله ـ رسول الله ﷺ، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ونبينا، قال: والله إنه لهو، ثم قام قائماً ثم جلس وقال: إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما والله إنه لآخر البيوت، ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم. الحديث، وفيه ذكر الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى وسليمان وغيرهم. قال: فقلنا له: من أين لك هذه الصور؟ فقال: إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل الله عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال.

وفي زبور داود عليه السلام، من مزمور أربعة وأربعين: فاضت النعمة من شفيتك، من أجل هذا باركك الله إلى الأبد، تقلد أيها الجبار بالسيف، فإن شرائعك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، وجميع الأمم يخرون تحتك.

فهذا المزمور ينوه بنبوة محمد ﷺ، فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي القول الذي يقوله، وهو الكتاب الذي أنزل عليه والسنة التي سنها.

وفي قوله: «تقلد سيفك أيها الجبار» دلالة على أنه النبي العربي، إذ ليس يتقلد السيوف أمة من الأمم سوى العرب، فكلهم يتقلدونها على عواتقهم.

وفي قوله «فإن شرائعك وسنتك» نص صريح على أنه صاحب شريعة وسنة، وأنها تقوم بسيفه.

و«الجبار» الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق ويصرفهم عن الكفر جبراً.

٢٥٤/ب وعن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب القديمة، قال/ الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي، لأنزلنَّ على جبال العرب نوراً يملأ ما بين المشرق والمغرب، ولأخرجن من ولد إسماعيل نبياً أمياً يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض، كلهم يؤمن بي رباً، وبه رسولاً، ويكفرون بملل آبائهم ويفرون منها، قال موسى: سبحانك وتقدست أسماؤك، لقد كرمت هذا النبي الكريم وشرفته، قال الله: يا موسى، إني أنتقم من عدوه في الدنيا والآخرة، وأظهر دعوته على كل دعوة، وأذل من خالف شريعته، بالعدل زينته[١]، وللقسط[٢] أخرجته، وعزتي لأستنقذن به أمماً من النار، فتحت الدنيا بإبراهيم وأختمها بمحمد، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل في شريعته فهو من الله بريء. ذكره ابن ظفر وغيره.

---

(١) في (ب): ربيته وفي (ط): دينته.

(٢) في (ط): وبالقسط.

النوع الخامس

في آيات تتضمن أقسامه تعالى على تحقيق رسالته وثبوت ما أوحى إليه من آياته وعلو رتبته الشريفة ومكانته

وهذا النوع ـ أعزك الله ـ لخصت أكثره من كتاب أقسام القرآن للعلامة ابن القيم، مع زيادات من فرائد الفوائد.

فاعلم أنه تعالى أقسم بأمور على أمور، وإنما أقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وأقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته.

ثم إنه تعالى تارة يذكر جواب القسم وهو الغالب.

وتارة يحذفه.

وتارة يقسم على أن القرآن حق.

وتارة على أن الرسول حق.

وتارة على أن الجزاء والوعد والوعيد حق.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون**﴾[1].

---

(١) سورة الواقعة، الآيات من ٧٥ ـ ٧٩.

والثـاني: كقـولـه تعالى: ﴿يس والقـرآن الحكيم إنـك لمن المرسلين﴾[1].

والثالث: كقوله: ﴿والذاريات ذروا﴾[2] إلى قوله: ﴿وإن الدين لواقع﴾

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة، فمتى ثبت أن الرسول حق، ثبت أن القرآن حق، وثبت المعاد، ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به.

وفي هذا النوع خمسة فصول.

---

(١) سورة يس. الآيات ١ ـ ٣.

(٢) سورة الذاريات ١٠.

الفصل الأول

في قسمه تعالى على ما خصه به من الخلق العظيم وحباه من الفضل العميم

قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون. وإن لك لأجراً غير ممنون. وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1].

﴿ن﴾ من أسماء الحروف كـ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ و﴿ق﴾[2].

واختلف فيها، فقيل هي أسماء للقرآن، وقيل: أسماء للسور.

وقيل: أسماء لله، ويدل عليه أن علياً رضي الله عنه كان يقول: يا ﴿كهيعص﴾[3]، يا ﴿حم عسق﴾[4] كما قيل، ولعله أراد يا منزلها.

وقيل: إنه سر استأثر الله بعلمه، وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين الله ورسوله، لم يقصد بها إفهام غيره، إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد.

---

(١) سورة القلم، الآيات ١ ـ ٤.

(٢) هي أوائل سور: البقرة، الأعراف، ق.

(٣) أول سورة مريم.

(٤) الآيتان الأولى والثانية من سورة الشورى، وقد وردت في النسخ موصولة (حمعسق). وقد أخرجه ابن ماجه في تفسيره عن فاطمة بنت علي بن أبي طالب.

وهل المراد بقوله تعالى هنا: «ن» اسم الحوت، وهل المراد به الجنس أو البهموت[1] وهو الذي عليه الأرض؟

وقيل: المراد به الدواة وهو مروي عن ابن عباس، ويكون هذا قسماً بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق وتارة بالكتابة.

وقيل: إن «ن» لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يأمرهم به الله. رواه معاوية بن قرة مرفوعاً.

والحق أنه اسم للسورة، وأقسم الله تعالى بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، وقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرئ بإذن بارئه من أنواع الألم على تنزيه نبيه ورسوله محمد المحمود في كل أفعاله وأقواله مما غمصته أعداؤه الكفرة به، وتكذيبهم له بقوله/ تعالى: ﴿**ما أنت بنعمة ربك بمجنون**﴾. ١/٢٥٥

وكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء قاطبة عن معارضته، وكلَّت عن مماثلته، وعرفَّهم من الحق ما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الألباء، وتلاشت في جنب ما جاء به، بحيث لم يسعها إلا التسليم له، والانقياد والإذعان طائعة مختارة، فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي.

---

(١) في ش: اليهموت. وهذا القول ضرب من الخيال [م].

ثم أخبر تعالى عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وآخرته فقال: ﴿وإنك لك لأجراً غير ممنون﴾ أي: ثواباً غير منقطع، بل هو دائم مستمر، ونكر الأجر للتعظيم، أي أجراً عظيماً لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

ثم أثنى عليه بما منحه فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»[1] ومن ثم قال ابن عباس وغيره: أي على دين عظيم، وسمى الدين خلقاً لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقاً هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها. وهذه كانت أخلاقه ﷺ المقتبسة من القرآن، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً وتبييناً، وعلومه علوم القرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، فترجمت أم المؤمنين ـ لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول، وحسن تعبيرها ـ عن هذا كله بقولها: «كان خلقه القرآن»، وفهم السائل عنها هذا المعنى فاكتفى به واشتفى.

ولما وصفه تعالى بأنه على خلق عظيم قال: ﴿فستبصر ويبصرون، بأيكم المفتون﴾ أي فسترى يا محمد وسيرى المشركون كيف عاقبة

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

أمـرك، فإنـك تصير معـظماً في القلوب، ويصيرون أذلاء مغلوبـين، وتستولي عليهم بالقتل والنهب[1].

(١) النهب في اللغة: الغنيمة. والواقع أن الرسول ﷺ في سيرته ضرب المثل الأعلى في التسامح حين السيطرة على عدوه، وما فتح مكة عن الأذهـان ببعيد [المحقق].

الفصل الثاني

في قسمه تعالى على ما أنعم به عليه
وأظهره من قدره العلي لديه

قال الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾ السورة[1].

أقسم تعالى على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم تعالى بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته ووحدانيته، وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، وفسر بعضهم - كما حكاه الإمام فخر الدين - الضحى بوجهه ﷺ والليل بشعره، قال: ولا استبعاد فيه.

وتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل، للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربُّه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

---

(١) سورة الضحى الآيات ١ ـ ٣.

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم لا يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه.

وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، والتوديع: الترك، والقلى: البغض، أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أبغضك منذ أحبك، وحذف «الكاف» من «قلا» اكتفاء بكاف ودعك، ولأن رؤوس الآيات/ بالياء فأوجب اتفاق الفواصل حذفها. ٢٥٥/ب

وهذا يعم كل أحواله، وإن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقربه عينه وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى. وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر والظفر بأعدائه يوم بدر وفتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجاً، والغلبة على بني قريظة والنضير، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وقذف في قلوب أعدائه من الرعب، ونشر الدعوة، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة من الشفاعة والمقام المحمود، وما يعطيه في الجنة من الوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر.

وقال ابن عباس: يعطيه ألف قصر من لؤلؤ أبيض، ترابها المسك وفيها ما يليق بها.

وبالجملة: فقد دلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه ﷺ كل ما يرضيه.

وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وأحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهو من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسول الله ﷺ حداً يشفع فيهم - كما سيأتي في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى - ورسوله ﷺ أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن تدخل أحداً من أمتي النار أو تدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له ورضيه.

ثم ذكره سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ وذهب بعضهم إلى أن معنى اليتيم من قولهم: درة يتيمة، أي: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك إليه وأغناك بعد الفقر.

ثم أمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فإن من شكر النعمة الحديث بها. وقيل المراد بالنعمة النبوة، والتحدث بها: تبليغها.

الفصل الثالث

في قسمه تعالى على تصديقه ﷺ فيما أتى به من وحيه وكتابه وتنزيهه عن الهوى في خطابه.

[القسم على تصديقه فيما أوحي إليه]

قال الله تعالى: ﴿**والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى**﴾[1].

أقسم تعالى بالنجم على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي.

واختلف المفسرون في المراد بالنجم بأقاويل معروفة.

منها: «النجم» على ظاهره، وتكون «أل» لتعريف العهد في قول، ولتعريف الجنس في آخر، وهي النجوم التي يهتدى بها. فقيل: الثريا إذا سقطت وغابت، وهو مروي عن ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة[2] وعطية. والعرب إذا أطلقت النجم تريد به الثريا. وعن ابن عباس في رواية عكرمة: النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع، وهذا قول الحسن، وعن السدي الزهري، وعن الحسن أيضاً النجوم إذا سقطت يوم القيامة.

---

(١) سورة النجم، الآيات ١ ـ ٣.

(٢) في ط: علي بن طلحة.

وقيل المراد به النبت الذي لا ساق له، و«هوى» أي سقط على الأرض.

وقيل: القرآن، رواه الكلبي عن ابن عباس، لأنه نزل نجوماً على رسول الله ﷺ وهو قول مجاهد/ ومقاتل والضحاك. ١/٢٥٦

وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: هو محمد ﷺ «إذا هوى» أي نزل من السماء ليلة المعراج.

وأظهر الأقوال - كما قاله ابن القيم - أنها النجوم التي ترمى بها الشياطين، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله تعالى آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين. على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي، وحرساً له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله: بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هوياً، ولا عهد في القرآن بذلك، فيحمل هذا اللفظ عليه.

وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت.

وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمخاطبين ولا سيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، ثم إن بين المقسم به والمقسم عليه من المناسبة ما لا يخفى.

فإن قلنا إن المراد النجوم التي هي للاهتداء فالمناسبة ظاهرة، وإن قلنا إن المراد الثريا فلأنه أظهر النجوم عند الرائي، لأنه لا يشتبه بغيره في السماء، بل هو ظاهر لكل أحد، والنبي ﷺ تميز عن الكل بما منح من الآيات البينات، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت من المغرب قرب أواخر الخريف فتقل الأمراض، والنبي ﷺ لما ظهر قل الشرك والأمراض القلبية.

وإن قلنا إن المراد بها القرآن فهو استدلال بمعجزته ﷺ على صدقه وبراءته، وأنه ما ضل ولا غوى، وإن قلنا إن المراد النبات، فالنبات به نبات القوى الجسمانية وصلاحها، والقوى العقلية أولى بالصلاح، وذلك بالرسل وإيضاح السبل.

وتأمل كيف قال تعالى: ﴿**ما ضل صاحبكم**﴾ ولم يقل: ما ضل محمد، تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط، وقد نبه تعالى على هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿**أم لم يعرفوا رسولهم**﴾[1]

ثم نزه نطق رسوله ﷺ أن يصدر عن هوى فقال تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾ ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نفي نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فيتضمن هو[2] الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٦٩.

(٢) في (ب، د): نفي.

ثم قال تعالى: ﴿**إن هو إلا وحي يوحى**﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من جعل الضمير عائداً إلى القرآن، فإن نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي، قال الله تعالى: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة**﴾[1] وهما القرآن والسنة. وذكر الأوزاعي[2] عن حسان بن عطية[3] قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها.

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن بما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية فقال: ﴿**علمه شديد القوى**﴾ وهو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة، ولا شك أن مدح المعلم مدح للمتعلم. فلو قال: علمه جبريل ولم يصفه لم يحصل للنبي ﷺ به فضيلة ظاهرة. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿**ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾[4] كما سيأتي البحث فيه إن شاء الله تعالى/. ٢٥٦/ب

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تصديق فؤاده[5] لما رأته عيناه. وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه

---

(١) سورة النساء، الآية ١١٣.

(٢) الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو، الفقيه الثقة الجليل، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة.

(٣) حسان بن عطية المحاربي، مولاهم الدمشقي ثقة فقيه عابد مات بعد العشرين ومائة.

(٤) سورة التكوير، الآية ٢٠.

(٥) في ط: فؤاد بصره.

كذلك. وفي حديث قصة الإسراء مزيد لما ذكرته هنا، والله الموفق والمعين.

[القسم على صدق الكتاب]

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس﴾ إلى قوله: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾[1].

أي: لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم.

أو: أقسم، و«لا» مزيدة للتأكيد، وهذا قول أكثر المفسرين بدليل قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾.

قال الزمخشري: والوجه أن يقال هي للنفي، أي أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي بإقسامي كلا إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك.

أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم في أحوالها الثلاثة: في طلوعها وجريانها وغروبها، وبانصرام الليل وإقبال النهار عقيبه من غير فصل، فذكر سبحانه وتعالى حالة ضعف هذا وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه وإقباله، يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته أن القرآن قول رسول كريم، وهو هنا جبريل، لأنه ذكر صفته قطعاً بعد ذلك بما يعينه به.

وأما «الرسول الكريم» في «الحاقة» فهو محمد ﷺ. فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري أخرى، وإضافته إليهما إضافة

(١) سورة التكوير، الآية ١٥.

تبليغ، لا إضافة إنشاء من عندهما، ولفظ «الرسول» يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، فهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمداً ﷺ، فجبريل تلقاه عن الله، ومحمد ﷺ تلقاه عن جبريل.

وقد وصف الله تعالى رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم يعطي أفضل العطايا، وهي العلم والمعرفة والهداية والبر والإرشاد، وهذا غاية الكرم.

ذو قوة، كما قال في النجم: ﴿علمه شديد القوى﴾ فيمنع بقوته الشياطين أن يدنوا منه وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، وروي أنه رفع قريات قوم لوط الأربع على قوادم جناحه حتى سمع أهل السماء نباح كلابها وأصوات بنيها[1].

عند ذي العرش مكين، أي متمكن المنزلة، وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف[2] والتعظيم.

مطاع ثم، في ملائكة الله المقربين، يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه، أمين على وحي الله ورسالته، فقد عصمه الله من الخيانة والزلل.

فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة، فقد تولى الله تزكيته بنفسه، ثم نزه رسوله البشري وزكاه مما يقول فيه أعداؤه فقال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ وهذا أمر

---

(١) من رواية ابن عساكر.

(٢) في ط: الاشراف والتكريم.

يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه فهم يعلمون أنهم كاذبون.

ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل عليه السلام، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر، خلافاً لقوم؛ فحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في العيان، وهذا مما خالفوا فيه جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل، ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تبارك وتعالى، فإن رؤيته ﷺ لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب سبحانه أعظم من رؤية/ جبريل، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة. ١/٢٥٧

ثم نزه تعالى رسوليه كليهما صلى الله عليهما وسلم، أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿**وما هو على الغيب بضنين**﴾ فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان.

والقراءتان كالآيتين، تضمنت إحداهما - وهي قراءة الضاد - تنزيهه عن البخل، فإن الضنين: البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن: بخلت أبخل ومعناه، وقال ابن عباس: ليس ببخيل بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب هاهنا: القرآن والوحي.

قال الفراء: يقول الله تعالى: يأتيه غيب من السماء وهو منفوس فيه، فلا يضنن به عليكم.

وهذا معنى حسن جداً، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ومع هذا فالرسول ﷺ لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله.

وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً.

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيداً بمعنى اتهمته وليس هو من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين، والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين فيه لا يزيد فيه ولا ينقص منه.

وهذا يدل على أن الضمير فيه يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال: ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾ ثم قال: وما هو: أي وما صاحبكم بمتهم وبخيل فنفى سبحانه عن رسوله ﷺ ذلك كله، وزكى سند القرآن أعظم تزكية. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

[القسم على أن القرآن وحي]

وقال تعالى: ﴿**فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم**﴾ الآية[1].

---

(١) سورة الحاقة، الآية ٣٨.

أقسم تعالى بالأشياء كلها، ما يبصرون منها وما لا يبصرون، وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس والعرش والكرسي وكل مخلوق، وذلك من آيات قدرته وربوبيته، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى وهو كلامه تعالى، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق، كما قال تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إن القرآن حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره «نفسه» ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهد من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب سبحانه وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم يخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه وافترى لما أقره ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه، وأضل عباده واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأقدر القادرين أن يقر على ذلك، بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بهم، فيسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم وبلادهم ونساءهم قائلاً إن الله أمرني/ بذلك، وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدق بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه، ثم

٢٥٧/ب

يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية على انفرادها مصـدقة له، ثم يقيم الدلائل القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين أن يفعل ذلك.

والمراد بالرسول الكريم هنا محمد ﷺ ـ كما قدمته ـ لأنه لما قال: إنه لقول رسول كريم ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن، والمشركون ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾**[1].

قيل المراد بـ«الكتاب المكنون» اللوح المحفوظ.

قال ابن القيم: والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله تعالى: **﴿في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾**[2]، قال مالك: أحسن ما سمعت في هذه أنها مثل الذي في «عبس»، قال: ومن المفسرين من قال: إن المراد أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح لأن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تتنزل به الشياطين، وأن محله لا تصل إليه، كما قال تعالى: **﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾**[3] وأيضاً:

---

(١) سورة الواقعة، الآيات ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) سورة عبس، الآيات ١٣ ـ ١٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٠.

فإن قوله:(لا يمسُّه) بالرفع، فهذا خبر لفظاً ومعنى، ولو كان نهياً لكان مفتوحاً. ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس هاهنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي، انتهى ملخصاً.

وهذا الذي قاله ابن القيم قد تمسك به جماعة منهم داود، بأنه يجوز مس المصحف للمحدث.

وقد أجاب ابن الرفعة في «الكفاية» عن أدلتهم المزخرفة فقال ما نصه: القرآن لا يصح مسه، فعلم أن المراد به الكتاب الذي هو أقرب المذكورين، ولا يتوجه النهي إلى اللوح المحفوظ لأنه غير منزل، ومسه غير ممكن، ولا يمكن أن يكون المراد بالمطهرين الملائكة، لأنه قد نفى وأثبت فكأنه قال: يمسه المطهرون ولا يمسه غير المطهرين، والسماء ليس فيها غير مطهر بالإجماع، فعلم أن المراد: المطهرين من الآدميين، ويبين ذلك ما روي أنه ﷺ قال في كتاب عمرو بن حزم المروي في الدارقطني وغيره[1]: «ولا تمس القرآن إلا وأنت على طهر» ثم قال، فإن قيل: قد قال الواحدي أن أكثر أهل التفسير على أن المراد اللوح المحفوظ، وأن المطهرين الملائكة، ثم لو صح ما قلتم لم يكن فيها دليل لأن قوله: (لا يمسُّه) بضم السين، ليس بنهي عن المراد ولو كان نهياً لكان بفتح السين، فهو إذاً خبر.

قلنا: أما قول «أكثر المفسرين» فهو معارض بقول الباقين، والمرجع إلى الدليل.

---

(١) رواه أيضاً أبو داود والنسائي وابن حبان والدارمي.

وأما كون المراد بالآية الخبر، فجوابه: أنـا نقول: اللفظ لفظ الخبر ومعناه النهي[1]، وهو كثير في القرآن، قال الله تعالى: ﴿**لا تضارَّ والدة بولدها**﴾[2]، ﴿**والمطلقات يتربصن**﴾[3]. انتهى.

وأجاب العلامة البساطي في شرحه لمختصر الشيخ خليل: بأن (يمسه) مجزوم، وضم السين لأجل الضمـير، كما صرح بـه جماعـة، وقالوا: إنه مذهب البصريين، ومنهم ابن الحاجب في «شافيته» انتهى.

وقد ذكر هذا العلامة شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود الحلبي الشافعي، المشهور بـ«السمين»، مع زيادة إيضاح وفوائد فقال في «لا» هذه وجهان، الثاني: أنها ناهية، والفعل بعدها مجزوم، لأنه لو فكَّ عن الإدغام لظهر ذلـك فيه كقـوله تعالى: ﴿**لم يمسسهم سوء**﴾[4] ولكنه أدغم، ولما أدغم حرك آخره بالضمـة لأجل «هـاء» ضمير المذكر الغائب، ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا إلا الضم. وفي الحديث (إنا لم نردَّه عليك إلا أنا حرم)[5] وإن كان القياس جواز فتحه تخفيفاً. قال: وبهذا الذي ذكرته يظهر فساد رد من رد بأنه لو كان نهياً لكان يقال: (لا يمسَّه) بالفتح، لأنه خفي / عليه جواز ضم ما قبل الهاء في هذا النحو، لا سيما على رأي سيبويه فإنـه لا يجيز غيره.

١/٢٥٨

---

(١) سقطت من ط كلمة «النهي».

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٧٤.

(٥) أخرجه الشيخـان وغيرهمـا، وفي هذا الحـديث أن الصعب الليثي أهدى لرسول الله ﷺ حماراً وحشياً فرده عليه ـ وهو بالأبواء ـ فلما رأى ما في وجهه قال: إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم.

الفصل الرابع

في قسمه تعالى على تحقيق رسالته

قال الله سبحانـه وتعالى: ﴿يس، والقـرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾ الآية[1].

اعلم أن كل سورة بدأ الله تعالى فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن إلا «نون».

ثم إن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة، لكن علم الإنسان لا يصل إليها إلا إن كشف الله له سر ذلك.

واختلف المفسرون في معنى (يس) على أقوال:

أحدها: أنـه يا إنسـان، بلغة طيء، وهـذا قول ابن عبـاس والحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبـير، وقيل: بلغـة الحبشة، وقيل: بلغة كلب، وحكى الكلبي أنها بالسريانية.

قال الإمام فخر الدين: وتقريره هو أن تصغير إنسان: أنيسين، وكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يس)، وعلى هذا فيكون الخطاب مع محمد ﷺ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إنك لمن المرسلين﴾

---

(1) سورة يس، الآيات ١ ـ ٣.

وتعقبه أبو حيان: بأن الذي نقل عن العرب في تصغير إنسان: أنيسيان ـ بياء بعدها ألف ـ فدل على أن أصله: إنسيان، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها، لا يعلم أنهم قالوا في تصغيره أنيسين، وعلى تقدير أنه يصغر كذلك فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم لأنه منادى مقبل عليه، ومع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير، ويمتنع ذلك في حق النبوة. انتهى.

قال السمين: وهذا الاعتراض الأخير صحيح، فقد نصوا على أن التصغير لا يدخل في الأسماء المعظمة شرعاً، ولذلك يحكى أن ابن قتيبة لما قال في «المهيمن» إنه مصغر من «مؤمن» والأصل: مؤيمن، فأبدلت الهمزة هاء، قيل له: هذا يقرب من الكفر، فليتق الله قائله، انتهى.

وقيل معنى (يس): يا محمد، قاله ابن الحنفية والضحاك.

وقيل: يا رجل، قاله أبو العالية[1].

وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة.

وعن أبي بكر الوراق: يا سيد البشر.

وعن جعفر الصادق: أنه أراد يا سيد، مخاطبة للنبي ﷺ وفيه من تعظيمه وتمجيده ما لا يخفى.

وعن طلحة عن ابن عباس: أنه قسم أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه.

وعن كعب: أقسم الله به قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام: يا محمد إنك لمن المرسلين.

---

(١) في (أ): ابن العالية، وأبو العالية هو رفيع بن مهران التابعي.

ثم قال: ﴿والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ وهـو رد على الكفـار حيث قالـوا: ﴿لست مرسـلاً﴾[1] فأقسم الله تعـالى باسمـه وكتابه: إنه لمن المرسلين بـوحيه إلى عبـاده وعلى طـريق مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق.

قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة الرعد، الآية ٤٣.

الفصل الخامس

في قسمه تعالى بمدة حياته ﷺ وعصره وبلده

[القسم بحياته ﷺ]

قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[1].

والعَمر والعُمر واحد، ولكنه في القسم يفتح لكثرة الاستعمال، فإذا أقسموا قالوا: لعمرك القسم.

قال النحويون: ارتفع قوله (لعمرك) بالإبتداء، والخبر محذوف، والمعنى: قسمي، فحذف الخبر لأن في الكلام دليلاً عليه، وباب القسم يحذف منه الفعل نحو: تالله لأفعلن، والمعنى: أحلف بالله، فتحذف «أحلف» لعلم المخاطب بأنك حالف.

قال الزجاجي[2]: من قال: لعمر الله كأنه حلف ببقاء الله، ومن ثم قال المالكية والحنفية: ينعقد بها اليمين، لأن بقاء الله من صفات ذاته. وعن مالك: لا يعجبني الحلف بذلك. وقال الإمام

---

(١) سورة الحجر، الآية ٧٢.

(٢) في ط الزجاج، والزجاجي هو عبد الرحمن بن إسحاق صاحب «الجمل» و«الأمالي» مات بطبرية سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، نسبة إلى شيخه الزجاج محمد بن إبراهيم.

الشافعي وإسحاق: لا يكون يميناً إلا بالنية، وعن أحمد كالمذهبين، والراجح عنه كالشافعي.

واختلف فيمن المخاطب في الآية على قولين:

أحدهما: أن الملائكة قالت للوط عليه السلام ـ لما وعظ قومه وقال: (هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين) ـ: ﴿**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾/، أي يتحيرون، فكيف يعقلون قولك، ويلتفتون إلى نصيحتك؟!

٢٥/ب

والثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالى أقسم بحياته، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض.

قال ابن عباس: ما خلق الله، وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمهون. رواه ابن جرير.

ومراده بقوله: «وما سمعت الله»؛ [سمعت كلامه][1] المتلو في الكتب المنزلة.

ورواه البغوي في تفسيره بلفظ: وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته، وما أقسم بحياة أحد غيره، وذلك يدل على أنه أكرم خلق الله على الله، وعلى هذا فيكون قسمه تعالى بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوط.

---

(١) في (ط، ش).

قال القرطبي: وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا: أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته.

وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي ﷺ ينعقد به يمينه وتجب الكفارة بالحنث، واحتج بكونه ﷺ أحد ركني الشهادة.

وقال ابن خويز منداد[1]: واستدل من جوز الحلف به ﷺ بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ أن يحلفوا به ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا خاصم أحدهم صاحبه قال له: احلف لي بحق [ما حواه][2] صاحب هذا القبر، أو بحق ساكن هذا القبر، يعني النبي ﷺ.

[القسم ببلده ﷺ]

وقال الله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد﴾ الآية[3].

أقسم تعالى بالبلد الأمين، وهي مكة أم القرى بلده ﷺ، وقيده بحلوله ﷺ فيه إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. قاله البيضاوي.

ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو فيما قيل: إبراهيم وإسماعيل،

---

(١) هو أبو بكر، محمد بن أحمد، تفقه على الأبهري، وله كتاب كبير في الخلاف وكتاب في أصول الفقه وكتاب في أحكام القرآن، ولم يكن بالجيد النظر ولا قوي الفقه.

(٢) في النسخ عدا (ش).

(٣) سورة البلد، الآية ١ ـ ٢.

ومـا ولد: محمـد ﷺ ، وعـلى هـذا فتتضمن السـورة القسم بـه في موضعين، وقيل المراد به آدم وذريته، وهو قول الجمهور من المفسرين.

وإنما أقسم تعالى بهم لأنهم أعجب خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والنظر واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعـالى والأنصـار لـدينـه، وكـل مـا في الأرض من مخلوق خلق لأجلهم، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان، فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم.

وقوله: (وأنت حـل) هو من: الحلول، ضـد الظعن، فيتضمن إقسامه تعـالى ببلده المشتمل عـلى عبده ورسـوله، فهـو خير البقـاع واشتمل على خير العباد، فقد جعل الله تعالى بيته هدى للناس، ونبيه إماماً وهادياً لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: المعنى وأنت مستحل قتلك وإخـراجك من هـذا البلد الأمـين الذي يـأمن فيه الـطير والوحش، وقـد استحل فيـه قومـك حرمتك. وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد.

وعن قتادة: (وأنت حل) أي لست بآثم، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت. وذلك أن الله تعالى يفتح عليـه مكة وأهلهـا، وما فتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء، فقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وغيره، وحرم دار أبي سفيان.

فإن قلت: هذه السورة مكية، ﴿**وأنت حل بهذا البلد**﴾ إخبار عن الحال، والواقعة التي ذكرت في آخـر مدة هجـرته إلى المـدينة، فكيف الجمع بين الأمرين؟

أجيب: بأنه قد يكون اللفظ للحال، والمعنى مستقبل، كقوله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[1].

وعلى كل حال فهذا متضمن للقسم ببلد رسول الله ﷺ، ولا يخفى ما فيه من زيادة التعظيم، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء، ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾.

[القسم بعصره ﷺ]

/وقال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾[2]. 1/259

اختلف في تفسير العصر على أقوال:

فقيل: هو الدهر، لأنه مشتمل على الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم وغير ذلك.

وقيل: ذكر العصر الذي بمضيه ينقضي عمرك، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك عين الخسران، ولله در القائل.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى نقص من الأجل

وفي تفسير الإمام فخر الدين والبيضاوي وغيرهما: أنه أقسم بزمان الرسول ﷺ. قال الإمام الرازي: واحتجوا له بقوله ﷺ: إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجراء، فقال: من

(1) سورة الزمر، الآية 30.

(2) سورة العصر، الآية 1.

يعمل لي من الفجر إلى الظهر بقيراط، فعملت اليهود، ثم قال من يعمل لي من الظهر إلى العصر بقيراط، فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى المغرب بقيراطين فعملتم، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجراً، فقال الله تعالى: وهل نقصت من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً. رواه البخاري(١).

قالوا: فهذا الحديث دل على أن العصر هو عصره ﷺ الذي هو فيه، فيكون على هذا أقسم تعالى بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله: ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾، وبعمره في قوله: (لعمرك)، فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم الظرف فكيف حال المظروف، قال: ووجه القسم كأنه تعالى قال: ما أعظم خسرانهم إذا أعرضوا عنك. انتهى.

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر في «الصلاة» و«الإجارة» و«فضل القرآن» وفي «ذكر بني إسرائيل» وفي «التوحيد» بألفاظ متقاربة ليس في محل منها بهذا اللفظ، وإنما هو لفظ مسلم، وأخرجه البخاري بنحوه من حديث أبي موسى لكن ظاهر سياقهما أنهما قضيتان. وحاول بعضهم الجمع فتعسف كما في الفتح.

النوع السادس

في وصفه تعالى له ﷺ بالنور والسراج المنير

اعلم أن الله تعالى قد وصف رسوله ﷺ بـ«النور» في قوله تعالى: ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**﴾[1]، وقيل المراد: القرآن.

ووصفه ﷺ أيضاً بـ«السراج المنير» في قوله تعالى: ﴿**إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾[2].

والمراد: كونه هادياً مبيناً كالسراج الذي يري الطريق ويبين الهدى والرشاد، فبيانه أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس، وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، فكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية، ولذلك وصف الله الشمس بأنها سراج حيث قال: ﴿**وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً**﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٦١.

وكما وصف الله رسوله بأنه نور، وصف نفسه المقدسة بذلك فقال: ﴿الله نور السموات والأرض﴾[1]، فليس فيهما نور إلا الله، ونوره القدسي هو سر الوجود والحياة والجمال والكمال، وهو الذي أشرق على العالم فأشرق على العوالم الروحانية، وهم الملائكة، فصارت سرجاً منيره، يستمد منها من هو دونها بجود الله تعالى، ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية، ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم، فليس في الوجود إلا نور الله الساري إلى الشيء منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه[2].

والنور في الأصل: كيفية يدركها الباصر أولاً، وبواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين ـ الشمس والقمر ـ على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف، كقولك: زيد كرم، بمعنى: ذو كرم، أو بمعنى منور السماوات والأرض، فإنه تعالى نورهما بالكواكب، وما يفيض عنها من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم، لأنهم يهتدون به في الأمور، ويؤيد هذا القول قراءة علي بن أبي طالب وزيد بن علي وغيرهما (نوَّر) فعلاً ماضياً، و(الأرضَ) بالنصب.

وقوله: (مثل نوره) أي: مثل هداه سبحانه وتعالى.

٢٥٩/ب وأضاف النور إلى السماوات والأرض/، إما دلالة على سعة إشراقه، وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض، وإما لإرادة أهل السماء والأرض، وأنهم يستضيئون به.

---

(١) سورة النور، الآية ٣٥.

(٢) أي قوة قبوله لما يلقى إليه.

وعن مقاتل: أي مثل الإيمان في قلب محمد كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صدر عبدالله، والزجاجة نظير جسد محمد ﷺ، والمصباح نظير الإيمان والنبوة في قلب محمد ﷺ.

وعن غيره: المشكاة نظير إبراهيم، والزجاجة نظير إسماعيل عليهما السلام، والمصباح جسد محمد ﷺ، والشجرة: النبوة والرسالة.

وعن أبي سعيد الخراز[1]: المشكاة: جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله في قلب محمد ﷺ.

وعن كعب وابن جبير: النور الثاني هنا محمد ﷺ.

وعن سهل بن عبدالله: مثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا وكذا، وأراد بالمصباح قلبه وبالزجاجة صدره، أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة.

توقد من شجرة مباركة، أي من نور إبراهيم، وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ أي تكاد نبوة محمد تبين للناس قبل كلامه، حكى هذا القول الأخير القاضي أبو الفضل اليحصبي والفخر الرازي، لكنه عن كعب الأحبار[2].

وعن الضحاك: يكاد محمد يتكلم بالحكمة قبل الوحي. قال عبدالله بن رواحة:

---

(١) إبراهيم وقيل أحمد بن عيسى البغدادي، كان أحد المشهورين بالورع، صحب السقطي وذا النون وغيرهما. مات سنة سبع وسبعين ومائتين.

(٢) أي لكن الفخر الرازي حكاه عن كعب الأحبار لا عن سهل بن عبدالله.

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

لكن التفسير الأول في هذه الآية هو المختار، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾[1] فإذا كان المراد بقوله (مثل نوره) أي مثل هداه كان ذلك مطابقاً لما قبله.

واختلفوا في هذا التشبيه[2].

أو هو مشبه جملة بجملة، لا يقصد فيها إلى تشبيه جزء بجزء، ومقابلة شيء بشيء، أو مما قصد منه ذلك؟

أي: مثل نور الله، الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق، وبراهينه الساطعة، على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين يدي الناس، أي: مثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر.

وقيل: هو من التشبيه المفصل، المقابل جزء بجزء، قد رده على تلك الأقوال الثلاثة.

أي: مثل نوره في محمد ﷺ، أو في المؤمنين، أو في القرآن والإيمان كمشكاة، فالمشكاة هو الرسول أو صدره، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهداه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة

---

(١) سورة النور، الآية ٣٤

(٢) هذه الفقرة حتى قوله: «النوع السابع» لم ترد إلا في الأصل. ولم تذكرها النسخ الأخرى.

الوحي، والملائكة رسل الله إليه، وشبه الفضل به بالزيت وهو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي.

وعلى قول: «المؤمنين»، فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنتها.

وعلى قول: «الإيمان والقرآن»، أي مثل الإيمان والقرآن في صدر المؤمنين وفي قلبه كمشكاة.

وأما الضمير على قول المؤمنين في قراءة أبي المذكورة في بعض التفاسير، ففيه إشكال من حيث الإفراد، وعن أبي: هو عائد على المؤمنين، وفي قراءته: مثل نور المؤمنين، وفي رواية عنه: مثل نور من آمن به.

وعن الحسن: يعود على القرآن والإيمان.

النوع السابع

في آيات تتضمن وجوب طاعته واتباع سنته

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين﴾[3].

قال القاضي عياض: فجعل طاعته طاعة رسوله، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب.

وقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[4].

يعني: من أطاع الرسول لكونه رسولاً مبلغاً إلى الخلق أحكام الله فهو في الحقيقة/ ما أطاع إلا الله، وذلك في الحقيقة لا يكون إلا بتوفيق الله. ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾[5] فإن من أعماه

٢/أ

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٢.

(٤) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٥) تتمة الآية قبلها.

الله عن الرشد وأضله عن الطريق فإن أحداً من الخلق لا يقدر على إرشاده.

وهذه الآية من أقوى الأدلة على أن الرسول معصوم في جميع الأوامر والنواهي، وفي كل ما يبلغه عن الله، لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة الله تعالى، وأيضاً وجب أن يكون معصوماً في جميع أفعاله[1]، لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله: ﴿**واتبعوه**﴾[2]، والمتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وأفعاله إلا ما خصه الدليل طاعة له، وانقياد لحكم الله تعالى.

[و][3] قال الله تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**﴾ الآية[4].

وهذا عام في المطيعين لله من أصحاب الرسول ومن بعدهم، وعام في المعية في هذه الدار، وإن فاتت فيها معية الأبدان.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله فقال: يا رسول الله، ما بي وجع، غير أني إذا لم أرك

---

(١) في (ش): أحواله.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.
(٣) في (د).
(٤) سورة النساء، الآية ٦٩.

اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة بحيث لا أراك هناك، لأني إذا دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين، وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذٍ لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية[1].

وذكر ابن أبي حاتم عن أبي الضحى عن مسروق، قال أصحاب محمد: يا رسول الله ما ينبغي لنا أن نفارقك، فإنك لو قدْ متَّ لرفعت فوقنا ولم نرك، فأنزل الله الآية.

وذكر عن عكرمة مرسلاً، قال: أتى فتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لنا منك نظرة في الدنيا ويوم القيامة لا نراك لأنك في الجنة في الدرجات العلى، فأنزل الله هذه الآية فقال له رسول الله ﷺ: أنت معي في الجنة.

وذكر فيها أيضاً روايات أخر ستأتي إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ.

لكن قال المحققون: لا ننكر صحة هذه الروايات، إلا أن سبب نزول هذه الآية يجب أن يكون شيئاً أعظم من ذلك، وهو الحث على الطاعة والترغيب فيها، فإنا نعلم أن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، فهذه الآية عامة في حق جميع المكلفين، وهو أن كل من أطاع الله وأطاع الرسول فقد فاز بالدرجات العالية والمراتب الشريفة عنده تعالى.

---

(١) قال الشيخ ولي الدين: هذا ذكره الثعلبي في تفسيره بلا إسناد ولا راوٍ، وحكاه الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي، وروى الطبراني في معجمه الصغير عن عائشة وابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن الشعبي وابن جرير عن سعيد بن جبير كل منهم يحكي عن رجل فذكر مثل قصة ثوبان ونزول الآية فيه. انتهى.

ثم إن ظاهر قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ أنه يكفى الاكتفاء بالطاعة الواحدة، لأن اللفظ الدال على الصفة يكفي في جانب الثبوت حصول ذلك المسمى مرة واحدة، لكن لا بد أن يحمل على غير ظاهره، وأن تحمل الطاعة على فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات، إذ لو حملناه على الطاعة الواحدة لدخل فيه الفساق والكفار، لأنهم قد يأتون بالطاعة الواحدة.

قال الرازي: قد ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقب الصفة مشعر بكون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، وإذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿من يطع الله﴾ أي في كونه إلّهاً، وطاعة الله في كونه إلّهاً هي معرفته والإقرار بجلالته وعزته وكبريائه وصمديته، فصارت هذه تنبيهاً على أمرين عظيمين من أحوال المعاد.

فالأول: أن منشأ جميع السعادات يوم القيامة إشراق الروح بأنوار معرفة الله، فكل من كانت هذه الأنوار[1] في قلبه أكثر، وصفاؤها أقوى كان إلى السعادة أقرب، وإلى الفوز بالنجاة أوصل.

والثاني: أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة وعد أهل الطاعة بالأجر العظيم والثواب الجزيل[2]، ثم ذكر في هذه الآية وعدهم بكونهم مع النبيين [والصديقين والشهداء والصالحين[3]].

وليس/ المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وذلك لا يجوز، فالمراد كونهم في الجنة

٢٦٠/ب

---

(١) في ط: الأمور.

(٢) في (ط، ش): الجسيم.

(٣) زيادة في (ش) وكلمة «والصديقين» في (ط).

بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً، وإذا أرادوا الرؤية والتلاقي قدروا على ذلك، فهذا هو المراد من هذه المعية، وقد ثبت وصح عنه ﷺ أنه قال: (المرء مع من أحب)[1]، وثبت عنه أيضاً أنه قال: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا نزلتم منزلاً إلا وهم معكم حبسهم العذر)[2]، فالمعية والصحبة الحقيقية إنما هي بالسر والروح[3] لا بمجرد البدن، فهي بالقلب لا بالقالب، ولهذا كان النجاشي معه ﷺ ومن أقرب الناس إليه، وهو بين النصارى بأرض الحبشة، وعبدالله بن أبي من أبعد الخلق عنه، وهو معه في المسجد، وذلك أن العبد إذا أراد بقلبه أمراً من طاعة أو معصية أو شخص من الأشخاص فهو بإرادته ومحبته معه لا يفارقه، فالأرواح تكون مع الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وبينها وبينهم من المسافة الزمانية والمكانية بعد عظيم.

وقال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾[4].

وهذه الآية الشريفة تسمى: آية المحبة، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني**﴾ وقال تعالى: ﴿**يحببكم الله**﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فلا محبة لكم حاصلة، ومحبته لكم منتفية،

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري، وكان ذلك حين رجوعه ﷺ من غزوة تبوك.

(٣) في (أ) بالسير والروح، وفي (ط) بالسير بالروح.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٣١.

فجعل سبحانه اتباع رسوله ﷺ مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود تحقق شرطه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل حينئذ ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ فدل على أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يكون شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان شيء عنده أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه ألبتة ولا يهديه الله، قال الله تعالى: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**(١)، فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحد منهم على معاملة الله ورسوله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بما ليس هو عليه. انتهى ملخصاً من كتاب «مدارج السالكين»، وسيأتي مزيد لذلك **إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ**.

وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾(٢).

---

(١) سورة التوبة، الآية ٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

أي إلى الصراط المستقيم، **فجعل** رجاء الاهتداء **أثر الأمرين، الإيمان** بالرسول واتباعه، تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو في الضلالة، فكل ما أتى به الرسول ﷺ يجب علينا اتباعه إلا ما خصه الدليل.

وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾(١) يعني القرآن، فالإيمان به ﷺ واجب متعين على كل أحد، لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه، قال تعالى: **﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً﴾**(٢) أي ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو من الكافرين، / وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً.

١/٢٦١

وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية(٣).

معناه: فوربك، كقوله: **﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾** و«لا» مزيدة للتأكيد لمعنى القسم، كما في **﴿لئلا يعلم﴾**، ولا يؤمنون جواب.

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع أموره، ويرضى بجميع ما حكم به، وينقاد له ظاهراً وباطناً، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، كما ورد في الحديث: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)(٤)، وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول

---

(١) سورة التغابن، الآية ٨.
(٢) سورة الفتح، الآية ١٣.
(٣) سورة النساء، الآية ٦٥.
(٤) قال النووي: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. الحديث الحادي والأربعين من «الأربعين النووية» [م].

ﷺ لا يكون مؤمناً، وعلى أنه لا بد من حصول الرضى بحكمه في القلب، وذلك بأن يحصل الجزم والتيقن في القلب بأن الذي يحكم به ﷺ هو الحق والصدق، فلا بد من الانقياد باطناً وظاهراً، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ.

ثم إن ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره.

وقوله: **﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾** مشعر بذلك، لأنه متى خطر بقلبه قياس يقتضي ضد مدلول النص فهناك يحصل الحرج في النفس، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ويسلم إلى النص تسليماً كلياً، قاله الإمام فخر الدين.

وجوز غيره تخصيص الكتاب والسنة بالقياس، وبه صرح العلامة التاج بن السبكي في جمع الجوامع.

النوع الثامن

فيما يتضمن الأدب معه ﷺ

[عدم التقدم بين يديه]

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾[1].

فمن الأدب أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما أمر الله تعالى بذلك في هذه الآية، وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند [كل][2] ذي عقل سليم.

قال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضيه الله تعالى على لسانه.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون رسول الله ﷺ.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى ينهى.

وانظر أدب الصديق - رضي الله عنه - معه ﷺ في الصلاة[3]،

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١.

(٢) زيادة في ط.

(٣) رواه مالك والشيخان.

إذ تقدم بين يديه كيف تأخر وقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، كيف أورثه مقامه والإمامة بعده، فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أومأ إليه أن اثبت مكانك، سعياً إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي.

[عدم رفع الصوت عنده]

ومن الأدب معه ﷺ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾[1].

قال الرازي: أفاد أنه ينبغي أن[2] لا يتكلم المؤمن عنده ﷺ كما يتكلم العبد عند سيده، لأن العبد داخل في قوله تعالى: ﴿**كجهر بعضكم لبعض**﴾ لأنه للعموم، فلا ينبغي أن يجهر المؤمن للنبي ﷺ كما يجهر العبد للسيد، وإلا كان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض.

قال: ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾[3]، والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه، حتى لو كانا في مخمصة ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده، ويجب البذل للنبي ﷺ، ولو علم العبد أن بموته ينجو/ سيده لا يلزمه أن يلقي نفسه في التهلكة لإنجاء سيده، ويجب لإنجاء النبي ﷺ، فكما أن العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره، لأن عند خلل القلب

٢٦١/ب

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٢.

(٢) «ينبغي أن» سقطت من ط.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٦.

مثلاً لا يبقى لليدين والرجلين استقامة، فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي ﷺ لهلك هو أيضاً بخلاف العبد والسيد، انتهى.

واعلم أن في الرفع والجهر استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة.

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه، لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار، وأن عمر رضي الله عنه كان إذا حدثه حدثه كأخي السرار ما كان يسمع النبي ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه[1].

وقد روي أن أبا جعفر أمير المؤمنين ناظر مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله عز وجل أدب قوماً فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ ومدح قوماً فقال: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم﴾ الآية، وذم قوماً فقال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ الآية. وإن حرمته ميتا كحرمته حياً، فاستكان لها أبو جعفر.

وإذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به[2].

---

(١) في البخاري (كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم﴾ الآية، قال ابن الزبير فكان عمر لا يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه..)

(٢) هذه الفقرة من قوله: «وإذا كان» وردت هنا في المخطوطات، وجاءت في (ط، ش) قبل ثلاث فقرات أي قبل قوله: «واعلم» ومكانها في المخطوطات أحسن.

[طريقة خاصة في دعائه]

ومن الأدب أن لا يجعل دعاؤه كدعاء بعضنا بعضاً، قال تعالى[1]: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾[2] وفيه قولان للمفسرين.

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوفير والتواضع، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاؤكم الرسول.

والثاني: إن المعنى، لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً، إن شاء أجاب وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاءه إياكم، وقد تقدم في الخصائص من المقصد الرابع عن مذهب الشافعي أن الصلاة لا تبطل بإجابته ﷺ.

[استئذانه]

ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد، أو رباط، لم يذهب أحد مذهباً في حاجة له حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾[3]. فإذا كان هذا مذهباً مقيداً لحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في

---

(١) هذه الآية لم تذكر في ط.
(٢) سورة النور، الآية ٦٣.
(٣) سورة النور، الآية ٦٢.

تفاصيل الدين، أصوله وفروعه، دقيقه وجليله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾[1].

[عدم استشكال قوله]

ومن الأدب معه ﷺ أنه لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء بقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال مخالف، يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول، ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه، وهو عين الجراءة عليه.

[التسليم والانقياد له]

ومن[2] الأدب معه ﷺ كمال التسليم له والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه [صاحبه][3] معقولاً، أو يسميه شبهة، أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم، فيوحد التحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يتحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، انتهى ملخصاً من «المدارج»[4]/ والقرآن مملوء بالآيات المرشدة إلى الأدب معه ﷺ فلتراجع.

1/262

(1) سورة النحل، الآية ٤٣.
(2) في (أ، ش): ورأس.
(3) في ش.
(4) أي كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم.

النوع التاسع

في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه المقدسة على عدوه ﷺ ترفيعاً لشأنه

قال الله تعالى: **﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾**(١) لما قال المشركون: **﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾**(٢)، أجاب تعالى عنه عدوه بنفسه من غير واسطة، وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يسب حبيبه تولى بنفسه - منتصراً له - جوابه، فهنا تولى الحق سبحانه وتعالى جوابهم بنفسه منتصراً له، لأن نصرته تعالى أتم من نصرته وأرفع لمنزلته، ورده أبلغ من رده وأثبت في ديوان مجده.

فأقسم تعالى بما أقسم به من عظيم آياته على تنزيه رسوله وحبيبه وخليله مما غمصته أعداؤه الكفرة به وتكذيبهم له بقوله: **﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾** وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أو هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم به في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة بحيث يتساوى الخلق كلهم في العلم به. وقال تعالى: **﴿وما صاحبكم بمجنون﴾**(٣).

ولما رأى العاصي بن وائل السهمي النبي ﷺ يخرج من المسجد

---

(١) سورة القلم، الآية ١ - ٢.

(٢) سورة الحجر، الآية ٦.

(٣) سورة التكوير، الآية ٢٢.

وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاصي قالوا: من ذا الذي كنت تحدث معه، قال: ذلك الأبتر، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة، فرد الله تعالى عليه، وتولى جوابه بقوله: **﴿إن شانئك هو الأبتر﴾**(١) أي عدوك ومبغضك هو الذليل الحقير.

ولما قالوا: **﴿أفترى على الله كذباً﴾**(٢) قال الله تعالى: **﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾**(٣).

ولما قالوا: **﴿لست مرسلاً﴾**(٤) أجاب الله تعالى عنه فقال: **﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾**(٥).

ولما قالوا **﴿أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾** رد الله تعالى عليهم فقال: **﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾** فصدقه ثم ذكر وعيد خصمائه فقال: **﴿إنكم لذائقو العذاب الأليم﴾**(٦).

ولما قالوا: **﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾**(٧) رد الله تعالى عليهم بقوله: **﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾**(٨).

---

(١) سورة الكوثر، الآية ٣.
(٢) سورة سبأ، الآية ٨.
(٣) سورة سبأ، الآية ٨.
(٤) سورة الرعد، الآية ٤٣.
(٥) سورة يس، الآيات ١ ـ ٣.
(٦) سورة الصافات، الآيات ٣٦ ـ ٣٨.
(٧) سورة الطور، الآية ٣٠.
(٨) سورة يس، الآية ٦٩.

ولما حكى الله عنهم قولهم: ﴿**إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون**﴾ سماهم الله تعالى كاذبين بقوله: ﴿**فقد جاءوا ظلماً وزوراً**﴾[1]. وقال: ﴿**قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض**﴾[2].

ولما قالوا: يلقيه إليه شيطان قال الله تعالى: ﴿**وما تنزلت به الشياطين**﴾[3] الآية.

ولما تلا عليهم نبأ الأولين قال النضر بن الحارث ﴿**لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾[4] قال الله تعالى: تكذيباً لهم ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله**﴾[5].

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿**إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر**﴾[6] قال الله تعالى: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون**﴾[7] تسلية له عليه الصلاة والسلام.

ولما قالوا: محمد قلاه ربه، رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿**ما ودعك ربك وما قلى**﴾[8].

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٤.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٦.
(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٠.
(٤) سورة الأنفال، الآية ٣١.
(٥) سورة الإسراء، الآية ٨٨.
(٦) سورة المدثر، الآية ٢٤.
(٧) سورة الذاريات، الآية ٥٢.
(٨) سورة الضحى، الآية ٣.

ولما قالوا: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾[1] قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾[2].

ولما حسدته أعداء الله اليهود على كثرة النكاح والزوجات، وقالوا: ما همته إلا النكاح، رد الله تعالى عليهم عن رسوله ونافح عنه فقال: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾[3].

ولما استبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر بقولهم الذي حكى الله عنهم: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾[4] وجهلوا أن/ التجانس يورث التآنس، وأن ٢٦٢/ب التخالف يورث التباين. قال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾[5] أي لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة، لكن لما كان أهل الأرض من البشر وجب أن يكون رسولهم من البشر.

فما أجل هذه الكرامة، وقد كانت الأنبياء إنما يدافعون عن أنفسهم، ويردون على أعدائهم، كقول نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾[6]، وقول هود ﴿ليس بي سفاهة﴾[7] وأشباه ذلك.

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٧.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٢٠.
(٣) سورة النساء، الآية ٥٤.
(٤) سورة الإسراء، الآية ٩٤.
(٥) سورة الإسراء، الآية ٩٥.
(٦) سورة الأعراف، الآية ٦١.
(٧) سورة الأعراف، الآية ٦٧.

النوع العاشر

في إزالة الشبهات عن آيات
وردت في حقه ﷺ [مشكلات][1] متشابهات

[﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾]

قال الله تعالى: ﴿وجدك ضالاً فهدى﴾[2].

اعلم أنه قد اتفق العلماء على أنه ﷺ ما ضل لحظة واحدة قط، وهل هو جائز عقلاً على الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - قبل النبوة؟

قالت المعتزلة: هو غير جائز عقلاً لما فيه من التنفير.

وعند أصحابنا: أنه جائز في العقول، ثم يكرم الله من أراد بالنبوة، إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع لنبي، قال الله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾[3] قاله الإمام فخر الدين.

---

(١) لم ترد في (أ، ش) والأفضل عدمها لأن المشكلات ليست في الآيات وإنما في فهمنا لها [المحقق].

(٢) سورة الضحى، الآية ٧.

(٣) سورة النجم، الآية ٢.

وقال الإمام أبو الفضل اليحصبي في «الشفاء»: والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على [أسرار](١) إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل.

ثم قال: وقد استبان لك بما قررناه ما هو الحق من عصمته ﷺ عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلاً وإجماعاً، وقبلها سمعاً ونقلاً، ولا بشيء مما قررناه من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحي قطعاً، عقلاً وشرعاً، وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله، قصداً وغير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً، ونظراً وبرهاناً، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعاً، وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً، وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامة السهو والغفلة [والشهوة](٢)، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة، وعصمته في كل حالاته من رضى وغضب، وجد ومزح، ما يجب لك أن تتلقاه باليمين، وتشد عليه يد الضنين، فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ، أو يجوز أو يستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هو عليه، ولا ينزهه عما لا يجوز أن يضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدري،

---

(١) زيادة في (ب، ط) وهي ليست في الشفاء وهو الأصل المنقول عنه انظر الشفاء ٢/٢٥٧.

(٢) زيادة في (أ، ط).

ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار، إذ ظن الباطل به واعتقاد ما لا يجوز عليه يحل صاحبه دار البوار.

وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر، بالمصير إلى امتثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرتهم مطلقاً. وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة في غير التزام قرينة بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حكم ذلك، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم في أفعالهم، إذ ليس كل فعل من أفعاله يتميز مقصده من القربة والإباحة والحظر والمعصية. انتهى.

واختلف في تفسير هذه الآية على وجوه كثيرة:

أحدها: وجدك ضالاً عن معالم النبوة. وهو مروي عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**﴾[1] أي ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، قاله السمرقندي، وقال بكر القاضي: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، فقد كان ﷺ / قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل، فازداد بالتكاليف إيماناً، وسيأتي آخر هذا النوع مزيد لذلك إن شاء الله تعالى. ١/٢٦٣

الثاني: من معنى قوله: (ضالاً) ما روي مرفوعاً مما ذكره الإمام فخر الدين: أنه ﷺ قال: ضللت عن جدي عبد المطلب وأنا صبي حتى كاد الجوع يقتلني فهداني الله.

الثالث: يقال: ضل الماء في اللبن إذا صار مغموراً، فمعنى

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.

الآية: كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقواك الله حتى أظهرت دينه.

الرابع: أن العرب تسمى الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله تعالى ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة في مفازة الحمد.

الخامس: قد يخاطب السيد، والمراد قومه، أي وجد قومك ضالين فهداهم بك وبشرعك.

السادس: أي محباً لمعرفتي، وهو مروي عن ابن عطاء، والضال: المحب، كما قال تعالى: ﴿إنك لفي ضلالك القديم﴾[1] أي محبتك القديمة، ولم يريدوا هاهنا: في الدين، إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا.

السابع: أي وجدك ناسياً فذكرك، وذلك ليلة المعراج نسي ما يجب أن يقال بسبب الهيبة، فهداه تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال: لا أحصي ثناء عليك.

الثامن: أي وجدك بين أهل ضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان وإلى إرشادهم.

التاسع: أي وجدك متحيراً في بيان ما أنزل إليك، فهداك لبيانه، كقوله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[2] وهذا مروي عن الجنيد.

العاشر: عن علي أنه ﷺ قال: ما هممت بشيء مما كان أهل

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٥.

(٢) سورة النحل، الآية ٤٤.

الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد، ثم ما هممت بعدهما بشيء حتى أكرمني الله برسالته. قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى بأعلى مكة: لو حفظت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت حتى أتيت أول دار من دور أهل مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير فجلست أنظر إليهم وضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك فضرب الله علي أذني فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته.

[﴿ووضعنا عنك وزرك﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾**[1].

فقد احتج بها جماعة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين المجوزين للصغائر على الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وبظواهر كثيرة من القرآن والحديث، إن التزموا ظواهرها أفضت بهم - كما قال القاضي عياض - إلى تجويز الكبائر، وخرق الإجماع، وما لا يقول به مسلم، فكيف وكلما احتجوا به منها مما اختلف المفسرون في معناه، وتقابلت الاحتمالات في مقتضاه. وجاءت الأقاويل فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك. فإذا لم يكن مذهبهم إجماعاً، وكان الخلاف فيما احتجوا به قديماً، وقامت الدلالة على خطأ قولهم، وصحة غيره، وجب تركه والمصير إلى ما صح، انتهى.

---

(١) سورة الشرح، الآية ٢ - ٣.

وقد اختلف في هذه الآية:

فقال أهل اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض، أي صوت كصوت المحامل والرحال، وهذا مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ من أقداره[1].

وقيل: المراد منه تخفيف أعباء البنوة التي يثقل الظهر القيام بأمرها، وحفظ موجباتها[2]، والمحافظة على حقوقها، فسهل الله ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له.

وقيل الوزر: ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل عليه السلام، وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قواه الله تعالى وقال له: ﴿اتبع ملة إبراهيم﴾[3].

وقيل: معناه عصمناك من الوزر الذي أنقض ظهرك لو كان ذلك الذنب حاصلاً، فسمى الله العصمة «وضعاً»[4] مجازاً/، ومن ذلك ما في الحديث أنه ﷺ حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة فضرب الله على أذنه فما أيقظه إلا حر الشمس من الغد.

٢٦/ب

وقيل: ثقل شغل سرك وحيرتك وطلب شريعتك، حتى شرعنا لك ذلك.

وقيل معناه: خففنا عليك ما حملت بحفظنا لما استحفظت وحفظ عليك، ومعنى (أنقض) أي كاد ينقضه. قال القاضي: فيكون المعنى

---

(١) أي مقادير ما كلفه.

(٢) في ط: حياتها.

(٣) سورة النحل، الآية ١٢٣.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ووضعنا﴾ [م].

على من جعل ذلك لما قبل النبوة: اهتمام النبي ﷺ بأمور فعلها قبل نبوته وحرمت عليه بعد النبوة فعدها أوزاراً وثقلت عليه وأشفق منها.

وقيل: إنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، فأمنه الله تعالى من عذابهم في العاجل بقوله: ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم**﴾[1] ووعده الشفاعة في الآجل.

[﴿ليغفر لك الله﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾[2].

فقال ابن عباس: أي أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان.

وقال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع ، أي أنك مغفور لك.

وقيل: المراد ما كان عن سهو وغفلة وتأويل، حكاه الطبري واختاره القشيري.

وقيل: ما تقدم لأبيك آدم وما تأخر من ذنوب أمتك، حكاه السمرقندي والسلمي عن ابن عطاء.

وقيل: المراد أمته.

وقيل: المراد بالذنب ترك الأولى، كما قيل: حسنات الأبرار

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٣.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢.

سيآت المقربين، وترك الأولى ليس بذنب، لأن الأولى وما يقابله مشتركان في إباحة الفعل.

وقال السبكي: قد تأملتها ـ يعني الآية ـ مع ما قبلها وما بعدها فوجدتها لا تحتمل إلا وجهاً واحداً، وهو تشريف النبي ﷺ من غير أن يكون هناك ذنب، ولكنه أريد أن يستوعب في الآية جميع أنواع النعم ـ من الله على عباده ـ الأخروية، وجميع النعم الأخروية شيئآن: سلبية وهي غفران الذنوب، وثبوتية وهي لا تتناهى، أشار إليها بقوله: ﴿**ويتم نعمته عليك**﴾[1]، وجميع النعم الدنيوية شيئآن: دينية وأشار إليها بقوله ﴿**ويهديك صراطاً مستقيماً**﴾[2]، ودنيوية وهي قوله: ﴿**وينصرك الله نصراً عزيزاً**﴾[3]، فانتظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نعم الله تعالى عليه المتفرقة في غيره، ولهذا جعل ذلك غاية للفتح المبين الذي عظمه وفخمه بإسناده إليه بنون العظمة[4]، وجعله خاصاً بالنبي ﷺ بقوله: (لك)

وقد سبق إلى نحو هذا ابن عطية فقال؛ وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم، ولم تكن ذنوب ألبتة.

ثم قال[5]: وعلى تقدير الجواز لا شك ولا ارتياب أنه لم يقع منه ﷺ ، وكيف يتخيل خلاف ذلك ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾[6].

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢.
(٢) سورة الفتح، الآية ٢.
(٣) سورة الفتح، الآية ٣.
(٤) في قوله تعالى ﴿**إنا فتحنا**﴾.
(٥) أي السبكي.
(٦) سورة النجم، الآية ٤.

وأما الفعل[1]: فإجماع الصحابة على اتباعه والتأسي به في كل ما يفعله من قليل أو كثير، أو صغير أو كبير لم يكن عندهم في ذلك توقف ولا بحث، حتى أعماله في السر والخلوة يحرصون على العلم[2] بها وعلى اتباعها، علم بهم أو لم يعلم، ومن تأمل أحوال الصحابة معه ﷺ استحيى من الله أن يخطر بباله خلاف ذلك، انتهى.

[﴿يا أيها النبي اتق الله﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾**[3].

فلا مرية أنه ﷺ أتقى الخلق، والأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به، إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس، ولا للساكت اسكت، ولا يجوز عليه أن لا يبلغ، ولا أن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك، ولا أن يطيع الكافرين والمنافقين، حاشاه الله من ذلك، وإنما أمره الله تعالى بتقوى توجب استدامة الحضور.

وأجاب بعضهم عن هذا أيضاً بأنه ﷺ كان يزداد علمه [بالله تعالى][4]، ومرتبته، حتى كان حاله ﷺ فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه ترك/ للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى تتجدد. ١/٢٦٤

---

(١) أسقط المصنف من كلام السبكي قوله: وأحواله ﷺ منقسمة إلى قول وفعل: أما القول فقال تعالى: **﴿وما ينطق عن الهوى﴾** وأما الفعل...

(٢) في ط: العمل.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ١.

(٤) زيادة في ش.

وقيل: المراد دم على التقوى. فإنه يصح أن يقال للجالس: اجلس هاهنا إلى أن آتيك، وللساكت: قد أصبت فاسكت تسلم، أي دم على ما أنت عليه.

وقيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد أمته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[1]، ولم يقل بما تعمل.

[﴿فلا تطع المكذبين﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين﴾[2].

فاعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمره ﷺ ، ونسبته إلى ما نسبوه إليه، مع ما أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق العظيم، أتبعه بما يقوي قلبه ويدعوه إلى التشديد مع قومه، وقوى[3] قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ والمراد رؤساء الكفار من أهل مكة، وذلك أنهم دعوه إلى دينهم، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله تهييج للتشديد في مخالفتهم.

[﴿فإن كنت في شك﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾[4]، الآية.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢.

(٢) سورة القلم، الآية ٨.

(٣) في ط: وتقوى.

(٤) سورة يونس، الآية ٩٤.

فاعلم أن المفسرين اختلفوا فيمن المخاطب بهذا: فقال قوم المخاطب به النبي ﷺ، وقال آخرون: المخاطب به غيره.

فأما من قال بالأول فاختلفوا على وجوه:

الأول: أن الخطاب مع النبي ﷺ في الظاهر والمراد غيره، كقوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا طلقتم النساء**﴾[1] وكقوله: ﴿**لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾[2]، وكقوله لعيسى ابن مريم - عليهما السلام -: ﴿**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾[3] ومثل هذا معتاد، فإن السلطان إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه إليهم، بل يوجهه إلى ذلك الأمير ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم.

الثاني: قال الفراء: علم الله تعالى أن رسوله ﷺ غير شاك، ولكن هذا كما يقول الرجل لولده: إن كنت ابني فبرني، ولعبده: إن كنت عبدي فأطعني.

الثالث: أن يقال لضيق الصدر شاك، يقول: إن ضقت ذرعاً بما تعاني من تعنتهم وأذاهم فاصبر واسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك كيف صبر الأنبياء على أذى قومهم، وكيف كان عاقبة أمرهم من النصر، فالمراد تحقيق ذلك والاستشهاد[4] بما في الكتب المتقدمة، وأن القرآن مصدق لما فيها[5]، أو تهييج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته، أو

---

(١) سورة الطلاق، الآية ١.

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٥.

(٣) سورة المائدة، الآية ١١٦.

(٤) في (ب): الاستمساك.

(٥) كذا في (د) وفي النسخ فيه. قال الشارح: راجع لـ«ما» وصح ذلك رعاية للفظ «ما» وإن كان مدلولها متعدداً.

يكون على سبيل الفرض والتقدير، لا إمكان وقوع الشك له، ولذلك قال ﷺ لما نزلت هذه الآية: والله لا أشك ولا أسأل[1].

وأما الوجه الثاني ـ وهو أن المخاطب غيره ﷺ ـ فتقريره: أن الناس كانوا في زمانه ﷺ فرقاً ثلاثة: المصدقون به، والمكذبون له، والمتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: فإن كنت في شك أيها الإنسان مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان نبينا ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وهذا مثل قوله تعالى: **﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾**[2] و**﴿يا أيها الإنسان إنك كادح﴾**[3] **﴿وإذا مس الإنسان ضر﴾**[4] فإن المراد «بالإنسان» هنا الجنس، لا إنسان بعينه، فكذا هنا، ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: **﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾**[5].

[﴿فلا تكونن من الممترين﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾**[6].

أي في أنهم لا يعلمون ذلك، أو يكون المراد: قل لمن امترى يا

---

(١) رواه ابن جرير عن قتادة مرسلاً، لكن بدون قسم.
(٢) سورة الانفطار، الآية ٦.
(٣) سورة الانشقاق، الآية ٦.
(٤) سورة الزمر، الآية ٨.
(٥) سورة يونس، الآية ٩٥.
(٦) سورة الأنعام، الآية ١١٤.

محمد، لا تكونن من الممترين [فليس الخطاب له][1] وأنه ﷺ يخاطب به غيره. وقيل غير ذلك.

[﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾[2].

فقال القاضي عياض: لا يلتفت إلى قول من قال: لا تكونن ممن يجهل أن الله تعالى لو شاء لجمعهم على الهدى/، إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفاته تعالى، وذلك لا يجوز على الأنبياء، والمقصود وعظهم أن لا يتشبهوا في أمورهم بسمات الجاهلين، وليس في الآية دليل على كونه على تلك الصفة التي نهاه الله عن الكون عليها، فأمره [الله تعالى][3] ﷺ بالتزام الصبر على إعراض قومه، ولا يحرج عند ذلك فيقارب حال الجاهل بشدة التحسر. حكاه أبو بكر بن فورك.

٢٦٤/ب

وقيل: معنى الخطاب لأمته ﷺ، أي فلا تكونوا من الجاهلين. حكاه أبو محمد مكي، قال: ومثله في القرآن كثير، وكذلك قوله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾[4] فالمراد غيره، كما قال تعالى: ﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿فإن يشأ الله يختم على

---

(١) زيادة في ش.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٣٥.
(٣) زيادة في ش.
(٤) سورة الأنعام، الآية ١١٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية ١٤٩.

قلبك﴾[1] و**﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾**[2] وما أشبه ذلك فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك، والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا، والله تعالى ينهاه عما يشاء ويأمره بما يشاء[3]، كما قال تعالى: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾**[4] الآية، وما طردهم ﷺ وما كان من الظالمين.

[﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾**[5].

فليس بمعنى قوله **﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾**[6]، وإنما المعنى: لمن الغافلين عن قصة يوسف، إذ لم تخطر ببالك، ولم تقرع سمعك قط، فلم تعلمها إلا بوحينا.

[﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ..﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾**[7] الآية.

فمعناه: يستخفنك غضب[8] يحملك على ترك الإعراض عنهم.

---

(1) سورة الشورى، الآية ٢٤.

(2) سورة الزمر، الآية ٦٥.

(3) في ط: يريد.

(4) سورة الأنعام، الآية ٥٢.

(5) سورة يوسف، الآية ٣.

(6) سورة يونس، الآية ٧.

(7) سورة الأعراف، الآية ٢٠٠.

(8) في ش: بغضب.

والنزغ: أدنى حركة تكون، كما قاله الزجاج.

فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غضب على عدوه، أو رام الشيطان من إغرائه به وخواطر أدنى وساوسه ما لم يجعل له سبيل إليه أن يستعيذ به تعالى منه، فيكفى أمره، ويكون سبب تمام عصمته، إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له، ولم يجعل له قدرة عليه. وكذلك لا يصح أن يتصور له الشيطان في صورة الملك ويلبس عليه، لا في أول الرسالة ولا بعدها بل لا يشك النبي أن ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله حقيقة إما بعلم ضروري يخلقه الله له أو ببرهان يظهر لديه كما قدمته في المقصد الأول عند البعثة، لتتم كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته.

[﴿إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾**(١) الآية.

فأحسن ما قيل فيها ما عليه جمهور المفسرين(٢): أن التمني المراد به هنا: التلاوة، وإلقاء الشيطان فيها إشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل الوهم عليه والنسيان فيما تلاه، أو يدخل غير ذلك على أفهام السامعين من التحريف وسوء التأويل ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبسه ويحكم آياته. قاله القاضي عياض، وقد تقدم في المقصد الأول مزيد لذلك.

---

(١) سورة الحج الآية ٥٢.

(٢) بل ما قاله سيد قطب ـ رحمه الله ـ في الظلال أحسن منه [م].

قال في الشفاء: **وأما قوله ﷺ** حين نام عن الصلاة يوم الوادي: (إن هذا وادٍ به شيطان)[1] فليس فيه ذكر تسلطه عليه ولا وسوسته له، بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله: إن الشيطان أتى بلالاً، فلم يزل يهديه كما يهدى[2] الصبي حتى نام، فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي إنما كان على بلال الموكل بكلاءة الفجر، هذا إن جعلنا قوله «إن هذا وادٍ به شيطان» تنبيهاً على سبب النوم عن الصلاة، وأما إن جعلناه تنبيهاً على سبب الرحيل عن الوادي وعلة لترك الصلاة به، وهو دليل مساق حديث زيد بن أسلم فلا اعتراض به في هذا الباب، لبيانه وارتفاع إشكاله.

[﴿عبس وتولى﴾]

قال [عياض][3]: وأما قوله تعالى: **﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾**[4] الآيات، فليس فيها إثبات ذنب له ﷺ. بل إعلام الله له أن ذلك المتصدى له ممن لا يتزكى، وأن الصواب والأولى كان لو كشف له حال الرجلين لاختار الاقبال على الأعمى وفعل/ النبي ﷺ لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعة لله، وتبليغاً عنه، واستئلافاً له، كما شرعه الله، لا معصية ولا مخالفة له، وما قصه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين، وتوهين[5] أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: **﴿وما عليك ألا يزكى﴾**[6] أي ليس عليك بأس

١/٢٦٥

(١) رواه مالك ومسلم بلفظ (إن هذا منزل حضرنا فيه شيطان).
(٢) يهديه: يسكنه وينومه من هدأت الصبي إذا وضعت عليه يدك لينام.
(٣) زيادة في ش، وفي ط: أي القاضي.
(٤) سورة عبس، الآية ١ ـ ٢.
(٥) في ط: توهيم.
(٦) سورة عبس، الآية ٧.

في أن لا يتزكى بالإسلام، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم أن تعرض عمن أسلم بالاشتغال بدعوتهم، إن عليك إلا البلاغ.

وقد كان ابن أم مكتوم يستحق التأديب والزجر، لأنه - وإن فقد بصره - كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الكفار، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمامه ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلامه ﷺ إيذاء له ﷺ وذلك معصية عظيمة. فثبت أن فعل ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية[1]، وأن الذي فعله الرسول ﷺ كان هو الواجب المتعين. وقد كان ﷺ مأذوناً له في تأديب أصحابه، ولكن ابن أم مكتوم بسبب عماه استحق مزيد الرفق به.

[﴿عفا الله عنك﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم﴾**[2] الآية.

فروى ابن أبي حاتم عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة، وكذا قال مورق العجلي[3] وغيره.

وقال قتادة: عاتبه الله كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: **﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فائذن لمن شئت منهم﴾**[4] ففوض الأمر إلى رأيه ﷺ.

---

(١) هذا الكلام فيه نظر، إذ الآيات لم تشر إلى هذا، بل كان ﷺ إذا دخل عليه ابن أم مكتوم بعدها يبسط له رداءه ويقول: مرحبا بمن عاتبني فيه ربي [المحقق].

(٢) سورة التوبة، الآية ٤٣.

(٣) تابعي ثقة عابد مات سنة اثنتين ومائة.

(٤) سورة النور، الآية ٦٢.

وقال عمرو بن ميمون[1]: اثنتان فعلهما الرسول ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسرى، فعاتبه الله كما تسمعون. وأما قول بعضهم إن هذه الآية تدل على أنه وقع من الرسول ذنب لأنه تعالى قال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ والعفو يستدعي سالفة ذنب، وقول الآخر[2]: ﴿لم أذنت لهم﴾ استفهام بمعنى الإنكار، فاعلم: أنا لا نسلم أن قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾ يوجب ذنباً، ولم لا يقال إن ذلك يدل على مبالغة الله تعالى في توقيره وتعظيمه، كما يقول الرجل لغيره إذا كان عظيماً عنده: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي، وعافاك الله ألا عرفت حقي، فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا زيادة التبجيل والتعظيم، وليس (عفا) هنا بمعنى: غفر، بل كما قال ﷺ: (عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق)[3] ولم تجب عليهم قط، أي لم يلزمكم ذلك.

ونحوه للقشيري قال: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب، قال: ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنباً.

وأما الجواب عن الثاني[4] فيقال: إما أن يكون صدر من الرسول ﷺ ذنب أم لا؟ فإن قلنا: لا، امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ إنكاراً عليه، وإن قلنا إنه قد صدر عنه

---

(١) ثقة فاضل من رواة الجماعة مات سنة سبع وأربعين ومائة.

(٢) أي وقول الآخر في قوله تعالى.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن علي مرفوعاً.

(٤) أي الجواب على من قال إن (لم أذنت لهم) استفهام بمعنى الإنكار [م].

ذنب ـ وحاشاه الله من ذلك ـ فقوله: ﴿**عفا الله عنك**﴾ يدل على حصول العفو، وبعد العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه، فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال: إن قوله: ﴿**لم أذنت لهم**﴾ يدل على كون الرسول مذنباً، وهذا جواب كاف شاف قاطع، وعند هذا يحمل قوله لم أذنت لهم على ترك الأولى والأكمل. بل لم يعد هذا أهل العلم معاتبة، وغلطوا من ذهب إلى ذلك. قال نفطويه[1]: ذهب ناس إلى أن النبي ﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشاه الله من ذلك، بل كان مخيراً، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن.

[﴿تريدون عرض الدنيا﴾]

وأما قوله تعالى في أسارى بدر: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة**﴾ إلى قوله: ﴿**عظيم**﴾[2].

فروى مسلم من أفراده من حديث عمر بن الخطاب قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر/ سبعون، ٢٦٥/ب استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريب

---

(١) هو لقب لإبراهيم بن محمد الأزدي النحوي مات سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.

لعمر فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيـل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهـو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت، فقال النبي ﷺ : أبكي للذي عـرض علي أصحـابك من الفداء، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة فـأنزل الله تعـالى: ﴿**ما كـان لنبي أن يكون لـه أسرى**﴾ إلى قولـه ﴿**عظيم**﴾[1].

وقوله: ﴿**حتى يثخن في الأرض**﴾: أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه، ويعز الإسلام ويستولي أهله.

وليس في هذا إلزام ذنب للنبي ﷺ ، بل فيه بيان ما خص به وفضِّل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك. قال ﷺ: (أحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي)

وأما قوله: ﴿**تريدون عرض الدنيا**﴾ فقيل المراد بالخطاب من أراد ذلك منهم وتجرد غرضه لعرض الدنيا وحده، والاستكثار منها، وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا علية أصحابه.

بل قد روي عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد رقم الحديث ٥٨.

ثم قال تعالى: ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾ فاختلف المفسرون في معنى هذه الآية:

فقيل معناها: لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحداً إلا بعد النهي لعذبتكم، فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية.

وقيل: لولا إيمانكم بالقرآن، وهو الكتاب السابق، فاستوجبتم به الصفح لعوقبتم على الغنائم.

وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتم.

وهذا كله ينفي الذنب والمعصية، لأن من فعل ما أحل له لم يعص، قال الله تعالى: ﴿**فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً**﴾.

وقيل: بل كان ﷺ قد خير في ذلك، وقد روي عن علي قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يوم بدر فقال: خير أصحابك في الأسارى إن شاؤوا القتل وإن شاؤوا الفداء على أن يقتل منهم في العام المقبل مثلهم فقالوا الفداء ويقتل منا[1]، وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه. لكن بعضهم مال إلى أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإثخان والقتل فعوتبوا على ذلك وبين لهم ضعف اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم، وكلهم غير عصاة ولا مذنبين.

قال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء، وقد كان قبل هذا فادى في سرية عبدالله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه، فما عتب الله ذلك عليهم،

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح.

وذلك قبل بدر بأزيد من عام، فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسارى كان على تأويل وبصيرة على ما تقدم قبل ذلك مثله فلم ينكره الله عليه. لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسرارها ـ والله تعالى أعلم ـ إظهار نعمته وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لا على وجه عتاب أو إنكار أو تذنيب/ قاله القاضي عياض[1]. ١/٢٦٦

[﴿لقد كدت تركن إليهم﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾**[2] الآية.

فالمعنى: لولا أن ثبتناك لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم، لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب فضلاً عن أن تركن إليهم. وهو صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم مع قوة الدواعي إليها، فالعصمة بتوفيق الله وحفظه، ولو قاربت لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، أي ضعف ما يعذب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومما يعزى للحريري مما يؤيد ذلك قوله:

أنحوي هذا العصر ما هي لفظة ... جرت في لساني جرهم وثمود

إذا استعملت في صورة الجحد أثبتت ... وإن اثبتت قامت مقام جحود

وفسر الأول وهو النفي المثبت بنحو **﴿ذبحوها وما كادوا**

(١) من قوله: «وليس في هذا إلزام..».

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٤.

يفعلون﴾[1] والثاني وهو الثبوت المنفي بنحو قوله تعالى **﴿لقد كدت تركن﴾** قالوا: وهو ﷺ ثبت قلبه ولم يركن.

[﴿ولو تقول علينا..﴾]

وأما قوله تعالى: **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾**[2].

فالمعنى: لو افترى علينا بشيء من عند نفسه لأخذنا منه باليمين وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاذه الله من التقول عليه.

فإن قلت: لا مرية أنه يعفى للمحب ولصاحب المحاسن والإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره، كما قال الشاعر:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

ولا شك أن نبينا ﷺ هو الحبيب الأعظم ذو المحاسن والإحسان الأكبر، فما هذه العقوبة المضاعفة والتهديد الشديد الوارد إن وقع منه ما يكره، وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه لم يعبأ به كأرباب البدع ونحوهم؟

فالجواب: أنه لا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره، وأعطاه منها ما لم يعط غيره، فحباه بالإنعام وخصه بمزيد القرب والإكرام اقتضت حالته من حفظ مرتبة القرب والولاية والاختصاص أن تراعى مرتبته عن أدنى مشوش

---

(١) سورة البقرة، الآية ٧١.

(٢) سورة الحاقة، الآية ٤٦.

وقاطع، فلشدة الاعتناء به ومزيد تقريبه واتخاذه لنفسه واصطفائه على غيره تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم ونعمه عليه أكمل، فالمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل أو أخل بمقتضى مرتبته نبه بما لم ينبه عليه البعيد، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك البعيد أيضاً، فيجتمع في حقه الأمران. وإذا أردت معرفة اجتماعهما وعدم تناقضهما فالواقع شاهد بذلك، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لا يسامح به من ليس في منزلتهم، ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به غيرهم. وأنت إذا كان لك عبدان أو ولدان أحدهما أحب إليك من الآخر وأقرب إلى قلبك وأعز عليك عاملته بهذين الأمرين، واجتمع في حقه المعاملتان بحسب قربه منك، وحبك له وعزته، فإذا نظرت إلى إكمال إحسانك إليه وإتمام نعمك عليه اقتضت معاملته بما لم تعامل به من هو دونه من التنبيه وعدم الإهمال. وإذا نظرت إلى محبته لك وطاعته وخدمته وكمال عبوديته ونصحه، وهبت له وسامحته وعفوت عنه بما لا تفعله مع غيره. فالمعاملتان بحسب ما بينك وبينه.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزويج إذا تعداه إلى الزنا الرجم، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد، وكذلك ضاعف الحد على الحر الذي قد ملكه نفسه وأتم عليه نعمته ولم يجعله مملوكاً لغيره، وجعل حد العبد المنقوص بالرق ـ الذي لم يجعل له هذه النعمة ـ نصف ذلك. فسبحان من بهرت حكمته في خلقه.

فللّه سر تحت كل لطيفة ... فأخو البصائر غائص يتعقل

/انتهى ملخصاً. ٢٦٦/ب

[﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**﴾[1].

فقيل: معناه ما كنت تدري الإيمان على التفصيل الذي شرع لك في القرآن.

وقال أبو العالية: هو بمعنى الدعوة إلى الإيمان، لأنه كان قبل الوحي لا يقدر أن يدعو إلى الإيمان بالله تعالى.

وقيل: معناه أنه ما كان يعرف الإيمان حين كان في المهد وقبل البلوغ. حكاه الماوردي والواحدي والقشيري.

وقيل: إنه من باب حذف المضاف، أي ما كنت تدري أهل الإيمان، أي من الذي يؤمن، أبو طالب، أو العباس، أو غيرهما.

وقيل: المراد به شرائع الإيمان ومعالمه وهي كلها إيمان، وقد سمى الله الصلاة إيماناً بقوله: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾[2] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص. قاله ابن قتيبة وابن خزيمة.

وقد اشتهر في الحديث أنه ﷺ كان يوحد الله ويبغض الأوثان ويحج ويعتمر.

وروى أبو نعيم وابن عساكر عن علي قال: قيل للنبي ﷺ هل عبدت وثناً قط؟ قال لا، قيل: فهل شربت خمراً قط؟ قال: لا، وما

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر. وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وعن عائشة: كانت قريش ومن دان دينها، وهم الحمس، يقفون بمزدلفة ويقولون: نحن أهل الحرم. رواه الشيخان.

وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية يقف بعرفات دونهم توفيقاً من الله تعالى. رواه البيهقي وأبو نعيم من حديث جبير بن مطعم[1].

وقد ورد أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل، كحج البيت والختان والغسل من الجنابة، وكان ﷺ لا يقرب الأوثان ويعيبها، ولا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه، فذلك قوله تعالى: ﴿**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**﴾ ولم يرد الإيمان الذي هو الإقرار بالله، لأن آباءه الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجون مع شركهم، والله أعلم.

---

(١) من قوله «وعن عائشة» لم تذكر في (ش).

المقصد السابع

في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه وطريقته وفرض محبة آله وأصحابه وقرابته وعترته، وحكم الصلاة والتسليم عليه زاده الله فضلاً وشرفاً لديه. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول

في وجوب محبته واتباع سنته
والاقتداء بهديه وسيرته ﷺ

[التعريف بالمحبة]

اعلم أن المحبة ـ كما قال صاحب «المدارج» ـ هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت[1] منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيه، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا أبداً بدونها واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق إلى مقامات لم يكونوا لولا هي داخليها، وهي مطايا القوم التي سراهم في ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قدر الله

(١) في ط: خلصت.

يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة، لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المذلل تمشي رويداً وتجي في الأول

أجابوا مؤذن الشوق إذ نادى بهم حي على الفلاح، وبذلوا أنفسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان/ بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، ولقد حمدوا عند وصولهم مسراهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح[1]. ١/٢٦

[تعريف المحبة]

وقد اختلفوا في تعريف المحبة، وعباراتهم وإن كثرت فليست في الحقيقة ترجع إلى اختلاف مقال، وإنما هي اختلاف أحوال، وأكثرها يرجع إلى ثمرتها دون حقيقتها.

وقد قال بعض المحققين: حقيقة المحبة عند أهل المعرفة، من المعلومات التي لا تحد، وإنما يعرفها من قامت به وجداناً لا يمكن التعبير عنه.

وهكذا كقول صاحب مدارج السالكين ـ تبعاً لغيره ـ: والمحبة لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

---

(١) عن مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي، ط ٢ ٣/٦ ـ ٧.

وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب الإدراك والمقام والحال.

وقد وضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمى غاية المناسبة: «الحاء» التي هي من أقصى الحلق، و«الباء» الشفهية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه.

وقد أعطوا «الحب» حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها مطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها، وأعطوا «الحِبّ» وهو المحبوب حركة الكسر لخفتها من الضمة، وخفة المحبوب وذكره على قلوبهم وألسنتهم.

فتأمل هذا اللطف والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني، تطلعك على قدر هذه اللغة، وأن لها شأناً ليس لسائر اللغات.

[بعض الحدود والتعاريف]

وهذه بعض رسوم وحدود قيلت في المحبة بحسب آثارها وشواهدها، والكلام على ما يحتاج إلى الكلام عليه منها.

فمنها: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب. وهذا موجبها ومقتضاها.

ومنها: محو المحب لصفاته وإثبات المحب[١] لذاته، وهذا من

(١) كذا في النسخ، وفي المدارج: المحبوب، وهي في (د): المَحَب.

أحكام الفناء في المحبة، وهي أن تمحى صفات المحب وتفنى في صفات محبوبه وذاته، وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا لا يدركه إلا من أفناه وارد المحبة عنه وأخذه منه.

ومنها: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك[1]، وهو لأبي يزيد، وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهدها. والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقله واستحيا منه[2]، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره واستعظمه.

ومنها: استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك. وهو قريب من الأول لكنه مخصوص بما من المحب.

ومنها: معانقة الطاعة ومباينة المخالفة، وهو لسهل بن عبدالله، وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها.

ومنها أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وهو لسيدنا أبي عبدالله القرشي[3]، وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها. والمراد أن تهب إرادتك وعزماتك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه، ولا تأخذ منها لنفسك إلا ما أعطاكه، فتأخذه منه له.

ومنها: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب، وكمال المحبة

---

(١) في ط: حبك، وفي ش: محبوبك.
(٢) واستحيا منه: سقطت من ش.
(٣) محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي، من أعيان مشايخ المغرب ومصر، لقي كثيراً من المشايخ وأخذ عنه كثيرون وله كرامات مات ببيت المقدس سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

يقتضى ذلك، فإنه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة.

ومنها: أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك. وهو للشبلي[1]، ومراده: احتقارك لنفسك واستصغارها أن يكون مثلك [ممن][2] يحبه.

ومنها: غض طرف المحب عما سوى المحبوب غيرة، وعن المحبوب هيبة، وهذا يحتاج إلى إيضاح، أما الأول فظاهر، وأما الثاني: فإن غض طرف القلب عن المحبوب مع كمال محبته كالمستحيل، ولكن عند استيلاء سلطان المحبة يقع مثل هذا، وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم.

ومنها: ميلك إلى الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سراً وجهراً ثم علمك بتقصيرك في حبه. / قال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي[3] يقول ذلك. ٢٦٧/ب

ومنها: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد بعضهم:

فأسكر القوم دور الكأس بينهم ... لكن سكري نشا من رؤية الساقي

ومنها: سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على

---

(١) دلف بن جحدر، وقيل جعفر بن يونس صحب الجنيد، وصار أوحد وقته علماً وحالاً، تفقه على مذهب مالك، وكتب حديثاً كثيراً ثم شغلته العبادة مات ببغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، عن سبع وثمانين سنة.

(٢) في (ب، د، ط).

(٣) الحارث بن أسد المحاسبي، قيل له ذلك لكثرة محاسبته لنفسه. كان عابداً زاهداً راسخاً في الأصول والفقه والحديث والتصوف. صحب الشافعي، صنف نحو مائتي مؤلف. مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

الدوام، أما سفر القلب في طلبه فهو الشوق إلى لقائه، وأما لهج اللسان بذكره فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

ومنها: الميل إلى ما يوافق الإنسان، كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة وغير ذلك من الملاذ التي لا يخلو كل طبع سليم عن الميل إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسته، أو يكون حبه لذلك لموافقته له من جهة إحسانه إليه وإنعامه عليه، فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، كما رواه أبو نعيم في الحلية وأبو الشيخ وغيرهما[1]، فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً فانياً منقطعاً، أو استنقذه من هلكة أو مضرة لا تدوم، فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول ووقاه من العذاب الأليم ما لا يفنى ولا يحول.

[حب الرسول ﷺ]

وإذا كان المرء يحب غيره على ما فيه من صور جميلة وسيرة حميدة، فكيف بهذا النبي الكريم والرسول العظيم الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم، فقد أخرجنا الله به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وخلصنا به من نار الجهل إلى جنات المعارف والإيقان، فهو السبب لبقاء مهجنا البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، فأي إحسان أجل قدراً وأعظم خطراً من إحسانه إلينا، فلا منة ـ وحياته[2] ـ لأحد بعد الله كما له علينا، ولا فضل لبشر كفضله لدينا.

---

(١) قال السخاوي هو باطل موقوفاً ومرفوعاً، وفي تذكرة ابن عبد الهادي: قال مهنأ سألت أحمد ويحيى عن هذا الحديث فقالا: ليس له أصل وهو موضوع.

(٢) هذا قسم ويعود الضمير إلى الله تعالى إذ لا يجوز القسم بغيره تعالى [م].

فكيف ننهض ببعض شكره، أو نقوم من واجب حقه بمعشار عشره، فقد منحنا الله به منح الدنيا والآخرة، وأسبغ علينا نعمه[١] باطنة وظاهرة، فاستحق أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا والناس أجمعين، بل لو كان في منبت كل شعرة منا محبة تامة له صلوات الله وسلامه عليه لكان ذلك بعض ما يستحقه علينا.

وقد روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده) رواه البخاري.

وقدم الوالد للأكثرية، لأن كل أحد له والد، من غير عكس، وفي رواية النسائي تقديم الولد على الوالد وذلك لمزيد الشفقة، وزاد في رواية عبد العزيز بن صهيب عن أنس (والناس أجمعين)[٢]، وفي صحيح ابن خزيمة: (من أهله وماله) بدل (من والده وولده) وذكر الوالد والولد أدخل في المعنى لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من نفسه. ولذا لم يذكر «النفس» في حديث أبي هريرة، وذكر الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص.

[معنى محبته ﷺ]

قال الخطابي: والمراد بالمحبة هنا، حب الاختيار لا حب الطبع.

وقال النووي: فيه تلميح إلى قضية النفس الأمارة والمطمئنة، فإن من رجح جانب المطمئنة كان حبه للنبي ﷺ راجحاً، ومن رجح جانب الأمارة كان حكمه بالعكس.

---

(١) أي الله تعالى.

(٢) هي في البخاري ومسلم.

وفي كلام القاضي عياض: أن ذلك شرط في صحة الإيمان، لأنه حمل المحبة على معنى التعظيم والإجلال. وتعقبه صاحب المفهم: بأن ذلك ليس مراداً، لأن اعتقاد الأعظمية ليس مستلزماً للمحبة، إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه من محبته. قال: فعلى هذا من لم يجد من نفسه ذلك الميل لم يكمل إيمانه، وإلى هذا يومئ قول عمر في الحديث الذي رواه البخاري في «الأيمان والنذور» من حديث عبدالله ابن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال النبي ﷺ/: (لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه) فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي ﷺ (الآن يا عمر)[1]. فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط. فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعاً.

١/٢٦٨

وفي رواية فقال ﷺ: (لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك) قال بعض الزهاد: تقدير الكلام، لا تصدق في حبي حتى تؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه الهلاك.

وأما وقوف عمر في أول أمره، واستثناؤه نفسه، فلأن حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد ﷺ منه حب الاختيار، إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه. وعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من الهلكات في الدنيا والآخرة، فأخبره بما اقتضاه الاختيار، فلذلك حصل الجواب بقوله (الآن يا عمر) أي الآن عرفت فنطقت بما يجب.

(١) رواه البخاري برقم ٦٦٣٢.

[حب الله تعالى]

وإذا كان هذا شأن نبينا محمد ﷺ عبدالله ورسوله في محبتنا له ووجوب تقديمها على محبة أنفسنا وأولادنا ووالدينا والناس أجمعين، فما الظن بمحبة الله تعالى ووجوب تقديمها على محبة ما سواه، ومحبة الله تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها، وإفراده سبحانه وتعالى بها، فإن الواجب له من ذلك أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه، فيكون إلهه الحق، ومعبوده أحب إليه من ذلك كله. والشيء قد يحب من وجه دون وجه، وقد يحب لغيره وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية[1] إلا له تعالى. والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع.

[اختبار الحب له ﷺ]

ومن علامات الحب المذكور لرسول الله ﷺ أن يعرض الإنسان على نفسه أنه لو خير بين فقد غرض من أغراضه وفقد رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة، فإن كان فقدها أشد عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة لرسول الله ﷺ ، ومن لا فلا.

قال القرطبي: كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من يأخذ بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات،

---

(١) أي العبادة.

لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة ويجد رجحان ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه. وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر، لما وقر في قلوبهم من محبته، غير أن ذلك سريع الزوال لتوالي الغفلات، انتهى.

فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في محبته ﷺ بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته عليه الصلاة والسلام من النفع الشامل لخير الدارين والغفلة عن ذلك. ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى أتم، لأن هذا ثمرة المعرفة وهم بها أعلم.

[نماذج من حب الصحابة له ﷺ]

وقد روى ابن إسحاق ـ كما حكاه في الشفاء ـ أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين، / فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تعني: صغيرة. ٢٦٨/ب

ورواه البيهقي في الدلائل[١]، وذكره صاحب اللباب[٢] بلفظ: لما قيل يوم أحد قتل محمد ﷺ وكثرت الصوارخ بالمدينة، خرجت امرأة من الأنصار، فاستقبلت بأخيها وابنها وزوجها وأبيها قتلى، لا تدري

(١) عبارة (أ): وروى البيهقي في دلائله.
(٢) في (ش): البيان.

بأيهم استقبلت، فكلما مرت بواحد منهم صريعاً قالت: من هـذا؟ قالوا: أخـوك وأبوك وزوجـك وابنك قـالت: فما فعـل النبي ﷺ؟ فيقولون: أمامك، حتى ذهبت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من عطب. وكذا رواه ابن أبي الدنيا بنحوه مختصراً[١].

وقال عمرو بن العاص: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

وقال علي بن أبي طالب: كان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

ولما أخرج أهل مكة زيـد بن الدثنـة[٣] ـ بفتح الـدال المهملة وكسر المثلثة وتشديد النون ـ من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شـوكة وأني جـالس في أهلي. فقـال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[٤].

وروي ـ مما ذكره القاضي عياض ـ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر

---

(١) في (ب، ط): في جزء.
(٢) أخرجه مسلم في حديث طويل.
(٣) في (ب): ابن أبي الدثنة.
(٤) رواه البيهقي عن عروة.

حتى أجيء فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[1] فدعا به فقرأها عليه[2].

قال[3]: وفي حديث آخر: كان رجل عند النبي ﷺ ينظر إليه لا يطرف، فقال: ما بالك؟ فقال: بأبي أنت وأمي، أتمتع بالنظر إليك، فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله، فأنزل الله الآية.

وذكره البغوي في تفسيره[4] بلفظ: نزلت ـ أي الآية ـ في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله، ما بي من مرض ولا وجع غير أني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين، وأني إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية، وكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول»، وعزاه للكلبي[5] عن ثوبان.

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.
(٢) رواه الطبراني في الصغير عن عائشة، وابن مردويه عن ابن عباس.
(٣) أي عياض.
(٤) بلا عزو.
(٥) في (ش، د)، وعزاه الكلبي.

وقال قتادة[1]: قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنت في الدرجات العلى ونحن أسفل منك فكيف نراك؟ فأنزل الله الآية.

وذكره ابن ظفر في «ينبوع الحياة»[2] بلفظ: إن عامر الشعبي[3] قال: إن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي ومالي وولدي وأهلي، ولولا أن آتيك فأراك لرأيت أن أموت أو قال أن سوف أموت، وبكى الأنصاري، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبكاك؟ قال: بكيت أن ذكرت أنك ستموت ونموت، / فترفع مع النبيين، ونكون نحن إن دخلنا الجنة دونك، فلم يحر النبي ﷺ إليه، بمعنى أي: لم يرجع إليه بقول، فأنزل الله الآية.

1/269

قال[4]: وذكر مقاتل بن سليمان مثل هذا، وقال: هو عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي رأى الأذان. وذكر أيضاً: أن عبدالله ابن زيد هذا كان يعمل في جنة له فأتاه ابنه فأخبره أن النبي ﷺ قد توفي فقال اللهم أذهب بصري حتى لا أدري بعد حبيبي محمد أحداً، فكف بصره.

[حب الله ورسوله]

واعلم أنه لا يمكن أن يجتمع في القلب حبان، فإن المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، فليختر المرء لنفسه إحدى المحبتين

---

(١) كما أسنده ابن جرير.
(٢) اسم تفسيره، وقد أسنده البيهقي أيضاً.
(٣) عامرَ بالنصب بدون ألف على لغة ربيعة، وقد أثبت الألف في ط.
(٤) أي ابن ظفر.

فإنهما لا يجتمعان في القلب، والإنسان عند محبوبه كائناً ما كان كما قيل[١]:

أنت القتيل بأي من أحببته   فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

ولبعض الحكماء: كما أن الغمد لا يتسع لعضبين[٢] فكذلك القلب لا يتسع لحبين[٣]، ولذلك لازم إقبالك على من تهواه إعراضك عن كل شيء سواه، فمن داهن في المحبة أو داجى[٤]، فقد عرض لمدى[٥] الغيرة أوداجاً[٦]، فمحبة الرسول ﷺ - بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتم الإيمان إلا بها، إذ محبته من محبة الله.

وقد حكي عن أبي سعيد الخراز - مما ذكره القشيري في رسالته - أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله اعذرني فإن محبة الله شغلتني عن محبتك، فقال لي: يا مبارك من أحب الله فقد أحبني.

وقيل إن ذلك وقع لامرأة من الأنصار معه ﷺ يقظة، ولابن أبي المجد[٧]:

(١) هو من قول ابن الفارض.
(٢) العضب: هو السيف القاطع.
(٣) في ش: لمحبتين، وفي ط: لحبيين وسقطت منها كلمة: لا يتسع.
(٤) المراد: التوصل إلى الشيء بحيلة.
(٥) جمع مدية وهي السكين.
(٦) جمع ودج، وهي العروق المكتنفة ثغرة النحر.
(٧) إبراهيم الدسوقي يرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب. تفقه على مذهب =

ألا يــا محب المصــطفى زد صبــابــة وضمـخ[1] لسان الـذكر منـك بـطيبـه
ولا تــعــبــأن بــالمـبــطلين فــإنمــا عــلامــة حـب الله حـب حبيـبـه

وكذلك كل حب في الله ولله، كما في الصحيحين، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكـره أن يقذف في النـار)، فعلق ذوق الإيمان بالرضى بالله رباً[2]، وعلق وجدان حلاوته بما هو موقوف عليه ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله، فمن رضي الله رباً رضيه الله له عبداً.

ومعنى حـلاوة الإيمان: استلذاذ الـطاعات وتحمـل المشقات في الدين، ويؤثر ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله تعالى تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول، قاله النووي.

وقال غيره: معنـاه أن من استكمل الإيمـان علم أن حق الله ورسوله آكد عليه من حق والده وولده وجميع الناس، لأن الهدى من الضلال، والخلاص من النار، إنما كان على لسان رسوله.

وفي قوله ﷺ: (حلاوة الإيمان) استعارة تخييلية، فإنه شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه، وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح، لأن المريض الصفراوي يجد

= الشافعي، ثم اقتفى آثار الصوفية، وعاش ثلاثاً وأربعين سنة ومات سنة ست وسبعين وستمائة.

(١) أي لطخ.

(٢) جاء في الحديث (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله..)

طعم العسل مراً، والصحيح يذوق حلاوته على ما هي، وكلما نقصت القوة شيئاً ما، نقص ذوقه بقدر ذلك.

[معنى حلاوة الإيمان]

وقال العارف ابن أبي جمرة: واختلف في الحلاوة المذكورة هل هي محسوسة أو معنوية، فحملها قوم على المعنى وهم الفقهاء، وحملها قوم على المحسوس وأبقوا اللفظ على ظاهره من غير أن يتأولوه وهم أهل الصفة، أو قال الصوفة[1]. قال: والصواب معهم في ذلك والله أعلم، لأن ما ذهبوا إليه أبقوا به/ لفظ الحديث على ظاهره من غير تأويل. ٢٦٩/ب

قال: ويشهد إلى ما ذهبوا إليه أحوال الصحابة والسلف الصالح وأهل المعاملات، فإنه حكي عنهم أنهم وجدوا الحلاوة محسوسة.

فمن ذلك: حديث بلال حين صنع به ما صنع في الرمضاء إكراهاً على الكفر، وهو يقول أحد أحد، فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان. وكذلك أيضاً عند موته، أهله يقولون: واكرباه[2]، وهو يقول: واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء وهي حلاوة الإيمان.

ومنها حديث الصحابي الذي سُرق فرسه بليل وهو في الصلاة، فرأى السارق حين أخذه فلم يقطع لذلك صلاته، فقيل له في ذلك فقال: ما كنت فيه ألذ من ذلك، ولا ذاك إلا لحلاوة الإيمان التي وجدها محسوسة في وقته ذلك.

---

(١) في الأصل: الصوفية.

(٢) في (ط، ش): واحرباه.

ومنها حديث الصحابيين اللذين جعلهما ﷺ في بعض مغازيه من قبل العدو، وقد أقبل فرآهما، فكبل الجاسوس القوس ورمى الصحابي فأصابه، فبقي على صلاته ولم يقطعها، ثم رماه ثانية فأصابه فلم يقطع لذلك صلاته، ثم رماه ثالثة فأصابه، فعند ذلك أيقظ صاحبه وقال: لولا أني خفت على المسلمين ما قطعت صلاتي. ولا ذاك إلا لشدة ما وجد فيها من الحلاوة التي أذهبت عنه ما يجد من ألم السلاح(١).

قال: ومثل هذا حكي عن كثير من أهل المعاملات. انتهى.

وحديث هذين الصحابيين ذكره البخاري في صحيحه في باب «من لم ير الوضوء إلا من المخرجين» بلفظ: ويذكر عن جابر أن النبي ﷺ كان في غزوة «ذات الرقاع» فرمي رجل بسهم فنزفه الدم فركع وسجد ومضى في صلاته. وقد وصله ابن إسحاق في المغازي فقال: حدثني صدقة بن يسار عن عقيل عن جابر عن أبيه مطولاً، وأخرجه أحمد وأبو داود والدارقطني وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، كلهم من طريق ابن إسحاق. قال في فتح الباري، وشيخه «صدقة» ثقة، وعقيل ـ بفتح العين ـ لا أعرف راوياً عنه غير صدقة، ولهذا لم يجزم به البخاري، أو لكونه اختصره، أو للخلاف في ابن إسحاق. وأخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخر، وسمى أحدهما: عباد بن بشر الأنصاري، وعمار بن ياسر من المهاجرين، والسورة الكهف.

[شرح قوله: «مما سواهما»]

وإنما قال: (مما سواهما) ولم يقل «ممن» ليعم من يعقل ومن لا يعقل:

---

(١) خرج المصنف هذا الحديث في الفقرة التالية.

وفي قوله: (وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) دليل على أنه لا بأس بهذه التثنية، وأما قوله للذي خطب فقال: «ومن يعصهما» بئس الخطيب أنت[1] فليس من هذا، لأن المراد في الخطب الإيضاح، وأما هاهنا فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ، ويدل عليه أن النبي ﷺ قال في موضع آخر: (ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه)[2]

وقيل: إنه من الخصائص، فيمتنع من غير النبي ﷺ ولا يمتنع منه، لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاق التسوية بخلافه هو، فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام ذلك، وإلى هذا مال ابن عبد السلام.

ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين هذا الحديث وقصة الخطيب، أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى، فمن يدعي حب الله مثلاً ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[3] فأوقع متابعته مكتنَفة بين قطري محبة العباد لله، ومحبة الله للعباد. وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل واحد من المعطوفين في الحكم، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا

---

(١) روى مسلم وأبو داود وعن عدي بن حاتم أن خطيباً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال ﷺ (بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى).

(٢) رواه أبو داود عن ابن مسعود أن النبي ﷺ خطب فقال في خطبته: (من يطع الله ورسوله فقد رشد، . ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه).

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣١.

/٢٧٠ **الرسول وأولي الأمر منكم﴾**[١] فأعاد (أطيعوا) في الرسول/، ولم يعده في أولي الأمر، لأنهم لا استقلال لهم في الطاعة كاستقلال الرسول. انتهى ملخصاً من كلام البيضاوي والطيبي، كما في فتح الباري.

[ذوق طعم الإيمان]

وفي الصحيح: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً)[٢].

قال في المدارج: فأخبر أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب. وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان والإحسان وحصوله للقلب ومباشرته له بالذوق تارة وبالطعام والشراب أخرى، وبوجدان الحلاوة تارة، كما قال «ذاق». وقال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)، ولما نهاهم عن الوصال قالوا: إنك تواصل فقال: (إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقى)[٣]، وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم، وسيأتي تحقيق الكلام إن شاء الله تعالى في الصوم، في مقصد عباداته عليه الصلاة والسلام.

والمقصود أن ذوق حلاوة الإيمان أمر يجده القلب تكون نسبته إليه كذوق حلاوة الطعام إلى الفم، وذوق حلاوة الجماع إلى اللذة، كما قال ﷺ: (حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك)[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٥٦، وهو كذلك في النسخ وفي مسلم، وفي (أ): نبياً ورسولاً، وفي (ش) رسولاً ونبياً.

(٣) متفق عليه. [م].

(٤) رواه البخاري [م].

وللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد، ولا تزول الشبه والشكوك إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحالة، فيباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة، فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وقال العارف الكبير تاج الدين بن عطاء الله: يعني في هذا الحديث إشارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تتنعم بملذوذات المعاني كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة، وإنما ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً لأنه لما رضي بالله رباً استسلم له وانقاد لحكمه، وألقى قياده إليه، فوجد لذاذة العيش وراحة التفويض، ولما رضي الله رباً كان له الرضى من الله، وإذا كان له الرضى من الله أوجد له الله حلاوة ذلك ليعلم ما منَّ به عليه، وليعرف إحسانه عليه، ولما سبقت لهذا العبد العناية خرجت له العطايا من خزائن المنن، فلما واصلته أمداد الله وأنواره عوفي قلبه من الأمراض والأسقام، فكان سليم الإدراك، فأدرك لذاذة الإيمان وحلاوته لصحة إدراكه وسلامة ذوقه. وقوله ﷺ: (وبالإسلام ديناً) لأنه إذا رضي بالإسلام ديناً فقد رضي به المولى، ولازمُ من رضي بمحمد نبياً أن يكون له ولياً، وأن يتأدب بآدابه ويتخلق بأخلاقه زهداً في الدنيا وخروجاً عنها، وصفحاً عن الجناة وعفواً عمن أساء إليه، إلى غير ذلك من تحقيق المتابعة قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، فمن رضي بالله استسلم له، ومن رضي بالإسلام عمل له، ومن رضي بمحمد ﷺ تابعه، ولا يكون واحد منها إلا بكلها، إذ محال أن يرضى بالله رباً ولا يرضى بالإسلام ديناً، أو يرضى بالإسلام ديناً ولا يرضى بمحمد نبياً، وتلازم ذلك بيّن لا خفاء فيه. انتهى ملخصاً.

[حكم محبة الله تعالى]

واعلم أن محبة الله على قسمين: فرض وندب.

فالفرض: المحبة التي تبعث على امتثال الأوامر والانتهاء عن المعاصي، والرضى بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة الله، حيث قدم هوى نفسه، والتقصير يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع، وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم.

والندب: أن يواظب على النوافل ويجتنب الوقوع في الشبهات، والمتصف بذلك في عموم الأوقات والأحوال نادر.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى أنه قال: (ما تقرب/ إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ـ وفي رواية: بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه ـ ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته)[1]. ٢٧٠/ب

ويستفاد من قوله: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي. .) أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقائق برقم ٦٥٠٢.

وعلى هذا فقد استشكل كون النوافل تنتج المحبة ولا تنتجها الفرائض؟

وأجيب: بأن المراد من النوافل إذا كانت مع الفرائض، مشتملة عليها ومكملة لها، ويؤيده: أن في رواية أبي أمامة «ابنَ آدم، إنك لا تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضته عليك»[1]، أو يجاب: بأن الإتيان بالنوافل لمحض المحبة لا لخوف العقاب على الترك، بخلاف الفرائض.

وقال الفاكهاني: معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض، وداوم على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى ذلك إلى محبة الله تعالى.

وقد استشكل أيضاً: كيف يكون الباري جل وعلا «سمع العبد وبصره» إلخ.

وأجيب بأجوبة:

منها: أنه ورد على سبيل التمثيل، والمعنى: كنت كسمعه وبصره في إيثاره أمري، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح.

ومنها: أن المعنى أن كليته مشغولة بي، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

ومنها: أن المعنى، كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه.

ومنها: أنه على حذف مضاف، أي: كنت حافظ سمعه الذي

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي مرفوعاً.

يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل سماعه، وحافظ بصره كذلك الخ. قاله الفاكهاني.

قال[1]: ويحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله: وهو: أن يكون بمعنى مسموعه، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول، مثل: فلان أملي، بمعنى: مأمولي، والمعنى: أنه لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي، ورجله كذلك.

وقال غيره: اتفق العلماء ـ ممن يعتد بقولهم ـ على أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه تنزل عنده منزلة الآلات التي يستعين بها، ولهذا وقع في رواية: «فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي». قال: والاتحادية زعموا أنه على حقيقته، وأن الحق عين العبد، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً

وقال الخطابي: عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء، والنجح في الطلب، وذلك أن مساعي الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح المذكورة.

وعن أبي عثمان الحيري[2] ـ أحد أئمة الطريق ـ قال: معناه كنت

---

(١) أي الفاكهاني.

(٢) كذا في جميع النسخ وضبطه الشارح، وفي فتح الباري المنقول عنه: الجيزي.

صحب يحيى بن معاذ. قال الخطيب: كان مجاب الدعوة. مات بنيسابور سنة ثمان وتسعين ومائتين.

أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع وعينه في النظر، ويده في اللمس ورجله في المشي. كذا أسنده عنه البيهقي في «الزهد».

وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه، من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى تصفى[1] من الكدورات، أنه يصير في معنى الحق، تعالى الله عن ذلك، وأنه يفنى عن نفسه جملة، حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه، والموحد لنفسه، والمحب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدماً صرفاً.

وعلى هذه الأوجه كلها فلا متمسك فيه للاتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة، لقوله في بقية الحديث (ولئن سألني)، زاد في رواية عبد الواحد (عبدي). انتهى ملخصاً[2].

قال العلامة ابن القيم:

تضمن هذا الحديث الشريف الإلهي - الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به - حصر أسباب محبته في أمرين، أداء فرائضه، والتقرب إليه/ بالنوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملك عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه، مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى محبه كلها له، ولا ريب أن هذا المحب إن

١/٢٧١

---

(١) كذا في النسخ كلها، وفي فتح الباري المنقول عنه: يصفى.

(٢) عن فتح الباري ١١/٣٤٤.

سمع سمع بمحبوبه وإن أبصر أبصر به، وإن نظر نظر به، وإن مشى مشى به، فهو في قلبه ونفسه، وأنيسه وصاحبه.

والباء ـ هنا ـ باء المصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية[1] لا علمية محضة.

قال: ولما حصلت الموافقة من لعبد لربه في محابه، حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه فقال: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري، والتقرب إلي بمحابي، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به، وفيما يستعيذ بي أن يناله. وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت، والرب تعالى يكره ما يكره عبده، ويكره مساءته فمن هذه الجهة يقتضي أن لا يميته ولكن مصلحته في إماتته، فإنه ما أماته إلا ليحييه، ولا أمرضه إلا ليصحه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا منعه إلا ليعطيه، ولم يخرجه من الجنة في صلب أبيه آدم إلا ليعاد إليها على أحسن أحواله، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه، انتهى.

وقال الخطابي: التردد في حق الله غير جائز، والبداء عليه في الأمور غير سائغ، ولكن له تأويلان.

أحدهما: أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه، أو فاقة تنزل به، فيدعو الله فيشفيه منها، ويدفع عنه مكروهها، فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد أمراً ثم يبدو له فيه

(١) أي، حال من أحوال النفس يدركها من قامت به.

فيتركه ويعرض عنه، ولا بد له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله، لأن الله تعالى قد كتب الفناء على خلقه، واستأثر بالبقاء لنفسه.

والثاني: أن يكون معناه: ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم في قبض نفس عبدي المؤمن، كما روي في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، وما كان من لطمه عين ملك الموت، وتردده إليه مرة بعد أخرى[1].

قال: وحقيقة المعنى ـ على الوجهين ـ عطف الله على العبد، ولطفه به، وشفقته عليه.

وقال الكلاباذي ما حاصله: إنه عبر عن صفة الفعل بصفة الذات، يعني باعتبار متعلقها، أي عن الترديد بالتردد، وجعل متعلق الترديد اختلاف أحوال العبد من ضعف ونصب إلى أن تنتقل محبته في الحياة إلى محبته للموت، فيقبض على ذلك.

قال: وقد يحدث الله تعالى في قلب عبده من الرغبة فيما عنده والشوق إليه والمحبة للقائه ما يشتاق معه إلى الموت، فضلاً عن إزالة الكراهة عنه، انتهى[2].

وبالجملة: فلا حياة للقلب إلا بمحبة الله ومحبة رسوله، ولا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبهم وسكنت نفوسهم إليه واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه وتنعموا بمحبته، ففي القلب طاقة لا يسدها إلا محبة الله ورسوله ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات.

---

(١) قصة موسى متفق عليها من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) من قوله «وقال الخطابي» عن فتح الباري ١١/٣٤٥ ـ ٣٤٦ [م].

قال صاحب المدارج: ولن يصل العبد إلى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية حتى يعرف الله ويهتدي إليه بطرق توصله إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارساً على قلبه فلا يسامحه بخطرة/ يكرهها الله تعالى، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو لذلك قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قال. ٢٧١/ب

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس في السر خالياً

فحينئذٍ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه، فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه وأستاذه ومعلمه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديه، فيطالع سيرته ومبادي أموره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه وحركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، إلى غير ذلك مما منحه الله تعالى، مما ذكرت بعضه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه[1]، فإذا رسخ في قلبه ذلك فتح عليه من ربه بحيث إذا قرأ السورة شاهد قلبه ماذا أنزلت فيه، وماذا أريد بها، وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها، كما يجتهد في تحصيل الشفاء من المرض المخوف.

---

(١) مدارج السالكين ٣/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

[علامات محبة الرسول ﷺ]

ولمحبة الرسول ﷺ علامات:

[١ - الاقتداء به ﷺ]

أعظمها الاقتداء به، واستعمال سنته، وسلوك طريقته، والاهتداء بهديه وسيرته، والوقوف مع ما حدَّ لنا من شريعته.

قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[١] فجعل تعالى متابعة الرسول ﷺ آية محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن[٢] متابعة الرسول محبة الله تعالى إياه، وقد قال الحكيم - وهو محمود الوراق - كما أفاده المحاسبي في كتابه «القصد والرجوع»:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وهذه المحبة تنشأ من مطالعة منة الله عليه من نعمه الظاهرة والباطنة، فبقدر مطالعة ذلك تكون قوة المحبة. ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده منة تؤهله لمحبته ومعرفته ومتابعة حبيبه ﷺ، وأصل هذا نور يقذفه الله تعالى في قلب ذلك العبد، فإذا دار ذلك النور أشرقت له ذاته، فرأى في نفسه وما أهلت له من الكمالات والمحاسن، فعلت به همته، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه،

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.
(٢) في ط: حسب.

لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرح أحدهما الآخر، فوقعت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وبحسب هذا الاتباع توجب المحبة والمحبوبية معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن أن تحب الله، بل الشأن أن يحبك الله، ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدقته خبراً، وأطعته أمراً، وأجبته دعوة، وآثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم تكن كذلك فلا تتعن[1]، فلست على شيء.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**فاتبعوني يحببكم الله**﴾ أي الشأن في أن الله تعالى يحبكم، لا في أنكم تحبونه، وهذا لا ينالونه[2] إلا باتباع الحبيب.

وقال المحاسبي في كتاب «القصد والرجوع»: وعلامة محبة العبد لله عز وجل اتباع مرضاة الله، والتمسك بسنن رسوله ﷺ، فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان، ووجد طعمه، ظهرت ثمرة ذلك على جوارحه ولسانه، فاستحلى اللسان ذكر الله تعالى وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذ/ يدخل حب الإيمان في القلب كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد الحر للظمآن الشديد عطشه، فيرتفع عنه تعب الطاعة لاستلذاذه بها، بل تبقى الطاعات غذاء لقلبه

1/272

(1) في ط: تتعبن، ومعنى فلا تتعن: فلا تتعب.
(2) في (أ، ط) لا ينالوه.

وسروراً له، وقرة عين في حقه ونعيماً لروحه، يلتذ بها أعظم من اللذات الجسمانية، فلا يجد في أوراد العبادة كلفة.

وفي الترمذي عن أنس مرفوعاً: (ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة).

وعن ابن عطاء: من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره ونواهيه، وأفعاله وأخلاقه.

وقال أبو إسحاق الرقي[1] ـ من أقران الجنيد ـ: علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ.

وعن غيره: ولا يظهر على أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ومجانبة البدعة.

فأما من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتلق العلم من مشكاة الرسول ﷺ بدعواه علماً لدنيا أوتيه فهو من لدن النفس والشيطان، وإنما يعرف كون العلم لدنيا روحانياً بموافقته لما جاء به الرسول عن ربه تعالى، فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني ولدني شيطاني، والمحك هو الوحي، ولا وحي بعد الرسول ﷺ.

وأما قصة موسى مع الخضر فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر، يخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم، والفرق: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته، ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر

---

(١) إبراهيم بن داود القصار، من كبار مشايخ الشام، مات سنة ست وعشرين وثلاثمائة.

إلى موسى ويكون معه. ولهذا قال له: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان، ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه.

فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة، فليجدد إسلامه، وليتشهد بشهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله تعالى.

وإنما هو من أولياء الشيطان وحلفائه ونوابه.

والعلم اللدني الرحماني هو ثمرة العبودية والمتابعة لهذا النبي الكريم. عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم، وبه يحصل الفهم في الكتاب والسنة بأمر يختص به صاحبه كما قال علي بن أبي طالب، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه. فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

فاتباع هذا النبي الكريم حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض النفوس، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين.

[٢ - الرضى بما شرعه]

ومن علامة محبته: أن يرضى مدعيها بما شرعه[١]، حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى. قال الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت

---

(١) في ط: شرعه الله، وهو غير موافق للكلام الآتي بعده.

ويسلموا تسليماً﴾[1]، فسلب اسم الإيمان عن من وجد في صدره حرجاً من قضائه ولم يسلم له.

قال شيخ المحققين وإمام العارفين، تاج الدين بن عطاء الله الشاذلي ـ أذاقنا الله حلاوة مشربه ـ: في هذه الآية دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكم الله ورسوله ﷺ على نفسه قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، ويشتمل ذلك على حكم التكليف وحكم التعريف، والتسليم والانقياد [واجب][2] على كل مؤمن في كليهما.

فأحكام التكليف، الأوامر والنواهي المتعلقة باكتساب العباد.

وأحكام التعريف، هو ما أورده عليك[3] من فهم المراد.

فتبين من هذا: أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان/ إلا بأمرين: الامتثال لأمره، والاستسلام لقهره.

٢٧٢/ب

ثم إنه سبحانه لم يكتف بنفي الإيمان عمن لم يحكم، أو حكم ووجد الحرج في نفسه، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسوله ﷺ رأفة وعناية وتخصيصاً ورعاية، لأنه لم يقل: فلا والرب، وإنما قال: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ففي ذلك تأكيد بالقسم، وتأكيد في القسم، علماً منه سبحانه بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ووجود النصرة سواء كان الحق عليها أو لها، وفي ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ، إذ جعل حكمه حكمه، وقضاءه قضاءه،

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٥.

(٢) زيادة في ط.

(٣) في ش: عليه.

فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه، والانقياد لأمره، ولم يقبل منهم الإيمان بإلهيته حتى يذعنوا لأحكام رسوله ﷺ ، لأنه كما وصفه به ربه **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾**(١)، فحكمه حكم الله، وقضاؤه قضاء الله، كما قال: **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾**(٢) وأكد ذلك بقوله: **﴿يد الله فوق أيديهم﴾**.

وفي الآية إشارة أخرى إلى تعظيم قدره، وتفخيم أمره ﷺ وهي قوله تعالى: **﴿وربك﴾** فأضاف نفسه إليه، كما قال في الآية الأخرى: **﴿كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾**(٣) فأضاف الحق سبحانه نفسه إلى محمد، وأضاف زكريا إليه ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين وتفاوت ما بين الرتبتين.

ثم إنه تعالى لم يكتف بالتحكيم الظاهر فيكونوا به مؤمنين، بل اشترط فقدان الحرج ـ وهو الضيق ـ من نفوسهم في أحكامه ﷺ ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، وإنما تضيق النفوس لفقدان الأنوار، ووجود الأغيار، فعنه يكون الحرج وهو الضيق، والمؤمنون ليسوا كذلك، إذ نور الإيمان ملأ قلوبهم فاتسعت وانشرحت، فكانت واسعة بنور الواسع العليم، ممدودة بوجود فضله العظيم، مهيأة لواردات أحكامه مفوضة له في نقضه وإبرامه. انتهى(٤).

وقال سهل بن عبدالله: من لم ير ولاية الرسول عليه في جميع

---

(١) سورة النجم، الآية ٣.
(٢) سورة الفتح، الآية ١٠.
(٣) سورة مريم، الآية ١ ـ ٢.
(٤) أي كلام ابن عطاء الله من كتابه «التنوير في إسقاط التدبير».

الأحوال، ويرى نفسه في ملكه لم يذق حلاوة سنته، لأنه ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه)

وروينا عن سيدنا العارف الكبير أبي عبدالله القرشي أنه قال: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، ولا يبقى لك منك شيء. انتهى.

فمن آثر هذا النبي الكريم على نفسه، كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن كان معه بلا اختيار ظهرت له خفايا حقائق أسرار أنسه.

[٣ ـ نصر دينه ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ نصر دينه بالقول والفعل، والذب عن شريعته، والتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار، والحلم والصبر والتواضع وغيرها، مما ذكرته في أخلاقه العظيمة، وتقدم في كلام العارف ابن عطاء الله مزيد لذلك قريباً. فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، ومن وجدها استلذ بالطاعات، وتحمل المشاق في الدين، وآثر ذلك على أغراض الدنيا.

[٤ ـ التسلي عن المصائب]

ومن علامات محبته ﷺ التسلي عن المصائب، فإن المحب يجد في هذه المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد في مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق، بل يقوى سلطان المحبة حتى يلتذ بكثير من المصائب أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته، والذوق والوجود شاهد بذلك. فكرب المحبة موجود ممزوج بالحلاوة فإن فقد تلك الحلاوة اشتاق إلى ذلك الكرب كما قيل:

تشكى المحبون الصبابة ليتني   نُحلت بما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها   فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

[٥ ـ كثرة ذكره ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ كثرة ذكره، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

ولبعضهم: المحبة دوام الذكر/ للمحبوب، ولآخر: ذكر المحبوب على عدد الأنفاس. ١/٢٧٣

ولغيره: للمحب ثلاث علامات: أن يكون كلامه ذكر المحبوب، وصمته فكراً فيه، وعمله طاعة له.

وقال المحاسبي: علامة المحبين كثرة الذكر للمحبوب على طريق الدوام، لا ينقطعون ولا يملون ولا يفترون، وقد أجمع الحكماء على أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره[1]، فذكر المحبوب هو الغالب على قلوب المحبين لا يريدون به بدلاً ولا يبغون عنه حولاً، ولو قطعوا عن ذكر محبوبهم لفسد عيشهم، وما تلذذ المتلذذون بشيء ألذ من ذكر المحبوب. انتهى.

فالمحبون قد اشتغلت قلوبهم بلزوم ذكر المحبوب عن اللذات، وانقطت أوهامهم عن عارض دواعي الشهوات، ورقت إلى معادن الذخائر وبغية الطلبات، وربما تزايد وجد المحب، وهاج الحنين وباح

(١) هو حديث مرفوع رواه أبو نعيم والديلمي عن عائشة.

الأنين، وتحركت المواجيد، وتغير اللون، واستبسلت[1] الجوارح، وفتر البدن واقشعر الجلد، وربما صاح، وربما بكى، وربما شهق وربما وَله[2] وربما سقط، ولسيدي محمد وفا:

إذا أباح دم المهجور هاجره ... باح المحب بما تخفي ضمائره
أيكتم الحب صب باح مدمعه ... لما جرى بالذي تخفي سرائره
كأنما قلبه أجفان مقلته ... ودمعه في أماقيه خواطره
يا جيرة الجزع هل من جيرة لفتى ... عليه في حكمه قد جار جائره
آه وكم لي على خطب الهوى خطب ... من الغرام به تعلو منابره
مهفهف أبلج بدر على غصن ... تخفى البدور إذا لاحت بوادره
مطرز الخد بالريحان في ضرج ... مورد آسه تزهو أزاهره[3]
مكمل الخلق ما تحصى خصائصه ... منضر الحسن قد قلت نظائره

وربما زاد الوجد على المحب فقتله.

أول نقد أثمان المحبة بذل الروح، فما للمفلس الجبان وسَوْمها؟! بدم المحب يباع وصلهم، تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فينفقها بالنسيئة المعسرون، لقد أسيمت[4] للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون[5]،

---

(١) في (ش): واسترسلت.
(٢) أي ذهب عقله.
(٣) في (ط، ش): زواهره.
(٤) في (أ): اتسمت.
(٥) في (ط) المبطلون.

وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمناً فدارت السلعة بينم ووقعت في يد ﴿**أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾[1].

[لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾[2]، فتأخر أكثرهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، بتزكية ﴿**يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾[3]، فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلموا إلى بيعة ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم**﴾[4]، فلما عرفوا عظمة ذلك المشتري وفضل الثمن وجلالة من أجري على يده عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأناً عظيماً، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم؛ قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا، رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معها ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله**﴾[5]][6].

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.
(٣) سورة المائدة، الآية ٥٤.
(٤) سورة التوبة، الآية ١١١.
(٥) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.
(٦) هذه الفقرة ليست في الأصل، وقد وردت في النسخ الأخرى، ولكنها =

فذكره ﷺ جلاء قلوبنا، وشفاء صدورنا، وحلاوة ألسنتنا في جميع الحالات، على اختلاف الأوقات والساعات، يتشرَّف بذكره في جميع العبادات، وفي الجمع والجماعات، والخطب والصلوات، وسائر التقلبات والتصرفات، حتى في المعاطاة والمبايعات، وعقود المصالحات، واستفتاح المعاقدات والمعاهدات، وخصوصاً عند الأذكار والدعوات، فإن بها وُلُوجها في أبواب الإجابات[1].

[٦ - تعظيمه عند ذكره ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ تعظيمه عند ذكره، وإظهار الخشوع والخضوع والانكسار[2] مع سماع اسمه، فكل من أحب شيئاً خضع له، كما كان كثير من الصحابة بعده إذا ذكروه خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا، وكذلك كان كثير من التابعين فمن بعدهم يفعلون ذلك محبة وشوقاً وتهيباً وتوقيراً.

قال أبو إبراهيم التجيبي[3]: واجب على كل مؤمن متى ذكره، أو ذكر عنده، أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله، بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله به.

= وردت في (د) وكذلك وردت هي والفقرة التي قبلها في (ش) قبل ذلك عقب فقرة «نصر دينه».

(١) هذه الفقرة وردت في الأصل فقط ولم ترد في بقية النسخ.

(٢) كلمة «الانكسار» سقطت من ط.

(٣) إسحاق بن إبراهيم التجيبي نسبة إلى تجيب قبيلة من كنده، الإمام في الحديث.

وكان أيوب السختياني[1] إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى نرحمه.

وكان جعفر بن محمد[2] كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر النبي ﷺ اصفر لونه.

وكان عبد الرحمن/ بن القاسم[3] إذا ذكر النبي ﷺ ينظر إلى لونه كأنه قد نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ٢٧٣/ب

وكان عبدالله بن الزبير إذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع.

وكان الزهري من أهنأ الناس وأقربهم[4]، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنك ما عرفته ولا عرفك.

وكان صفوان بن سليم[5] من المتعبدين المجتهدين[6]، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

---

(١) أبو بكر البصري ثقة ثبت عن كبار الفقهاء العباد، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة.

(٢) جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) أي أقربهم إلى الناس بالتودد.

(٥) صفوان بن سليم، ثقة عابد من رجال الجميع مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

(٦) في ط: المتهجدين.

وكان قتادة[1] إذا سمع الحديث، أخذه البكاء والعويل والزويل [2].

أشار إلى ذلك القاضي عياض [3].

[٧ ـ الشوق إلى لقائه ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ كثرة الشوق إلى لقائه، إذ كل حبيب يحب لقاء حبيبه. ولبعضهم: المحبة الشوق إلى المحبوب، وعن معروف الكرخي[4]: المحبة ارتياح الذات لمشاهدة الصفات، أو مشاهدة أسرار الصفات، فيرى بلوغ السؤل ولو بمشاهدة الرسول. ولهذا كانت الصحابة رضي الله عنهم إذا اشتد بهم الشوق وأزعجتهم لواعج المحبة قصدوا رسول الله ﷺ واشتفوا بمشاهدته، وتلذذوا بالجلوس معه والنظر إليه والتبرك به ﷺ.

وعن عبدة بنت خالد بن معدان[5]: ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من

---

(١) قتادة بن دعامة التابعي المفسر المشهور.

(٢) الزويل: القلق والانزعاج.

(٣) في الشفاء، في الفصل الثالث (حرمته وتوقيره ﷺ) من الباب الثالث من القسم الثاني. ٢/٩١. والذي في الشفاء عن عامر بن عبدالله بن الزبير وليس عن عبدالله كما ذكر المصنف هنا [المحقق].

(٤) من المشايخ الكبار، شيخ السلسلة، أستاذ السري السقطي، وكان أحمد بن حنبل وابن معين يختلفان إليه ويسألانه ولم يكن في علم الظاهر مثلهما، مات سنة مائتين.

(٥) خالد بن معدان عابد ثقة روى له الستة، مات سنة ثلاث ومائة.

المهاجرين والأنصار يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم.

ولما احتضر بلال نادت امرأته، واحَرَباه[1]، فقال: واطرباه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه.

إذا ذاق المحب طعم المحبة اشتاق وتأججت نيران الحب والطلب في قلبه، ويجد الصبر عن محبوبه من أعظم كبائره كما قيل:

والصبر يحمد في المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يحمد[2]

وعن زيد بن أسلم[3]: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت فإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

على محمد صلاة الأبرار   صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواماً بكاء بالأسحار   يا ليت شعري والمنايا أطوار
هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي ﷺ، فجلس عمر يبكي، ثم قام إلى باب خيمتها فقال: السلام عليكم، ثلاث مرات فقال لها: أعيدي علي قولك، فأعادته بصوت حزين، فبكى وقال لها: وعمر لا تنسينه يرحمك الله، فقالت: وعمر فاغفر له يا غفار.

ويحكى أنه رؤيت امرأة مسرفة على نفسها، بعد موتها، فقيل

---

(١) في (ب، د) واحزناه، وحَرَباه: من الحرب: النهب فكأنها لتفجعها نهبت وسلبت.

(٢) في (ش): فإنه مذموم.

(٣) ثقة عالم، من رجال الجميع مات سنة ست وثلاثين ومائة.

لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، قيل: بماذا؟ قالت بمحبتي للنبي ﷺ وشهوتي النظر إليه، فنوديت: من اشتهى النظر إلى حبيبنا فنستحي أن نذله بعتابنا، بل نجمع بينه وبين من يحبه.

[٨ - حب القرآن]

ومن علامات محبته ﷺ حب القرآن الذي أتى به، واهتدى به وتخلق به، وإذا أردت أن تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ورسوله فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم حبي ... فلم هجرت كتابي
أما تأملت ما فيـ ... ـه من لذيذ خطابي

ويروى أن عثمان بن عفان قال: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله/، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه. ١/٢٧٤

قال النبي ﷺ لعبدالله بن مسعود: اقرأ علي، قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فاستفتح وقرأ سورة النساء حتى بلغ **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾**[١] قال: حسبك، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺتذرفان من البكاء. رواه البخاري.

وهذا يجده من سمع الكتاب العزيز بأذن قلبه، قال الله تعالى:

---

(١) سورة النساء، الآية ٤١.

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾[1].

قال صاحب «عوارف المعارف» ـ أذاقنا الله حلاوة مشربه ـ: هذا السماع هو السماع الحق، الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكوم لصاحبه بالهداية، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين، فتفيض العين بالدمع، لأنه تارة يثير حزناً، والحزن حار، وتارة يثير شوقاً، والشوق حار، وتارة يورث[2] ندماً، والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات، من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين بكى وأبكى، لأن الحرارة والبرودة إذا اضطربتا عصرتا ماء، فإذا ألمَّ السماع بالقلب تارة يخف إلمامه فيظهر أثره في الجسد ويقشعر منه الجلد، قال الله تعالى: **﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾**[3]، وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره ـ أي يقصد[4] ـ نحو الدماغ فتندفق منه العين بالدمع، وتارة يتصوب أثره إلى الروح، فتموج منه الروح موجاً، ويكاد يضيق عنه نطاق القالب، فيكون[5] من ذلك الصياح والاضطراب، وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الأحوال.

وقد كان ابن عمر، رضي الله عنهما، ربما مر بآية في ورده فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٨٣.

(٢) في (ط): يثير.

(٣) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٤) في (ط): يصعد.

(٥) أي يوجد.

وقد كان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى الأشعري يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون.

فلمحبي السماع القرآني من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجده وطربه ونشأته[1] في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن كما قيل: نقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر، وبيت من الشعر ينشد تميل كالنشواني، فاعلم أن هذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله ورسوله، أدام الله لنا حلاوة محبته، ولا سلك بنا في غير سبيل سنته، بمنه ورحمته.

[٩ - حب السنة]

ومن علامات محبته ﷺ محبة سنته، وقراءة حديثه، فإن من دخلت حلاوة الإيمان في قلبه إذا سمع كلمة من كلام الله تعالى، أو من حديث رسوله ﷺ تشربتها روحه وقلبه ونفسه، ويقول:

أشم منك نسيماً لست أعرفه ... أظن لمياء جرت فيك أردانا[2]

فتعمه تلك الكلمة وتشمله، فتصير كل شعرة منه سمعاً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل ويبصر الكل بالكل ويقول:

لي حبيب خياله نصب عيني ... سره في ضمائري مدفون[3]
إن تذكرته فكلي قلوب ... أو تأملته فكلي عيون

---

(١) أي زيادته في الطرب.
(٢) لمياء: صفة لأنثى قامت بشفتها اللمى، وهي سمرة تستحسن، والأردان: جمع ردن: ثوب خز وغزل.
(٣) في (ش): مكنون.

فحينئذ يستنير قلبه، ويشرق سره، وتتلاطم عليه أمواج التحقيق عند ظهور البراهين، ويرتوي بري عطف محبوبه، الذي لا شيء أروى لقلبه من عطفه عليه، ولا شيء أشد للهيبه وحريقه من إعراضه عنه، ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب ربهم عنهم أشد عليهم من العذاب الجسماني، كما/ أن نعيم أهل الجنة برؤيته تعالى وسماع خطابه ورضاه وإقباله أعظم من النعيم الجسماني، لا حرمنا الله ذوق حلاوة هذا المشرب. ٢٧٤/ب

[١٠ - محبة ذكره ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ أن يلتذ محبه بذكره الشريف ويطرب عند سماع اسمه المنيف، وقد يوجب له ذلك سكراً[١] يستغرق قلبه وروحه وسمعه.

وسبب هذا السكر اللذة القاهرة للعقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب ﷺ ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك هذا المحبوب قوياً كانت اللذة بإدراكه تابعة لقوة هذين الأمرين. فإن كان العقل قوياً مستحكماً لم يتغير لذلك[٢]، وإن كان ضعيفاً حدث السكر المخرج له عن حكمه[٣].

وقد حدوا السكر بأنه: سقوط التمالك في الطرب، كأنه يبقى في السكران بقية يلتذ بها ويطرب، فلا يتمالك صاحبها، ولا يقدر أن يفنى معها.

---

(١) حالة تشبه حالة السكران.

(٢) هذا هو المسلك الصحيح الذي كان عليه جيل الصحابة فلم يذكر عن واحد منهم أنه خرج إلى ذلك الحد الذي يسمونه السكر. [م].

(٣) أي المخرج للعقل عما يليق به.

وقد يكون سبب السكر قوة الفرح بإدراك المحبوب، بحيث يختلط كلامه وتتغير أفعاله، بحيث يزول عقله ويعربد أعظم من عربدة شارب الخمر.

وربما قتله سكر هذا الفرح بسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب وهلة واحدة انبساطاً غير معتاد، والدم هو حائل الحار الغريزي، فيبرد القلب بسبب انبساط الدم عنه فيحدث الموت.

ومن هذا قول سكران الفرح - بوجود راحلته في المفازة بعد أن استشعر الموت -: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة فرحه، وسكرة الفرح فوق سكرة الشراب، فصور في نفسك حال فقير معدم، عاشق للدنيا أشد العشق، ظفر بكنز عظيم، فاستولى عليه آمناً مطمئناً، كيف تكون سكرته؟ أو من غاب عنه غلامه بمال عظيم مدة سنين، حتى أضرَّ به العدم، فقدم عليه من غير انتظار له بماله كله، وقد كسب أضعافه، كيف تكون سكرته؟

ومن أقوى أسباب ما نحن فيه سماع الأصوات المطربة بالإنشادات بالصفات النبوية المغربة المعربة[1] إذا صادفت محلاً قابلاً فلا تسأل عن سكرة السامع، وهذا السكر يحدث عندها من جهتين: إحداهما أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر منها العقل، الثانية: أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها وجهته، فتحصل بتلك الحركة والشوق والطلب مع التخيل للمحبوب واحضاره في النفس، وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تغمر القلب، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان، فتسكر الروح سكراً عجيباً أطيب وألذ من سكر الشراب، وتحصل له به نشأة ألذ من نشأة الشراب.

---

(١) المغربة: من أغرب إذا أتى بشيء غريب، والمعربة: من أعرب، أي المبينة.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره: أن الله تعالى يقول لداود: مجدني بذلك الصوت الذي كنت تمجدني به في الدنيا، فيقـول: كيف وقد أذهبته فيقول: أنا أرده عليك، فيقوم عند ساق العرش ويمجده، فإذا سمع أهل الجنة صوته استفرغ نعيم أهل الجنة[1].

وأعظم من ذلك: إذا سمعوا كلام الرب جل جلاله وخطابه لهم، فإذا انضاف إلى ذلك رؤية وجهه الكريم الذي يغنيهم لذة رؤيته عن رؤية الجنة ونعيمها، فأمر لا تدركه العبارة ولا تحيط به الإشارة، وهذه صفة لا تلج كل أذن، وصيب لا تحيا به كل أرض، وعين لا يشرب منها كل وارد، وسماع لا يطرب عليه كل سامع، ومائدة لا يجلس عليها كل طفيلي، أشار إليه في المدارج.

[اجتماع الحب والمعصية]؟

فمن اتصف بهذه العلامات التي ذكرتها فهو كـامل المحبـة لله ورسوله، ومن خالف بعضها فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها بدليل قوله ﷺ للذي حده في الخمر ـ لما لعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يؤتى به ـ فقال ﷺ: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله[2]، فأخبر أنه يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر عنه.

وفيه الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر، لثبوت النهي عن لعنه، وثبوت الأمر بالدعاء له.

وفيه أنه لا تنافي بين ارتكاب النهي/ وثبوت محبة الله ورسوله في ١/٢٧٥

---

(١) أي شغلهم صوته عما هم فيه من النعيم.

(٢) رواه البخاري.

قلب المرتكب، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله[1]. ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي مقيداً بما إذا ندم على وقوع المعصية، أو إذا أقيم عليه الحد، فكفر عن ذنبه المذكور، بخلاف من لم يقع منه ذلك فإنه يخشى بتكرار الذنب أن ينطبع على قلبه حتى يسلب منه ذلك الحب، نسأل الله العفو والثبات على محبته وسلوك سنته برحمته ومنّه.

[درجة المحبة ودرجة الخلة]

تنبيه: قد اختلف العلماء، أيما أرفع درجة المحبة أو درجة الخلة؟

فحكى القاضي عياض: أن بعضهم جعلهما سواء، فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً، لكنه خص إبراهيم بالخلة ومحمداً ﷺ بالمحبة، وقال بعضهم: درجة الخلة أرفع واحتج بقوله ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر)[2] فلم يتخذه وقد أطلق المحبة لفاطمة وابنيها وأسامة. انتهى.

وهذا هو الظاهر من المعنى الأخص، لأن المحبة مأخوذة من معنى الخلة، لكن يرد ما روي في قصة الإسراء في مناجاته ﷺ لربه تعالى حيث قال له تعالى: يا محمد سل، فقال: يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، فقال له تعالى: ألم أعطك خيراً من هذا.. إلى قوله: واتخذتك حبيباً، أو ما في معناه، رواه البيهقي. بنحوه، وهذا يعطي[3] أن درجة المحبة أرفع.

---

(١) هذه الجملة سقطت من ش.

(٢) متفق عليه.

(٣) في ش: يقتضي.

وقد احتج من قال بتفضيل مقام المحبة على الخلة بفروق كثيرة، ذكر القاضي عياض في الشفاء منها نقلاً عن الإمام أبي بكر بن فورك عن بعض المتكلمين نبذة:

منها: أن الخليل يصل بالواسطة، من قوله تعالى: ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض**﴾[1]، والحبيب يصل إليه به، من قوله تعالى: ﴿**فكان قاب قوسين أو أدنى**﴾[2].

ومنها: أن الخليل قال: ﴿**ولا تخزني**﴾[3]، والحبيب قيل له: ﴿**يوم لا يخزي الله النبي**﴾[4].

ومنها: أن الخليل قال في المحنة: ﴿**حسبي الله**﴾، والحبيب قيل له: ﴿**يا أيها النبي حسبك الله**﴾[5].

ومنها: أن الخليل هو الذي تكون مغفرته في حد الطمع، من قوله: ﴿**والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾[6]، والحبيب الذي مغفرته في حد اليقين، من قوله: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾[7].

وفي كتابي «تحفة السامع والقاري بختم حجج البخاري» وجوه أخر غير ما حكاه القاضي عياض.

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٧٥.
(٢) سورة النجم، الآية ٩.
(٣) سورة الشعراء، الآية ٨٧.
(٤) سورة التحريم، الآية ٨.
(٥) سورة الأنفال، الآية ٦٤.
(٦) سورة الشعراء، الآية ٨٢.
(٧) سورة الفتح، الآية ٢.

وفي كلها نظر واضح كما بينته في حاشية الشفاء، وذلك أن مقتضى الفرق بين الشيئين أن يكون في حد ذاتيهما، يعني باعتبار مدلولي «خليل» و«حبيب» وما حكاه القاضي عياض، وذكرته في التحفة، يقتضي تفضيل ذات محمد ﷺ على ذات إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. لا يقال باعتبار ثبوت وصف الخلة له فيلزم ذلك. لأنا نقول: كل منهما ثابت له وصف الخلة والمحبة. إذ لا يسلب عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وصف المحبة لا سيما والخلة أخص من المحبة، ولا يسلب عن نبينا ﷺ وصف الخلة لا سيما وقد ثبت في حديث أبي هريرة قول الله تعالى له: (إني اتخذتك خليلاً)[1].

وقد قام الإجماع على فضل نبينا ﷺ على جميع الأنبياء، بل هو أفضل خلق الله تعالى مطلقاً[2].

٢٧٥/ب /وأما قوله: إن الخليل يصل بالواسطة فلا يفيد غرضاً في هذا المقام الذي هو بصدده، وليس المراد به قطعاً إلا الوصول إلى المعرفة، إذ الوصول الحسي يمتنع على الله تعالى.

وأما قوله: والحبيب يصل إليه به، فالوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا به حبيباً كان أو خليلاً.

وأما قوله: الخليل هو الذي تكون مغفرته في حد الطمع الخ.. فإنه لا يصح أن يكون على جهة التفسير للخليل، ولا تعلق له بمعناه.

وقصارى ما ذكره: أنه يعطي تفضيل نبينا ﷺ على إبراهيم عليه

---

(١) عن أبي هريرة في المعراج، أقول: وفي الترمذي (إن صاحبكم خليل الرحمن) [م].

(٢) في (ب): على الإطلاق.

الصلاة والسلام في حد ذاته من غير نظر إلى ما جعله علة معنوية في ذلك من وصف المحبة والخلة. والحق: أن الخلة أعلى وأكمل وأفضل من المحبة.

قال ابن القيم: وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله فمن جهله. فإن المحبة عامة والخلة خاصة والخلة نهاية المحبة.

قال: وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم. وأيضاً فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين، وخلته خاصة بالخليلين. قال: وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله. انتهى.

وقال الشيخ بدر الدين الزركشي في شرحه لبردة الأبوصيري: وزعم بعضهم أن المحبة أفضل من الخلة وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله. وضعف: بأن الخلة خاصة، وهو توحيد المحبة[1]، والمحبة عامة، قال الله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾[2] قال: وقد صح أن الله اتخذ نبينا خليلاً فقال: إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً[3]. انتهى.

تنبيه[4]: والخليل مشتق من الخلة ـ بالفتح ـ وهي الحاجة، أو

---

(١) في (ب، د) وهو توحيد المحب، وفي (ط، ش): وهي توجد المحبة.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) هذا التنبيه لم يرد إلا في مخطوطة الأصل، وقد ذكر قبل التنبيه الذي سبقه =

من الخلة ـ بالضم ـ وهي المودة الحاصلة، أو من الخلل، قال ثعلب: سمي خليلاً لأن مودته تتخلل القلب، وأنشد:

قد تخللت مسلك الروح مني   وبذا سمي الخليل خليلا

وقال الراغب: الخلة ـ بالفتح ـ: الاختلال العارض للنفس، إما لشهرتها بشيء أو لحاجتها إليه، ولهذا فسَّر الخلة بالحاجة، والخلة ـ بالضم ـ إما لأنها تتخلل النفس أو تتوسطها، وإما لأنها تخل النفس فتؤثر فيها تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها.

= هنا. وإنما أخرته لانفراد نسخة الأصل به ولارتباط معناه بالتنبيه الآخر فناسب أن يذكر بعده [المحقق].

الفصل الثاني

في حكم الصلاة عليه والتسليم
فريضة وسنة[1] وفضيلة وصفة ومحلا

[معنى الصلاة]

قال الله تعالى: **﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾**[2].

قال أبو العالية: معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند الملائكة، ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء.

قال في فتح الباري: وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك له من الله تعالى، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

وعن ابن عباس: أن معنى صلاة الملائكة الدعاء بالبركة.

وروى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان[3] قال: صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الاستغفار.

---

(١) كلمة (وسنة) في (ط، ش).

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

(٣) مقاتل بن حيان البلخي: صدوق فاضل روى له مسلم وأصحاب السنن، والذي كذبه وكيع هو مقاتل بن سليمان. مات قبيل الخمسين ومائة بأرض الهند. قاله الحافظ.

وقال الضحاك بن مزاحم: صلاة الله رحمته، وفي رواية عنه: مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء. أخرجهما إسماعيل القاضي عنه، وكأنه يريد الدعاء بالمغفرة ونحوها.

وقال المبرد: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة رقة تبعث على استدعاء الرحمة.

وتعقب: بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾[1]، ولذلك فهم الصحابة المغايرة من قوله تعالى: ﴿**صلوا عليه وسلموا تسليماً**﴾ حتى سألوه عن كيفية الصلاة مع تقدم ذكر «الرحمة» في تعليم السلام، حيث جاء بلفظ: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقال لهم، قد علمتم ذلك في السلام.

وجوز الحليمي أن تكون الصلاة بمعنى السلام عليه، وفيه نظر.

وقيل: صلاة الله على خلقه تكون خاصة وتكون عامة، فصلاته على أنبيائه هي ما تقدم من الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة، فهي التي وسعت كل شيء.

١/٢٧٦ / وحكى القاضي عياض، عن بكر القشيري أنه قال: الصلاة على النبي ﷺ من الله تشريف وزيادة تكرمة، وعلى من دون النبي رحمة. وبهذا يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين حيث قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي**﴾، وقال قبل ذلك في السورة المذكورة: ﴿**هو الذي يصلي عليكم**

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٧.

وملائكته﴾[1]، ومن المعلوم أن القدر الذي يليق بالنبي ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره. والإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ والتنويه به ما ليس في غيرها.

وقال الحليمي في «الشعب»، معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا: اللهم صل على محمد، عظم محمداً، والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى: **﴿صلوا عليه﴾** ادعوا ربكم بالصلاة عليه. انتهى.

ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه، فإنه لا يمتنع أن يدعى لهم بالتعظيم إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به.

وما تقدم عن أبي العالية أظهر، فإنه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله تعالى، وإلى ملائكته وإلى المؤمنين المأمورين بذلك بمعنى واحد، ويؤيده أنه لا خلاف في جواز الترحم على غير الأنبياء، واختلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء، ولو كان معنى قولنا: اللهم صل على محمد: ارحم محمداً، أو ترحم على محمد، جاز لغير الأنبياء، وكذا لو كان بمعنى البركة، وكذلك الرحمة، لسقط الوجوب في التشهد عند من يوجبه بقول المصلي في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

ويمكن الانفصال عنه بأن ذلك وقع بطريق التعبد فلا بد من الاتيان به، ولو سبق الاتيان بما يدل عليه.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

فإن قلت: في أي وقت وقع الأمر بالصلاة عليه ﷺ؟

فالجواب ـ كما قال أبو ذر الهروي ـ: أنه وقع في السنة الثانية من الهجرة، وقيل ليلة الإسراء، وقيل: إن شهر شعبان شهر الصلاة على رسول الله ﷺ، لأن آية الصلاة ـ يعني ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي**﴾ نزلت فيه. والله أعلم.

[فائدة الصلاة عليه ﷺ]

قال الحليمي: والمقصود بالصلاة عليه ﷺ التقرب إلى الله تعالى بامتثال أمره تعالى، وقضاء حق النبي ﷺ علينا.

وتبعه ابن عبد السلام، فقال في الباب الثامن من كتابه المسمى «بشجرة المعارف»: ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله ـ لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا ـ إلى الصلاة عليه.

وذكر نحوه عن الشيخ أبي محمد المرجاني.

وقال ابن العربي: فائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذي يصلي عليه، لدلالة ذلك على نصوح العقيدة وخلوص النية، وإظهار المحبة، والمداومة على الطاعة والاحترام للواسطة الكريمة ﷺ.

[حكم الصلاة عليه ﷺ]

واختلف في حكم الصلاة عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على أقوال

أحدها: أنها تجب في الجملة بغير حصر، لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة.

الثاني: يجب الإكثار منها، من غير تقييد بعدد، قاله القاضي أبو بكر بن بكير من المالكية[1]، وعبارته - كما قاله القاضي عياض -: افترض الله تعالى على خلقه أن يصلوا على نبيه ﷺ ويسلموا تسليماً، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم، فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها.

الثالث: تجب كل ما ذكر، قاله الطحاوي وجماعة من الحنفية، والحليمي، وجماعة من الشافعية، وقال ابن العربي: إنه الأحوط، وكذا قاله الزمخشري. واستدلوا لذلك بحديث: (من ذكرت عنده فلم يصل علي/ فمات فدخل النار فأبعده الله) أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة. وحديث: (رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل علي) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم. وحديث (شقي عبد ذكرت عنده فلم يصل علي) أخرجه الطبراني من حديث جابر. لأن الدعاء بـ«الرغم والإبعاد والشقاء» يقتضى الوعيد، والوعيد على الترك من علامات الوجوب. ومن حيث المعنى: إن فائدة الأمر بالصلاة عليه مكافأته على إحسانه، وإحسانه مستمر، فتتأكد إذا ذكر.

٢٧٦/ب

واستدلوا أيضاً: بقوله تعالى: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً**﴾[2] فلو كان إذا ذكر لا يصلى عليه كان كآحاد الناس.

---

(١) محمد بن أحمد. هو من كبار أصحاب القاضي إسماعيل، ومن الفقهاء الثقات، له كتاب أحكام القرآن وغيره، ولي القضاء وتوفي سنة خمسين وثلاثمائة.

(٢) سورة النور، الآية ٦٣.

وأجاب من لم يوجب ذلك بأجوبة، منها:

أنه قول لا يعرف عن أحد من الصحابة ولا التابعين، فهو مخترع.

ولو كان ذلك على عمومه للزم المؤذن إذا أذن أن يصلي عليه، وكذا سامعه، وللزم القارئ إذا مر بآية فيها ذكره ﷺ في القرآن، وللزم الداخل في الإسلام إذا تلفظ بالشهادتين ولكان في ذلك من المشقة والحرج ما جاءت الشريعة السمحة المطهرة بخلافه، ولكان الثناء على الله تعالى كلما ذكر أحق بالوجوب، ولم يقولوا به.

وقد أطلق القدوري وغيره من الحنفية: أن القول بوجوب الصلاة كلما ذكر مخالف للإجماع المنعقد قبل قائله، لأنه لا يحفظ عن أحد من الصحابة أنه خاطب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله صلى الله عليك، ولأنه لو كان كذلك لما تفرغ لعبادة أخرى.

وأجابوا عن الأحاديث: بأنها خرجت مخرج المبالغة في تأكيد ذلك وطلبه، وفي حق من اعتاد ترك الصلاة عليه ديدنا. وبالجملة: فلا دلالة على تكرر وجوب ذلك بتكرر ذكره ﷺ في المجلس الواحد، انتهى ملخصاً، والله أعلم.

الرابع: في كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره مراراً. حكاه الزمخشري.

الخامس: في كل دعاء، حكاه أيضاً.

السادس: أنها من المستحبات، وهو قول ابن جرير الطبري، وادعى الإجماع على ذلك، واحتج على ذلك مع ورود صيغة الأمر بذلك، بالاتفاق من جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة، أن

ذلك غير مستلزم فرضيتها حتى يكون تارك ذلك عاصياً، فدل على أن الأمر فيه للندب، ويحصل الامتثال لمن قاله ولو كان خارج الصلاة.

قال في فتح الباري: وما ادعاه من الإجماع معارض بدعوى غيره الإجماع على مشروعية ذلك في الصلاة، إما بطريق الوجوب، وإما بطريق الندب، ولا يعرف عن السلف لذلك مخالف، إلا ما أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني عن إبراهيم النخعي أنه كان يرى أن قول المصلي في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته مجزئ عن الصلاة، ومع ذلك: إنما ادعى إجزاء السلام عن الصلاة.

السابع: تجب في العمر مرة في الصلاة أو غيرها، ككلمة التوحيد، قاله أبو بكر الرازي من الحنفية.

الثامن: تجب في الصلاة من غير تعيين المحل، ونقل ذلك عن أبي جعفر الباقر.

التاسع: تجب في التشهد، وهو قول الشعبي وإسحاق بن راهويه.

العاشر: تجب في القعود آخر الصلاة، بين قول التشهد وسلام التحلل، قاله الشافعي ومن تبعه.

واستدل لذلك بما رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم عن أبي مسعود البدري: (أنهم قالوا يا رسول الله: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف/ نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا فقال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.. الحديث. ومعنى قولهم: أما السلام عليك فقد عرفناه، هو الذي في التشهد، الذي كان قد علمهم إياه كما يعلمهم السورة من القرآن. 1/277

وفيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ورواه الشافعي في مسنده عن أبي هريرة بمثله.

وقد احتج بهذه الزيادة[1] جماعة من الشافعية، منهم ابن خزيمة، والبيهقي، لإيجاب الصلاة عليه ﷺ [في التشهد][2] بعد التشهد وقبل السلام.

وقال الشافعي في الأم: فرض الله الصلاة على رسول الله ﷺ بقوله: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً**﴾ ولم يكن فرض الصلاة عليه في موضع أولى منه في الصلاة، ووجدنا الدلالة عن النبي ﷺ بذلك: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنا صفوان بن سليم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله، كيف نصلي عليك ـ يعني في الصلاة ـ قال: تقولون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم الحديث. أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني سعيد بن إسحاق ابن كعب بن عجرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في الصلاة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم الحديث.

قال الشافعي: فلما روي أن النبي ﷺ كان يعلمهم التشهد في الصلاة، وروي أنه علمهم كيف يصلون عليه في الصلاة، لم يجز أن نقول: التشهد في الصلاة واجب والصلاة فيه غير واجبة.

---

(١) يعني قوله «في صلاتنا».

(٢) في (ب، د، ط).

[مناقشة رأي الإمام الشافعي]

وقد تعقب بعض المخالفين هذا الاستدلال من أوجه:

أحدها: ضعف إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى، والكلام فيه مشهور[1].

الثاني: على تقدير صحته فقوله في الأول: يعني في الصلاة، لم يصرح بالقائل «يعني»[2].

الثالث: قوله في الثاني[3]: «أنه كان يقول في الصلاة» وإن كان ظاهره أن المراد الصلاة المكتوبة، لكنه يحتمل أن يكون المراد بقوله في الصلاة، أي في صفة الصلاة عليه، وهو احتمال قوي، لأن أكثر الطرق عن كعب بن عجرة يدل على أن السؤال وقع عن صفة الصلاة لا عن محلها.

الرابع: ليس في الحديث ما يدل على تعيين ذلك في التشهد، خصوصاً بينه وبين السلام.

وقد أطنب قوم من متأخري المالكية وغيرهم في التشنيع على الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة وزعم أنه تفرد بذلك.

---

(١) جاء في الأصل هنا: «إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني، متروك من السابعة مات سنة أربع وثمان [كذا في الأصل] وقيل إحدى وتسعين». واعتقد أن هذه الترجمة كانت حاشية بين الأسطر على الأصل المنقول منه فأدخلها الناسخ في الأصل ظناً منه أنها استدراك، ولذا وضعتها في الحاشية. [م].

(٢) حتى يعلم هل هو ممن يقبل تفسيره أم لا.

(٣) أي الحديث الثاني.

وحكى الإجماع على خلافه جماعة، منهم أبو جعفر الطبري والطحاوي وابن المنذر والخطابي[1].

وحكى القاضي عياض في الشفاء مقالاتهم. وقد عاب عليه غير واحد، وقالوا: كان ينبغي سكوته عنها، لأن مبنى تأليفه «الشفاء» على كمال المبالغة في تعظيمه ﷺ، وأداء حقوقه، والقول بوجوب الصلاة عليه في الصلاة من غرض المبالغة في تعظيمه، وقد استحسن هو القول بطهارة فضلاته، مع أن الأكثر على خلافه، لكنه استجاده لما فيه من الزيادة في تعظيمه، وكيف ينكر القول بوجوب الصلاة عليه وهو من جنس الصلاة ومقتضياتها، وإذا شرع السلام فيها على نفس المصلي وعلى عباد الله الصالحين، فكيف لا تجب الصلاة على سيد المرسلين؟

وقد انتصر جماعة كثيرة من العلماء الأعلام للشافعي، كالحافظ عماد الدين بن كثير، والعلامة ابن القيم، وشيخ الإسلام والحفاظ أبي الفضل بن حجر، وتلميذه شيخنا الحافظ[2] والعلامة أبي أمامة بن النقاش[3] وغيرهم ممن يطول عدهم.

واستدلوا لذلك بأدلة نقلية ونظرية، ودفعوا دعوى الشذوذ، فنقلوا القول بالوجوب عن جماعة من الصحابة، منهم ابن مسعود، وأبو مسعود البدري وجابر بن عبدالله، / ونقله أصحاب الشافعي عن عمر بن الخطاب، وابنه عبدالله، ومن التابعين: الشعبي، فيما رواه البيهقي كما سيأتي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل.

٢٧٧/ب

(١) «الخطابي» سقط من ط.
(٢) أي السخاوي.
(٣) لم يرد ذكر النقاش في (ا، ش).

وأخرج الحاكم ـ بسند قوي ـ عن ابن مسعود قال: يتشهد الرجل ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو لنفسه. قال الحافظ ابن حجر: وهذا أقوى شيء يحتج به للشافعي، فإن ابن مسعود ذكر أن النبي ﷺ علمهم التشهد في الصلاة، وأنه قال: ثم ليتخير من الدعاء ما شاء، فلما ثبت عن ابن مسعود الأمر بالصلاة عليه قبل الدعاء، دل على أنه اطلع على زيادة ذلك بين التشهد والدعاء، واندفعت حجة من تمسك بحديث ابن مسعود في دفع ما ذهب إليه الشافعي [وادعى][1] مثل ما ذكره القاضي عياض قال، وهذا تشهد ابن مسعود الذي علمه له النبي ﷺ ليس فيه ذكر الصلاة عليه.

وفي جزء الحسن بن عرفة، وأخرج[2] المعمري[3] في عمل اليوم والليلة[4] عن ابن عمر ـ بسند جيد ـ قال: لا تكون صلاة إلا بقراءة وتشهد وصلاة عليّ.

وأخرج البيهقي في الخلافيات ـ بسند قوي ـ عن الشعبي، وهو من كبار التابعين، قال: كنا نُعلم التشهد، فإذا قال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يحمد ربه ويثني عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته.

وفي حديث أبي جعفر، عن ابن مسعود، مرفوعاً: من صلى

---

(١) في (ط، ش).

(٢) في ش: وأخرجه.

(٣) الحافظ العلامة الحسن بن علي بن شبيب البغدادي. قال الخطيب كان من أوعية العلم يذكر بالفهم ويوصف بالحفظ، وفي حديثه غرائب ينفرد بها، صدوق، مات سنة خمس وتسعين ومائتين.

(٤) كذا في الأصل: وفي النسخ: عمل يوم وليلة.

صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه. قال الدارقطني: والصواب أنه من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ﷺ وعلى أهل بيته لرأيت أنها لا تتم، لكن راويه عن أبي جعفر جابر الجعفي وهو ضعيف. كذا في الشفاء.

وقد وافق الشافعي من فقهاء الأمصار أحمد في إحدى الروايتين عنه، وعمل به أخيراً، كما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي[1]، فيما ذكره الحافظ ابن كثير، وأوجب إسحاق بن راهويه الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان، والمشهور عن أحمد أنها تبطل بتركها عمداً أو سهواً، وعليه أكثر أصحابه، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه: صلى الله عليه وسلم، كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، كما ذكره ابن كثير، ووافق الخرقي[2] إسحاق في التقييد بالعمد دون السهو.

والخلاف أيضاً عند المالكية كما ذكره ابن الحاجب في سنن الصلاة، ثم قال: على الصحيح، فقال شارحه ابن عبد السلام: يريد أن في وجوبها قولين، وهو ظاهر كلام الإمام ابن المواز[3] وبه صرح عنه ابن القصار[4]، وعبد الوهاب[5]، كما في الشفاء بلفظ: إنه يراها

---

(١) الحافظ، شيخ الشام، قال أبو حاتم صدوق. مات سنة إحدى وثمانين ومائتين، وله تصانيف.

(٢) أبو القاسم عمر بن الحسين البغدادي، شيخ الحنابلة، الفقيه صاحب المختصر، وكان له تصانيف كثيرة أودعها ببغداد وسافر فاحترقت.

(٣) محمد بن إبراهيم الاسكندري، كان راسخاً في الفقه والفتيا، مجتهداً في المذهب، انتهت إليه رئاسة المالكية بمصر. مات سنة تسع وستين ومائتين.

(٤) علي بن أحمد البغدادي، قاضيها الفقيه الأصولي، له تصانيف، مات سنة ثمان وتسعين ثلاثمائة.

(٥) عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي، أحد الأعلام وأئمة المالكية =

فريضة في الصلاة كقول الشافعي، قال: وحكى أبو يعلى العبدي[1] عن المذهب فيها ثلاثة أقوال في الصلاة: الوجوب، والسنة، والندب. ورأيت مما يعزى للقاضي أبي بكر بن العربي في «سراج المريدين»: قال ابن المواز والشافعي: الصلاة على النبي ﷺ من فرائض الصلاة وهو الصحيح. انتهى.

وقد يلزم القائل من الحنفية بوجوب الصلاة عليه كلما ذكر كالطحاوي، ونقله السروجي في شرح الهداية عن أصحاب المحيط والعقد والتحفة من كتبهم أن يقولوا بوجوبها في التشهد لتقدم ذكره ﷺ في آخر التشهد في قوله: وأشهد أن محمداً رسول الله، لكن لهم أن يلتزموا ذلك ولا يجعلونه شرطاً في صحة الصلاة.

ولم يخالف الشافعي أحد من أصحابه في ذلك. بل قال بعض أصحابنا بوجوب الصلاة على الآل، كما حكاه البندنيجي والدارمي، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي، قال الحافظ ابن كثير: والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، والقول بوجوبه ظهور للحديث.

وأما مخالفة الخطابي من أصحاب الشافعي/ فلا يعتد به لمقتضى الآمر المحمول على الوجوب إجماعاً، وأولى أحواله الصلاة ولا مانع من احتمال كونه مراداً. وأما قوله: ولا أعلم له فيها قدوة، فيقال عليه: لا

١/٢٧٨

= المجتهدين في المذهب، تحول إلى مصر لضيق حاله. مات سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة.

(١) أبو يعلى أحمد بن محمد العبدي إمام المالكية بالبصرة، له تصانيف، وكان مشهوراً بإمامة وتقدم وصلاح.

ريب أن الشافعي قدوة يقتدى به، والمقام مقام اجتهاد، فلا افتقار له فيه إلى غيره.

وأما قوله في «الشفاء»: والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه. ففيه نظر، لأنه إن أراد بالعمل الاعتقاد فيحتاج إلى نقل صريح عنهم بأن ذلك ليس بواجب، وأنى يوجد ذلك؟

وأما قوله: وقد شنع الناس عليه - يعني الشافعي - في هذه المسألة جداً، فلا معنى له، وأي شناعة في ذلك؟ ولم يخالف فيه نصاً ولا إجماعاً ولا قياساً ولا مصلحة راجحة. بل القول بذلك من محاسن مذهبه، ولا ريب أن القائل بجواز ترك الصلاة على أفضل خلق الله في الصلاة التي هي رأس العبادة المطلوب فيها الخضوع واستحضار شارعها والثناء عليه أولى بالتشنيع.

وأما نقله الإجماع فقد تقدم ما فيه.

وأما قوله: إن الشافعي اختار تشهد ابن مسعود، فلم يقل به أحد، والشافعي إنما اختار تشهد ابن عباس كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مقصد عباداته.

وقد استدل للوجوب بما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه، وكذا ابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال: عجل هذا، ثم دعاه إليه فقال: إذا صلى أحدكم فليبدأ بالحمد لله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بما شاء.

قلت: ومما يعد من كرامات إمامنا الشافعي وسره الساري، أن القاضي عياضاً ساق هذا الحديث بسنده من طريق الترمذي من غير أن يطعن في سنده بعد قوله: «فصل في المواطن التي تستحب فيها الصلاة على النبي ﷺ ويرغب» من ذلك: في تشهد الصلاة، وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء.

وهذا الحديث ـ كما ترى ـ من أعظم الأدلة لنا.

فإن قال قائل: ليس لكم فيه دلالة لأنه قال: سمع فيه رجلاً يدعو في صلاته، ولم يقل في تشهده.

فيجاب: بأنه يلزم على هذا أن القاضي عياضاً ساقه في غير محله، لأنه عقد الفصل ـ كما قدمته ـ لبيان مواطن استحباب الصلاة. ثم قال: ومن ذلك في تشهد الصلاة.

وفي «مصابيح» البغوي، من حديث فضالة بن عبيد هذا ما يدل على أنه كان في التشهد، ولفظه: قال دخل رجل فقال اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ: عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، ثم صل عليّ، ثم ادعه.

وفي قوله: «عجلت» استلواح فوات الكمال عن الحقيقة المجزئة، إذ لو كانت مجزئة لما حسن اللوم والتعليم بصيغة الأمر، فإن قيل إنه في مقام تعليم المستحبات إذ لو كان في الواجبات لأمره بالإعادة، كما أمر المسيء صلاته، فيجاب: بأن في قوله هذا غنية عن الأمر بالإعادة، لأنه حيث علمه ما هو الواجب علم قطعاً أنه لم يأت به أولاً فلم يكن آتياً به فوجبت إعادته، وهم أهل الفهم والعرفان.

فإن قال: إن قوله «فقعدت» يحتمل أن يكون عطفاً على مقدر، تقديره: إذا صليت وفرغت فقعدت للدعاء فاحمد الله.

فيجاب: بأن الأصل عدمه، وإنما هو عطف على المذكور، أي: إذا كنت في الصلاة فقعدت للتشهد فاحمد الله، أي أثن عليه بقولك، التحيات لله الخ والله أعلم.

وقال الجرجاني من الحنفية وغيره: لو كانت فرضاً للزم تأخير البيان عن وقت الحاجة، لأنه ﷺ علمهم التشهد وقال: فليتخير من الدعاء ما شاء، ولم يذكر الصلاة عليه.

وأجيب: باحتمال أن لا تكون فرضت حينئذ.

وقال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: قد ورد هذا الصحيح بلفظ: ثم ليتخير/، و«ثم» للتراخي، فدل على أنه كان هناك شيء بين التشهد والدعاء، انتهى.

٢٧٨/ب

وقد أطنب الشيخ أبو أمامة بن النقاش في تفسيره في الانتصار للشافعي في هذه المسألة، مما يطول ذكره، فالله يثيبه على قصده الجميل.

[صفة الصلاة عليه ﷺ]

وأما صفة الصلاة عليه ﷺ، (فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي.

فإن قلت: كيف يطابق قوله: (اللهم صل على محمد) قوله: (كما صليت على آل إبراهيم)؟

أجاب القاضي عياض: بأن «آل» مقحم، كما في قوله ﷺ في أبي موسى: (إنه أعطي مزماراً من مزامير آل داود)، ولم يكن له آل مشهور بحسن الصوت.

وقد روى هذا الحديث ابن أبي حاتم بلفظ: لما نزلت ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً**﴾[1] قال: قلنا يا رسول الله، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول[2]: وعلينا معهم.

وعن أبي حميد الساعدي: (أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على [إبراهيم وعلى][3] آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[4] رواه الإمام أحمد[5]

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٦.

(٢) أي يزيد المصلي «وعلينا معهم» رجاء بركة اللحاق بهم.

(٣) في (ط، ب، د).

(٤) نص الحديث عند أحمد (اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) المسند ٥/٤٢٤.

(٥) قال الشارح، وكذا رواه البخاري ومسلم كلاهما من طريق مالك، وهو في الموطأ، فقصر المصنف في العزو.

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: (أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشر بن سعد أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم، رواه مالك ومسلم وغيرهما.

[وجه التشبيه بالصلاة على إبراهيم]

فإن قلت: ما موقع التشبيه في قوله: (كما صليت على إبراهيم)، مع أن المقرر أن المشبه دون المشبه به؟ والواقع هنا عكسه، لأن محمداً ﷺ وحده أفضل من إبراهيم ومن آل إبراهيم، ولا سيما وقد أضيف إليه آل محمد، وقضية كونه أفضل أن تكون الصلاة المطلوبة له أفضل من كل صلاة حصلت أو تحصل لغيره.

فقد أجاب العلماء عنه بأجوبة كثيرة:

منها: أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل من إبراهيم. وقد أخرج مسلم حديث أنس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير البرية، قال: ذاك إبراهيم.

وتعقب: بأنه لو كان كذلك لغير صيغة الصلاة عليه بعد أن علم أنه أفضل.

ومنها: أنه قال ذلك تواضعاً، وشرع ذلك لأمته ليكتسبوا بذلك الفضيلة.

ومنها: أن التشبيه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة، لا

للقدر بالقدر، فهو كقوله تعالى: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾**[1]، وهو كقول القائل: أحسن إلى ولدك كما أحسنت إلى فلان، ويريد بذلك أصل الإحسان لا قدره، ومنه قوله تعالى: **﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾**[2]، ورجح هذا القول القرطبي في «المفهم».

1/279 /ومنها: أن قوله: (اللهم صل على محمد) مقطوع عن التشبيه، فيكون التشبيه[3] متعلقاً بقوله: (وعلى آل محمد)

وتعقب: بأن غير الأنبياء لا يمكن أن يساووا الأنبياء، فكيف يطلب لهم صلاة مثل الصلاة التي وقعت لإبراهيم والأنبياء من آله.

ويمكن الجواب عنه: بأن المطلوب الثواب الحاصل لهم، لا جميع الصفات التي كانت سبباً للثواب.

وقد نقل العمراني[4] في «البيان»[5] عن الشيخ أبي حامد أنه نقل هذا الجواب عن نص الشافعي. واستبعد ابن القيم صحة ذلك عن الشافعي، لأنه مع فصاحته ومعرفته بلسان العرب لا يقول هذا الكلام المستلزم هذا التركيب الركيك البعيد من كلام العرب، كذا قال. وتعقبه الحافظ ابن حجر[6] فقال: ليس التركيب المذكور ركيكاً،

---

(١) سورة النساء، الآية ١٩٣.

(٢) سورة القصص، الآية ٧٧.

(٣) قوله «فيكون التشبيه» سقط من (أ).

(٤) الإمام يحيى بن سالم من بني عمران من اليمن، نشر العلم ببلاده، توفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة.

(٥) اسم شرح العمراني على المهذب.

(٦) في (ش): ابن كثير.

بل التقدير: اللهم صل على محمد وصل على آل محمد كما صليت الخ، فلا يمتنع الشبيه بالجملة الثانية.

ومنها: رفع المقدمة المذكورة أولاً، وهي أن المشبه به يكون أرفع من المشبه، وأن ذلك ليس مطرداً، بل قد يكون التشبيه بالمثل، بل بالدون، كما في قوله تعالى: ﴿**مثل نوره كمشكاة**﴾[1]، وأين يقع نور المشكاة من نوره تعالى؟ ولكن لما كان المراد من المشبه به أن يكون شيئاً ظاهراً واضحاً للسامع حسن تشبيه النور بالمشكاة، وكذا هنا: لما كان تعظيم إبراهيم وآل إبراهيم بالصلاة عليهم مشهوراً واضحاً عند جميع الطوائف حسن أن يطلب لمحمد وآل محمد بالصلاة عليهم مثل ما حصل لإبراهيم وآل إبراهيم، ويؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله (في العالمين) أي كما أظهرت الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، ولهذا لم يقع (في العالمين) إلا في ذكر إبراهيم دون ذكر آل محمد على ما وقع في الحديث الذي وردت فيه، وهو حديث أبي مسعود الأنصاري الذي ذكرته.

وهذا معنى قول الطيبي: وليس التشبيه المذكور من باب إلحاق الناقص بالكامل، لكن من باب إلحاق ما لم يشتهر بما اشتهر.

وقال النووي: أحسن الأجوبة ما نسب إلى الشافعي: أن التشبيه لأصل الصلاة أو للمجموع بالمجموع.

وقال ابن القيم ـ بعد أن زيف أكثر الأجوبة إلا تشبيه المجموع بالمجموع ـ: وأحسن منه أن يقال: هو ﷺ من آل إبراهيم، وقد ثبت ذلك عن ابن عباس في تفسير قوله: ﴿**إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل**

(١) سورة النور، الآية ٣٥.

إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾[1] قال: محمد من آل إبراهيم، فكأنه أمرنا أن نصلي على محمد وعلى آل محمد خصوصاً بقدر ما صلينا عليه مع إبراهيم وآل إبراهيم عموماً، فيحصل لآله ما يليق بهم، ويبقى الباقي كله له، وذلك القدر أزيد مما لغيره من آل إبراهيم. وتظهر حينئذ فائدة التشبيه، وأن المطلوب له بهذا اللفظ أفضل من المطلوب بغيره من الألفاظ.

وقال الحليمي: سبب هذا التشبيه أن الملائكة قالت في بيت إبراهيم: **﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾**[2] وقد علم أن محمداً وآل محمد من أهل بيت إبراهيم، فكأنه قال: قولوا اللهم أجب دعاء الملائكة الذين قالوا ذلك في محمد وآل محمد كما أجبتها عندما قالوها في آل إبراهيم الموجودين حينئذ، ولذلك ختم بما ختم به الآية وهو قوله إنك حميد مجيد.

ومما يعزى للعارف الرباني أبي محمد المرجاني أنه قال: وسر قوله ﷺ: (كما صليت على إبراهيم، وكما باركت على إبراهيم) ولم يقل: كما صليت على موسى، لأن موسى عليه الصلاة والسلام كان التجلي له بالجلال، فخر موسى صعقاً، والخليل إبراهيم كان التجلي له بالجمال، لأن المحبة والخلة من آثار التجلي بالجمال، / فلهذا أمرهم صلوات الله وسلامه عليه أن يصلوا عليه كما صلى على إبراهيم، فيسألوا له التجلي بالجمال، وهذا لا يقتضي التسوية فيما بينه وبين الخليل صلوات الله وسلامه عليهما، لأنه إنما أمرهم أن يسألوا له التجلي بالوصف الذي تجلى به للخليل عليه الصلاة والسلام، فالذي يقتضيه الحديث المشاركة

٢٧٩/ب

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٣.

(٢) سورة هود، الآية ٧٣.

في الوصف الذي هو التجلي بالجمال، ولا يقتضي التسوية في المقامين ولا الرتبتين، فإن الحق سبحانه يتجلى بالجمال لشخصين بحسب مقاميهما، وإن اشتركا في وصف التجلي بالجمال، فيتجلى لكل واحد منهما بحسب مقامه عنده، ورتبته منه ومكانته، فيتجلى للخليل عليه الصلاة والسلام بالجمال بحسب مقامه، ويتجلى لسيدنا محمد ﷺ بالجمال بحسب مقامه، فعلى هذا يفهم الحديث. انتهى.

[المقصود بـ«آل محمد»]

فإن قلت: ما المراد بآل محمد في هذا الحديث؟

فالجواب: إن الراجح أنهم من حرمت عليهم الصدقة، كما نص عليه الشافعي، واختاره الجمهور، ويؤيده قوله ﷺ للحسن بن علي: (إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة)[1]

وقيل: المراد بآل محمد أزواجه وذريته.

وقيل: المراد بهم جميع الأمة أمة الإجابة. حكاه أبو الطيب الطبري عن بعض الشافعية، ورجحه النووي في شرح مسلم، وقيده القاضي حسين بالانقياد منهم، وعليه يحمل كلام من أطلق، ويؤيده ما رواه تمام في فوائده، والديلمي عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ: من آل محمد؟ فقال: كل تقي من أمة محمد، زاد الديلمي: ثم قرأ: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾[2]، وإسنادهما ضعيف، لكن ورد ما يشهد لذلك في الصحيحين كحديث (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين). انتهى ملخصاً.

(١) رواه أحمد والطبراني بإسناد قوي.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٤.

[أفضل صيغ الصلاة]

وقد استدل العلماء بتعليمه ﷺ لأصحابه هذه الكيفية بعد سؤالهم عنها، بأنها أفضل كيفيات الصلاة عليه، لأنه لا يختار لنفسه إلا الأشرف الأفضل.

ويترتب على ذلك: أنه لو حلف أن يصلي على النبي ﷺ أفضل الصلاة، فطريق البر أن يأتي بذلك، هكذا صوبه النووي في «الروضة»، بعد ذكر حكاية الرافعي عن إبراهيم المروزي أنه قال: يبر إذا قال: كلما ذكره الذاكرون، وكلما سها عن ذكره الغافلون. قال النووي: وكأنه أخذ ذلك من كون الشافعي ذكر هذه الكيفية ـ يعني في خطبة «الرسالة» له ـ ولكن بلفظ «غفل» بدل «سها».

وقال الأذرعي: «إبراهيم» المذكور كثير النقل من تعليقة القاضي حسين، ومع ذلك فالقاضي قال في طريق البر؛ أن يقول: اللهم صل على محمد كما هو أهله ويستحقه، وكذا نقله البغوي في تعليقه.

ولو جمع بينها فقال ما في الحديث، وأضاف إليه أثر الشافعي، وما قاله القاضي لكان أشمل. ولو قيل: إنه يعمد إلى جميع ما اشتملت عليه الروايات الثابتة فيستعمل منها ذكراً يحصل به البر لكان حسناً.

[الترحم عليه ﷺ]

وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: إذا تشهد أحدكم في الصلاة فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل

محمد، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، رواه الحاكم[1].

وقد يستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور، ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: (لقد تحجرت[2] واسعاً)[3].

١/٢٨٠ وحكى القاضي عياض عن جمهور/ المالكية منعه[4] قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد. انتهى.

وسيأتي ما في ذلك من البحث إن شاء الله تعالى في المقصد التاسع عند الكلام على التشهد.

[صيغة صلاة علي رضي الله عنه]

وعن سلامة الكندي أن علياً كان يعلم الناس الدعاء - وفي لفظ: يعلم الناس الصلاة على رسول الله ﷺ - فيقول: اللهم داحي المدحوات، وبارئ المسموكات، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك، على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ لجيشات الأباطيل، كما

---

(١) اغتر قوم بتصحيحه فوهموا، لأنه من رواية يحيى بن السباق وهو مجهول عن رجل مبهم. قاله المصنف في المقصد التاسع.
(٢) أي ضيقت، فهو من الحجر بمعنى: المنع.
(٣) رواه الترمذي وغيره.
(٤) جاء في (ط) هنا: إلا أنه ضعيف عندهم.

حمِّل فاضطلع بأمرك بطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أورى قبساً لقابس آلاء الله، تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب، بعد خوضات الفتن والإثم، وأبهج موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة ورسولك بالحق رحمة، اللهم افسح له في عدنك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك، مهنئات له غير مكدرات، من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول، اللهم أعل على بناء الناس بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتمم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، ومرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فصل، وبرهان عظيم. حديث موقوف، رواه الطبراني لكن قال الحافظ ابن كثير: في سنده نظر، قال: وقال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: سلامة الكندي هذا ليس بمعروف، ولم يدرك علياً، كذا قال.

وقوله: «داحي المدحوات»: أي باسط الأرضين، وكل شيء بسطته ووسعته فقد دحوته.

«وبارئ المسموكات»: أي خالق السماوات، وكل شيء رفعته وأعليته فقد سمكته.

«والدافع لجيشات الأباطيل»: أي المهلك لما نجم وارتفع منها وفار. وأصل «الدمغ» من الدماغ، دمغه: أصاب دماغه، و«جيشات» من جاش إذا ارتفع.

«واضطلع»: افتعل من الضلاعة، وهي القوة.

«وأورى قبساً لقابس»: أي أظهر نوراً من الحق لطالبه.

«وآلاء الله»: نعم الله.

«تصل بأهله»: أي أهل ذلك القبس وهو الإسلام والحق أسبابه، وأهله المؤمنون.

«وبه هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم»: أي هديت بعد الكفر والفتن لموضحات الأعلام.

«ونائرات» و«المنيرات»: الواضحات، يقال: نار الشيء، وأنار إذا وضح.

«وشهيدك يوم الدين»: يريد الشاهد على أمته يوم القيامة.

«وبعيثك نعمة»: أي مبعوثك، فعيل بمعنى مفعول.

«وافسح له»: أي وسع له.

«وفي عدنك»: أي في جنة عدن.

«والمعلول»: من العلل وهو الشرب بعد الشرب، يريد أن إعطاءه مضاعف، كأنه يعل به عباده، أي: يعطيهم عطاء بعد عطاء.

«وأعل على بناء الناس» وفي رواية: البانين، أي ارفع فوق أعمال العاملين عمله.

«وأكرم مثواه»: أي منزله.

«ونزله»: رزقه.

«والخطة»: بضم الخاء المعجمة، الأمر والقصة.

«والفصل»: القطع.

[صيغة صلاة ابن مسعود]

وعن عبدالله بن مسعود قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، فقالوا له علمنا، قال: قولوا اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً، يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. حديث موقوف، رواه ابن ماجه.

[صيغ أخرى]

وعن رويفع بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: من صلى على محمد، وقال: اللهم أنزله المقعد [الصدق][1] المقرب/ عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي. رواه الطبراني. قال ابن كثير: وإسناده حسن ولم يخرجوه. ٢٨٠/ب

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، رواه أبو داود.

وعن طاووس: سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سؤله في الآخرة والأولى،

---

(١) في (ط، ش).

كما آتيت إبراهيم وموسى. رواه إسماعيل القاضي. قال ابن كثير: وإسناده جيد قوي صحيح.

[مواطن الصلاة عليه ﷺ]

وأما المواطن التي تشرع فيها الصلاة عليه ﷺ:

فمنها: التشهد الأخير، وهي واجبة فيه، كما قدمنا، وفي وجوبها في التشهد الأول قولان، أظهرهما المنع، لبنائه على التخفيف، بل [هي][1] سنة، وفي استحباب الصلاة على الآل في التشهد الأول القولان، وفي وجوبها في الأخير رأيان[2]: أصحهما المنع، بل هي سنة تابعة، وأقلها اللهم صل على محمد، وكذا: صلى الله على محمد، وأقلها على الآل: وآله. وقال في «الكفاية» بإعادة «على»[3].

ومنها: خطبة الجمعة، وكذا غيرها من الخطب، فلا تصح خطبتا[4] الجمعة إلا بها، لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرط، فوجب ذكر الرسول فيها كالأذان والصلاة، وهذا مذهب الشافعي وأحمد.

ومنها: عقب إجابة المؤذن، لما رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاصي، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا

---

(١) في (ط، ش).
(٢) في الأصل: بابان.
(٣) أي يقول: وعلى آله.
(٤) في ط: خطبة.

تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة). وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن علقمة، وذكره بلفظ «الرجاء» وإن كان متحقق الوقوع أدباً وإرشاداً منه وتذكيراً بالخوف، وتفويضاً إلى الله بحسب مشيئته، وليكون الطالب للشيء بين الرجاء والخوف.

وقوله: «حلت عليه الشفاعة» أي وجبت، وقيل غشيته ونزلت به.

تنبيه: قال شيخنا في «المقاصد الحسنة»: حديث «الدرجة الرفيعة» المدرج فيما يقال بعد الأذان، لم أره في شيء من الروايات، وأصل الحديث عند أحمد والبخاري والأربعة عن جابر مرفوعاً: (من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة: قال وكأن من زادها اغتر بما وقع في بعض نسخ «الشفاء» من حديث جابر المشار إليه، لكن مع زيادتها في هذه النسخة المعتمدة علم عليها كاتبها بما يشير إلى الشك فيها، ولم أرها في سائر نسخ الشفاء، بل في الشفاء عقد لها فصلاً في مكان آخر ولم يذكر فيه حديثاً صريحاً، وهو دليل لغلطها. انتهى والله أعلم.

ومنها: أول الدعاء وأوسطه وآخره، لما روى أحمد من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه فإذا احتاج إلى شراب شرب، أو الوضوء توضأ، وإلا أهراقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره)

ومنها: وهو من أكدها، عقب دعاء القنوت، لما رواه أحمد وأهل السنن، وابن جرير وابن حبان والحاكم، من حديث أبي الجوزاء، عن الحسن بن علي قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: (اللهم اهـدني فيمن هديت، وعـافني فيمن عـافيت، وتـولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليـك، إنه لا يـذل من واليت، [ولا يعـز من عـاديت][1] تبـاركت/ ربنا وتعـاليت) وزاد النسائي في سننـه: وصـلى الله عـلى النبي[2]، وسيـأتي في المقصد التـاسع البحث في ذلـك إن شـاء الله تعالى.

1/281

ومنها: أثناء تكبيرات العيدين، لما روى إسماعيل القاضي أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة، خرج عليهم الوليد بن عقبة فقال: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ فقال عبدالله: تبتـدئ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصـلي على النبي ﷺ، ثم تدعو[3] وتكبر، وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتكبر وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى صدق أبو عبد الرحمن. قال ابن كثير: إسناده صحيح[4].

ومنها: عند دخـول المسجد والخـروج منه، لمـا رواه أحمد عن

(1) زيـادة في (ب، ط) قال الشـارح: زاد الطبراني في الكبـير (ولا يعز من عاديت).
(2) هذه الزيادة غريبة غير ثابتة، أي ضعيفة.
(3) في (أ): تدعوه.
(4) هو موقوف وليس له حكم الرفع.

فاطمة[1] قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج صلى على محمد ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك[2].

ومنها: في صلاة الجنازة، فإن السنة أن يقرأ الفاتحة بعد إحدى التكبيرات، وبعد الأولى أولى، وأن يصلي على النبي ﷺ بعد الثانية، ويدعو للميت بعد الثالثة، وبعد الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده. وفي ذلك حديث رواه الشافعي والنسائي[3].

ومنها: عند التلبية، لما رواه الشافعي والدارقطني عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال.

ومنها: عند الصفا والمروة، لما روى إسماعيل القاضي عن عمر ابن الخطاب أنه قال: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً، وصلوا عند المقام ركعتين، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع تكبيرات، تكبيراً بعد حمد الله وثناء عليه، وصلاة على النبي ﷺ ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك. قال ابن كثير: إسناده حسن جيد قوي.

ومنها: عند الاجتماع والتفرق، لما روى الترمذي[4] عن أبي

---

(١) فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ.

(٢) وكذا رواه أبو داود والنسائي.

(٣) لكن في إسناده ضعف كما قال الخيضري.

(٤) فيه صالح بن التوأمة ضعيف عن أبي هريرة.

هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيه إلا كان عليه ترة[1]، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم.

وروى إسماعيل القاضي عن أبي سعيد قال: ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب[2].

ومنها: عند الصباح والمساء، لما روى الطبراني من حديث أبي الدرداء مرفوعاً. من صلى علي حين يصبح عشراً، وحين يمسي عشراً، أدركته شفاعتي يوم القيامة[3].

ومنها: عند الوضوء، لحديث ابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: لا وضوء لمن لم يصل على النبي ﷺ[4].

ومنها: عند طنين الأذن، لحديث أبي رافع عند ابن السني مرفوعاً: إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني، وليصل علي وليقل ذكر الله من ذكرني بخير[5].

ومنها: عند نسيان الشيء، لحديث أبي موسى المديني، بسند فيه

---

(١) هي النقص أو التبعة أو الحسرة.
(٢) أبعد المصنف النجعة في العزو، فقد روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ (لا يجلس قوم مجلساً ثم لا يصلون فيه على رسول الله إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب).
(٣) رواه بإسنادين الجيد منهما فيه انقطاع.
(٤) الحديث ضعيف كما في الفتح.
(٥) قال السخاوي: سنده ضعيف، وقال العقيلي لا أصل له، وقال ابن الجوزي: موضوع. قال الحافظ الهيثمي: إسناد الطبراني في الكبير حسن.

ضعف، عن أنس يرفعه: إذا نسيتم شيئاً فصلوا علي تذكروه إن شاء الله تعالى.

ومنها: بعد العطاس، كما ذهب إليه أبو موسى المديني وجماعة، ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى، كالأكل والشرب والوقاع ونحو ذلك.

ومنها: عند زيارة قبره الشريف، لحديث أبي داود عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام.

٢٨١/ب

وروى/ ابن عساكر: من صلى علي عند قبري سمعته.

وورد الأمر بالإكثار منها يوم الجمعة وليلتها، فعن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فاكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ـ يعني: وقد بليت ـ قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، رواه أحمد وأبو داود والنسائي. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني.

قال الحافظ ابن كثير: وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسناده ضعف.

فإن قلت: ما الحكمة في خصوصية الإكثار من الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة وليلتها؟

أجاب ابن القيم بأن رسول الله ﷺ سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه فيه مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده ﷺ، فجمع الله لأمته بين خيري الدنيا والآخرة، وأعظم كرامة تحصل لهم فإنها تحصل لهم يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيدهم في الدنيا، ويوم فيه يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده، فمن شكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ أن يكثر من الصلاة عليه في هذا اليوم وليلته.

[فضيلة الصلاة عليه ﷺ]

وأما فضيلة الصلاة عليه ﷺ فقد ورد التصريح بها في أحاديث قوية، لم يخرج البخاري منها شيئاً، أمثلها ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ (من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة، فلم يجد أحداً يتبعه، فأتاه عمر بمطهرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجداً، فتنحى عنه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: أحسنت يا عمر حين وجدتني ساجداً فتنحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات. رواه الطبراني [وقال الترمذي: هذا حديث حسن

صحيح][1] قال ابن كثير: وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج على الصحيحين».

وعن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: إنه أتاني الملك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً، قال: بلى، رواه الدارمي وأحمد وابن حبان والحاكم والنسائي، واللفظ له.

وعن عامر بن ربيعة، أن رسول الله ﷺ قال: من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلي علي، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر. رواه أحمد وابن ماجه من حديث شعبة.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاصي: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر، رواه أحمد.

والتخيير بعد الإعلام بما فيه الخيرة في المخير فيه على جهة التحذير من التفريط في تحصيله، وهو قريب من معنى التهديد.

وروى الترمذي، أن أبي ابن كعب قال: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك[2] فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت، قلت: الربع؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير لك، قلت: فالنصف؟ قال: ما شئت وإن زدت/ فهو خير لك، قلت: فالثلثين؟ قال: ما ١/٢٨٢

(١) زيادة في (ط، ب، د).
(٢) لفظ «عليك» ليس في (ط، ش).

شئت وإن زدت فهو خير لك، قلت: **أجعل لك صلاتي كلها**، قال: إذن تكفى همك، ويغفر ذنبك. ثم قال: هذا حديث حسن.

[السلام عليه ﷺ]

فهذا ما يتعلق بالصلاة، وأما السلام فقال النووي: يكره إفراد الصلاة عن السلام، واستدل بورود الأمر بهما معاً في الآية، يعني قوله تعالى **﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾**[1].

وتعقبوه: بأن النبي ﷺ علم أصحابه التسليم قبل تعليمهم الصلاة، كما هو مصرح به في قولهم: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك، وقوله ﷺ بعد أن علمهم الصلاة والسلام: كما قد علمتم، فأفرد التسليم مدة قبل الصلاة عليه.

لكن قال في فتح الباري: إنه يكره أن يفرد الصلاة ولا يسلم أصلاً، أما لو صلى في وقت، وسلم في وقت آخر فإنه يكون ممتثلاً.

[السلام على غير النبي ﷺ]

وقال أبو محمد الجويني من أصحابنا: السلام بمعنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: علي عليه السلام، سواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: سلام عليك، أو عليكم، أو السلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه انتهى.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

وقد جرت عادة بعض النساخ أن يفردوا علياً وفاطمة رضي الله عنهما بالسلام، فيقولوا: عليه أو عليها السلام من دون سائر الصحابة في ذلك، وهذا وإن كان معناه صحيحاً لكن ينبغي أن يساوي بين الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، والشيخان وعثمان أولى بذلك منهما، أشار إليه ابن كثير.

[الصلاة على غير النبي ﷺ]

وأما الصلاة على غير النبي ﷺ فاختلف فيها.

وأخرج البيهقي بسند واه من حديث بريدة رفعه: لا تتركن في التشهد الصلاة علي وعلى أنبياء الله.

وأخرج إسماعيل القاضي بسند ضعيف من حديث أبي هريرة صلوا على أنبياء الله

وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس رفعه: إذا صليتم علي فصلوا على أنبياء الله، فإن الله بعثهم كما بعثني[1].

وثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبي ﷺ. أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عثمان عن عكرمة عنه قال: ما أعلم الصلاة تنبغي على أحد من أحد إلا على النبي ﷺ. وسنده صحيح.

وحكي القول به عن مالك، وجاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز.

وقال سفيان: يكره أن يصلي إلا على نبي.

---

(١) إسناده ضعيف، كما قال الحافظ.

وعن بعض شيوخ مذهب مالك: لا يجوز أن يصلي إلا على محمد.

قالوا[1]: وهذا غير معروف عن مالك، وإنما قال: أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به.

وخالفه يحيى بن يحيى[2] فقال: لا بأس به، واحتج بأن الصلاة دعاء بالرحمة، فلا تمنع إلا بنص أو إجماع.

[الصلاة على غير الأنبياء]

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كان على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: اللهم صل على محمد وآل محمد ونحوه، فهو جائز بالإجماع. وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم.

فقال قائلون بجواز ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته**﴾[3] وبقوله: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾[4]، وبقوله تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم**﴾[5]، وبحديث عبدالله بن أبي أوفى قال: كان رسول

---

(١) أي عياض وغيره.

(٢) يحيى بن يحيى بن كثير الليثي القرطبي، فقيه مجاب الدعوة، قليل الحديث، له أوهام، روى موطأ مالك توفي سنة أربع وثلاثين ومائتين على الصحيح.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٥٧.

(٥) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى. أخرجه الشيخان.

وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال أبو بكر صلى الله عليه وسلم. أو: قال علي صلى الله عليه وسلم، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: [قال][1] محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل.

وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى. وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون[2]: لا يجوز ذلك، لأن/ الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك. ٢٨٢/ب

ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو كراهة التنزيه، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاها النووي في كتاب «الأذكار»، ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون، أنه مكروه كراهة تنزيه، لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم.

---

(١) في (أ، ب، د).

(٢) هو تأييد لقول الجمهور.

الفصل الثالث

في ذكر محبة أصحابه ﷺ وآله وقرابته وأهل بيته وذريته

[حب آل البيت والقرابة]

قال الطبري: اعلم أن الله تعالى لما اصطفى نبيه ﷺ على جميع من سواه، وخصه بما عمه به من فضله الباهر وحباه، أعلى ببركته من انتمى إليه نسباً أو نسبة، ورفع من انطوى عليه نصرة وصحبة، وألزم مودة قرباه كافة بريته، وفرض محبة جملةِ أهل بيته المعظم وذريته، فقال تعالى: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾**[1].

ويروى أنها لما نزلت قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء؟ قال: علي وفاطمة وابناهما[2]. وقال تعالى: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾**[3].

[المراد بآل البيت]

وقد اختلف في المراد بأهل البيت في هذه الآية:

فروى ابنِ أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.
(٢) قال الولي العراقي، في إسناده حسين الأشقر شيعي مختلف فيه.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

وروى ابن جرير عن عكرمة، أنه كان ينادي في السوق ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن كثير: وهذا يعني: ما في الآية نص في دخول أزواجه ﷺ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح.

وقيل: المراد النبي ﷺ.

قال عكرمة: من شاء باهلته[1] أنها نزلت في نساء النبي ﷺ. فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن ففي هذا نظر[2]، فإنه قد ورد في ذلك أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك. فروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ جاء ومعه علي وحسن وحسين آخذ كل واحد منهما بيده، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه ـ أو قال: كساءه ـ ثم تلا هذه الآية ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق. زاد في رواية ابن جرير، فقلت: وأنا يا رسول الله من أهلك، قال: وأنت من أهلي. قال واثلة: وإنها أرجى ما أرتجي.

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان في بيتها، إذ جاءت

---

(١) أي لاعنته، بأن يجعل اللعنة عل الكاذب.

(٢) هذا قول ابن كثير.

فاطمة ببرمة فيها خزيرة[1]، فدخلت عليه بها، فقال: ادعي زوجك وابنيك، قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وتحته كساء، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فينزل الله عز وجل هذه الآية ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت: فأدخلت رأسي من البيت فقلت وأنا معكم يا رسول الله فقال: إنك إلى خير، إنك إلى خير. رواه أحمد وفي إسناده من لم يسم وبقية إسناده ثقات.

وقوله: «حامتي» بالتشديد، أي خاصتي.

وعن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ رواه ابن جرير، ورواه أحمد في المناقب، والطبراني.

١/٢٨٣ وعن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ / خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي عز وجل فأجيبه، وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله عز وجل، فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله عز وجل، وخذوا به، وحث فيه ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله عز وجل في أهل بيتي، ثلاث مرات. فقيل لزيد: من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: بلى، إن نساءه من أهل

---

(١) في (أ، ش): خريرة. قال الشارح: بخاء معجمة ثم راء فتحتية فراء، ما يتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة.

بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده، قال[1]: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم، خرجه مسلم.

و«الثقل» محركة كما في القاموس، كل شيء نفيس مصون، قال: ومنه حديث (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي)، وهي بكسر المهملة وسكون المثناة الفوقية.

والأخذ بهذا الحديث أحرى، وليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هن مع أهله، ولا يشك من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في الآية الكريمة، فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿**واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة**﴾[2].

وهذا اختيار ابن عطية[3] بعد أن نقل أن الجمهور على أنهم: علي وفاطمة والحسن والحسين. قال: وحجة الجمهور قوله تعالى: ﴿**عنكم، ويطهركم**﴾ بـ«الميم» ولو كان للنساء خاصة لقال: عنكن.

وأجيب بأن الخطاب بلفظ التذكير وقع على سبيل التغليب، فيكون المراد به كالمراد بـ«الآل» في حديث كيفية الصلاة عليه السابق ذكره، على قول من فسره به، كما قدمته مع غيره قريباً في الفصل السابق، والله أعلم. ولله در القائل[4]:

---

(١) في (ش): قيل.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٤.

(٣) عبد الحق بن غالب بن عطية، كان فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث، كان غاية في الذكاء ألف الوجيز في التفسير فأبدع فيه، مات سنة ست وأربعين وخمسمائة.

(٤) ينسب للشافعي رحمه الله.

يـا آل بيـت رسـول الله حـبكـم فـرض من الله في القـرآن أنـزلـه
يكفيكم من عـظيم الفضـل أنكـم من لم يصـل عـليكـم لا صـلاة لـه

[حب آل البيت]

وأخرج أحمد عن أبي سعيد معنى حديث زيد بن أرقم السابق مـرفـوعـاً بلفظ: (إني أوشـك أن أدعى فـأجيب، وإني تـارك فيكم الثقلين: كتـاب الله وعترتي، كتـاب الله حبل ممـدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا بماذا تخلفوني فيهما)

وعـترة الرجـل ـ كما قـاله الجـوهري ـ: أهله ونسله، ورهـطه الأدنون، أي الأقارب.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: (يا أيها الناس ارقبوا محمداً في أهل بيته) رواه البخاري.

والمراقبة للشيء: المحافظة عليه، يقول: احفظوهم فلا تؤذوهم.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ كما في البخاري أيضاً ـ (لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي) وهذا قاله على سبيل الاعتذار لفاطمة من منعه إياها ما طلبته منه من تـركة النبي ﷺ ، وقد جرى منه على موجب الإيمان، لأنه ﷺ شرط الأحبية فيه على النفس والمال والولد، كما ذكرته في الفصل الأول من هذا المقصد.

ثم إنه ﷺ أثبت لأقاربه ما أثبت لنفسه من ذلك فقال: (من أحبهم فبحبي أحبهم) وحثنا على ذلك شفقة منه علينا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، ولقد أحسن القائل:

رأيــت ولائــي آل طــه فــريــضــة على رغم أهـل البعـد يـورثني القـربى
فـما طلب المبعـوث أجـراً عـلى الهـدى بـتـبـلـيـغـه إلا المـودة في الـقــربى

وفي الترمذي ـ وقال: حديث حسن غريب ـ: أحبوا الله لما يغذوكم به، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي/ بحبي.

٢٨٣/ب

وفي المناقب لأحمد: من أبغض أهل البيت فهو منافق.

وروى ابن سعد: من صنع إلى أحد من أهل بيتي معروفاً، فعجز عن مكافأته في الدنيا، فأنا المكافئ له في [يوم][1] القيامة.

[المراد بالقرابة]

والمراد بالقرابة من ينتسب إلى جده الأقرب، وهو عبد المطلب، ممن صحب النبي ﷺ، أو رآه من ذكر وأنثى، وهم:

- علي وأولاده: الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم من فاطمة رضي الله عنها.
- وجعفر بن أبي طالب وأولاده: عبدالله، وعون، ومحمد، ويقال إنه كان لجعفر بن أبي طالب ابن اسمه أحمد.
- وعقيل بن أبي طالب، وولده مسلم بن عقيل.
- وحمزة بن عبد المطلب، وأولاده: يعلى، وعمارة، وأمامة.
- والعباس بن عبد المطلب، وأولاده الذكور العشرة، وهم:

(١) في (ط، ش).

الفضل، وعبدالله، وقثم، وعبيدالله، والحارث، ومعبد، وعبد الرحمن، وكثير، وعون، وتمام، وفيه يقول العباس رضي الله عنه:

تموا بتمام فصاروا عشرة يا رب فاجعلهم كراماً بررة

ويقال: إن لكل منهم رؤية، وكان له من الإناث: أم حبيبة، وآمنة، وصفية، وأكثرهم من لبابة أم الفضل.

● ومعتب بن أبي لهب، والعباس ابن أبي لهب(١)، وكان زوج آمنة بنت العباس.

● وعبدالله بن الزبير بن عبد المطلب، وأخته ضباعة، وكانت زوج المقداد بن الأسود.

● وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه جعفر.

● ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وابناه: المغيرة والحارث، ولعبدالله بن الحارث هذا رؤية. وكان يلقب «ببة» بموحدتين، الثانية ثقيلة.

● وأميمة وأروى وعاتكة وصفية بنات عبد المطلب، أسلمت صفية وصحبت، وفي الباقيات خلاف، والله أعلم.

[مكانة علي رضي الله عنه]

وفي البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال لعلي: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي). وفي

---

(١) صوابه: العباس بن عتبة بن أبي لهب، كما في الإصابة وغيرها.

لفظ آخر (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى)[1] أي نازلاً مني منزلة هارون من موسى. والباء زائدة.

وقال الطيبي: معنى الحديث: أنت متصل بي نازل مني منزلة هارون من موسى. وفيه تشبيه مبهم بينه بقوله:(إلا أنه لا نبي بعدي) فعرف أن الاتصال بينهما ليس من جهة النبوة، بل من جهة ما دونها وهو الخلافة، ولما كان هارون المشبه به، إنما كان خليفة في حياة موسى، دل ذلك على تخصيص خلافة علي للنبي ﷺ بحياته والله أعلم.

وأما ما استدل به من هذا الحديث على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى، فأجيب: بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته، لأنه مات قبل موسى باتفاق. أشار إلى ذلك الخطابي.

وأما حديث الترمذي والنسائي (من كنت مولاه فعلي مولاه) فقال الشافعي: يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى:﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾[2] وقول عمر[3]: أصبحت مولى كل مؤمن، أي: ولي كل مؤمن. وطرق هذا الحديث كثيرة جداً، استوعبها ابن عقدة[4] في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان.

---

(١) كلا الحديثين رواهما الشيخان.

(٢) سورة محمد، الآية ١١.

(٣) مخاطباً لعلي رضي الله عنهما.

(٤) ابن عقدة: أحمد بن محمد الكوفي مولى بني هاشم. كان إليه المنتهى في الحفظ وكثرة الحديث، ألف وجمع، ولد سنة تسع وأربعين ومائتين.

وروي أنه ﷺ قال: (من آذى علياً فقد آذاني) خرجه أحمد.

وأخرج المخلص الذهبي: من أحب علياً فقد أحبني.

وقد ذكر النقاش: أن قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾[1] نزلت في علي.

وقال محمد بن الحنفية: لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً وأهل بيته.

وقال أبو حيان في «البحر»: ومن الغريب ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبدالله بن يوسف الأنصاري الشاطبي لزبينا ابن إسحاق النصراني الرسعني:

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم ... بسوء ولكني محب لهاشم
وما يعتريني في علي ورهطه ... إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم ... وأهل النهى من أعرب وأعاجم
١/٢٨٤ /فقلت لهم إني لأحسب حبهم ... سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

[مكانة فاطمة رضي الله عنها]

وقالت عائشة رضي الله عنها: كانت فاطمة أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وزوجها أحب الرجال إليه. رواه الترمذي.

وفي البخاري: (إن فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني)

و«البضعة» بفتح الباء الموحدة، وحكي ضمها وكسرها أيضاً، وبسكون المعجمة، أي قطعة لحم.

(١) سورة مريم، الآية ٩٦.

واستدل به السهيلي على أن من سبها فإنه يكفر.

[مكانة الحسن والحسين]

وفي الترمذي من حديث أسامة بن زيد ـ وقال حسن غريب ـ إنه ﷺ قال في حسن وحسين: اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما.

وخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في الحسن خاصة، زاد أبو حاتم فما كان أحد أحب إلي من الحسن بعد ما قال ﷺ ما قال.

وفي حديث أبي هريرة أيضاً عند الحافظ السلفي قال: ما رأيت الحسن بن علي قط إلا فاضت عيناي دموعاً، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً وأنا في المسجد فأخذ بيدي واتكأ علي حتى جئنا سوق قينقاع، فنظر فيه ثم رجع حتى جلس في المسجد ثم قال: ادع ابني، قال: فأتى الحسن بن علي يشتد حتى وقع في حجره، فجعل رسول الله ﷺ يفتح فمه، ثم يدخل فمه في فمه ويقول: اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه، ثلاث مرات.

وفي الترمذي من حديث أنس، أنه ﷺ كان يشمهما ويضمهما إليه، وقال: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة، رواه أحمد، وقال الترمذي؛ كان معي في الجنة، وقال: حديث غريب. وليس المراد بالمعية هنا المعية من حيث المقام، بل من حيث رفع الحجاب، وتقدم نحوه في قوله تعالى: ﴿**فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين**﴾[1] في المقصد السادس.

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

وفي حديث أبي زهير بن الأرقم عن رجل من الأزد أنه ﷺ قال في الحسن: من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب.

وفي البخاري: (هما ريحانتاي من الدنيا).

وكان ﷺ يمص لسان الحسن أو شفته، رواه أحمد.

وعن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر، وحمل الحسن وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي، ليس شبيهاً[1] بعلي. وعلي يضحك.

وعن محمد بن سيرين عن أنس: كان ـ يعني الحسين ـ أشبههم برسول الله ﷺ . رواهما البخاري.

وعنده من رواية الزهري عن أنس (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي) وهذا قد يعارضه قول علي في صفة النبي ﷺ : (لم أر قبله ولا بعده مثله)، أخرجه الترمذي في الشمائل كما تقدم في المقصد الثالث، وأجيب: بأن يحمل النفي على عموم الشبه، والإثبات على معظمه.

وقول أنس: (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي) قد يعارض رواية ابن سيرين عنه السابقة (كان الحسين ـ يعني بالياء ـ أشبههم بالنبي ﷺ) ويمكن الجمع بأن يكون أنس قال ما وقع في رواية الزهري في حياة الحسن، لأنه كان يومئذ أشد شبهاً بالنبي ﷺ من أخيه الحسين. وأما ما وقع في رواية ابن سيرين فكان بعد ذلك، أو المراد بمن فضل عليه الحسين في الشبه، كان من عدا الحسن، ويحتمل

---

(١) كذا في جميع النسخ، والذي في البخاري «ليس شبيه بعلي»، قال في فتح الباري: قال ابن مالك: كذا وقع برفع «شبيه» على أن «ليس» حرف عطف وهو مذهب كوفي. ٧/٩٦ [م].

أن يكون كل منهما كان أشد شبهاً به في بعض أعضائه، فقد روى الترمذي وابن حبان من طريق هانئ بن هانئ عن علي قال: الحسن أشبه رسول الله ﷺ ما بين الرأس إلى الصدر، والحسين أشبه النبي ﷺ ما كان أسفل من ذلك.

[ذكر من كان له شبه بالنبي ﷺ]

وقد عدوا من كان له شبه بالنبي ﷺ سوى الحسن والحسين، جعفر بن أبي طالب، وقد قال ﷺ لجعفر: (أشبهت خلقي وخلقي) قال الترمذي: حسن صحيح.

وابنه عبدالله بن جعفر.

وقثم بن العباس بن عبد المطلب.

وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

٢٨٤/ب

ومسلم بن عقيل/ بن أبي طالب.

ومن غير بني هاشم:

السائب بن يزيد المطلبي، الجد الأعلى للإمام الشافعي.

وعبدالله بن عامر بن كريز ـ بضم الكاف وفتح الراء ـ

وكابس بن ربيعة رجل من أهل البصرة، وجه إليه معاوية، وقبله بين عينيه وأقطعه قطيعة، وكان أنس إذا رآه بكى.

فهؤلاء عشرة، ونظمهم شيخ الإسلام الحافظ أبو الفضل بن حجر فقال:

شبـه الـنبـي لـعشر سـائـب وأبي سفيـان والحسنين الـطاهـرين همـا
وجعفـر وابنـه ثم ابـن عـامـر هم ومسـلم كـابس يـتـلوه مـع قـثـما

وعدهم بعضهم: سبعة وعشرين.

وممن كان يشبهه أيضاً:

فاطمة ابنته، وابراهيم ولده.

وولدا جعفر، عبدالله ـ السابق ذكره ـ وأخوه عون.

وكان يشبهه أيضاً من أهل البيت غير هؤلاء:

إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ويحيى بن القاسم بن محمد بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي، وكان يقال له: الشبيه. قال الشريف محمد بن أسعد النسابة في الزورة الأنيسة لمشهد السيدة نفيسة أنه كان ليحيى هذا موضع خاتم النبوة شامة قدر بيضة الحمامة، تشبه خاتم النبوة، وكان إذا دخل الحمام ورآه الناس صلوا على النبي ﷺ وازدحموا عليه يقبلون ظهره تبركاً، ولذا وصف بالشبيه.

والقاسم بن عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب.

وعلي بن علي بن نجاد بن رفاعة الرفاعي، شيخ بصري من أتباع التابعين.

والمراد بالشبه هنا، الشبه في البعض، وإلا فتمام حسنه ﷺ منزه عن الشريك، كما قال الأبوصيري ـ رحمه الله ـ وأجاد:

مـنـزه عـن شريك في محـاسـنـه فجـوهـر الحسن فيـه غـير منقسم

كما أشرت إليه في أول المقصد الثالث.

[اعتذار المصنف عن الإطالة]

وقد أطلت المقال، وإنما جرني إلى ذلك ذكر حمل الصديق للحسن على عاتقه، المشعر بالإكرام من أفضل البشر بعد النبيين، لأهل البيت المحمدي، وحملهم على الأعناق، ولا سيما مع قوله ـ رضي الله عنه ـ لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، فلما تضمن هذا الحديث ذلك الشبه الكريم جرني الكلام إليه، وهذا وقع لي كثير في هذا المجموع [بل في غالبه][1] لكنه لا يخلو عن فرائد[2] الفوائد.

[منزلة العباس]

وقد روي أنه ﷺ قال: العباس بن عبد المطلب مني وأنا منه، لا تؤذوا العباس فتؤذوني، من سب العباس فقد سبني. أخرجه البغوي[3] في معجمه.

وقال ﷺ للعباس أيضاً: والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله، ثم قال: أيها الناس، من آذى عمي فقد آذاني، فإنما عم الرجل صنو أبيه. رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

---

(١) زيادة في (ب، د، ط).

(٢) جمع فريدة: درة ثمينة تحفظ في ظرف على حدة لنفاستها.

(٣) أبو القاسم عبدالله محمد بن عبد العزيز البغوي الكبير ثم البغدادي أحد الحفاظ، متقدم على محيى السنة البغوي بزمان.

وفي قوله: «لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم» الإشارة إلى الإيمان الحقيقي المنجي، وهو التصديق القلبي، وبين المحبة والإيمان ارتباط من جهة أن المحبة ميل القلب إلى المحبوب، والإيمان التصديق القلبي، فيجتمعان في القلب، وجعلهما متلازمين، فيلزم من نفي أحدهما نفي الآخر، ثم علل هذه المحبة بكونها لله ولرسوله، فلا عبرة بمحبة تكون لغير ذلك، ثم جعل أذاه كأذى نفسه، لأنه عضوه وعصبه، ثم عظم مقامه بتنزيله منزلة الأب، فكما أنه يجب على الولد تعظيم والده والقيام بحقوقه فكذلك عمه، فقال: «وإنما عم الرجل صنو أبيه» وهو بكسر الصاد المهملة وسكون النون، أي: مثل أبيه، قال ابن الأثير: وأصله أن تطلع نخلتان من عرق واحد، يريد أن أصل العباس وأصل أبي واحد، انتهى.

وجلله ﷺ وبنيه بكساء ثم قال: اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً، اللهم احفظه في ولده. رواه الترمذي وقال: حسن غريب. وبين ابن السري/ في روايته: أن بنيه الذين جللوا بالكساء كانوا ستة: الفضل وعبدالله وعبيدالله وقثم ومعبد وعبد الرحمن. قال: وغطاهم بشملة له سوداء مخططة بحمرة وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وعترتي فاسترهم من النار كسترهم بهذه الشملة، قال: فلم يبق في البيت مدرة ولا باب إلا أمن[1].

١/٢٨٥

[منزلة عقيل وأبي سفيان]

وروى أنه ﷺ قال لعقيل بن أبي طالب: إني أحبك حبين، حباً

(١) حديث التأمين رواه البيهقي وابن ماجه في سننه عن عبدالله بن عثمان الوقاصي قال عنه ابن معين: لا أعرفه وقال أبو حاتم: يروى أحاديث مشبهة (قاله النجار في تخريج أحاديث الوفا لابن الجوزي). [م].

لقرابتك مني، وحباً لما كنت أعلم من حب عمي لك، قال الطبري: أخرجه أبو عمر، والبغوي.

وروى الدارقطني أنه ﷺ قال يوم حنين: أبو سفيان بن الحارث خير أهلي، أو من خير أهلي.

[مصطلحات أطلقت على آل البيت]

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار.

اعلم أنه قد اشتهر استعمال أربعة ألفاظ يوصفون بها:

الأولى: آله عليه الصلاة والسلام.

والثانية: أهل بيته.

والثالثة: ذوو[1] القربى.

والرابعة: عترته.

فأما الأولى: فذهب قوم إلى أنهم هم أهل بيته، وقال آخرون: هم الذين حرمت عليهم الصدقة وعوضوا عنها خمس الخمس، وقال قوم: من دان بدينه وتبعه فيه.

وأما اللفظة الثانية، وهي أهل بيته، فقيل من ناسبه إلى جده الأدنى، وقيل من اجتمع معه في رحم، وقيل من اتصل به بنسب أو سبب.

---

(١) في (ط، ش): ذو القربى، وفي (ب) ذوي القربى.

وأما اللفظة الثالثة: وهي ذوو القربى، فروى الواحدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾[1] قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمرنا الله تعالى بمودتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما[2].

وأما اللفظة الرابعة: وهي عترته، فقيل العشيرة، وقيل الذرية. فأما العشيرة فهي الأهل الأولون، وأما الذرية: فنسل الرجل، وأولاد بنت الرجل ذريته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**ومن ذريته داود**﴾ إلى قوله: ﴿**وعيسى**﴾[3]، ولم يتصل عيسى بإبراهيم إلا من جهة أمه مريم.

[ذرية فاطمة واللباس الأخضر]

فهذه الذرية الطاهرة، قد خصوا بمزايا التشريف، وعموا بواسطة السيدة فاطمة بفضل منيف، وألبسوا رداء الشرف، ومنحوا بمزيد الإكرام والتحف.

وقد وقع الاصطلاح على اختصاصهم من بين ذوي الشرف كالعباسيين والجعافرة بالشطفة[4] الخضراء، لمزيد شرفهم.

والسبب في ذلك ـ كما قيل ـ أن المأمون أراد أن يجعل الخلافة في بني فاطمة فاتخذ لهم شعاراً وألبسهم ثياباً خضراً ـ لكون السواد شعار العباسيين، والبياض شعار سائر المسلمين في جمعهم ونحوها، والأحمر

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

(٢) في إسناده مقال.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٨٤ ـ ٨٥.

(٤) الشطفة هي القطعة الخضراء التي توضع على العمامة (من الشرح) ولم يذكرها في القاموس.

مختلف في كراهته، والأصفر شعار اليهود بآخرة. ثم انثنى عزمه عن ذلك، ورد الخلافة لبني العباس، فبقي ذلك شعار الأشراف العلويين من الزهراء، لكنهم اختصروا الثياب إلى قطعة من ثوب أخضر توضع على عمائمهم شعاراً لهم ثم انقطع ذلك إلى أواخر القرن الثامن.

قال في حوادث سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من «أنباء الغمر بأبناء العمر»[1]: وفيها أمر السلطان الأشرف أن يمتازوا عن الناس بعصائب خضر على العمائم، ففعل ذلك بمصر والشام وغيرهما، وفي ذلك يقول الأديب أبو عبدالله بن جابر الأندلسي.

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم ... يغني الشريف عن الطراز الأخضر

وللأديب شمس الدين الدمشقي رحمه الله:

أطراف تيجان أتت من سندس ... خضر بأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصهمُ بها ... شرفاً ليفرقهم من الأطراف

والأشرف السلطان هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن قلاوون.

[حب الصحابة]

[ثناء الله تعالى عليهم]

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقال الله سبحانه وتعالى:

---

(١) اسم كتاب للحافظ ابن حجر.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[1] إلى آخر السورة.

٢٨٥/ب لما أخبر سبحانه وتعالى/ أن سيدنا محمداً ﷺ رسوله حقاً من غير شك ولا ريب، قال: محمد رسول الله، وهذا مبتدأ وخبر. وقال البيضاوي وغيره: جملة مبينة للمشهود به، يعني قوله تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾** إلى قوله: **﴿وكفى بالله شهيداً﴾**[2]، قال: ويجوز أن يكون «رسول الله» صفة، و«محمد» خبر مبتدأ محذوف انتهى.

وهذه الآية مشتملة على كل وصف جميل.

ثم ثنَّى بالثناء على أصحابه فقال: **﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾**، كما قال تعالى: **﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾**[3] فوصفهم بالشدة والغلظة على الكفار، والرحمة والبر بالأخيار.

ثم أثنى عليهم بكثرة الأعمال مع الإخلاص التام[4]، فمن نظر إليهم أعجبه سمتهم وهديهم، لخلوص نياتهم، وحسن أعمالهم.

قال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا»، وصدقوا، فإن هذه الأمة المحمدية، خصوصاً الصحابة، لم يزل ذكرهم

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٨.

(٣) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٤) أي بقوله تعالى في سورة الفتح، الآية ٢٩ **﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً..﴾**.

معظماً في الكتب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه**﴾ أي أفراخه ﴿**فآزره**﴾ أي شده وقواه ﴿**فاستغلظ**﴾ شب فطال ﴿**فاستوى على سوقه يعجب الزراع**﴾ قوته وغلظه وحسن منظره. فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطأ مع الزرع ﴿**ليغيظ بهم الكفار**﴾[1].

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله - في رواية عنه - تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء.

والأحاديث في فضائل الصحابة كثيرة، ويكفي ثناء الله عليهم ورضاه عنهم، وقد وعدهم الله مغفرة وأجراً عظيماً، ووعد الله حق وصدق لا يخلف، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم.

و«من» في قوله «منهم» لبيان الجنس[2].

[تعريف الصحابي]

واختلف في تعريف الصحابي:

فقيل: من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين. وإليه ذهب البخاري، وسبقه إليه شيخه ابن المديني[3]، وعبارته - كما قال

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٢) أي في قوله تعالى آخر سورة الفتح ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ [م].

(٣) علي بن عبد البر بن جعفر المديني البصري، ثقة ثبت إمام، أعلم أهل البصرة بالحديث وعلله حتى قال البخاري ما استصغرت نفسي إلا عند علي ابن المديني، مات سنة أربع وثلاثين ومائتين.

شيخنا ـ[1]: من صحب النبي ﷺ أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحابه. انتهى. وهذا هو الراجح.

والتقييد بـ«الإسلام» يخرج من صحبه أو رآه من الكفار، ولو اتفق إسلامه بعد موته.

لكن يرد على التعريف: من صحبه أو رآه مؤمناً به ثم ارتد بعد ذلك، ولم يعد إلى الإسلام، كعبيدالله بن جحش[2]، فإنه ليس بصحابي اتفاقاً، وكذلك ابن خطل[3]، وربيعة بن أمية بن خلف الجمحي، وهو ممن أسلم في الفتح وشهد حجة الوداع وحدث عن النبي ﷺ بعد موته، ثم لحقه الخذلان ـ والعياذ بالله ـ في خلافة عمر فلحق بالروم وتنصر بسبب شيء أغضبه[4]. وقد أخرج له الإمام أحمد في مسنده[5]، وإخراجه له مشكل ولعله لم يقف على قصة ارتداده، فينبغي أن يزاد في التعريف: ومات على ذلك.

---

(١) أي السخاوي.

(٢) كان أسلم وهاجر إلى الحبشة، ولكنه تنصر فيها ومات على نصرانيته.

(٣) أسلم وتسمى عبدالله وكان اسمه عبد العزى بن خطل، وبعثه النبي ﷺ على الصدقة فقتل مولى كان معه يخدمه وارتد واتخذ قينتين تغنيان بهجاء النبي ﷺ، فقتل متعلقاً بأستار الكعبة يوم الفتح [م].

(٤) قال في الإصابة: شرب ربيعة الخمر في زمن عمر فهرب منه إلى الشام ثم هرب إلى قيصر فتنصر ومات عنده، ولعبد الرزاق والنسائي: أن عمر غرب ربيعة بن أمية في الخمر إلى خيبر فلحق بهرقل فتنصر، فقال عمر: لا أغرب بعده أحداً أبداً.

(٥) وهو قوله: أمرني رسول الله ﷺ أن أقف تحت صدر راحلته، وهو واقف بالموقف بعرفة، وكان رجلاً صيتاً، فقال: يا ربيعة قل يا أيها الناس إن رسول الله يقول لكم: تدرون أي بلد هذا؟ الحديث، رواه ابن إسحاق وأحمد وغيرهما.

فلو ارتد ثم عاد إلى الإسلام، لكنه لم ير النبي ﷺ ثانياً بعد عوده، فالصحيح أنه معدود في الصحابة، لإطباق المحدثين على عد الأشعث بن قيس ونحوه ممن وقع له ذلك، وإخراجهم أحاديثهم في المسانيد.

لكن قال الحافظ زين الدين العراقي: إن في ذلك نظراً كبيراً، فإن الردة محبطة للعمل عند أبي حنيفة، ونص عليه الشافعي في الأم، وإن كان الرافعي قد حكى عنه أنها إنما تحبط بشرط اتصالها بالموت، وحينئذ فالظاهر أنها محبطة للصحبة المتقدمة، أما من رجع إلى الإسلام في حياته ﷺ كعبدالله بن أبي سرح فلا مانع من دخوله في الصحبة بدخوله الثاني في الإسلام.

وهل يشترط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه، أو يكتفي بمجرد حصول الرؤية؟ قال الحافظ ابن حجر: محل نظر، وعمل من صنف في الصحابة يدل على الثاني، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر الصديق، وإنما ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام، كما ثبت أن أمه أسماء بنت عميس ولدته في حجة الوداع قبل أن/ تدخل مكة، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة عشر من الهجرة. ١/٢٨٦

ومنهم من بالغ، فكان لا يعد في الصحابة إلا من صحب الصحبة العرفية. وروي عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد في الصحابة إلا من أقام مع النبي ﷺ سنة فصاعداً، أو غزا معه غزوة فصاعداً. والعمل على خلاف هذا القول.

ومنهم من اشترط في ذلك أن يكون حين اجتماعه به بالغاً، وهو مردود أيضاً، لأنه يخرج مثل الحسن بن علي ونحوه من أحداث الصحابة.

وأما التقييد بالرؤية فالمراد به عند عدم المانع منها، فإن كان كابن أم مكتوم الأعمى فهو صحابي جزماً، فالأحسن أن يعبر بـ«اللقاء» بدل الرؤية ليدخل فيه ابن أم مكتوم ونحوه.

قال الحافظ زين الدين العراقي: قولهم «من رأى النبي ﷺ» هل المراد رآه في حال نبوته، أو أعم من ذلك، حتى يدخل من رآه قبل النبوة ومات قبل النبوة على دين الحنيفية كزيد بن عمرو بن نفيل، فقد قال النبي ﷺ أنه يبعث أمة وحده[1]، وقد ذكره في الصحابة أبو عبدالله بن منده، وكذلك لو رآه قبل النبوة ثم غاب عنه وعاش إلى بعد زمن البعثة، وأسلم ثم مات ولم يره، ولم أرَ من تعرض لذلك، ويدل على أن المراد: رآه بعد نبوته، أنهم ترجموا في الصحابة لمن ولد للنبي ﷺ كابراهيم وعبدالله، ولم يترجموا لمن ولد قبل النبوة ومات قبلها كالقاسم، انتهى.

وهل يختص جميع ذلك ببني آدم، أم يعم غيرهم من العقلاء؟ محل نظر. أما الجن، فالراجح دخولهم لأن النبي ﷺ بعث إليهم قطعاً، وهم مكلفون، فيهم العصاة والطائعون، فمن عرف اسمه منهم لا ينبغي التردد في ذكره في الصحابة، وإن كان ابن الأثير عاب على أبي موسى فلم يستند في ذلك إلى حجة[2]، وأما الملائكة فيتوقف عدهم في ذلك على ثبوت البعثة إليهم، فإن فيه خلافاً بين الأصوليين، حتى نقل بعضهم الإجماع على ثبوته، وعكس بعضهم.

---

(١) أخرجه الطيالسي، والبزار بلفظ قريب.

(٢) عاب الحافظ ابن الأثير في أسد الغابة على أبي موسى المديني ذلك، وليس بمعيب، قال ابن حزم: قد علمنا الله أن نفراً من الجن آمنوا وسمعوا القرآن منه ﷺ فهم صحابة فضلاء.

وهذا كله فيمن رآه في قيد الحياة الدنيوية، أما من رآه بعد موته وقبل دفنه[1] فالراجح أنه ليس صحابياً، وإلا لعد من اتفق أنه رأى جسده المكرم وهو في قبره المعظم، ولو في هذه الأعصار، وكذلك من كشف له من الأولياء عنه ﷺ فرآه كذلك على طريق الكرامة كما قدمت مباحثه في خصوصياته ﷺ من المقصد الرابع، إذ حجة من أثبت الصحبة لمن رآه قبل دفنه أنه مستمر الحياة، وهذه الحياة ليست دنيوية، وإنما هي أخروية لا تتعلق بها أحكام الدنيا، وأما من رآه في المنام، وإن كان قد رآه حقاً فذلك فيما يرجع إلى الأمور المعنوية، لا الأحكام الدنيوية، فلذلك لا يعد صحابياً، ولا يجب عليه أن يعمل بما أمره به في تلك الحالة[2].

[الصحابة خير الخلق]

وقد أجمع جمهور العلماء من السلف والخلف على أنهم خير خلق الله، وأفضلهم بعد النبيين وخواص الملائكة المقربين، لما روى البخاري من حديث عبدالله أن النبي ﷺ قال: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) وله من حديث عمران بن حصين (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً.

قال في فتح الباري: والقرن أهل زمان واحد متقارب، اشتركوا

(١) كما وقع ذلك لأبي ذويب الهذلي الشاعر ـ إن صح ـ كما قال في الإصابة.

(٢) لأن النائم لا يضبط ما يقال له، فلو رآه يقظة وأمره بشيء وجب عليه العمل به لنفسه، ولا يعد صحابياً، وينبغي أن يجب على من صدقه العمل به، قاله شيخنا.

في أمر من الأمور المقصودة، ويطلق على مدة من الزمان، واختلفوا في تحديدها، من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين، لكن لم أر من صرح بالتسعين ولا بمائة وعشرة، وما عدا ذلك فقد قال به قائل، وقال صاحب المحكم: هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن، وهذا أعدل الأقوال.

والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث الصحابة، وتقدم في أول المقصد الأول حديث (بعثت من خير قرون بني آدم)[1] وفي رواية بريدة عند أحمد/ (خير هذه الأمة القرن الذي بعثت فيهم) ٢٨٦/ب

[آخر من مات من الصحابة]

وقد ضبط الأئمة من الحفاظ آخر من مات من الصحابة على الإطلاق بلا خلاف أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي، كما جزم به مسلم، وكان موته سنة مائة على الصحيح، وقيل سنة سبع ومائة، وقيل سنة عشر ومائة، وهو الذي صححه الذهبي، وهو مطابق لقوله ﷺ - قبل وفاته بشهر -: (على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد)[2]، وفي رواية مسلم (أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنه ليس من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة).

وأما ما ذكر أن عكراش بن ذؤيب عاش بعد يوم الجمل مائة سنة فذلك غير صحيح، وإن صح فمعناه أنه استكمل المائة بعد الجمل، لا أنه بقي بعدها مائة سنة، كما نص عليه الأئمة، وأما ما

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

ذكر أيضاً من أمر «بابارتن»[1] ونحوه فإن ذلك لا يروج على من له أدنى مسكة من العقل، كما قاله الأئمة.

وأما آخر الصحابة موتاً بالإضافة إلى النواحي فقد أفردهم ابن منده.

[فضيلتهم فضيلة مجموع أم أفراد؟]

وأما قوله: (ثم الذين يلونهم) فهم أهل القرن الذين بعدهم، وهم التابعون، ثم الذين يلونهم وهم أتباع التابعين. واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين. لكن هل هذه الفضيلة بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟

والذي ذهب إليه ابن عبد البر هو الأول، كما قدمت ذلك في خصائص هذه الأمة من المقصد الرابع، واحتج لذلك ـ سوى ما تقدم ـ بحديث (مثل أمتي مثل المطر، لا يدري آخره خير أم أوله) قال الحافظ ابن حجر: وهو حديث حسن، له طرق[2] وقد يرتقي بها إلى درجة الصحة.

وقد روى ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن

---

(١) قال الذهبي في تجريده: رتن الهندي، شيخ ظهر بعد الستمائة بالمشرق وادعى الصحبة، فسمع منه الجهال، أو لا وجود له، بل اختلق اسمه بعض الكذابين، وإنما ذكرته تعجباً، وقال في الميزان: رتن وما أدراك ما رتن شيخ دجال بلا ريب ظهر بعد الستمائة.

(٢) فأخرجه أحمد من حديث عمار، وصححه ابن حبان، وأحمد والترمذي عن أنس، وأبو يعلى عن علي، والطبراني عن ابن عمر.

نفير ـ أحد التابعين ـ بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ: ليدركن المسيح أقواماً إنهم لمثلكم أو خير، ثلاثاً، ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها.

وروى أبو داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة ـ رفعه ـ: (تأتي أيام للعامل فيها أجر خمسين، قيل: منهم أو منا يا رسول الله؟ قال: بل منكم) وهو شاهد لحديث (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) لكن حديث (للعامل منهم أجر خمسين منكم) لا يدل على أفضلية غير الصحابة، لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضاً: الأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل.

[فضيلة مشاهدته ﷺ]

فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من فضيلة المشاهدة، فلا يعدله فيها أحد، ولا ريب أن من قاتل معه أو في زمانه بأمره، أو أنفق شيئاً من ماله بسببه، لا يعدله أحد في الفضل بعده كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا**﴾[1]، وكذلك من ضبط الشرع المتلقى عنه وبلغه لمن بعده.

فمحصل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة، وقد ظهر أنه فاز بما لم يفز به من لم يحصل له ذلك. وبهذا يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة.

(١) سورة الحديد، الآية ١٠.

[طبقات الصحابة]

ثم إن الصحابة على ثلاثة أصناف: الأول: المهاجرون، الثاني: الأنصار وهم الأوس والخزرج وحلفاؤهم ومواليهم، الثالث: من أسلم يوم الفتح.

قال ابن الأثير في «الجامع»: والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهذا على سبيل الإجمال، وأما على سبيل التفصيل، فإن جماعة من سباق الأنصار أفضل من جماعة من متأخري المهاجرين، وإنما سباق المهاجرين أفضل من سباق الأنصار، ثم هم بعد ذلك متفاوتون، فرب متأخر في الإسلام أفضل من متقدم عليه، مثل عمر بن الخطاب وبلال ابن رباح.

وقد ذكر العلماء للصحابة ترتيباً على طبقات، وممن قسمهم كذلك الحاكم في «علوم الحديث»:

الطبقة الأولى: قوم أسلموا بمكة أول البعث، وهم سباق المسلمين، مثل: خديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وزيد بن حارثة، وبقية العشرة، وقد تقدم الخلاف في أول من أسلم في المقصد الأول.

الطبقة الثانية: أصحاب دار الندوة، بعد إسلام عمر بن الخطاب حمل النبيَّ ﷺ ومن معه من المسلمين إلى دار/ الندوة، فأسلم لذلك جماعة من أهل مكة. ١/٢٨٧

الطبقة الثالثة: الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى المشركين أهل مكة، منهم: جعفر بن أبي طالب، وأبو سلمة بن عبد الأسد.

الطبقة الرابعة: أصحاب العقبة الأولى، وهم سباق الأنصار إلى الإسلام، وكانوا ستة، وأصحاب العقبة الثانية من العام المقبل، وكانوا اثني عشر، وقد قدمت أسماء أهل العقبتين في المقصد الأول.

الطبقة الخامسة: أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين من الأنصار، منهم: البراء بن معرور، وعبدالله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وعبدالله بن رواحة.

الطبقة السادسة: المهاجرون الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بعد هجرته وهو بقباء قبل أن يبني المسجد وينتقل إلى المدينة.

الطبقة السابعة: أهل بدر الكبرى. قال ﷺ لعمر في قصة حاطب بن أبي بلتعة: (وما يدريك، لعل الله اطلع على هذه العصابة من أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) رواه مسلم.

الطبقة الثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

الطبقة التاسعة: أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا بالحديبية تحت الشجرة، قال ﷺ: (لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد) رواه مسلم.

الطبقة العاشرة: الذين هاجروا بعد الحديبية وقبل الفتح، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومثل بعضهم بأبي هريرة لكن قال الحافظ العراقي، لا يصح التمثيل به، فإنه هاجر قبل الحديبية، عقيب خيبر بل في أواخرها [زمن النبي ﷺ][1].

الطبقة الحادية عشر: الذين أسلموا يوم الفتح، وهم خلق

---

(١) زيادة في (ط، ب)، ولا معنى لها.

كثير، فمنهم من أسلم طائعاً، ومنهم من أسلم كارهاً ثم حسن إسلام بعضهم، والله أعلم بهم.

الطبقة الثانية عشر: صبيان أدركوا النبي ﷺ ورأوه عام الفتح وبعده في حجة الوداع وغيرهما، كالسائب بن يزيد.

ثم انقطعت الهجرة بعد الفتح على الصحيح من الأقوال.

[عدد الصحابة]

وأما عدة أصحابه ﷺ، فمن رام حصر ذلك رام أمراً بعيداً، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى، لكثرة من أسلم من أول البعثة إلى أن مات النبي ﷺ، وتفرقهم في البلدان والبوادي. وقد روى البخاري أن كعب بن مالك قال في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: وأصحاب رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يعني الديوان، لكن قد جاء ضبطهم في بعض مشاهده كتبوك.

وقد روي أنه سار عام الفتح في عشرة آلاف من المقاتلة، وإلى حنين في اثني عشر ألفاً، وإلى حجة الوداع في تسعين ألفاً، وإلى تبوك في سبعين ألفاً، وقد روي أنه قبض عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

[أفضل الصحابة]

ثم إن أفضلهم على الإطلاق عند أهل السنة إجماعاً أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما. عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمان

رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان بن عفان. رواه البخاري[1].

وفي رواية عبيدالله بن عمر عن نافع: كنا في زمان النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ فلا نفاضل بينهم. رواه البخاري أيضاً.

وقوله: «لا نعدل بأبي بكر أحداً» أي لا نجعل له مثيلاً.

ولأبي داود من طريق سالم عن ابن عمر: كنا نقول ـ ورسول الله ﷺ حي ـ: أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان. زاد الطبراني في رواية: فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا ينكره.

وروى خيثمة بن سليمان في «فضائل الصحابة» من طريق سهيل ابن أبي صالح عن أبيه عن ابن عمر: كنا نقول: إذا ذهب أبو بكر وعمر وعثمان استوى الناس، فيسمع النبي ﷺ ذلك فلا ينكره.

وفي ذلك تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر.

[عثمان وعلي]

وأهل السنة على أن علياً بعد عثمان.

وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان. وممن قال به سفيان الثوري.

---

(١) وفي صحيح البخاري عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان فقلت ثم أنت، قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

وقيل: لا يفضل أحدهما على الآخر، ونقل ذلك عن مالك في المدونة، وتبعه جماعة منهم يحيى بن القطان.

/وقال ابن معين: من قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعرف لعلي سابقته وفضله فهو صاحب سنة، ولا شك أن من اقتصر على عثمان ولم يعرف لعلي فضله فهو مذموم. ٢٨٧/ب

وقد ادعى ابن عبد البر أن حديث الاقتصار على الثلاثة: أبي بكر وعمر وعثمان خلاف قول أهل السنة أن علياً أفضل الناس بعد الثلاثة.

وتعقب: بأنه لا يلزم من سكوتهم إذ ذاك عن تفضيله عدم تفضيله، فالمقطوع به عند أهل السنة: القول بأفضلية أبي بكر ثم عمر ثم اختلفوا فيمن بعدهما، فالجمهور على تقديم عثمان، وعن مالك الوقف، والمسألة اجتهادية، ومستندها أن هؤلاء الأربعة اختارهم الله لخلافة نبيه، وإقامة دينه، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة.

[فضيلة تتمة العشرة]

وقال الإمام أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة تمام العشرة، يعني: طلحة والزبير وسعداً وسعيداً وعبد الرحمن بن عوف وأبا عبيدة عامر بن الجراح.

وقد روى الترمذي عن سعيد بن زيد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (عشرة في الجنة، أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص) فعد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر،

فقال له القوم ننشدك الله، من العاشر؟ فقال: نشدتموني بالله، سعيد ابن زيد في الجنة، يعني نفسه[١].

[حديث بئر أريس]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنه خرج إلى المسجد، فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: وجه هاهنا، فخرجت في أثره حتى دخل بئر أريس[٢]، فجلست عند الباب، وبابها من جريد، حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته، فتوضأ فقمت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها[٣]، فجلست عند الباب فقلت: لأكونن بواباً للنبي ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر، فدفع الباب فقلت من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت على رسلك ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل، ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف ودلى رجليه في البئر كما صنع رسول الله ﷺ وكشف عن ساقيه، ثم رجعت فجلست، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني[٤]، فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً ـ يريد أخاه ـ يأت به، فإذا بإنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ قال: عمر بن الخطاب، فقلت على رسلك، ثم جئت إلى النبي ﷺ فقلت: هذا عمر بن الخطاب يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فقلت: ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فجلس مع رسول الله ﷺ في

(١) قال الشارح: هذا الحديث صحيح له طرق كثيرة.

(٢) بستان بالمدينة معروف بالقرب من قباء.

(٣) الدكة التي تجعل حول البئر/ أو حافة البئر.

(٤) قال الحافظ: كان له أخوان، أبو رهم وأبو بردة.

القف عن يساره ودلى رجليه في البئر، فرجعت وقلت: إن يرد الله بفلان خيراً يأت به، فجاء إنسان فحرك الباب، فقلت من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت على رسلك، وجئت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فجئت فقلت: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة على بلوى تصيبك، فدخل فوجد القف قد ملئ، فجلس وجاهه من الصف الآخر.

قال شريك: قال سعيد بن المسيب: فأولتها قبورهم.

رواه أحمد ومسلم وأبو حاتم وأخرجه البخاري[1].

وأخرج أبو داود نحوه عن أبي سلمة عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط المدينة، فقال لبلال: أمسك علي الباب، فجاء أبو بكر فاستأذن.. فذكر نحوه. قال الطبراني: وفي حديث أن نافع بن الحارث هو الذي كان يستأذن.

وهذا يدل على تكرر القصة، لكن صوب الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر عدم التعدد، وأنها عن أبي موسى، ووَهَّم/ القول بغيره[2]. وأنشد لنفسه:

1/288

لقد بشر الهادي من الصحب زمرة	بجنات عدن كلهم فضله اشتهر
سعيد زبير سعد طلحة عامر	أبو بكر عثمان بن عوف علي عمر

ولأبي الوليد بن الشحة:

(1) رواه البخاري برقم ٣٦٧٤.
(2) فتح الباري ٧/ ٣٧.

أسـماء عشر رسـول الله بشرهـم بـجنــة الخلد عـمـن زانها وعـمـر
سعـد سعيـد عـلي عثـمان طلحــة بـو بكر ابن عوف ابن جـراح الزبـير عمر

[الأفضلية والمحبة]

فإن قلت: من اعتقد في الخلفاء الأربعة الأفضلية على الترتيب المعلوم، ولكن محبته لبعضهم تكون أكثر، هل يكون آثماً به أم لا؟

فأجاب شيخ الإسلام الولي بن العراقي: أن المحبة قد تكون لأمر ديني، وقد تكون لأمر دنيوي، فالمحبة الدينية لازمة للأفضلية، فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر، فمتى اعتقدنا في واحد منهم أنه أفضل ثم أحببنا غيره من جهة الدين أكثر كان تناقضاً، نعم إن أحببنا غير الأفضـل أكثر من محبـة الأفضل لأمـر دنيوي كقـرابة وإحسان فلا تناقض في ذلك ولا امتناع، فمن اعترف بأن أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، لكنه أحب علياً أكثر من أبي بكر مثلاً، فإن كانت المحبة المذكورة محبة دينية فلا معنى لذلك، إذ المحبة الدينية لازمة للأفضلية كما قررناه، وهذا لم يعترف بأفضلية أبي بكر إلا بلسانه، وأما بقلبه فهو مفضل لعلي لكونه أحبه محبة دينية زائدة على محبة أبي بكر، وهذا لا يجوز، وإن كانت المحبة المذكورة محبة دنيوية لكونه من ذرية علي أو لغير ذلك من المعاني فلا امتناع والله أعلم. انتهى.

[حب الصحابة وعلاماته]

وقد روى الطبري في «الرياض» وعزاه للملاء في «سيرته» عن أنس مرفوعاً، إن الله افترض عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي

كما افترض الصلاة والزكاة والصوم والحج، فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج.

وأخرج الحافظ السلفي في «مشيخته» من حديث أنس مرفوعاً: حب أبي بكر واجب على أمتي.

وأخرج الأنصاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا بكر، ليت أني لقيت إخواني فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن إخوانك، قال: لا، أنتم أصحابي، إخواني الذين لم يروني، وصدقوا بي وأحبوني[1]، حتى إني لأحب إلى أحدهم من ولده ووالده، قالوا: يا رسول الله، أما نحن إخوانك؟ قال: لا، بل أنتم أصحابي، ألا تحب يا أبا بكر قوماً أحبوك بحبي إياك؟ قال: فأحبهم ما أحبوك بحبي إياك.

فمحبة من أحبه الرسول ﷺ كآل بيته وأصحابه رضي الله عنهم علامة على محبة رسول الله ﷺ، كما أن محبته ﷺ علامة على محبة الله تعالى. وكذلك عداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم وسبهم. فمن أحب شيئاً أحب من يحب، وأبغض من يبغض، قال الله تعالى: ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله**﴾[2] فحب آله بيته ﷺ وأصحابه وأولاده وأزواجه من الواجبات المتعينات، وبغضهم من الموبقات المهلكات.

ومن محبتهم وجوب توقيرهم، وبرهم والقيام بحقوقهم، والاقتداء بهم بأن يمشي على سنتهم وآدابهم وأخلاقهم، والعمل بأقوالهم مما ليس للعقل فيه مجال، وحسن الثناء عليهم بأن يذكروا

---

(١) في ط: وأجلوني.

(٢) سورة المجادلة، الآية ٢٢

بأوصافهم الجميلة على قصد التعظيم. فقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه المجيد، ومن أثنى الله عليه فهو واجب الثناء، والاستغفار لهم، قالت عائشة: (أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبوهم) رواه مسلم. وفائدة المستغفر لهم عائدة عليه.

قال سهل بن عبدالله التستري: لم يؤمن بالرسول ﷺ من لم يوقر أصحابه ولم يعزَّ أوامره.

ومما يجب أيضاً: الإمساك عما شجر بينهم، أي وقع بينهم من الاختلاف،/ والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة، وضلال الشيعة والمبتدعين، القادحة في أحد منهم، قال ﷺ إذا ذكر أصحابي فأمسكوا[1]، وأن يلتمس لهم مما نقل من ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج، إذ هم أهل ذلك كما هو في مناقبهم، ومعدود من مآثرهم، مما يطول إيراد بعضه.

٢٨/ب

وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات فله محامل وتأويلات، فسبهم والطعن فيهم إذا كان مما يخالف الأدلة القطعية كفر، كقذف عائشة رضي الله عنها، وإلا فبدعة وفسق. قال ﷺ: أيها الناس احفظوني في أختاني وأصهاري وأصحابي، لا يطالبنكم الله بمظلمة أحد منهم، فإنها ليست مما يوهب[2]. رواه الخِلَعي[3].

(١) رواه الطبراني، وسنده ضعيف كما قال العراقي، وقال ابن رجب: روي من وجوه في أسانيدها كلها مقال.

(٢) هذا بعض ما أخرجه الطبراني وابن منده وأورده في الشفاء عن خالد بن سعيد بن العاصي.

(٣) الخلعي: أبو الحسن علي بن الحسن. كان فقيهاً شافعياً صالحاً، له تصانيف. مات بمصر في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة.

وقال ﷺ: الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، من أحبهم فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه الله[1]. رواه المخلص الذهبي[2].

وهذا الحديث - كما قال بعضهم - خرج مخرج الوصية بأصحابه على طريق التأكيد والترغيب في حبهم، والترهيب عن بعضهم. وفيه إشارة إلى أن حبهم من الإيمان، وبغضهم كفر، لأنه إذا كان بغضهم بغضاً له كان كفراً بلا نزاع، للحديث السابق (لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه).

وهذا يدل على كمال قربهم منه بتنزيلهم منزلة نفسه، حتى كأن أذاهم واقع عليه وواصل إليه ﷺ.

و«الغرض»: الهدف الذي يرمى فيه.

فهو نهي عن رميهم مؤكداً ذلك بتحذيرهم الله منه، وما ذاك إلا لشدة الحرمة.

وروي مرفوعاً: من سب أحداً من أصحابي فاجلدوه. خرجه تمام في فوائده[3].

---

(١) رواه الترمذي من حديث عبدالله بن مغفل وفيه عبد الرحمن بن زياد ضعيف في الحفظ وفي الميزان: في الحديث اضطراب.

(٢) أبو طاهر محمد بن عبد الرحن الذهبي.

(٣) وأخرجه الطبراني في الثلاثة عن علي مرفوعاً: من سب الأنبياء قتل، ومن سب أصحابي جلد. قال في اللسان: رواته كلهم ثقات إلا عبيدالله بن محمد العمري شيخ الطبراني فله مناكير، منها هذا الحديث.

وقال مالك بن أنس وغيره - فيما ذكره القاضي عياض -: من أبغض الصحابة فليس له في فيء المسلمين حق. قال[1]: ونزع[2] بآية الحشر ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ الآية[3]. [وقال: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾[4] والله أعلم][5].

(١) أي عياض.

(٢) أي استدل مالك.

(٣) سورة الحشر، الآية ١٠.

(٤) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٥) زيادة في النسخ لم ترد في الأصل، وقد جاءت الإشارة إليها في حاشية الشرح أيضاً.

المقصد الثامن

في طبه ﷺ لذوي الأمراض والعاهات
وتعبيره الرؤيا وإنبائه بالأنباء المغيبات

[تمهيد]

اعلم أنه لا سبيل لأحد إلى الإحاطة بنقطة من بحار معارفه، أو قطرة مما أفاضه الله تعالى عليه من سحائب عوارفه، وأنت إذا تأملت ما منحه الله تعالى به من جوامع الكلم، وخصه[1] به من بدائع الحكم، وحسن سيره، وحكم حديثه، وإنبائه بأنباء القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى مع الخضر، ويوسف مع إخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، وأشباه ذلك، وبدء الخلق، وأخبار الدار الآخرة، وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وإظهار أحوال الأنبياء وأممهم، وأسرار علومهم ومستودعات سيرهم، وإعلامهم بمكتوم شرائعهم، ومضمنات كتبهم وغير ذلك مما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك فضلاً عما أفاضه من العلم ومحاسن الآداب والشيم، والمواعظ والحكم، والتنبيه على طرق الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم ببراهين الأدلة الواضحات، [والإشارة][2] إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة، وإشاراته حجة، كاللغة والمعاني والبيان والعربية، وقوانين الأحكام الشرعية، والسياسات العقلية، ومعارف عوارف الحقائق القلبية، إلى غير ذلك من ضروب العلوم، وفنون المعارف الشاملة

---

(١) في الأصل: وخصَّ.

(٢) زيادة في ط.

لمصالح أمته، كالطب والعبارة[1] والحساب وغير ذلك مما لا يعد ولا يحد... قضيتَ[2] بأن مجال هذا الباب في حقه ﷺ ممتد، تنقطع دون نفاده الأدلاء،[3] وأن بحر علمه ومعارفه زاخر لا تكدره الدلاء.

وهذا المقصد ـ أعزك الله ـ يشتمل على ثلاثة فصول:

---

(١) مصدر عبر الرؤيا.

(٢) جواب قوله أولاً: وأنت إذا تأملت..

(٣) جمع دليل.

الفصل الأول

في طبه ﷺ لذوي الأمراض والعاهات

[عيادة المريض]

اعلم أنه قد ثبت أنه ﷺ كان يعود من مرض من أصحابه، حتى لقد عاد غلاماً كان يخدمه من أهل الكتاب، وعاد عمه وهو مشرك، وعرض عليهما الإسلام، فأسلم الأول وكان يهودياً، كما روى البخاري وأبو داود من حديث أنس: أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي ﷺ / فمرض فعاده ﷺ فقعد عند رأسه، فقال: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال: أطع أبا القاسم فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار. ١/٢٨٩

وكان ﷺ يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأل عن حاله ويقول: كيف تجدك؟

وفي حديث جابر عند البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود، قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجداني أغمي علي، فتوضأ النبي ﷺ ثم صب وضوءه علي فأفقت، فإذا النبي ﷺ ، وعند أبي داود: فنضح في وجهي فأفقت. وفيه: أنه ﷺ قال: يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا.

وفي حديث أبي موسى عند البخاري مرفوعاً: (أطعموا الجائع، وعودوا المريض[1]، وفكوا العاني)[2].

وعنده من رواية البراء: أمرنا ﷺ بسبع، وذكر منها عيادة المريض.

وعند مسلم: خمس تجب للمسلم على المسلم، فذكرها منها.

[حكم عيادة المريض]

قال ابن بطال: يحتمل أن يكون الأمر على الوجوب، يعني الكفاية، كإطعام الجائع وفك الأسير، ويحتمل أن يكون للندب على التواصل والألفة.

وعند الطبري: يتأكد في حق من ترجى بركته، ويسن فيمن يراعى حاله[3]، ويباح فيما عدا ذلك.

وهو فرض كفاية عند أبي حنيفة[4]، كما قاله أبو الليث[5] [السمرقندي][6] في «مقدمته».

---

(١) كذا في الأصل، وكذلك في البخاري (٣٠٤٦، ٥٦٤٩) وفي النسخ: المرضى.
(٢) العاني: الأسير.
(٣) أي يتعهد المريض فيما يحتاج إليه كشراء دواء..
(٤) في (أ، ش): عند الحنفية.
(٥) أبو الليث: أحمد بن عمر بن محمد النسفي الفقيه الواعظ، مات سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.
(٦) زيادة في (ط، ب، د).

واستدل بعموم قوله: «عودوا المريض» على مشروعية العيادة في كل مرض، واستثنى بعضهم: الأرمد، وردَّ: بأنه قد جاء في عيادة الأرمد بخصوصها حديث زيد بن الأرقم، قال: عادني رسول الله ﷺ من وجع كان بعيني، رواه أبو داود وصححه الحاكم.

وأما ما أخرجه البيهقي والطبراني مرفوعاً: ثلاثة ليس لهم عيادة، الرمد والدمل والضرس، فصحح البيهقي أنه موقوف على يحيى بن أبي كثير.

ويؤخذ من إطلاقه عدم التقييد بزمان يمضي من ابتداء مرضه. وهو قول الجمهور، وجزم الغزالي في «الإحياء»: بأنه لا يعاد إلا بعد ليال ثلاث، واستند إلى حديث أخرجه ابن ماجه عن أنس: كان ﷺ لا يعود مريضاً إلا بعد ثلاثة. وهذا حديث ضعيف تفرد به مسلمة بن علي، وهو متروك، وقال أبو حاتم هو حديث باطل.

[فضل عيادة المريض]

ولا نطيل بإيراد ما ورد في فضل العيادة، ويكفي حديث أبي هريرة، مما حسنه الترمذي مرفوعاً: من عاد مريضاً ناداه مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً، وهذا لفظ ابن ماجه.

وفي سنن أبي داود عن أنس مرفوعاً: من توضأ فأحسن الوضوء، وعاد أخاه المسلم محتسباً، بُوعِدَ من جهنم مسيرة سبعين خريفاً.

وفي حديث أبي سعيد عند ابن حبان في صحيحه مرفوعاً: خمس

من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: من عاد مريضاً، وشهد جنازة وصام يوماً، وراح إلى الجمعة وأعتق رقبة.

وعند أحمد، عن كعب مرفوعاً: من عاد مريضاً، خاض في الرحمة، فإذا جلس عنده استنقع فيها. زاد الطبراني: وإذا قام من عنده فلا يزال يخوض فيها حتى يرجع من حيث خرج.

[العيادة في كل وقت]

ولم يكن ﷺ يخص يوما من الأيام بعيادة المريض، ولا وقتاً من الأوقات، فترك العيادة يوم السبت مخالف للسنة، ابتدعه يهودي طبيب لملك قد مرض وألزمه بملازمته، فأراد يوم الجمعة أن يمضي لسبته فمنعه، فخاف على استحلال سبته، ومن سفك دمه، فقال: إن المريض لا يدخل عليه يوم السبت، فتركه الملك، ثم أشيع ذلك، وصار كثير من الناس يعتمده.

ومن الغريب ما نقله ابن الصلاح عن الفراوي: أن العيادة تستحب في الشتاء ليلاً، وفي الصيف نهاراً، ولعل الحكمة في ذلك أن المريض يتضرر بطول الليل/ في الشتاء، وبطول النهار في الصيف، فتحصل له بالعيادة استراحة. ٢٨/ب

[التطبب عند أهل الذمة]

وينبغي اجتناب التطبب بأعداء الدين، من يهودي أو نحوه، فإنه مقطوع بغشه سيما إن كان المريض كبيراً في دينه أو علمه، خصوصاً إن كان هذا العدو يهودياً، لأن قاعدة دينهم: أن من نصح منهم مسلماً فقد خرج عن دينه، وأن من استحل السبت فهو مهدر

الدم عندهم، حلال لهم سفك دمه، ولا ريب أن من خاطر بنفسه يخشى عليه أن يدخل في عموم النهي فيمن قتل نفسه بشيء.

وقد كثر الضرر في هذا الزمن بأهل الذمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله تعالى يرحم القائل:

لعن النصارى واليهود فإنهم بلغوا بمكرهم بنا الآمالا
خرجوا أطباء وحساباً لكي يتقسموا الأرواح والأموالا

[الطب النفسي]

ومما كان يفعله ﷺ ويأمر به تطييب نفوس المرضى وتقوية قلوبهم، ففي حديث أبي سعيد الخدري، قال ﷺ: (إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في أجله[1]، فإن ذلك يطيب نفسه)[2]، مثل أن يقول له: لا بأس عليك، طهور إن شاء الله، ووجهك الآن أحسن، وما أشبه ذلك.

وقد يكون من هذا أن يذكر له الأجور الداخلة عليه في مرضه، وأن المرض كفارة، فربما أصلح ذلك قلبه، وأمن من خوف ذلك[3] ونحوه.

وقال بعضهم[4]: في هذا الحديث نوع شريف جداً من أنواع

---

(١) أي وسعوا له وأطمعوه في طول الحياة.
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد ضعيف بلفظ: فإن ذلك لا يرد شيئاً وهو يطيب نفس المريض.
(٣) في (ط، ش): زلل.
(٤) هو ابن القيم.

العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة، وتنتعش به القوة، وينبعث به الحار الغريزي، ويساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب. وفي تفريج نفس المريض، وتطييب قلبه، وإدخال السرور عليه تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها، فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي. وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعش قواهم بعيادة من يحبونه ويعظمونه، ورؤيتهم له، ولطفهم بهم، ومكالمتهم إياهم.

[كيفية عيادة المريض]

قال في الهدي: وكان ﷺ يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجد، وعما يشتهيه، فإن اشتهى شيئاً وعلم أنه لا يضره أمر له به، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين ثدييه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته، وربما توضأ وصب على المريض من وضوئه، كما في حديث جابر المتقدم، وربما كان يقول للمريض: لا بأس عليك، طهور إن شاء الله، وربما كان يقول: كفارة وطهور.

وقالت عائشة: كان ﷺ إذا عاد مريضاً يضع يده على المكان الذي يألم ثم يقول: بسم الله. رواه أبو يعلى بسند حسن[١].

وأخرج الترمذي من حديث أبي أمامة ـ بسند لين ـ رفعه: تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته فيسأله كيف هو، وعند ابن السني بلفظ: كيف أصبحت أو كيف أمسيت؟

(١) في ش: صحيح.

[طب القلوب وطب الأجساد]

وإذا علمت هـذا، فاعلم أن المـرض نوعـان: مرض القلوب ومرض الأبدان.

فأما طب القلوب ومعالجتها فخاص بما جاء به الرسول الكريم ﷺ عن ربه تعالى، لا سبيل إلى حصوله إلا من جهته، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربهـا وفاطـرها وبـأسمائـه وصفاتـه وأفعالـه وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لرضاه ومحابه، متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة ألبتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقي ذلك إلا من جهة سيدنا محمد ﷺ.

وأما طب الأجساد، فمنه ما جاء في المنقول عنه ﷺ، ومنه ما جاء عن غيره، لأنه ﷺ إنما بعث هادياً وداعياً إلى الله وإلى جنته، ومعرفاً بالله، ومبيناً للأمة مواقع رضاه وآمراً لهم بها، ومواقع سخطه وناهياً لهم عنها، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحـوالهم مع أممهم، وأخبـار تخليق العالم، وأمـر المبـدأ والمعـاد، وكيفيـة شقـاوة النفـوس وسعادتها وأسباب ذلك.

١/٢٩٠ وأما طب/ الأجساد فجاء من تكميل شريعته، ومقصوداً لغيره، بحيث إنما يستعمل للحاجة إليه، فإذا قدر الاستغناء عنه كان صرف الهمم إلى علاج القلوب وحفظ صحتها، ودفع أسقامهـا وحميتها ممـا يفسدها هو المقصود بإصلاح الجسد، وإصلاح الجسد بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جداً، وهي مضرة زائلة، تعقبها المنفعة الدائمة التامة.

[ضرر الذنوب وآثارها]

وإذا علمت هذا، فاعلم أن ضرر الذنوب في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي، فللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، وللإمام الشافعي رضي الله عنه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يؤتاه عاصي

ومنها: حرمان الرزق، ففي المسند[1]: وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه، بينه وبين الله، لا يوازيها ولا يقاربها لذة.

ومنها: تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه، أو متعسراً عليه.

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها، كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في

---

(١) الظاهر أن المراد بالحديث المسند: أي: المرفوع، لقول مغلطاي: إذا كان الحديث في أحد الستة لا يجوز لحديثي نقله عن غيره. انتهى، وهذا الحديث أخرجه النسائي وابن ماجه وأحمد.. مرفوعاً (إن الدعاء يرد القضاء وإن البر يزيد في العمر...

البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، ثم تقوى هذه الظلمة حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فيه، يراها كل أحد.

ومنها: أنها توهن القلب والبدن.

ومنها: حرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق البركة، ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب، كما ينقص بأسباب[1]، وقيل: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، فليس عمر المرء إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعات تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها. وبالجملة: فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية.

ومنها: أن المعصية تورث الذل.

ومنها: أنها تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفئ نور العقل.

ومنها: أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾**[2] وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم

(١) باعتبار ما في صحف الملائكة، أما باعتبار علم الله فلا يزيد ولا ينقص.
(٢) سورة الشورى، الآية ٣٠.

ومن عقوباتها أنها تستجلب مواد[1] هلاك العبد في دنياه وآخرته، فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره فكذلك القلب، لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة يحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة [التي متى غلبت عليه أفسدته][2]، وحمية توجب له حفظ الصحة، وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة، والتقوى اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب المواد المؤذية، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح. فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض، وهو لا يستفرغها ولا يحتمي لها، كيف تكون صحته وبقاؤه، وقد أحسن/ القائل: ٢٩٠/ب

جسمك بالحمية حصنته مخافة من ألم طاري
وكان أولى بك أن تحتمي من المعاصي خشية النار

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلباً، ولا

---

(١) في (أ): مراد، قال الشارح: أي أسباب هلاكه، ومادة الشيء ما يكون الشيء حاصلاً معه بالقوة، فيتسبب حصوله منها.
(٢) زيادة في ط.

للشر مهرباً، وفي حديث أنس: ألا أدلكم على دائكم ودوائكم، ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار[1].

فقد ظهر لك أن طب القلوب ومعالجتها لا سبيل إلى معرفته إلا من جهة الرسول ﷺ بواسطة الوحي.

[طب الأجساد]

وأما طب الأجساد فغالبه يرجع إلى التجربة. ثم هو نوعان:

نوع لا يحتاج إلى فكر ونظر، بل فطر الله على معرفته الحيوانات، مثل ما يدفع الجوع والعطش والبرد والتعب، وهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طبيب.

ونوع يحتاج إلى الفكر والنظر، كدفع ما يحدث في البدن مما يخرجه عن الاعتدال، وهو إما حرارة أو برودة، وكل منهما: إما إلى رطوبة أو يبوسة، أو إلى ما يتركب منهما، وغالب ما يقاوم الواحد منها بضده، والدفع قد يقع من خارج البدن، وقد يقع من داخله وهو أعسرهما، والطريق إلى معرفته بتحقيق السبب والعلامة.

فالطبيب الحاذق هو الذي يسعى في تفريق ما يضر بالبدن جمعه، أو عكسه، وفي تنقيص ما يضر بالبدن زيادته أو عكسه، ومدار ذلك على ثلاثة أشياء:

حفظ الصحة.

والاحتماء عن المؤذي

واستفراغ المادة الفاسدة.

---

(١) رواه البيهقي.

وقد أشير إلى الثلاثة في القرآن:

فالأول: في قوله تعالى: ﴿**فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾[1] وذلك أن السفر مظنة النصب، وهو من مغيرات الصحة، فإذا وقع فيه الصيام ازداد فأبيح الفطر، وكذلك القول في المرض.

والثاني: وهو الحمية، من قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾[2] فإنه استنبط منه جواز التيمم عند خوف استعمال الماء البارد، وقال تعالى في آية الوضوء ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً**﴾[3] فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهو تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج.

والثالث: من قوله تعالى: ﴿**أو به أذى من رأسه ففدية**﴾[4] فإنه أشير بذلك إلى جواز حلق الرأس الذي منع منه المحرم، لاستفراغ الأذى الحاصل من البخار المحتقن في الرأس تحت الشعر، لأنه إذا حلق رأسه تفتحت المسام فخرجت تلك الأبخرة منها. فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه.

فقد أرشد تعالى عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٤.
(٢) سورة النساء، الآية ٢٩.
(٣) سورة النساء، الآية ٤٣.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٦.

[الحث على التداوي]

وفي الصحيحين من حديث عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء).

وأخرجه النسائي وصححه ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود بلفظ: (إن الله لم ينزل داء إلا وأنزل له شفاء[1] فتداووا).

وعند أحمد من حديث أنس: (إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا).

وعند البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد وأصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم عن أسامة بن شريك، رفعه: (تداووا يا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا داء واحداً وهو الهرم) وفي لفظ (إلا السام) ـ وهو بمهملة مخففة ـ الموت، يعني إلا داء الموت، أي المرض الذي قدر على صاحبه الموت فيه. واستثنى الهرم في الرواية الأولى إما لأنه جعله شبيهاً بالموت، والجامع بينهما نقص الصحة، أو لقربه من الموت وإفضائه إليه، ويحتمل أن يكون استثناء منقطعاً، والتقدير: لكن الهرم لا دواء له.

/٢٩١ ولأبي داود، عن أبي الدرداء، رفعه: إن الله جعل لكل/ داء دواء، فتداووا، ولا تداووا بحرام.

وفي البخاري[2]: إن الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم، فلا يجوز التداوي بالحرام.

---

(١) من قوله «وأخرجه» سقط من ش.

(٢) هو في البخاري عن ابن مسعود تعليقاً، وبين الحافظ أنه جاء من طرق صحيحة إليه.

وروى مسلم عن جابر، مرفوعاً: لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله تعالى.

فالشفاء متوقف على إصابة الدواء الداء بإذن الله تعالى. وذلك أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجح، بل ربما أحدث داء آخر.

وفي رواية علي عند الحميدي في كتابه المسمى بطب أهل البيت: ما من داء إلا وله دواء، فإذا كان كذلك بعث الله عز وجل ملكاً ومعه ستر فجعله بين الداء والدواء، فكلما شرب المريض من الدواء لم يقع على الداء، فإذا أراد الله برءه أمر الملك فرفع الستر، ثم يشرب المريض الدواء فينفعه الله تعالى به.

وفي حديث ابن مسعود رفعه: إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله، رواه أبو نعيم وغيره[1].

وفيه إشارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد.

وأما قوله «لكل داء دواء» فيجوز أن يكون على عمومه حتى يتناول الأدواء القاتلة، والأدواء التي لا يمكن طبيب معرفتها، ويكون الله قد جعل لها أدوية تبرئها، ولكن طوى علمها عن البشر، ولم يجعل لهم إليها سبيلاً، لأنه لا علم للخلق إلا ما علمهم الله. ولهذا علق ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء للداء، وقد يقع لبعض المرضى أنه يتداوى من دائه بدواء فيبرأ، ثم يعتريه بعد ذلك الداء، والدواء[2] بعينه فلا ينجح، والسبب في ذلك الجهل بصفة من صفات الدواء،

(١) وكذا رواه النسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه.

(٢) في الأصل: ثم يعتريه بعد ذلك الداء بعينه.

فرب مرضين تشابها، ويكون أحدهما مركباً، لا ينجح فيه ما ينجح في الذي ليس مركباً، فيقع الخطأ من هناك، وقد يكون متحداً لكن يريد الله أن لا ينجح، وهنا تخضع رقاب الأطباء.

[التداوي لا ينافي التوكل]

وفي مجموع ما ذكرناه من الأحاديث الإشارة إلى إثبات الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات، والدعاء بطلب الشفاء ودفع المضار وغير ذلك.

وقد سئل الحارث المحاسبي في كتاب «القصد» من تأليفه: هل يتداوى المتوكل؟ قال: نعم، قيل له من أين ذلك؟ قال: من وجود ذلك عن سيد المتوكلين، الذي لم يلحقه لاحق، ولا يسبقه في التوكل سابق، محمد خير البرية ﷺ. قيل له: ما تقول في خبر النبي ﷺ: (من استرقى واكتوى برئ من التوكل)[1]؟ قال: برئ من توكل المتوكلين الذين ذكرهم في حديث آخر فقال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب)[2]، وأما سواهم من المتوكلين فمباح لهم الدواء والاسترقاء.

فجعل المحاسبي التوكل بعضه أفضل من بعض.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً.

(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما.

وقال في «التمهيد»[1]: إنما أراد بقوله: «بريء من التوكل» إذا استرقى الرقى المكروهة في الشريعة، أو اكتوى وهو يعلق رغبته في الشفاء بوجود الكي، وكذلك قوله «لا يسترقون» الرقى المخالفة للشريعة، و«لا يكتوون» وقلوبهم معلقة بنفع الكي ومعرضة عن فعل الله تعالى وأن الشفاء من عنده. وأما إذا فعل ذلك على ما جاء في الشريعة، وكان ناظراً إلى رب الدواء، وتوقع الشفاء من الله تعالى، وقصد بذلك استعمال بدنه إذا صح لله تعالى، وإتعاب نفسه وكدها في خدمة ربه، فتوكله باق على حاله لا ينقص منه الدواء شيئاً، استدلالاً بفعل سيد المتوكلين إذ[2] عمل بذلك في نفسه وفي غيره، انتهى.

فقد تبين أن التداوي لا ينافي التوكل، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة.

وحكى ابن القيم: أنه ورد في خبر إسرائيلي، أن الخليل عليه الصلاة والسلام قال: يا رب ممن الداء؟ قال: مني، قال: فممن الدواء؟ قال: مني/ قال: فما بال الطبيب؟ قال: رجل أرسل الدواء على يديه. ٢٩/ب

[«لكل داء دواء» أمل للمريض وللطبيب]

قال[3]: وفي قوله ﷺ «لكل داء دواء» تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله تعلق قلبه بروح الرجاء، وبرد

---

(١) «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» كتاب لابن عبد البر

(٢) في (ا، ط): إذا.

(٣) أي ابن القيم في كتابه زاد المعاد.

من حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، وقويت نفسه وانبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته. انتهى[1].

فإن قلت: ما المراد بالإنزال في قوله في الأحاديث السابقة «إلا أنزل له دواء» وفي الرواية الأخرى «شفاء» فالجواب: أنه يحتمل أن يكون عبر بالإنزال عن التقدير، ويحتمل أن يكون المراد إنزال علم ذلك على لسان الملك للنبي ﷺ.

[الطب النبوي]

وأين يقع طب حذاق الأطباء، الذي غايته أن يكون مأخوذاً من قياس أو مقدمات[2] وحدس وتجربة، من الوحي الذي يوحيه الله تعالى إلى رسوله ﷺ بما ينفعه ويضره، فنسبة ما عند حذاق الأطباء من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاء به ﷺ. بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم تهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجربتهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله تعالى والتوكل عليه والانكسار بين يديه، والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار، والإحسان إلى الخلق والتفريج عن المكروب.

فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها،

---

(١) قال بعد ذلك: وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه. [م].

(٢) في (د): منامات، وفي (ا، ب، ش): مقامات.

فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء، وقد جربت ذلك ـ والله ـ مرات، فوجدته يفعل ما لا تفعله الأدوية الحسية.

ولا ريب أن طب النبي ﷺ متيقن البرء، لصدوره عن الوحي ومشكاة النبوة، وطب غيره أكثره حدس وتجربة، وقد يتخلف الشفاء عن بعض من يستعمل طب النبوة، وذلك لمانع قام بالمستعمل، من ضعف اعتقاد الشفاء به وتلقيه بالقبول. وأظهر الأمثلة في ذلك القرآن، الذي هو شفاء لما في الصدور، ومع ذلك فقد لا يحصل لبعض الناس شفاء صدره به لقصوره في الاعتقاد والتلقي بالقبول، بل لا يزيد المنافق إلا رجساً إلى رجسه، ومرضاً إلى مرضه، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، والقلوب الحية. فإعراض الناس عن طب النبوة لإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الكريم الذي هو الشفاء النافع.

[أنواع طبه ﷺ]

وكان علاجه ﷺ للمريض على ثلاثة أنواع:

أحدها: بالأدوية الإلهية الروحانية.

والثاني: بالأدوية الطبيعية.

والثالث: بالمركب من الأمرين.

النوع الأول

في طبه ﷺ بالأدوية الإلهية

[الاستشفاء بالقرآن]

اعلم أن الله تعالى لم ينزل من السماء شفاء قط أعم ـ ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء ـ من القرآن، فهو للداء شفاء، ولصدأ القلوب جلاء، كما قال تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾[1].

ولفظة «من» ـ كما قال الإمام فخر الدين ـ ليست للتبعيض بل للجنس، والمعنى: وننزل من هذا الجنس الذي هو القرآن شفاء من الأمراض الروحانية وشفاء أيضاً من الأمراض الجسمانية.

أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن المرض الروحاني نوعان: الاعتقادات الباطلة، وأشدها فساداً الاعتقادات الفاسدة في الإلهية والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة. ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة في هذه المذاهب الباطلة من العيوب/، لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني. وأما

١/٢٩٢

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

الأخلاق المذمومة(١) فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريفها وما فيها من المفاسد، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض. فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية.

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية، فلأن التبرك بقراءته ينفع كثيراً من الأمراض. وإذا اعتبر الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، أفلا تكون قراءة القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله تعالى وكبريائه، وتعظيم الملائكة المقربين، وتحقير المردة والشياطين سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا.

ويتأيد ما ذكرناه بما روي أن النبي ﷺ قال: من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله(٢).

ونقل عن الشيخ أبي القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ أن ولده مرض مرضاً شديداً حتى أشرف على الموت، فاشتد عليه الأمر، قال: فرأيت النبي ﷺ في المنام فشكوت إليه ما بولدي فقال: أين أنت من آيات الشفاء؟ فانتبهت فأفكرت فيها فإذا هي في ستة مواضع من كتاب الله، وهي قوله تعالى:

﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾(٣).

---

(١) هذا هو النوع الثاني من المرض الروحاني، وكان الأول: الاعتقادات الباطلة. [م].

(٢) إن صح الحديث فيكون المعنى: من لم يعتقد كونه شافياً، كما أشار إليه الشارح.

(٣) سورة التوبة، الآية ١٤.

﴿وشفاء لما في الصدور﴾[1].
﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾[2].
﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾[3].
﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾[4].
﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾[5].

قال: فكتبتها ثم حللتها بالماء وسقيته إياها فكأنما نشط من عقال، أو كما قال.

وانظر رقية اللديغ بـ «الفاتحة» وما فيها من السر البديع والبرهان الرفيع. وتأمل قوله ﷺ في بعض أدعيته: «وأن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني، وشفاء صدري»[6] فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله.

وفي حديث عند ابن ماجه مرفوعاً: خير الدواء القرآن.

وها هنا أمر ينبغي أن يتفطن له، نبه عليه ابن القيم: وهو أن الآيات والأذكار والأدعية التي يستشفى بها، ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل[7]، أو لعدم قبول المحل

---

(١) سورة يونس، الآية ٧٧.
(٢) سورة النحل، الآية ٦٠.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٢.
(٤) سورة الشعراء، الآية ٨٠.
(٥) سورة فصلت، الآية ٤٤.
(٦) رواه الإمام أحمد.
(٧) فيكون كسيف قاطع في يد ضعيف أو جبان.

المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان الدواء في نفس فعالة، وهمة مؤثرة أثر في إزالة الداء.

[الاستشفاء بالدعاء]

وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في رفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يجيبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو، وقد روى الحاكم حديث: واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه[1].

ومن أنفع الأدوية الدعاء، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن،

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب، والجمعية بالكلية على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة، كثلث الليل الأخير، مع الخضوع والانكسار، والذل والتضرع، واستقبال القبلة، والطهارة ورفع اليدين، والبداءة بالحمد والثناء على الله تعالى، والصلاة/

---

(١) وكذا رواه الترمذي وقال: غريب، وضعفه النووي والعراقي والحافظ.

والتسليم على سيدنا محمد، بعد التوبة والاستغفار والصدقة، وألح في المسألة، وأكثر التملق والدعاء، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته، والتوجه إليه بنبيه ﷺ فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً، لا سيما إن دعاه بالأدعية التي أخبر ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم. ٢٩٢/ب

ولا خلاف في مشروعية الفزع إلى الله تعالى والالتجاء إليه في كل ما ينوب الإنسان.

[الاستشفاء بالرقى]

وأما الرقى[١]، فاعلم أن الرقي بالمعوذات من أسماء الله تعالى، هو الطب الروحاني، وإذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، لكن لما عزَّ هذا النوع[٢]، فزع الناس إلى الطب الجسماني.

وفي البخاري، من حديث عائشة، (أنه ﷺ كان ينفث[٣] على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات وهي الفلق والناس والإخلاص) فيكون من باب التغليب[٤]، أو المراد الفلق والناس[٥].

---

(١) الرُقى: جمع رقية، اسم للمرة من التعويذ.
(٢) أي قل لقلة أهله.
(٣) أي ينفخ نفخاً لطيفاً أقل من التفل.
(٤) أي أطلق على سورة الإخلاص اسم التعويذ، وهو الذي اعتمده الحافظ ابن حجر.
(٥) ويكون ذلك مجازاً، من باب تسمية الجزء باسم الكل، أو بناء على أن أقل الجمع اثنان.

وكذلك[1] كل ما ورد في التعويذ في القرآن، كقوله تعالى: **﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾**[2].

وأما ما أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان يكره عشر خصال، فذكر منها الرقى إلا بالمعوذات، ففي سنده عبد الرحمن بن حرملة، قال البخاري: لا يصح حديثه. وعلى تقدير صحته فهو منسوخ بالإذن في الرقية بالفاتحة.

وأما حديث أبي سعيد عند النسائي: كان ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فأخذ بهما وترك ما سواهما، وحسنه الترمذي، فلا يدل على المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين، بل على الأولوية، ولا سيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما. وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً.

وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:
- أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته.
- وباللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره.
- وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

واختلفوا في كونها[3] شرطاً، والراجح أنه لا بد من اعتبارها.

وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك: (كنا نرقي في

---

(1) أي من الطب الروحاني.
(2) سورة المؤمنون، الآية ٩٧.
(3) أي اجتماع الثلاثة.

الجاهلية، فقلنا يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى إذا لم يكن فيه شرك).

وله من حديث جابر: (نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم، فقالوا: يا رسول الله، إنها كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب، قال: فاعرضوها علي، قال: فعرضوا عليه، قال: ما أرى بأساً، من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه)

وقد تمسك قوم بهذا العموم، فأجازوا كل رقية جربت منفعتها، ولو لم يعقل معناها، لكن دل حديث عوف أنه مهما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك فإنه يمتنع، وما لا يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدي إلى الشرك فيمنع احتياطاً. والشرط الأخير لا بد منه.

وقال قوم: لا تجوز الرقية إلا من العين واللدغة، لحديث عمران ابن حصين: (لا رقية إلا من عين أو حمة[1])[2].

وأجيب: بأن معنى الحصر فيه أنهما أصل كل ما يحتاج إلى الرقية، فيلحق بالعين جواز رقية من به خبل أو مسّ ونحو ذلك، لاشتراكهما في كونهما ينشآن عن أحوال شيطانية من إنس أو جن، ويلحق بالسم كل ما عرض للبدن من قرح ونحوه من المواد السمية. وقد وقع عند أبي داود من حديث أنس مثل حديث عمران وزاد: (أو دم)، وفي مسلم من حديث أنس أيضاً (رخص رسول الله ﷺ في الرقى من العين والحمة والنملة) وفي حديث آخر (والأذن)، ولأبي

(١) الحمة: هي السم وتطلق على إبرة العقرب للمجاورة، وقد تسمى إبرة الزنبور حمة.

(٢) رواه البخاري موقوفاً على عمران، وكذا رواه مسلم عن بريدة بن الحصيب موقوفاً عليه، لكن رواه أبو داود وصححه الحاكم من حديث أنس عن النبي ﷺ.

داود من حديث الشفاء بنت عبدالله أن النبي ﷺ قال: (ألا تعلمين هذه - يعني حفصة - رقية النملة؟).

والنملة: قروح تخرج في الجنب وغيره من الجسد.

وقيل: المراد بالحصر يعني الأفضل، أي لا رقية أنفع، كما قيل: لا سيف إلا ذو الفقار[1].

1/293 / وقال قوم: المنهي عنه من الرقى ما يكون قبل وقوع البلاء، والمأذون فيه ما كان بعد وقوعه، ذكره ابن عبد البر والبيهقي وغيرهما.

وروى أبو داود وابن ماجه، وصححه الحاكم عن ابن مسعود، رفعه (إن الرقى والتمائم والتولة شرك).

والتمائم: جمع تميمة وهي خرزة أو قلادة تعلق في الرأس، كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الآفات.

والتِوَلَة: بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً - شيء كانت المرأة تستجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر.

وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله، ولا يدخل في ذلك ما كان بأسماء الله وكلامه. فقد ثبت في الأحاديث استعمال ذلك قبل وقوعه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ولا خلاف في مشروعية الفزع إلى الله سبحانه وتعالى، والالتجاء إليه سبحانه في كل ما يقع وكل ما يتوقع.

وقال بعضهم: المنهي عنه من الرقى هو الذي يستعمله المعزم

---

(1) الذي في (ط، ش): لا سيف أقطع إلا ذو الفقار.

وغيره ممن يدعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله تعالى وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم، والتعوذ من مردتهم، ويقال إن الحية لعداوتها للإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم أعداء بني آدم، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها، وكذلك اللديغ إذا رقي بتلك الأسماء سالت سمومها من بدن الإنسان، فلذلك كره من الرقى ما لم يكن بذكر الله وأسمائه خاصة، وباللسان العربي الذي يعرف معناه ليكون بريئاً من الشرك.

وعلى كراهة الرقى بغير كتاب الله علماء الأمة.

وقال القرطبي: الرقى ثلاثة أقسام:

أحدها: ما كان يرقى به في الجاهلية، مما لا يعقل معناه، فيجب اجتنابه لئلا يكون فيه شرك أو يؤدي إلى الشرك.

الثاني: ما كان بكلام الله أو بأسمائه فيجوز، فإن كان مأثوراً فيستحب.

الثالث: ما كان بأسماء غير الله من ملك أو صالح أو معظم من المخلوقات كالعرش قال: فهذا ليس من الواجب اجتنابه، ولا من المشروع الذي يتضمن الالتجاء إلى الله تعالى به والتبرك بأسمائه، فيكون تركه أولى، إلا أن يتضمن تعظيم المرقي به فينبغي أن يجتنب كالحلف بغير الله تعالى.

وقال الربيع: سألت الشافعي عن الرقية فقال: لا بأس أن يرقي بكتاب الله تعالى، وبما يعرف من ذكر الله تعالى. فقلت: أيرقي أهل الكتاب المسلمين؟ قال: نعم إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله وبذكر الله. انتهى.

وفي الموطأ: أن أبا بكر قال لليهودية التي كانت ترقي عائشة: ارقيها بكتاب الله. قال النووي وقال القاضي عياض: واختلف قول مالك في رقية اليهودي والنصراني المسلم، وبالجواز قال الشافعي والله أعلم.

وروى ابن وهب عن مالك كراهية الرقية بالحديدة والملح وعقد الخيط، والذي يكتب خاتم سليمان، وقال: لم يكن ذلك من أمر الناس القديم.

رقية الذي يصاب بالعين

روى مسلم عن ابن عباس قال: (قال رسول الله ﷺ: العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين)[1].

أي الإصابة بالعين شيء ثابت موجود، وهي من جملة ما تحقق كونه[2].

قال المازري: أخذ الجمهور بظاهر الحديث، وأنكره طوائف من المبتدعة لغير معنى، لأن كل شيء ليس محالاً في نفسه، ولا يؤدي إلى قلب حقيقة، ولا إلى فساد دليل، فهو من مجوزات العقول. فإذا أخبر الشارع بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى. وهل من فرق بين إنكارهم هذا وإنكارهم ما يخبر به من أمور الآخرة.

وقد استشكل بعض الناس هذه الإصابة فقال: كيف تعمل العين من بعد حتى يحصل الضرر للمعيون؟

وأجيب: بأن طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك من سم يصل

(١) أخرجه مسلم برقم ٢١٨٨.
(٢) أي وجوده بالفعل.

من عين العائن في الهواء إلى بدن المعيون. وقد نقل عن بعض من كان معياناً أنه قال: / إذا رأيت شيئاً يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني. ويقرب ذلك بالمرأة الحائض تضع يدها في إناء اللبن فيفسد، ولو وضعتها بعد طهرها لم يفسد. ومن ذلك أن الصحيح قد ينظر إلى العين الرمداء فيرمد. ٢٩٣/ب

وقال المازري: زعم بعض الطبائعيين أن العائن تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد. وهو كإصابة السم من نظر الأفعى، وأشار إلى منع الحصر في ذلك مع تجويزه. وإن الذي يتمشى على طريقة أهل السنة أن العين إنما تضر عند نظر العائن بعادة أجراها الله تعالى أن يحدث الضرر عند مقابلة شخص آخر، وهل ثم جواهر حقيقة أو لا؟ هو أمر محتمل لا يقطع بإثباته ولا نفيه. ومن قال ممن ينتمي إلى الإسلام من أصحاب الطبائع بالقطع بأن ثم جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون، وتتخلل مسام جسمه، فيخلق الباري الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السم فقد أخطأ بدعوى القطع، ولكنه جائز أن تكون عادة ليست ضرورية ولا طبيعية، انتهى.

وهو كلام سديد. وليس المراد بالتأثير المعنى الذي تذهب إليه الفلاسفة، بل ما أجرى الله به العادة من حصول الضرر للمعيون. وقد أخرج البزار بسنده عن جابر رفعه: أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالنفس[1]. قال الراوي: يعني العين.

وقد أجرى الله تعالى العادة بوجود كثير من القوى والخواص في

(١) وكذا أخرجه البخاري في التاريخ والطيالسي والحكيم الترمذي، قال الحافظ: بسند جيد.

الأجسام والأرواح، كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل فيرى في وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية من يخافه. وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه. وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات لشدة ارتباطها بالعين، وليست هي المؤثرة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وكيفياتها وخواصها، فمنها ما يؤثر في البدن بمجرد الرؤية من غير اتصال به لشدة خبث تلك الروح وكيفيتها الخبيثة.

والحاصل: أن التأثير بإرادة الله تعالى وخلقه ليس مقصوراً على الاتصال الجسماني، بل يكون تارة به، وتارة بالمقابلة، وأخرى بمجرد الرؤية، وأخرى بتوجه الروح، كالذي يحدث من الأدعية والرقى والالتجاء إلى الله تعالى، وتارة يقع ذلك بالتوهم والتخيل، فالذي يخرج من عين العائن سهم معنوي، إن صادف البدن ـ لا وقاية له[1] ـ أثر فيه، وإلا لم ينفذ السهم بل ربما عاد على صاحبه كالسهم الحسي. انتهى ملخصاً من فتح الباري وغيره.

قال ابن القيم: والغرض العلاج النبوي لهذه العلة، فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين والفاتحة وآية الكرسي، ومنها التعوذات النبوية نحو: أعوذ بكلمات الله التامة من شر كل شيطان وهامَّة[2]، ومن كل عين لامة[3].

ونحو: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر،

---

(١) جملة حالية من البدن.

(٢) بشد الميم: ما له سم يقتل كالحية، وجمعها: هوام.

(٣) أي مصيبة بسوء.

من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمان[1].

وإذا كان يخشى ضرر عينه وإصابتها للمعين فليدفع شرها بقوله: اللهم بارك عليه. كما قال ﷺ لعامر بن ربيعة لما عاين سهل بن حنيف: ألا برَّكت[2] عليه[3].

ومما يدفع به إصابة العين: قول ما شاء الله لا قوة إلا بالله[4].

ومنها رقية جبريل للنبي ﷺ كما رواه مسلم: (بسم الله أرقيك من شر كل شيء يؤذيك، من شر كل ذي نفس أو عين حاسد. الله يشفيك، بسم الله أرقيك).

وعنده أيضاً من حديث عائشة: كان جبريل يرقي النبي ﷺ إذا اشتكى: بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر كل حاسد إذا حسد، ومن شر كل ذي عين.

وأخرج مسلم من حديث ابن عباس رفعه: (العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم[5] فاغسلوا).

---

(١) زاد المعاد ٤/١٦٨.

(٢) في (ط، ب): باركت.

(٣) سيأتي بعد قليل أنه من رواية أحمد والنسائي.

(٤) كما قال تعالى: ﴿ولولا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله..﴾ والحديث عند البزار وابن السني عن أنس.

(٥) طلب منكم غسل الأعضاء أيها المتهمون كما سيأتي شرحه ورقمه عند مسلم ٢١٨٨.

1/294 / وظاهر الأمر الوجوب، وحكى فيه المازري خلافاً وصحح الوجوب، وقال: متى خشي الهلاك وكان اغتسال العائن مما جرت العادة بالشفاء به فإنه يتعين، وقد تقرر أنه يجب بذل الطعام للمضطر، وهذا أولى.

ولم يبين في حديث ابن عباس صفة الاغتسال. قال الحافظ ابن حجر: وقد وقعت في حديث سهل بن حنيف عند أحمد والنسائي[1]: أن أباه[2] حدثه أن النبي ﷺ خرج وساروا معه نحو ماء، حتى إذا كانوا بشعب الحرار[3] من الجحفة، اغتسل سهل بن حنيف وكان أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة[4]، فلبط سهل - أي صرع - وسقط إلى الأرض. فأتى رسول الله ﷺ فقال: هل تتهمون من أحد؟ قالوا: عامر بن ربيعة، فدعا عامراً، فتغيظ عليه، فقال: علامَ يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برَّكت. ثم قال: اغتسل له، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صب ذلك الماء عليه رجل من خلفه على رأسه وظهره، ثم كفأ القدح ففعل ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس.

قال المازري: المراد بـ «داخلة إزاره» الطرف المتدلي الذي يلي حقوه

---

(1) سقط من قلم المصنف قول الحافظ: وصححه ابن حبان من طريق الزهري عن أبي أمامة بن سهل.

(2) الضمير يعود على أبي أمامة - الذي سقط ذكره من قلم المصنف -، وأبوه هو سهل بن حنيف.

(3) في ط: الخرار.

(4) يعني أن جلد سهل كجلد المخبأة المكنونة التي لا تراها العيون ولا تبرز للشمس فتغيرها.

الأيمن، قال: وظن بعضهم أنه كناية عن الفرج. انتهى.

وزاد القاضي عياض: أن المراد ما يلي جسده من الإزار. وقيل: أراد موضع الإزار من الجسد، وقيل أراد وركه لأنه معقد الإزار.

رأيت مما عزي لخط شيخنا الحافظ أبي الخير السخاوي: قال ابن بكير عن مالك: أنه كناية عن الثوب الذي يلي الجسد.

وقال ابن الأثير في النهاية: كان من عادتهم أن الإنسان إذا أصابته عين من أحد جاء للعائن بقدح فيه ماء فيدخل كفه فيه فيتمضمض ثم يمجه في القدح ثم يغسل وجهه فيه، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على يده اليمنى، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على يده اليسرى، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على مرفقه الأيمن، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على قدمه الأيمن، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على قدمه الأيسر، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى ثم يدخل يده اليمنى فيصب على ركبته اليسرى، ثم يغسل داخلة إزاره ولا يوضع القدح بالأرض، ثم يصب ذلك الماء المستعمل على رأس المصاب بالعين من خلفه صبة واحدة فيبرأ بإذن الله تعالى، انتهى

قال المازري: وهذا المعنى مما لا يمكن تعليله ومعرفة وجهه من جهة العقل، فلا يرد لكونه لا يعقل معناه.

وقال ابن العربي: إن توقف فيه متشرع قلنا له: قل الله ورسوله أعلم، وقد عضدته التجربة وصدقته المعاينة، أو متفلسف؛ فالرد عليه أظهر، لأن عنده أن الأدوية تفعل بقواها، وقد تفعل بمعنى لا يدرك، ويسمون ما هذا سبيله: الخواص.

قال ابن القيم: ومن علاج ذلك والاحتراز منه، ستر محاسن من

يخاف عليه العين، بما يردها عنه، كما ذكره البغوي في كتاب شرح السنة: أن عثمان بن عفان رأى صبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته لئلا تصيبه العين، ثم قال في تفسيره، ومعنى دسموا نونته: أي سودوا نونته، والنونة: النقرة التي تكون في ذقن الصغير.

وذكر عن أبي عبدالله[1] الساجي[2] أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارهة، فكان في الرفقة رجل عائن قل ما نظر إلى شيء إلا أتلفه، فقيل لأبي عبدالله: احفظ ناقتك من العائن، فقال ليس له إلى ناقتي سبيل، فأخبر العائن بقوله، فتحين غيبة أبي عبدالله، فجاء إلى رحله/ فنظر إلى الناقة فاضطربت وسقطت، فجاء أبو عبدالله ٢٩٤/ب فأخبر أن العائن قد عانها وهي كما ترى. فقال: دلوني عليه، فوقف عليه فقال: بسم الله حَبْس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، رددت عين العائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير. فخرجت حدقتا العائن وقامت الناقة لا بأس بها. انتهى.

وفي حديث هذا الباب من الفوائد: أن العائن إذا عرف يقضى عليه بالاغتسال، وأن الاغتسال من النشرة النافعة، وأن العين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح، وأن الذي يعجبه الشيء يبادر إلى الدعاء للذي يعجبه بالبركة، ويكون ذلك رقية منه، وأن الإصابة بالعين قد تقتل.

[عقوبة العائن]

وقد اختلف في جريان القصاص بذلك:

---

(١) في (أ) سقطت كلمة: أبي.

(٢) أبو عبدالله سعيد بن يزيد الساجي ـ بسين مهملة وجيم ـ نسبة إلى الساج الخشب.

فقال القرطبي: لو أتلف العائن شيئاً ضمنه، ولو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه بحيث يصير عادة، وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفراً. انتهى.

ولم تتعرض الشافعية للقصاص في ذلك، بل منعوه وقالوا: إنه لا يقتل غالباً ولا يعد مهلكاً. وقال النووي في «الروضة»: ولا دية فيه ولا كفارة، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام، دون ما يختص ببعض الناس وبعض الأحوال مما لا انضباط لها، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً، وإنما غايته حسد وتمن لزوال النعمة، وأيضاً: فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشخص، ولا يتعين ذلك المكروه في زوال الحياة، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين، انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: ولا يعكر عليه إلا الحكم بقتل الساحر، فإنه في معناه، والفرق بينهما عسر.

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم: أنه ينبغي للإمام منع العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس، وأن يلزم بيته، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي منعه عمر من مخالطة الناس، وأشد من ضرر الثوم الذي منع الشارع أكله من حضور الجماعة. قال النووي: وهذا القول صحيح متعين لا يعرف من غيره تصريح بخلافه.

ذكر رقية النبي ﷺ التي كان يرقي بها

عن عبد العزيز قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك، فقال ثابت: يا أبا حمزة اشتكيت، فقال أنس: ألا أرقيك برقية رسول

الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: قل اللهم رب الناس، مذهب الباس، اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقماً. رواه البخاري.

وقوله: «مذهب[1] الباس»: بغير همزة للمواخاة، أصله الهمز.

وفي قوله «لا شافي إلا أنت» إشارة إلى أن كل ما يقع من الدواء والتداوي إن لم يصادف تقدير الله وإلا فلا ينجع.

وقوله «لا يغادر» ـ بالغين المعجمة ـ أي لا يترك.

وفي البخاري أيضاً عن مسروق عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: (اللهم رب الناس أذهب الباس، واشفه وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما).

وقوله «يمسح بيده» أي على الوجع.
وقوله «إلا شفاؤك» بالرفع بدل من موضع: لا شفاء.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يرقي ويقول: امسح الباس رب الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت. رواه البخاري أيضاً.

وفي صحيح مسلم، عن عثمان بن أبي العاص، أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال النبي ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله، ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر.

---

(١) كذا في ط، وهو موافق لما قدمه من نص الحديث، وفي النسخ: أذهب، قال الشارح، قاله تبعاً للفتح. أي لفتح الباري [م].

وإنما كرره ليكون أنجع وأبلغ، كتكرار الدواء لإخراج المادة.

1/295

ذكر طبه ﷺ من الفزع والأرق/ المانع من النوم.

عن بريدة قال: شكا خالد[1] إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما أنام الليل من الأرق، فقال ﷺ: إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم رب السماوات السبع وما أظلت، ورب الأرضين السبع وما أقلت ورب الشياطين وما أضلت، كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط[2] علي أحد منهم أو يبغي علي، عزَّ جارك، وجل ثناؤك ولا إله غيرك. رواه الترمذي[3].

ذكر طبه ﷺ من حر المصيبة ببرد الرجوع إلى الله تعالى

في المسند مرفوعاً: ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها[4].

قال في الهدي النبوي: وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصلين عظيمين، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن المصيبة.

---

(١) أي: ابن الوليد.

(٢) أي: يعتدي.

(٣) قال مخرج أحاديث زاد المعاد: في سنده الحكم بن ظهير وهو متروك. وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقوي ٤/٢١١.

(٤) رواه أحمد ومسلم ومالك وأصحاب السنن، وقول المصنف في المسند: أي المتصل.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله الله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

الثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن[1] بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد ونهايته فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

قال: ومن علاجه أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وأنه لو فتش العالم لم ير فيه إلا مبتلى إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وإن سرور الدنيا أحلام نوم، أو ظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً أساءت دهراً، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حبرة[2] إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرورٍ، إلا خبأت له يوم شرور. قال ابن مسعود: لكل فرحة ترحة[3]، وما ملىء بيت فرحاً إلا ملىء ترحاً[4].

ذكر طبه ﷺ من داء الهم والكرب بدواء التوجه إلى الرب.

عن ابن عباس (أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: لا

---

(١) أي ولكن يجيء بالحسنات..

(٢) أي نعمة وسعة. وهي في زاد المعاد: خيرة.

(٣) الترح: الهم.

(٤) زاد المعاد ٤/١٨٩.

إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات[1] ورب العرش الكريم).

وقوله «عند الكرب» أي عند حلول الكرب.

وعند مسلم: كان يدعو بهن ويقولهن عند الكرب.

وعنده أيضاً: (كان إذا حزبه أمر) ـ وهي بفتح المهملة والزاي وبالموحدة ـ أي هجم عليه أو غلبه.

قال الطبري: معنى قول ابن عباس «يدعو»، وإنما هو تهليل وتعظم، يحتمل أمرين: أحدهما، أن المراد تقديم ذلك قبل الدعاء، كما عند عبد بن حميد «كان إذا حزبه أمر قال..» فذكر الذكر المأثور، وزاد: ثم دعا. قال الطبري: ويؤيد هذا ما روى الأعمش عن إبراهيم قال: كان يقال إذا بدأ الرجل بالثناء قبل الدعاء استجيب له، وإذا بدأ بالدعاء قبل الثناء كان على الرجاء. ثانيهما: ما أجاب به ابن عيينة وقد سئل عن الحديث الذي فيه «أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ بعرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له» الحديث[2]. فقال سفيان: هو ذكر وليس فيه دعاء، ولكن قال النبي ﷺ عن ربه عز وجل: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وقال أمية ابن أبي الصلت في مدح عبدالله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضك الثناء

(١) في (ط، ش): السماوات السبع. ولفظ السبع لا وجود له في الصحيحين. والحديث عند البخاري برقم ٦٣٤٥ و٦٣٤٦ وعند مسلم برقم ٢٧٣٠[م].

(٢) رواه ابن أبي شيبة عن علي مرفوعاً.

فهذا مخلوق حين نسبه إلى الكرم اكتفى بالثناء عن السؤال، فكيف بالخالق[1].

ثم إن حديث ابن عباس هذا ـ كما قاله ابن القيم ـ قد اشتمل على توحيد الإلهية والربوبية/ ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم، وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القدرة والرحمة والإحسان والتجاوز، ووصفه بكمال ربوبيته الشاملة للعالم العلوي والسفلي والعرش الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها، والربوبية التامة تستلزم توحيده، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والحب والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلا له، وعظمته المطلقة تستلزم إثبات كل كمال له، وسلب كل نقص وتمثيل عنه، وحلمه يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه. فعلم القلب ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيده، فيحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم، وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه ويقوي نفسه، كيف[2] تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسي، فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى. ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التي تضمنها هذا الحديث وجدته في غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق، وخرج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور. وإنما يصدق هذه الأمور من أشرقت فيه أنوارها وباشر قلبه حقائقها.

٢٩/ب

قال ابن بطال حدثني أبو بكر الرازي قال: كنت بأصبهان عند أبي نعيم فقال له شيخ: إن أبا بكر بن علي قد سعي به إلى السلطان فسجن، فرأيت النبي ﷺ في المنام وجبريل عن يمينه يحرك شفتيه

(١) عن فتح الباري ١١/١٤٧.

(٢) المعنى: أنت تجد المريض كيف تقوى طبيعته على دفع المرض إذا ورد عليه ما يسره.

بالتسبيح لا يفتر، فقال لي النبي ﷺ قل لأبي بكر بن علي يدعو بدعاء الكرب الذي في صحيح البخاري حتى يفرج الله عنه، قال: فأصبحت فأخبرته فدعا به، فلم يمكث إلا قليلاً حتى أخرج.(١)

وفي حديث علي عند النسائي وصححه الحاكم: لقنني رسول الله ﷺ هذه الكلمات وأمرني إن نزل بي كرب أو شدة أن أقولها: لا إله إلا الله الكريم العظيم، سبحان الله تبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين. وفي لفظ: «الحليم الكريم» في الأولى، وفي لفظ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له العليم العلي العظيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم، وفي لفظ لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحانه، تبارك وتعالى رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. أخرجها كلها النسائي.

وروى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا أهمه أمر رفع طرفه إلى السماء فقال: سبحان الله العظيم، وإذا اجتهد في الدعاء قال: يا حي يا قيوم.

وعنده أيضاً من حديث أنس: أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: يا حي يا قيوم، بك أستغيث.

قال العلامة ابن القيم: وفي تأثير قوله «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» في دفع هذا الداء مناسبة بديعة، فإن صفة «الحياة» متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة «القيومية» متضمنة لجميع صفات الأفعال(٢). ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد

---

(١) عن فتح الباري ١١/١٤٧.

(٢) في ط: الأقوال.

جميع الآلام والأسقام، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات. فالتوسل بصفة «الحياة والقيومية» له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال. فلهذا الاسم «الحي القيوم» تأثير عظيم خاص في إجابة الدعوات وكشف الكربات. ولهذا كان ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: يا حي يا قيوم[1].

وروى أبو داود عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت.

وفي هذا الدعاء ـ كما قاله في زاد المعاد ـ من تحقيق الرجاء لمن الخير كله بيده، والاعتماد عليه وحده، وتفويض الأمر إليه، والتضرع إليه أن يتولى إصلاح/ شأنه ولا يكله إلى نفسه، والتوسل إليه بتوحيده، مما له تأثير في دفع هذا الداء. ١/٢٩٦

وكذا قوله في حديث أسماء بنت عميس عند أبي داود أيضاً مرفوعاً: كلمات الكرب: الله ربي لا أشرك به شيئاً.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: ما أصاب عبداً همّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو أعلمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً.

وإنما كان هذا الدعاء بهذه المنزلة لاشتماله على الاعتراف بعبودية

---

(١) زاد المعاد ٤/٢٠٤ ـ ٢٠٦.

الداعي وعبودية آبائه وأمهاته، وأن ناصيته بيده، يصرفها كيف يشاء، وإثبات القدر، وأن أحكام الرب نافذة في عبده، ماضية فيه، لا انفكاك له عنها، ولا حيلة له في دفعها، وأنه سبحانه وتعالى عدل في هذه الأحكام غير ظالم لعبده، ثم توسله بأسماء الرب تعالى التي سمى بها نفسه، ما علم العباد منها، وما لم يعلموا، ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمطلوب، ثم سؤاله أن يجعل القرآن لقلبه ربيعاً، أي كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان، وأن يجعله لصدره كالنور الذي هو مادة الحياة، وبه يتم معاش العباد، وأن يجعله شفاء همه وغمه فيكون بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطبوع[1] والأصدية، فإذا صدق العليل في استعمال هذا الدواء أعقبه شفاء تاماً.

وفي سنن أبي داود، عن أبي سعيد الخدري قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة ما لي أراك في المسجد في غير وقت الصلاة، فقال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، فقال: ألا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك، وقضى دينك، قال: قلت بلى يا رسول الله، قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت، اللهم إني أعوذ بك من الهم والحَزَن[2]، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من

---

(١) الطبوع: جمع طبع وهو الصدأ أو الدنس كما في القاموس.

(٢) مصدر حزن، كتعب، والاسم الحزن، بضم فسكون. وليس العطف على الهم لاختلاف اللفظين مع اتحاد المعنى، بل الهم في أمر يتوقع، والحزن فيما وقع قبل.

الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال: ففعلت ذلك فأذهب الله همي، وقضى ديني.

وقد تضمن هذا الحديث الاستعاذة من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان مزدوجان: فالهم والحزن أخوان، والعجز والكسل أخوان، والجبن والبخل أخوان، وضَلَع الدين[1] وغلبة الرجال أخوان، فحصلت الاستعاذة من كل شر.

وفي سنن أبي داود[2] ـ أيضاً ـ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وإنما كان الاستغفار له تأثير في دفع الهم والضيق لأنه قد اتفق أهل الملل وعقلاء كل ملة على أن المعاصي والفساد يوجبان الهم والغم والحزن وضيق الصدر وأمراض القلب، وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار.

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: من كثرت همومه فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. وثبت في الصحيحين أنها كنز من كنوز الجنة، وفي الترمذي: أنها باب من أبواب الجنة، وفي بعض الآثار: أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله.

وروى الطبراني من حديث أبي هريرة: / أن رسول الله ﷺ قال: ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل فقال لي: يا محمد قل توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له

٢٩٦/ب

(١) أي ثقله.

(٢) وكذا رواه النسائي وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً.

وفي كتاب ابن السني من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ: من قرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة عند الكرب أغاثه الله عز وجل.

وعنده ـ أيضاً ـ من حديث سعد بن أبي وقاص، قال: قال ﷺ: إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه، كلمة أخي يونس: فنادى في الظلمات أن لا إلة إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

وعند الترمذي: لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له.

وروى الديلمي في مسند الفردوس، عن جعفر بن محمد ـ يعني الصادق ـ قال: حدثني أبي عن جدي أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر دعا بهذا الدعاء: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي فلا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمت بها علي قلَّ لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قلَّ لك بها صبري، فيا من قلَّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قلَّ عند بليته صبري فلم يخذلني، ويا من رآني على الخطايا فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، ويا ذا النعمة التي لا تحصى عدداً، أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وبك أدرأ في نحور الأعداء والجبارين، اللهم أعني على ديني بالدنيا، وعلى آخرتي بالتقوى واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حظرته علي، يا من لا تضره الذنوب، ولا ينقصه العفو، هب لي ما لا ينقصك، واغفر لي ما لا يضرك، إنك أنت الوهاب، أسألك فرجاً قريباً وصبراً جميلاً، ورزقاً واسعاً، والعافية من البلايا، وشكر العافية ـ

وفي رواية: وأسألك الشكر على العافية ـ وأسألك الغنى عن الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ذكر طبه ﷺ من داء الفقر

عن ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن الدنيا أدبرت عني وتولت، قال له: فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبه يرزقون، قل عند طلوع الفجر: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، استغفر الله مائة مرة تأتيك[1] الدنيا صاغرة، فولى الرجل فمكث ثم عاد فقال: يا رسول الله لقد أقبلت على الدنيا فما أدري أين أضعها. رواه الخطيب في رواة مالك[2].

ذكر طبه ﷺ من داء الحريق

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفئه[3].

فإن قلت ما وجه الحكمة في إطفاء الحريق بالتكبير، أجاب صاحب زاد المعاد: بأنه لما كان الحريق سببه النار، وهي مادة الشيطان التي خلق منها، وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله، وكان للشيطان إعانة عليه وتنفيذ له، وكانت النار تطلب

---

(١) كذا في جميع النسخ، والواجب حذف الياء لأنها في جواب الأمر. ويمكن أن يكون جواب «إذا» مقدرة وهي غير جازمة، أي: فإنك إذا فعلت ذلك تأتيك.

(٢) «رواة مالك» كتاب ألفه الخطيب جمع فيه من روى عن مالك.

(٣) رواه ابن السني وابن عدي وابن عساكر من طريق ابن لهيعة. ورواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده مختلف فيها وعند ابن حبان هي منقطعة، وابن لهيعة ضعيف اهـ. مختصراً من الشرح [م].

بطبعها العلو والفساد، وهما هدي الشيطان، وإليهما يدعو، وبهما يهلك بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو في الأرض والفساد، وكبرياء الله تعالى تقمع الشيطان وفعله، فلهذا كان تكبير الله له أثر في إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله تعالى لا يقوم لها شيء، فإذا كبر المسلم ربه أثر تكبره في خمود النار التي هي مادة الشيطان. وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدناه كذلك. انتهى.

وقد جربت ذلك بطيبة في سنة خمس وتسعين وثمانمائة فوجدت له أثراً عظيماً لم أجده لغيره.

ولقد شاع وذاع رؤية طيور بحريق طيبة الواقع في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة معلنة بالتكبير. [وفيه يقول/ قاضي القضاة شمس الدين السخاوي: 1/297

فظن كلٌّ بأن النار تحرقه ... فما ترى من جواها غير منهزم

فجاءت الطير روتها بأجنحة ... عن البيوت رآها غير متهم

وقال أيضاً في قصيدة أخرى:

فكل شخص تولى خائفاً حذراً ... فجاءت الطير للنيران تطردها

عن البيوت ولا يخفى لمن بصرا][1].

ذكر ما كان ﷺ يطب به من داء الصرع

في الصحيحين أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك. فقالت: أصبر، قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها[2].

---

(١) ما بين القوسين في الأصل فقط.

(٢) رواه البخاري برقم ٢٢٤٢ ومسلم برقم ٢٥٧٦.

قال ابن القيم: الصرع صرعان، صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة، والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء.

فأما علاج صرع الأرواح فيكون بأمرين: أمر من جهة المصروع وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً. والثاني: من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: اخرج منه، أو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، أو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال: وقد كان النبي ﷺ يقول: اخرج عدو الله أنا رسول الله. وكان بعضهم يعالج ذلك بآية الكرسي ويأمر بكثرة قراءتها للمصروع ومن يعالجه بها وبقراءة المعوذتين.

قال: ومن حدث له الصرع وله خمسة وعشرون سنة وخصوصاً بسبب دماغي أيس من برئه، وكذلك إذا استمر به إلى هذه السن. قال: فهذه المرأة التي جاء الحديث أنها تصرع وتتكشف يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع فوعدها النبي ﷺ بصبرها على هذا المرض بالجنة(١).

ولقد جربت الإقسام بالنبي ﷺ [على الله تعالى](٢) مع قوله

(١) زاد المعاد ٤/٦٦ - ٧١

(٢) زيادة في ش. ومن المعروف فقهاً أن القسم لا يكون إلا بالله تعالى أو صفة من صفاته [م].

تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) إلى آخر سورة الفتح في ابنتين صغيرتين صرعتا فشفيتا.

ومن الغريب قصة غزالة الحبشية خادمتنا لما صرعت بدرب الحجاز الشريف واستغثت به ﷺ في ذلك[1]، فجيء إلي بصارعها في المنام بأمره ﷺ فوبخته وأقسم أن لا يعود إليها، فاستيقظت وما بها قَلَبَة[2] ومن ثم لم يعد إليها فلله الحمد.

ذكر دوائه ﷺ من داء السحر

[حكم السحر]

قال النووي: السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وأما تعليمه وتعلمه فحرام، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر فاعله واستتيب منه، ولا يقتل عندنا، وإن تاب قبلت توبته. وقال مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله.

والمسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق، لأن الساحر عنده كافر، كما ذكرناه، وعندنا: ليس بكافر، وعندنا تقبل توبة المنافق والزنديق.

(١) الاستغاثة إنما تكون بالله تعالى [م].

(٢) أي: وجع.

قال القاضي عياض: وبقول مالك قال أحمد بن حنبل وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين.

قال أصحابنا: فإذا قتل الساحر بسحره إنساناً واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالباً/ لزمه القصاص. فإن قال مات به ولكنه قد يقتل وقد لا يقتل فلا قصاص وتجب الدية والكفارة، وتكون الدية في ماله لا على عاقلته، لأن العاقلة لا تحمل ما ثبت باعتراف الجاني.

٢٩٧/ب

قال أصحابنا: ولا يتصور ثبوت القتل بالسحر بالبينة، وإنما يتصور باعتراف الساحر. انتهى.

[حقيقة السحر]

واختلف في السحر:

فقيل: هو تخييل فقط، ولا حقيقة له، وهو اختيار أبي جعفر الاستراباذي من الشافعية، وأبي بكر الرازي من الحنفية وطائفة.

قال النووي، والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة.

قال شيخ الإسلام أبو الفضل العسقلاني: لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال إنه تخييل فقط منع ذلك، والقائلون بأن له حقيقة اختلفوا: هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه، فالذي عليه الجمهور هو الأول.

وقال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر، لأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق، أو تركيب

أجسام، أو مزج قوى على ترتيب مخصوص. ونظير ذلك ما وقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً.

وقيل: لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله في قوله: ﴿**يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾[1]، لكون المقام مقام تهويل. فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره الله تعالى.

قال المازري: والصحيح من جهة العقل أن يقع بـه أكثر من ذلك، قال: والآية ليست نصاً في منع الزيادة، ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك.

[الفرق بين السحر والمعجزة]

ثم قال[2]: والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة، أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يـريد، والكـرامة لا تحتاج إلى ذلك، إنما تقع غالباً اتفاقاً، وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدي.

ونقل إمام الحرمين: الإجمـاع على أن السحـر لا يقع إلا من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على يد فاسق. ونقل نحوه النووي في «زيادة الروضة» عن المتولي.

وينبغي أن يعتبر حال من يقع منه الخارق، فإن كان متمسكاً

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٠٢.

(٢) أي المازري.

بالشريعة متجنباً للموبقات، فإن الذي يظهر على يديه من الخوارق كرامة وإلا فهو سحر.

وقال القرطبي: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجود تركيبها وأوقاتها، وأكثرها تخييلات بغير حقيقة وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال تعالى عن سحرة فرعون ﴿**وجاؤوا بسحر عظيم**﴾[1] مع أن حبالهم وعصيهم لم يخرجوها عن كونها حبالاً وعصيا.

وقال أبو بكر الرازي في «الأحكام»: (أخبر الله تعالى أن الذي ظنه موسى أنها تسعى لم يكن سعياً، وإنما كان تخييلاً، وذلك أن عصيهم كانت مجوفة وقد ملئت زئبقاً، وكذلك الحبال كانت من أدم محشوة زئبقاً، وقد حفروا قبل ذلك أسراباً[2] وجعلوا لها آزاجاً[3] وملؤوها ناراً، فلما طرحت على ذلك الموضع وحمي الزئبق حركها، لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير، فلما أثقلته كثافة الحبال والعصي صارت تتحرك بحركته، فظن من رآها أنها تسعى، ولم تكن تسعى حقيقة، انتهى.

[قصة ما سُحِر به ﷺ]

قال القرطبي: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١١٦.
(٢) أسراباً: جمع سَرَب، بيت في الأرض لا منفذ له.
(٣) آزاجا: جمع أزج ـ بوزن سبب ـ بيت يبنى طولاً.

كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم، وإنما المنكر أن ينقلب الجماد حيواناً، أو عكسه، بسحر الساحر.

وقد ثبت في البخاري من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ سُحِر، حتى إن كان ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات ليلة عند عائشة/ دعا ودعا ثم قال: يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب[1]، قال من طبه قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة[2] وجف[3] طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان[4]، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، وكان رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، فقلت يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً[5]، فأمر بها[6] فدفنت[7].

1/298

وفي رواية للبخاري أيضاً: فأتى البئر حتى استخرجه[8] فقال:

---

(1) أي مسحور.

(2) ما يخرج من الشعر عند التسريح.

(3) الغشاء الذي يكون على الطلع.

(4) هي بئر كانت معروفة بالمدينة في بستان بني زريق.

(5) أي من تذكير المنافقين السحر وتعلمه ونحو ذلك فيؤذي المسلمين.

(6) أي بالبئر.

(7) رواه البخاري برقم ٣٢٦٨ ومسلم برقم ٢١٨٩.

(8) المنفي في الرواية الأولى غير المثبت في الثانية، فالمثبت استخراج الجف والمنفي استخراج ما حواه. والسر في ذلك حتى لا يراه الناس فيتعلموا السحر، ولا تعارض بين الروايتين.

هذه البئر التي رأيتها، قالت عائشة: أفلا تنشرت[(١)]؟ قال: أما الله شفاني، وأكره أن أثير على الناس شراً.

وفي حديث ابن عباس عند البيهقي ـ بسند ضعيف ـ في آخر قصة السحر الذي سحر به النبي ﷺ أنهم وجدوا وتراً فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت سورة الفلق والناس، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة.

وأخرجه ابن سعد بسند آخر منقطع عن ابن عباس أن علياً وعماراً لما بعثهما النبي ﷺ لاستخراج السحر وجدا طلعة[(٢)] فيها إحدى عشرة عقدة فذكر نحوه.

وفي رواية ذكرها في فتح الباري: فنزل رجل فاستخرجه وأنه وجد في الطلعة تمثالاً من شمع تمثال رسول الله ﷺ وإذا فيه أبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فنزل جبريل بالمعوذتين، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً، ثم يجد بعدها راحة.

وقد بين الواقدي السنة التي وقع فيها السحر، كما أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عمر بن عبد الحكم مرسلاً قال: لما رجع ﷺ من الحديبية في ذي الحجة ودخل المحرم سنة سبع جاءت رؤوس اليهود إلى لبيد بين الأعصم، وكان حليفاً إلى بني زريق، وكان ساحراً، فقالوا: أنت أسحرنا، وقد سحرنا [محمداً][(٣)] فلم نصنع شيئاً،

---

(١) فعلت النشرة: وهي الرقية.

(٢) أي طلعة النخلة.

(٣) في ش.

ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير.

ووقع في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: فأقام أربعين ليلة، وفي رواية وهيب عن هشام عند أحمد: ستة أشهر.

ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يوماً من استحكامه.

وقال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث ﷺ فيها في السحر، حتى ظفرت به في جامع معمر عن الزهري: أنه لبث سنة.

قال الحافظ ابن حجر: وقد وجدناه موصولاً[1] بالإسناد الصحيح، فهو المعتمد.

وقال المازري: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وزعموا أنه يحط منصب النبوة، ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل. وزعموا: أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع، إذ يحمل على هذا أنه يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثَمَّ، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء.

قال المازري: وهذا كله مردود، لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل. وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا

(١) أي عند الإسماعيلي وأحمد في الروايتين السابقتين.

كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يعرض لبشر كالأمراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له، مع عصمته عن مثل ذلك/ في أمور الدين، انتهى. ٢٩٨/ب

وقال غيره: لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت، فلا يبقى على هذا للملحد حجة.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور، أنه يظهر له من نشاطه ومن سابق عادته من الاقتدار على الوطء، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك، كما هو شأن المعقور، ويكون قوله في الرواية الأخرى «حتى كاد ينكر بصره» أي كالذي ينكر بصره بحيث إنه إذا رأى الشيء يخيل إليه أنه على غير صفته، فإذا تأمله عرف حقيقته. ويؤيد جميع ما تقدم: أنه لم ينقل عنه في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به.

قال بعضهم: وقد سلك النبي ﷺ في هذه القصة مسلكي التفويض وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه، واحتسب الأجر في صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخشي من تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته جنح إلى التداوي. فقد أخرج أبو عبيد من مرسل عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: احتجم النبي ﷺ على رأسه، يعني حين طب، ثم جنح إلى الدعاء، وكل من المقامين غاية في الكمال.

[علاج السحر]

وقال ابن القيم: من أنفع الأدوية وأقوى ما يؤخذ من النشرة

مقاومة السحر الذي هو من تأثير الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية من الذكر والدعاء والقراءة، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله ورد من الذكر والدعاء والتوجه لا يخل به، كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له، قال: وسلطان تأثير السحر هو في القلوب الضعيفة، ولهذا كان غالب ما يؤثر في النساء والصبيان والجهال، لأن الأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لما يناسبها، انتهى ملخصاً.

ويعكر عليه حديث الباب، وجواز السحر على النبي ﷺ مع عظم مقامه، وصدق توجهه وملازمة ورده، ولكن يمكن الانفصال عن ذلك بأن الذي ذكره محمول على الغالب، وإنما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك عليه.

وأما ما يعالج به من النشرة المقاومة للسحر، فذكر ابن بطال: أن في كتب وهب بن منبه: أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فتدق بين حجرين ثم يضرب ذلك بالماء، ويقرأ فيه آية الكرسي والقلاقل[1]، ثم يحسو منه ثلاث حسيات[2] ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه ما كان به، وهو جيد للرجل إذا احتبس عن أهله.

وممن صرح بجواز النشرة، المزني عن الشافعي، وأبو جعفر الطبري وغيرهما. انتهى.

وقال ابن الحاج في «المدخل»: كان الشيخ أبو محمد المرجاني أكثر تداويه بالنشرة يعملها لنفسه ولأولاده ولأصحابه فيجدون على ذلك

---

(١) أي (قل هو الله أحد) والمعوذتان.

(٢) أي يملأ فمه ثلاث مرات ويبتلعها.

الشفاء، وأخبر رحمه الله أن النبي ﷺ أعطاها له في المنام، وقال: إنه مرة رأى النبي ﷺ وقال له: ما تعلم ما عمل معك ومع أصحابك في هذه النشرة[1]، نقله عنه خادمه، وهي هذه: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه**﴾[2] إلى آخر السورة، ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾[3] ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً**﴾[4] إلى آخر السورة، وسورة الإخلاص والمعوذتين، ثم يكتب: اللهم أنت المحيي وأنت المميت، وأنت الخالق البارىء وأنت المبلي، وأنت المعافي، وأنت الشافي، خلقتنا من ماء مهين، وجعلتنا في قرار مكين إلى قدر معلوم، اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، يا من بيده الابتلاء والمعافاة، والشفاء والدواء، أسألك بمعجزات نبيك محمد ﷺ حبيبك، وبركات خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وحرمة كليمك موسى عليه الصلاة والسلام، اللهم اشفه .

ذكر رقية تنفع لكل شكوى

عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من اشتكى منكم شيئاً فليقل/ : ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض واغفر لنا حوبنا[5] وخطايانا، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من عندك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ بإذن الله. رواه أبو داود في سننه.

١/٢٩٩

(١) استفهام تقريري لتنبيهه على عظم فائدتها.

(٢) سورة التوبة. الآية ١٢٨.

(٣) سورة الإسراء. الإية ٨٢.

(٤) سورة الحشر. الإية ٢١.

(٥) حُوبنا ـ بالضم ـ: ذنبنا.

رقيته ﷺ من الصداع

روى الحميدي في «الطب» عن يونس بن يعقوب عن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الصداع، بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله الكبير وأعوذ بالله العظيم من كل عرق نعار[1] ومن شر حر النار. ورواه ابن السني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأصاب أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ورم في رأسها، فوضع رسول الله ﷺ يده على ذلك من فوق الثياب فقال: بسم الله أذهب عنها سوءه وفحشه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك، بسم الله. صنع ذلك ثلاث مرات، وأمرها أن تقول ذلك، فقالت ثلاثة أيام. فذهب الورم. رواه الشيخ ابن النعمان بسنده والبيهقي.

رقيته ﷺ من وجع الضرس

روى البيهقي أن عبدالله بن رواحة شكا إلى النبي ﷺ وجع ضرسه، فوضع ﷺ يده على خده الذي فيه وقال: اللهم أذهب عنه سوء ما يجد وفحشه، بدعوة نبيك المكين المبارك عندك، سبع مرات، فشفاه الله قبل أن يبرح.

وروى الحميدي أن فاطمة رضي الله عنها أتت رسول الله ﷺ تشكو ما تلقى من ضربان الضرس، فأدخل سبابته اليمنى فوضعها على السن الذي تألم، فقال: بسم الله وبالله، أسألك بعزتك وجلالك

---

(١) نعار ـ بفتح النون والعين المهملة ـ: فار منه الدم، أو صوت خروج الدم، كما في القاموس.

وقدرتك على كل شيء، فإن مريم لم تلد غير عيسى من روحك وكلمتك[1]، أن تكشف ما تلقى فاطمة بنت خديجة من الضر كله، فسكن ما بها.

ومن الغريب: ما شاع وذاع عن شيخنا المحب الطبري إمام مقام الخليل بمكة، ورأيته يفعله غير مرة، وضع يده على رأس الموجوع ضرسه، ويسأل عن اسمه واسم أمه وعن المدة التي يريد المألوم أن لا يألمه[2] فيها، فيقول: سبع سنين أو تسع سنين مثلاً بالوتر، قالوا: فما يرفع يده إلا وقد سكن ألمه، ويمكث المدة المذكورة لا يألمه، كما أشيع ذلك واشتهر.

ومما جرب أن يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمن الرحيم. **﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾**[3]، وإن شاء كتب **﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾**[4].

رقية لعسر البول

روى النسائي عن أبي الدرداء أنه أتاه رجل يذكر أن أخاه احتبس بوله، فأصابه حصاة البول، فعلمه رقية سمعها من رسول الله ﷺ: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء

---

(١) هذا تعليل لمقدر، أي إنك قادر على كل شيء ومن ذلك وجود عيسى من غير أب، وكلمتك: أي قولك «كن».

(٢) قال في القاموس: ألم كفرح [م].

(٣) سورة الملك، الآية ٢٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٣.

والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت رب المتطببين فأنزل شفاء من شفائك، ورحمة من رحمتك على هذا الوجع فيبرأ. وأمره أن يرقيه بها، فرقاه بها فبرىء. وقد تقدم هذا في رقية الشكوى العامة من حديث أبي الدرداء.

رقية الحمى

عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وهي موعوكة، وهي تسب الحمى، فقال: لا تسبيها فإنها مأمورة ولكن إن شئت علمتك كلمات إذا قلتهن أذهبها الله عنك، قالت: علمني، قال: قولي اللهم ارحم جلدي الرقيق وعظمي الدقيق من شدة الحريق، يا أم مِلدم[1]، إن كنت آمنت بالله العظيم فلا تصدعي الرأس، ولا تنتني الفم، ولا تأكلي اللحم، ولا تشربي الدم، وتحولي عني إلى من اتخذ مع الله إلهاً آخر. فقالتها فذهبت عنها، رواه البيهقي.

وقد جرب ذلك ـ كما رأيته بخط شيخنا ـ ولفظه: اللهم ارحم عظمي الدقيق وجلدي الرقيق، وأعوذ/ بك من فورة الحريق، يا أم ملدم، إن كنت آمنت بالله واليوم الآخر، فلا تأكلي اللحم، ولا تشربي الدم، ولا تفوري على الفم، وانتقلي إلى من يزعم أن مع الله إلها آخر[2]، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. ٢٩٩/ب

ويكتب للحمى المثلثة[3] ـ مما ذكره صاحب الهدي ـ على ثلاث

---

(١) كنية الحمى.

(٢) من قوله «فقالتها» في آخر الفقرة السابقة، سقط من د.

(٣) التي تلازم ثلاثة أيام، ثم تقلع، ثم تأتي كذلك ثلاثاً.

ورقات لطاف: بسم الله فرَّت، بسم الله مرَّت. بسم الله قلَّت، ويأخذ كل يوم ورقة ويجعلها في فمه ويبلعها بماء.

وقد رخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعله الله فيه.

قال ابن الحاج في «المدخل»: وقد كان الشيخ أبو محمد المرجاني لا تزال الأوراق للحمى وغيرها على باب الزاوية، فمن كان به ألم أخذ ورقة منها فاستعملها فيبرأ بإذن الله تعالى، وكان المكتوب فيها: أزلي لم يزل، ولا يزال، يزيل الزوال[1]، وهو لا يزال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾**[2].

وقال المروزي[3]: بلغ أبا عبدالله[4] أني حممت فكتب لي من الحمى رقعة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله ومحمد رسول الله، يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل اشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك، إله الحق آمين.

[كتابات لآلام أخرى]

● ومما جرب للخراج[5]، ونقله صاحب زاد المعاد، أن يكتب

---

(١) أي الأعراض.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٢.
(٣) أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد، ثقة حافظ، معاصر للإمام أحمد.
(٤) أي الإمام أحمد بن حنبل.
(٥) الخراج ـ بضم الخاء وخفة الراء ـ بثر، الواحدة خراجة.

عليه ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا﴾[1].

● ومما يكتب لعسر الولادة ما روى الخلال عن عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض[2]، أو شيء نظيف، حديث ابن عباس[3]: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها.

قال الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي أن أبا عبدالله جاءه رجل فقال: يا أبا عبدالله اكتب لامرأة قد عسر عليها الولادة منذ يومين فقال: قل له يجيء بجام واسع وزعفران. قال المروزي: ورأيته يكتب لغير واحد.

وفي «المدخل»[4]: يكتب في آنية جديدة: اخرج أيها الولد من بطن ضيق إلى سعة هذه الدنيا، اخرج بقدرة الذي جعلك في قرار مكين إلى قدر معلوم، لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، إلى آخر السورة، وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. وتشربها النفساء، ويرش منها على وجهها. قال الشيخ المرجاني: أخذته عن بعض السادة، فما كتبته لأحد إلا نجح في وقته. انتهى.

---

(١) سورة طه، الآية ١٠٥.
(٢) إناء معروف مستدير لا قعر له غالباً.
(٣) المعروف بكلمات الفرج.
(٤) لابن الحاج.

وروى عن عكرمة عن ابن عباس قال: مر عيسى عليه السلام على امرأة وقد اعترض ولدها في بطنها فقالت: يا كلمة الله ادع الله لي أن يخلصني مما أنا فيه فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس خلصها، قال: فرمت بولدها وإذا هي قائمة. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها فاكتبه لها.

ومكا يكتب أيضاً لذلك، ويكون في إناء نظيف: **﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت، وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت﴾**[1] وتشرب الحامل منه وترش على بطنها.

● ومما يكتب للرعاف على جبهة المرعوف **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر﴾**[2]، ولا يجوز كتابتها بدم الرعاف كما يفعله بعض الجهال، فإن الدم نجس فلا يجوز أن يكتب به كلام الله.

● ومما يكتب لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني وخلقت عرق النسا فيَّ فلا تسلطه عليَّ بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقماً، لا شافي إلا أنت.

[بدعة منكرة]

١/٣٠٠ / وأما حفيظة رمضان: لا آلاء إلا آلاؤك يا الله، إنك سميع

---

(١) سورة الإنشقاق ١ ـ ٤.

(٢) سورة هود، الآية ٤٤.

عليم محيط بـه علمك كعسلهـون، وبالحق أنـزلناه وبـالحق نزل إلى آخرها. .

فقال شيخنا: اشتهرت ببلاد اليمن ومكة ومصر والمغرب وجملة بلدان أنها حفيظة رمضان، تحفظ من الغرق والسرق والحرق وسائر الآفات، وتكتب في آخر جمعة منه، وجمهورهم يكتبها والخطيب يخطب على المنبر، وبعضهم بعد صلاة العصر.

وهذه بدعة لا أصل لها، وإن وقعت في كلام غـير واحد من الأكابر، بل أشعر كلام بعضهم إلى ورودها في حديث ضعيف، وكان الحافظ ابن حجر ينكرها جداً، حتى وهو قائم على المنبر في أثناء خطبته حين يرى من يكتبها.

ذكر ما يقي من كل بلاء

عن أبان بن عثمان عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قال بسم الله الذي لا يضر مـع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات حين يمسي لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي. قال: فأصاب أبان بن عثمان الفالج، فجعل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه، فقال مالك تنظر فوالله ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان على رسول الله ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبت فنسيت أن أقولها. رواه أبو داود، ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وعنده: فكان أبان أصابه طرف فالج فجعل الرجل ينظر إليه فقال له أبان: مالك تنظر إلي، أما إن الحديث كما حدثتك ولكن لم أقله يومئذ ليمضي الله أمراً قدره.

ذكر ما يستجلب به المعافاة من سبعين بلاء

وذكر أبو محمد عبدالله بن محمد المالكي الإفريقي، في كتابه «أخبار أفريقية» عن أنس بن مالك مرفوعاً: من قال بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عشر مرات برىء من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وعوفي من سبعين بلاء من بلايا الدنيا، منها الجنون والجذام والبرص والريح.

ويشهد له ما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أكثروا من ذكر «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فإنها من كنز الجنة.

قال مكحول[1]: من قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا ملجأ من الله إلا إليه، كشف الله عنه سبعين باباً من الضر أدناها الفقر.

وروى الطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم[2].

ومن ذلك في الأمان من الفقر:

عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: من قال لا حول ولا قوة إلا بالله مائة مرة في كل يوم لم يصبه فقر أبداً. رواه ابن أبي الدنيا.

---

(١) مكحول الشامي، ثقة فقيه، كثير الإرسال، مات سنة بضع عشرة ومائة.

(٢) في سنده بشر بن رافع، وهو ضعيف.

وروى الطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من أبطأ عليه رزقه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب يرفعه: من قال كل يوم وليلة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، مائة مرة كان له أماناً من الفقر، وأنساً من وحشة القبر، واستفتح به باب الغنى، واستقرع به باب الجنة. قال بعض رواته: لو رحلتم في هذا الحديث إلى الصين ما كان كثيراً. ذكره عبد الحق[1] في كتاب الطب النبوي.

ذكر دواء داء الطعام

روى البخاري في تاريخه عن عبدالله بن مسعود: من قال حين يوضع الطعام: بسم الله خير الأسماء في الأرض وفي السماء، لا يضر مع اسمه داء، اجعل فيه رحمة وشفاء. لم يضره ما كان.

ذكر دواء أم الصبيان

عن علي قال قال رسول الله ﷺ من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى لم تضره أم/ الصبيان. رواه ابن السني، وذكره عبد الحق في «الطب النبوي»[2]. ٣٠٠/ب

(١) هو عبد الحق الأشبيلي وقد سبقت ترجمته.

(٢) إسناده ضعيف.

وأم الصبيان: هي الريح التي تعرض لهم، فربما يخشى عليهم منها[1].

وسر التأذين ـ كما قاله صاحب تحفة الودود بأحكام المولود ـ أن يكون أول ما يقرع سمع المولود كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله في الدنيا، كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها مع ما في ذلك من فائدة أخرى، وهي هروب الشيطان من كلمات الأذان، وهو كان يرصده حتى يولد فيقارنه للمحنة التي قدرها الله وشاءها، فيسمع الشيطان ما يضعفه ويغيظه أول أوقات تعلقه به.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: هي التابعة من الجن.

النوع الثاني

طبه ﷺ بالأدوية الطبيعية

ذكر ما كان ﷺ يعالج به الصداع والشقيقة

اعلم أن الصداع ألم في بعض أجزاء الرأس أو كله، فما كان منه في أحد جانبي الرأس لازماً سمي شقيقة ـ بوزن عظيمة ـ وسببه أبخرة مرتفعة، أو أخلاط حارة أبو باردة ترتفع إلى الدماغ، فإن لم تجد منفذاً أحدثت الصداع، فإن مال إلى أحد شقي الرأس أحدث الشقيقة، وإن ملك كل الرأس أحدث داء البيضة تشبيهاً ببيضة السلاح تشتمل على الرأس كله.

وأسباب الصداع كثيرة: منها ما تقدم، ومنها ما يكون عن ورم في المعدة أو في عروقها، أو ريح غليظة فيها، أو لامتلائها، ومنها ما يكون من الحركة العنيفة كالجماع والقيء والاستفراغ والسهر وكثرة الكلام، ومنها ما يحدث من الأعراض النفسانية كالهم والحزن والجوع والحمى، ومنها ما يحدث عن حادث في الرأس كضربة تصيبه أو ورم في صفاق الدماغ، أو حمل شيء ثقيل يضغط الرأس، أو تسخينه بشيء خارج عن الاعتدال، أو بتبريده بملاقاة الهواء أو الماء في البرد.

وأما الشقيقة: فهي في شرايين الرأس وحدها، أو تختص بالموضع الأضعف من الرأس. وعلاجها بشد العصابة.

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث بريدة أنه ﷺ كان ربما أخذته الشقيقة فيمكث اليوم واليومين لا يخرج.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في مرض موته: (وارأساه) وأنه خطب وقد عصب رأسه. فعصب الرأس ينفع في الشقيقة وغيرها من أوجاع الرأس.

وفي البخاري من حديث ابن عباس: احتجم ﷺ وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به. وقد جاءت مقيدة في بعض طرق ابن عباس نفسه، فعند أبي داود الطيالسي في مسنده من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ احتجم في وسط رأسه. وقد قال الأطباء إنها نافعة جداً.

وورد أنه ﷺ احتجم أيضاً في الأخدعين[1] والكاهل[2]. أخرجه الترمذي وحسنه، وأبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم.

وقد قال الأطباء: الحجامة على الأخدعين تنفع من أمراض الرأس والوجه والأذنين والعينين والأسنان والأنف.

وقد ورد في حديث ضعيف جداً، أخرجه ابن عدي من طريق عمر بن رباح عن عبدالله بن طاووس عن أبيه عن ابن عباس رفعه: الحجامة في الرأس تنفع في سبع، من الجنون والجذام والبرص والنعاس والصداع ووجع الضرس والعين. وعمر متروك، رماه الفلاس وغيره بالكذب.

---

(١) قال أهل اللغة: عرقان في سالفة العنق ـ كما في الترغيب ـ، وفي المصباح: هما عرقان في موضع الحجامة.

(٢) ما بين الكتفين.

وروى ابن ماجه في سننه أن النبي ﷺ كان إذا صدع غلف رأسه بالحناء، ويقول: إنه نافع بإذن الله من الصداع. وفي صحته نظر.

وهو علاج خاص بما إذا كان الصداع من حرارة ملتهبة، ولم يكن من مادة يجب استفراغها، وإذا كان كذلك نفع فيه الحناء نفعاً ظاهراً. قالوا: وإذا دق وضمدت به الجبهة مع الخل سكن الصداع، وهذا لا يختص بوجع الرأس بل يعم جميع الأعضاء.

وفي تاريخ البخاري وسنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ ما شكا إليه أحد وجعاً في رأسه إلا قال/ له احتجم، ولا شكا وجعاً في رجليه إلا قال له اختضب بالحناء[١]. ١/٣٠١

وفي الترمذي عن علي بن عبدالله عن جدته ـ وكانت تخدم النبي ﷺ ـ قالت: ما كان يكون برسول الله ﷺ قرحة ولا نكتة[٢] إلا أمرني أن أضع عليها الحناء.

ذكر طبه ﷺ للرمد

وهو ورم حار يعرض في الطبقة الملتحمة من العين، وهو بياضها، وسببه: انصباب أحد الأخلاط أو أبخرة تصعد من المعدة إلى الدماغ، فإن اندفع إلى الخياشيم أحدث الزكام، أو إلى العين أحدث الرمد، أو إلى اللهاة[٣] والمنخرين أحدث الخنان ـ بالخاء المعجمة

---

(١) قال الترمذي: حديث غريب.

(٢) أثر يسير.

(٣) اللحمة المشرفة على الحلق من أقصى الفم.

والنـون ـ، أو إلى الصـدر أحـدث النـزلـة، أو إلى القلب أحـدث الشوصة[1]، وإن لم ينحدر وطلب نفاذاً فلم يجد أحدث الصداع، كما تقدم.

وروي أنه ﷺ كان يعالج الرمد بالسكون والدعة وترك الحركة.

وفي سنن ابن ماجه عن صهيب قال: قدمت عـلى النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر فقال: ادن وكل، فأخذت تمراً فـأكلت، فقال: تـأكل تمـراً وبك رمـد؟ فقلت: يا رسـول الله، أمضغ من النـاحية الأخرى، فتبسم رسول الله ﷺ.

وقد روي أنه حمى علياً من الرطب لما أصابه الرمد.

وفي البخاري من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين)[2].

والكمأة: نبات لا ورق لها ولا ساق، يوجد في الأرض من غير أن يزرع.

وروى الطبري من طريق المنكدر عن جابر قال: كثرت الكمأة على عهد رسول الله ﷺ، فامتنع قوم من أكلها وقالوا: هو جدري الأرض، فبلغه ذلك فقال: إن الكمأة ليست جدري الأرض، ألا أن الكمأة من المن.

واختلف في قوله: «من المن»، فقيل: من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل، وهو الطل الذي يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل

(١) وجع في البطن.
(٢) ورواه أيضاً مسلم والترمذي. وهو عند البخاري برقم ١٩٦٣ وعند مسلم برقم ٢٠٤٩.

حلواً، ومنه الترنجبيل[1] فكأنه يشبه الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منهما عفواً بغير علاج.

وقال الخطابي: ليس المراد أنها نوع من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل، فإن الذي أنزل على بني إسرائيل كان كالترنجبيل الذي يسقط على الشجر، وإنما المعنى أن الكمأة شيء ينبت من غير تكلف ببذر ولا سقي، وإنما اختصت الكمأة بهذه الفضيلة لأنها من الحلال المحض، الذي ليس في اكتسابه شبهة، ويستنبط منه أن استعمال الحلال المحض يجلو البصر.

وقال ابن الجوزي: في المراد بكونها شفاء للعين قولان[2]: أحدهما: أنه ماؤها حقيقة إلا أن أصحاب هذا القول اتفقوا على أنها لا تستعمل صرفاً في العين، لكن اختلفوا كيف يصنع بها على رأيين: أحدهما أن يختلط في الأدوية التي يكتحل بها، حكاه أبو عبيد، ثانيهما: أن تشق وتوضع على الجمر حتى يغلي ماؤها ثم يؤخذ الميل فيجعل في ذلك الشق وهو فاتر، فيكتحل بمائها، لأن النار تلطفه وتذهب فضلاته الرديئة ويبقى النافع منه، ولا يجعل الميل في مائها وهي باردة يابسة فلا ينجع.

وقال آخر: تجعل الكمأة في قدر جديدة ويصب عليها الماء، ولا يطرح فيها ملح، ثم يؤخذ غطاء جديد نقي فيجعل على القدر، فما جرى على الغطاء من بخار الكمأة فذلك الماء الذي يكتحل به.

---

(١) المن كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ. والمعروف بالمن ما وقع على شجر البلوط.

(٢) لم يذكر المصنف القول الثاني: وهو أن المراد ماؤها الذي تنبت فيه فإنه أول مطر يقع في الأرض. قال ابن القيم: وهو أضعف الوجوه. [فتح الباري ١٠/١٦٥] [م].

وقال ابن واقد: إن ماء الكمأة إذا عصر وربي به الإثمد كان ذلك من أصلح الأشياء للعين إذا اكتحل به يقوي أجفانها، ويزيد الروح الباصرة قوة وحدة، ويدفع عنها نزول النوازل. وقال أيضاً: إذا اكتحل بماء الكمأة وحده بميل من ذهب تبين للفاعل لذلك قوة عجيبة وحدة في البصر كثيرة.

وقال ابن القيم: اعترف فضلاء الأطباء أن ماء الكمأة يجلو العين، منهم المسيحي وابن سينا وغيرهما، قال: والذي يزيل الإشكالات عن هذا الاختلاف أن الكمأة وغيرها خلقت في الأصل سليمة من المضار، ثم عرضت لها الآفات بأمور أخرى، من مجاورة أو امتزاج أو غير ذلك من الأسباب التي/ أرادها الله تعالى، فالكمأة في الأصل نافعة لما اختصت به من وصفها بأنها من الله، وإنما عرضت لها المضار بالمجاورة، واستعمال كل ما وردت به السنة بصدق ينتفع به من يستعمله، ويدفع الله عنه الضر لنيته والعكس بالعكس والله أعلم.

٣٠٢/ب

ذكر طبه ﷺ من العذرة

وهي - بضم المهملة وسكون الذال المعجمة - وجع في الحلق يعتري الصبيان غالباً، وقيل: هي قرحة تخرج بين الأذن والحلق، أو في الخرم الذي بين الأنف والحلق، وهو الذي يسمى سقوط اللهاة، وقيل هو اسم اللهاة والمراد وجعها سمي باسمها، وقيل: هو موضع قريب من اللهاة، واللهاة - بفتح اللام - اللحمة التي في أقصى الحلق.

وفي البخاري[1]، من حديث أم قيس بنت محصن الأسدية -

(١) وكذا رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

أسد خزيمة ـ وهي أخت عكاشة، أنها أتت رسول الله ﷺ بابن لها قد علقت عليه من العذرة[1]، فقال النبي ﷺ: (علامَ تـدغرن أولادكن بهذا العلاق؟ عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجنب) يريد الكست وهو العود الهندي.

قوله: «تدغرن» خـطاب للنسوة، وهـو بالغـين المعجمة والـدال المهملة، والدغر: غمز الحلق.

وعن جابر بن عبدالله قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشـة وعندها صبي يسيل منخراه دماً، فقال: ما هذا؟ فقالوا: به العذرة، أو وجع في رأسه، فقال: ويلكن لا تقتلن أولادكن، أيما امرأة أصاب ولدها عذرة أو وجع فلتأخذ قسطاً[2] هندياً فلتحله بماء ثم تسعطه[3] إياه. فأمرت عائشة فصنع ذلك للصبي فبرىء. الحديث[4].

وفي القسط تجفيف يشـد اللهاة ويـرفعها إلى مكـانها، وكانـوا يعالجون أولادهم بغمـز اللهاة، وبـالعلاق: وهـو شيء يعلقونـه على الصبيـان، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلـك وأرشدهم إلى مـا هو أنفـع للأطفال وأسهل عليهم.

والسعوط: ما يصب في الأنف.

وقد استشكل معالجتها ـ أي العذرة ـ بالقسط الهندي مع كونه حاراً، والعذرة إنما تعرض في زمن الحر بالصبيان، وأمزجتهـم حـارة، لا سيما وقطر الحجاز حار؟

(١) أي عالجت رفع لهاته بأصبعها.
(٢) هو مثل الكافور.
(٣) أي يصبه في أنفه.
(٤) أخرجه أحمد وأصحاب السنن.

وأجيب: بأن مادة العذرة دم يغلب عليه البلغم، وفي القسط تجفيف للرطوبة وقد يكون نفعه في هذا الداء بالخاصية، وأيضاً فالأدوية الحارة قد تنفع في الأمراض الحارة بالعرض كثيراً، بل وبالذات أيضاً، وقد ذكر ابن سينا في معالجة سقوط اللهاة بالقسط مع الشب اليماني، على أنا لو لم نجد شيئاً من التوجيهات لكان المعجز خارجاً من القواعد الطبية.

ذكر طبه ﷺ لداء استطلاق البطن

في الصحيحين من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه - وفي رواية: استطلق بطنه - فقال: اسقه عسلاً، فسقاه فقال: إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك.

وفي رواية مسلم فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: اسقه عسلاً، فقال: سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال: صدق الله.

وفي رواية أحمد عن يزيد بن هارون فقال في الرابعة: اسقه عسلاً، قال فأظنه فسقاه فبرأ(١)، فقال ﷺ: صدق الله وكذب بطن أخيك.

قال الخطابي وغيره: أهل الحجاز يطلقون الكذب في موضع الخطأ، يقال: كذب سمعك، أي زل فلم يدرك حقيقة ما قيل له، فمعنى: كذب بطن أخيك، أي لم يصلح لقبول الشفاء بل زل عنه.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: لعله ﷺ علم بنور الوحي أن

(١) بوزن قرأ لغة أهل الحجاز، وغيرهم يقولها بوزن علم.

ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك، فلما لم يظهر نفعه في الحال مع كونه ﷺ كان عالماً بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك كان جارياً مجرى الكذب، فلهذا أطلق عليه هذا اللفظ.

وقد اعترض بعض الملاحدة فقال: العسل مسهل، فكيف يوصف لمن/ وقع به الإسهال؟ 1/302

وأجيب: بأن ذلك جهل من قائله، بل هو كقوله تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**﴾[1] فقد اتفق الأطباء على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السن والعادة والزمان والغذاء المألوف، والتدبير وقوة الطبيعة، وعلى أن الإسهال يحدث من أنواع: منها الهيضة التي تنشأ عن تخمة، واتفقوا على أن علاجها بترك الطبيعة وفعلها، فإن احتاجت إلى مسهل أعينت ما دام بالعليل قوة، فكأن هذا الرجل كان استطلاق بطنه من تخمة أصابته فوصف له ﷺ العسل لدفع الفضول المجتمع في نواحي المعدة من أخلاط لزجة تمنع من استقرار الغذاء فيها، وللمعدة خمل كخمل المنشفة، فإذا علقت بها الأخلاط اللزجة أفسدتها وأفسدت الغذاء الواصل إليها، فكان دواؤها باستعمال ما يجلو تلك الأخلاط، ولا شيء في ذلك مثل العسل، لا سيما إن مزج بالماء الحار، وإنما لم يفده أول مرة لأن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب الداء، إن قصر عنه لم يدفعه بالكلية، وإن جاوزه أوهى القوة وأحدث ضرراً آخر، فكأنه شرب منه أولاً مقداراً لا يفي بمقاومة الداء، فأمره بمعاودة سقيه، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء برأ[2] بإذن الله تعالى.

---

(1) سورة يونس، الآية ٣٩.

(2) بوزن قرأ لغة أهل الحجاز، كما سبقت الإشارة إليه.

وفي قوله ﷺ: «وكذب بطن أخيك» إشارة إلى أن هـذا الدواء نافع، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء في الشفاء، ولكن لكثرة المادة الفاسدة، فمن ثم أمره بمعاودة شرب العسل لاستفراغها.

وقال بعضهم: إن العسل تارة يجري سريعاً إلى العروق وينفذ معه جل الغـذاء ويدر البـول فيكون قـابضاً، وتـارة يبقى في المعدة فيهيجها بلذعة لها حتى تدفع ويسهل البطن فيكون مسهلاً، فإنكـار وصفه بالمسهل مطلقاً قصور من المنكر.

وقال ابن الجوزي: في وصفه ﷺ العسل لهـذا المسهل أربعـة أقوال:

أحدها: أن حمل الآية على عمومها في الشفاء أولى، وإلى ذلك أشار بقوله: صدق الله، أي في قوله: ﴿**فيه شفاء للناس**﴾ فلما نبه على هذه الحكمة تلقاها بالقبول فشفي بإذن الله تعالى.

الثاني: أن الوصف المذكور على المألوف من عادتهم من التداوي بالعسل من الأمراض كلها.

الثالث: أن الموصوف له ذلك كانت به هيضة، كما تقدم تقريره.

الرابع: يحتمل أن يكون أمره بطبخ العسل قبل شربه، فـإنه يعقد البلغم، فلعله شربه أو لا بغير طبخ، انتهى.

والثاني والرابع ضعيفان.

ويؤيد الأول حديث ابن مسعـود: (عليكم بالشفـاءين العسل والقرآن) أخرجه ابن ماجه والحاكم مرفوعاً، وأخرجـه ابن أبي شيبة والحاكم موقـوفاً، ورجـاله رجـال الصحيح. وأثـر علي: إذا اشتكى

أحدكم فليستوهب من امرأته شيئاً من صداقها فليشتر به عسلاً، ثم يأخذ ماء السماء، فيجمع هنيئاً مريئاً مباركاً، أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير بسند حسن.

وروينا عنه رضي الله عنه أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه فإنه شفاء.

قال الحافظ ابن كثير، بعد أن ذكره، أي من وجوه: قال الله تعالى ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾[(١)] وقال: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾[(٢)] وقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾[(٣)] وقال في العسل ﴿فيه شفاء للناس﴾[(٤)].

ذكر طبه ﷺ في يبس الطبيعة بما يمشيه ويلينه

روى الترمذي وابن ماجه في سننه من حديث أسماء بنت عميس/ قالت: قال رسول الله ﷺ بماذا كنت تستمشين[(٥)]؟ قالت: بالشبرم، قال: حار حار [ضار ضار][(٦)] ثم قالت: استمشيت بالسنا، فقال النبي ﷺ: لو أن شيئاً كان فيه شفاء من الموت لكان في السنا. قال أبو عيسى[(٧)] هذا حديث غريب[(٨)]، وقد ذكر البخاري في تاريخه ٣٠٢/ب

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

(٢) سورة ق، الآية ٩، وقد وردت في النسخ (وأنزلنا..) وهو خطأ.

(٣) سورة النساء، الآية ٤.

(٤) سورة النحل، الآية ٦٩.

(٥) أي تطلبين مشي بطنك، أي إخراج ما فيه.

(٦) في (ط، ب، د).

(٧) أي الترمذي.

(٨) قال مخرج أحاديث زاد المعاد: في سنده جهالة ٧٤/٤.

الكبير من حديث أسماء بنت عميس مثل ما ذكره الترمذي.

وذكر أبو محمد الحميدي في كتاب «الطب» له أنه ﷺ قال: إياكم والشبرم فإنه حار حار، ضار ضار[1]، وعليكم بالسنا فتداووا به، فلو دفع الموتَ شيء لدفعه السنا.

وحكى عبد الحق الإشبيلي في كتاب «الطب النبوي» له أن المحاسبي ذكر في كتابه المسمى بـ «القصد إلى الله» أن النبي ﷺ شرب السنا بالتمر.

وفي سنن ابن ماجه، من حديث إبراهيم بن أبي عبلة قال: سمعت عبدالله بن حرام [2]، وكان ممن صلى مع رسول الله ﷺ إلى القبلتين، يقول: عليكم بالسنا والسنوت فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام، قيل: يا رسول الله وما السام؟ قال: الموت[3].

قالوا: والشبرم: قشر عرق شجرة، وهو حار يابس في الدرجة الرابعة، وهو من الأدوية التي منع الأطباء من استعمالها لخطرها وفرط إسهالها.

وأما السنا: فهو نبت حجازي، وأفضله المكي، وهو دواء شريف مأمون الغائلة، قريب من الاعتدال، حار يابس في الدرجة الأولى، يسهل الصفراء أو السوداء، ويقوي جرم القلب، وهذه فضيلة شريفة، ومن خاصيته النفع في الوسواس السوداوي.

---

(١) كذا في (ط د) وفي (أ. ش) ذكر «ضار» مرة فقط، وفي (ب) قدم كلمتي ضار على كلمتي حار.

(٢) كذا في جميع النسخ، قال الشارح وصوابه: عبدالله بن أم حرام، كما في الإصابة والتقريب.

(٣) فيه عمرو بن بكير، اتهمه ابن حبان، وقال ابن عدي له مناكير.

قال الرازي: السنا والشاهترج يسهلان الأخلاط المحترقة وينفعان في الجرب والحكة، قال والشربة من كل واحد منهما من أربعة دراهم إلى سبعة دراهم.

وأما السنوت، فقيل هو العسل، وقيل: رب عكة السمن يخرج خطوطاً سوداً على السمن، وقيل: حب يشبه الكمون وليس به، وقيل: هو الكمون الكرماني، وقيل: إنه الرازيانج، وقيل إنه الشبث، وقيل إنه العسل الذي يكون في زقاق السمن.

قال بعض الأطباء: وهذا أجدر بالمعنى وأقرب إلى الصواب، أي: يخلط السنا مدقوقاً بالعسل المخالط للسمن، ثم يلعق فيكون أصلح من استعماله مفرداً، لما في العسل والسمن من إصلاح السنا وإعانته على الإسهال.

ذكر طبه ﷺ للمفؤود

وهو الذي أصيب فؤاده، فهو يشتكيه كالمبطون.

روى أبو داود عن سعد قال: مرضت مرضاً، فأتاني رسول الله ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثدييَّ حتى وجدت بردها على فؤادي، وقال لي: إنك رجل مفؤود، فائت الحارث بن كلدة[١] من ثقيف فإنه رجل متطبب، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة فليجأهن[٢] بنواهن ثم ليلد بهن الفؤاد[٣].

---

(١) قال ابن أبي حاتم: لا يصح إسلامه.

(٢) يدقهن.

(٣) الحاصل: أنه ﷺ وصف الدواء، وكانت مهمة الحارث صنعه.

وهذا الحديث من الخطاب العام الذي أريد به الخاص، كأهل المدينة ومن جاورهم. والتمر لأهل المدينة كالحنطة لغيرهم.

و«اللدود»: ما يسقاه الإنسان من أحد جانبي الفم.

وفي التمر خاصية عجيبة لهذا الداء، سيما أهل المدينة، ولا سيما العجوة، وفي كونها سبعاً خاصية أخرى تدرك بالوحي.

وفي الصحيحين (من تصبح بسبع تمرات عجوة من تمر العالية لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر).

ذكر طبه ﷺ لذات الجنب

في البخاري مرفوعاً (عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفية، منها ذات الجنب)[1].

وفي الترمذي من حديث زيد بن أرقم قال: قال ﷺ: تداووا من ذات الجنب بالقسط البحري والزيت.

واعلم أن ذات الجنب هو ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأعضاء، وقد يطلق على ما يعرض في نواحي الجنب من رياح غليظة تحتقن بين الصفاقات/ والعضل الذي في الصدر والأضلاع، فيحدث وجعاً. ١/٣٠٣

فالأول هو ذات الجنب الحقيقي، الذي تكلم عليه الأطباء، قالوا: ويحدث بسببه خمسة أمراض: الحمى والسعال والنخس وضيق النفس والنبض المنشاري[2].

(١) وكذا رواه مسلم.
(٢) أي تتحرك العروق حركة شديدة لأعلى وأسفل حركة تشبه حركة المنشار.

ويقال لذات الجنب أيضاً: وجع الخاصرة، وهو من الأمراض المخوفة، لأنها تحدث بين القلب والكبد، وهو من سيء الأسقام. والمراد بذات الجنب هنا الثاني، لأن القسط وهو العود الهندي هو الذي يداوي به الريح الغليظة.

وقد حكى الإمام ابن القيم عن المسيحي أنه قال: العود حار يابس قايض، محبس للبطن، ويقوي الأعضاء الباطنة، ويطرد الريح ويفتح السدد، ويذهب فضل الرطوبة، نافع من ذات الجنب، جيد للدماغ. قال: ويجوز أن ينفع من ذات الجنب الحقيقية أيضاً إذا كانت ناشئة عن مادة بلغمية، ولا سيما في وقت انحطاط العلة.

ذكر طبه ﷺ لداء الاستسقاء

عن أنس قال: قدم رهط من عرينة وعكل على النبي ﷺ، فاجتووا[1] المدينة فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من ألبانها وأبوالها، فلما صحوا عمدوا إلى الرعاة فقتلوهم واستاقوا الإبل، وحاربوا الله ورسوله، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم، فأخذوا فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وألقاهم في الشمس حتى ماتوا. رواه الشيخان.

واعلم أن الاستسقاء مرض مادي، سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء فتربو بها، إما الأعضاء الظاهرة كلها، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأخلاط.

وأقسامه ثلاثة: لحمي، وهو أصعبها، وهو الذي يربو معه لحم

---

(١) أي أصابهم الجوى، وهو داء الجوف إذا تطاول، أو كرهوا الإقامة بها لما فيها من الوباء، أو لم يوافقهم طعامها.

جميع البدن بمادة بلغمية تفشو مع الدم في الأعضاء. وزقي: وهو الذي يجتمع منه في البطن الأسفل مادة مائية رديئة يسمع لها عند الحركة خضخضة كالماء في الزق، وهو أردأ أنواعه عند أكثر الأطباء، وطبلي: وهو الذي ينتفخ معه البطن بمادة ريحية، إذا ضربت عليه سمعت له صوتاً كصوت الطبل.

وإنما أمرهم ﷺ بشرب ذلك، لأن في لبن اللقاح جلاء وتليينا وإدراراً وتلطيفاً وتفتيحاً للسدد، إذ كان أكثر رعيها الشيح والقيصوم والبابونج والأقحوان والإذخر وغير ذلك من الأدوية النافعة للاستسقاء خصوصاً إذا استعمل بحرارته التي يخرج بها من الضرع، مع بول الفصيل، وهو حار كما يخرج من الحيوان، فإن ذلك مما يزيد في ملوحة اللبن وتقطيعه الفضول وإطلاقه البطن.

[علاج لضعف المعدة وغيره]

وأما ضعف المعدة فذكر ابن الحاج في المدخل: أن بعض الناس مرض بمعدته، فرأى الشيخ الجليل أبو محمد المرجاني النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء، وهو أن يأخذ كل يوم على الريق وزن درهم من الورد المربى، ويكون ملتوتاً بالمصطكى بعد دقها ويجعل فيها سبع حبات من الشونيز، يفعل ذلك سبعة أيام ففعله فبرىء.

ومرض بعض الناس ببرد المعدة فرأى الشيخ المرجاني أيضاً النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء: أوقية ونصف أوقية عسل نحل، ودرهمين شونيز، ومثلها أنيسون[1]، ونصف أوقية من النعنع الأخضر، ومن القرنفل نصف درهم، ومن القرفة نصف درهم، وشيء من قشر

(١) في ط: أنسرنا.

الليمون، مع قليل من الخل، ويعقد ذلك على النار، فاستعمله فبرىء.

ومرض آخر بسلس الريح، فرأى الشيخ المرجاني النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء: شونيز ثلاثة دراهم، ومن خزامى درهمين ونصف، ومن الكمون الأبيض ثلاثة دراهم، ومثله من السعتر الشامي ومثله من الغليا، ووزن درهم من البلوط وهو ثمرة الفؤاد، وأوقية من الزيت المرقي تجعل فيه من عسل النحل ما يعقد به وهو ربع رطل، ويؤخذ منه غدوة النهار وزن درهمين على الريق، وعند النوم وزن درهم ونصف، فاستعمله فبرىء. ثم إنه/ ﷺ بعد ذلك قال في النوم لذلك الشخص الذي أخبره بهذا الدواء إنه ينفع لأدواء هي: الريح، وسلس الريح، والمعدة وبرودتها، ووجع الفؤاد وألم الحيض، وألم النفاس، وتعقد الرياح.

٣٠٣/ب

والزيت المرقي: صفته أن تأخذ شيئاً من الزيت الطيب، وتجعله في إناء نظيف وتحركه بعود، وتقرأ عليه سورة الإخلاص والمعوذتين، و﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ إلى آخر السورة ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل**﴾ إلى آخر السورة.

وحصل لآخر قولنج، فرأى الشيخ المرجاني النبي ﷺ فأشار بهذا الدواء: وهو أن يأخذ ثلاثة دراهم من عسل النحل، ووزن درهم ونصف من الزيت المرقي، وإحدى وعشرين حبة من الشونيز ويخلط الجميع ثم يفطر عليه، ويفعل مثله عند النوم، يفعل ذلك حتى يبرأ، وتعمل له التلبينة ويستعملها بعد إن يفطر على ذلك، والتلبينة حساء يعمل من دقيق أو نخالة، وربما عمل فيها عسل، ويكون غذاؤه مصلوقة الدجاج أو لحم الضأن، ففعله فبرىء بعد أن أعيى الأطباء.

ومرض آخر بوجع الظهر، فشكا ذلك للشيخ فرأى النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء، وهو عسل نحل وشونيز ودهن الألية والزيت المرقي، ورقيق البيضة، ويخلط ذلك كله، ويمده على الموضع ويدر عليه دقيق العدس بقشرة مع الحرمل بعدما يدق دقاً ناعماً حتى يعود مثل الدقيق. ففعله فبرىء.

وشكا بعض الناس الدوخة في رأسه فرأى الشيخ النبي ﷺ في النوم فأشار إلى هذا الدواء: قرنفل وزنجبيل وقرفة وجوزة طيب وسنبل، من كل واحد درهم ونصف، وشونيز درهمين، يدق الجميع ثم يطبخ ويعقد بعسل النحل، فإذا قرب استواؤه عصر عليه قليل ليمون، فيكون عسل النحل غالباً عليه، ففعله فبرأ، انتهى.

وهذا وإن كان مناماً فقد عضدته التجربة مع إرشاد الشيخ المرجاني لذلك(1).

ذكر طبه ﷺ من داء عرق النسا

وهو بفتح النون والمهملة، المرض الحال بالعرق، والإضافة فيه من باب إضافة الشيء إلى محله. قيل: وسمي بذلك لأن ألمه ينسى ما سواه. وهذا العرق ممتد من مفصل الورك وينتهي إلى آخر القدم وراء الكعب.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق في كل يوم جزءاً. رواه ابن ماجه.

وهذا الدواء خاص بالعرب وأهل الحجاز ومن جاورهم، وهو

---

(1) أقول: عجيب أمر هذه المنامات للشيخ المرجاني؟! [م].

أنفعه لهم، لأن هذا المرض يحدث عن يبس، وقد يحدث من مادة غليظة لزجة، فعلاجها بالإسهال. والألية فيها الخاصيتان: الإنضاج والتليين. وهذا المرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين. وفي تعيين الشاة الأعرابية، قلة فضولها وصغر مقدارها ولطف جوهرها، وخاصية مرعاها، لأنها ترعى أعشاب البر الحارة، كالشيح والقيصوم ونحوهما، وهذه إذا تغذى بها الحيوان صار في لحمه من طبعها، بعد أن يلطفه تغذية، ويكسبها مزاجاً ألطف منها ولا سيما الألية.

ذكر طبه ﷺ من الأورام والخراجات

بالبط والبزل، يذكر عن علي رضي الله عنه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على رجل يعوده، بظهره ورم، فقالوا: يا رسول الله، هو بهذه مدة، فقال: بطوا عنه، قال علي: فما برحت حتى بطت، والنبي ﷺ شاهد[1].

ذكر طبه ﷺ بقطع العروق والكي

روى البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبدالله، أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عرقاً وكواه عليه.

وأخرج مسلم عن جابر: لما رمي سعد بن معاذ في أكحله، حسمه[2] النبي ﷺ.

وروى الطحاوي، وصححه الحاكم عن أنس قال/: كواني أبو طلحة في زمن النبي ﷺ. ١/٣٠٤

(١) في سنده أبو الربيع السمان وهو ضعيف. وأخرجه أبو يعلى [قاله مخرج أحاديث زاد المعاد ٤/١١٤].

(٢) أي قطع دمه بالكي.

وعند الترمذي: أنه ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة[1].

وروى مسلم عن عمران بن حصين قال: كان يُسلَم علي حتى اكتويت فتُرِكت، ثم تركت فعاد. وفي رواية[2]: إن الذي كان انقطع عني رجع إلي، يعني تسليم الملائكة.

وروى أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران: نهى رسول الله ﷺ عن الكي، فاكتوينا فما أفلحنا ولا أنجحنا، الحديث[3].

وإنما يستعمل الكي في الخلط الباغي[4] الذي لا تحسم مادته إلا به، ولهذا وصفه ﷺ ثم نهى[5] عنه، وإنما كرهه لما فيه من الألم الشديد والخطر العظيم، ولهذا كانت العرب تقول في أمثلتها: آخر الدواء الكي.

والنهي فيه محمول على الكراهة أو على خلاف الأولى، لما يقتضيه مجموع الأحاديث، وقيل: إنه خاص بعمران لأنه كان به الباسور، وكان موضعه خطراً فنهاه عن كيه، فلما اشتد عليه كواه فلم ينجح.

وقال ابن قتيبة: الكي نوعان: كي الصحيح لئلا يعتل، فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكل من اكتوى. لأنه يريد أن يدفع القدر، والقدر لا يدافع، والثاني: كي الجرح إذا فسد، والعضو إذا قطع، فهو الذي شرع التداوي له، فإن كان الكي لأمر محتمل فهو خلاف

---

(١) هي حمرة تعلو الوجه.
(٢) لمسلم أيضاً.
(٣) كذا في النسخ، وهذا يعني أن له بقية، قال الشارح: وليس له بقية.
(٤) المتجاوز في خروج الدم.
(٥) روى البخاري مرفوعاً برقم (٥٦٨٠) (الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي).

الأولى لما فيه من تعجيل التعذيب بالنار لأمر غير محقق.

وحاصل الجمع:[1] أن الفعل يدل على الجواز، وعدم الفعل لا يدل على المنع بل يدل على أن تركه أرجح من فعله، ولذا وقع الثناء على تاركه، وأما النهي عنه فإما على سبيل الاختيار والتنزيه، وإما عما لا يتعين طريقاً إلى الشفاء.

وقال بعضهم: إنما نهى عنه مع إثباته الشفاء فيه إما لكونهم كانوا يرون أنه يحسم الداء بطبعه فكرهه لذلك، ولذلك كانوا يبادرون إليه قبل حصول الداء لظنهم أنه يحسم الداء، فيتعجل الذي يكتوي التعذيب بالنار لأمر مظنون.

قال في فتح الباري: ولم أر في أثر صحيح أن النبي ﷺ اكتوى، إلا أن القرطبي نسب إلى كتاب آداب النفوس للطبري أن النبي ﷺ اكتوى، وذكره الحليمي بلفظ: وروي أنه اكوى للجرح الذي أصابه بأحد. قال الحافظ ابن حجر: والثابت في الصحيح في غزوة أحد أن فاطمة أحرقت حصيراً فحشت به جرحه، وليس هذا الكي المعهود.

ذكر طبه ﷺ من الطاعون

قال الخليل: الطاعون الوباء، وقال ابن الأثير: الطاعون المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان، وقال القاضي أبو بكر بن العربي: الطاعون، الوجع الغالب الذي يطفىء الروح، سمي بذلك لعموم مصابه وسرعة قتله، وقال أبو الوليد الباجي: وهو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من أمراض الناس. وقال القاضي عياض: أصل

(١) أي بين الأحاديث.

الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض فسميت طاعوناً تشبيهاً بها في الهلاك. وقال النووي في تهذيبه: هو بثر وورم مؤلم جداً ويخرج مع لهب، ويسود ما حوله أو يخضر أو يحمر حمرة شديدة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان وقيء، ويخرج غالباً في المراق[1] والآباط، وقد يخرج في الأيدي والأصابع وسائر البدن.

وقال ابن سينا: الطاعون مادة سمية تحدث ورماً قتالاً يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن، وأغلب ما يكون تحت الإبط، أو خلف الأذن، أو عند الأربية[2]، وسببه ورم رديء يستحيل إلى جوهر سمي يفسد العضو، ويغير ما يليه، ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة تحدث القيء والغثيان والغشي والخفقان، وهو لرداءته لا يقبل من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع، وأردؤه ما يقع في الأعضاء الرئيسة، والأسود منه قلَّ من يسلم منه، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر، والطواعين تكثر عن الوباء في البلاد الوبيئة، ومن ثم أطلق على الطاعون وباء وبالعكس، وأما الوباء: فهو فساد جواهر الهواء الذي هو مادة الروح/ ومدده. ٣٠٤/ب

والحاصل: أن حقيقته ورم ينشأ عن هيجان الدم وانصباب الدم إلى عضو فيفسده، وأن غير ذلك من الأمراض العامة الناشئة عن فساد الهواء، يسمى طاعوناً بطريق المجاز، لاشتراكهما في عموم المرض أو كثرة الموت.

والدليل على أن الطاعون يغاير الوباء، أن الطاعون لم يدخل

---

(١) أي ما لان من البدن.
(٢) أي أصل الفخذ.

المدينة النبوية، وقد قالت عائشة: دخلنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، وقال بلال: أخرجونا إلى أرض الوباء.

والطاعون: من طعن الجن، وإنما لم يتعرض له الأطباء لكونه من طعن الجن، لأنه أمر لا يدرك بالعقل، وإنما عرف من الشارع، فتكلموا في ذلك على ما اقتضته قواعدهم، وإنما يؤيد أن الطاعون إنما يكون من طعن الجن وقوعه غالباً في أعدل الفصول، وفي أصح البلاد هواء، وأطيبها ماء، ولأنه لو كان بسبب فساد الهواء لدام في الأرض لأن الهواء يفسد تارة ويصح أخرى، والطاعون يذهب أحياناً ويجيء أحياناً على غير قياس ولا تجربة، فربما جاء سنة على سنة، وربما أبطأ سنين، وبأنه لو كان كذلك لعم الناس والحيوان، والموجود بالمشاهدة أنه يصيب الكثير، ولا يصيب من هم بجانبهم ممن هو في مثل مزاجهم، ولو كان كذلك لعم جميع البدن، وهذا يختص بموضع دون موضع من الجسد لا يجاوزه، ولأن فساد الهواء يقتضي تغير الأخلاط وكثرة الأسقام، وهذا في الغالب يقتل غالباً بلا مرض، فدل على أنه من طعن الجن. كما ثبت في الأحاديث الواردة في ذلك.

منها حديث أحمد والطبراني عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال: سألت عنه رسول الله ﷺ فقال هو وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة.

وقال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: يقع[1] في الألسنة، وهو في النهاية تبعاً لغريبي الهروي[2] بلفظ «وخز إخوانكم» ولم أره بلفظ

---

(١) أي هذا الحديث.

(٢) أي كتابه المؤلف في غريبي القرآن والحديث.

«إخوانكم» بعد التتبع الطويل البالغ في شيء من طرق الحديث المسندة، لا في الكتب المشهورة ولا في الأجزاء المنثورة، وقد عزاه بعضهم لمسند أحمد والطبراني أو كتاب الطواعين لابن أبي الدنيا، ولا وجود لذلك في واحد منها والله أعلم. انتهى.

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه.

وقد ذكر العلماء في النهي عن الخروج حكماً.

منها: أن الطاعون في الغالب يكون عاماً في البلد الذي يقع به، فإذا وقع فالظاهر مداخلة سببه لمن هو بها، فلا يفيده الفرار، لأن المفسدة إذا تعينت حتى لا يقع الانفكاك عنها كان الفرار عبثاً فلا يليق بالعاقل.

ومنها: أن الناس لو تواردوا على الخروج لصار من عجز عنه بالمرض المذكور أو بغيره ضائع المصلحة، لفقد من يتعهده حياً وميتاً.

وأيضاً: لو شرع الخروج. فخرج الأقوياء لكان في ذلك كسر قلوب الضعفاء، وقد قالوا: إن حكمة الوعيد في الفرار من الزحف لما فيه من كسر قلب من لم يفر، وإدخال الرعب عليه بخلافه.

وقد جمع الغزالي بين الأمرين فقال: الهواء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن، بل من حيث دوام الاستنشاق، فيصل إلى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر إلا بعد التأثير في الباطن، فالخارج من البلد الذي يقع فيه لا يخلص غالباً مما استحكم به،

وينضاف إلى ذلك أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لبقي المرضى لا يجدون من يتعاهدهم فتضيع مصالحهم.

ومنها: ما ذكره بعض الأطباء: أن المكان الذي يقع به الوباء تتكيف أمزجة أهله بهواء تلك البقعة فتألفها وتصير لهم كالأهوية الصحيحة لغيرهم فلو انتقلوا إلى الأماكن الصحيحة لم توافقهم، بل ربما إذا استنشقوا هواءها استصحب معه إلى القلب من الأبخرة الرديئة التي حصل تكيف بدنها بها فأفسدته فمنع من الخروج لهذه النكتة.

ومنها: أن الخارج يقول: لو أقمت/ لأصبت، والمقيم يقول: لو خرجت لسلمت، فيقع اللوم المنهي عنه[1]. ١/٣٠٥

وقال العارف ابن أبي جمرة: البلاء إنما يقصد به أهل البقعة، لا البقعة نفسها، فمن أراد الله تعالى إنزال البلاء به فهو واقع بـه لا محالة، فأينما توجه يدركه، فأرشدنا الشارع إلى عدم النصب.

وقال ابن القيم[2]: جمع ﷺ للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي هو بها، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه، كمال التحرز منه، فإن في الدخول في الأرض التي هو فيها تعرضاً للبلاء وموافاة له في محل سلطانه، وإعانة الإنسان على نفسه، وهذا مخالف للشرع والعقل، بل تجنب الدخول إلى أرضه من بـاب الحمية التي أرشـد الله تعالى إليها، وهي حمية من الأمكنة والأهوية المؤذية، وأما نهيه عن الخروج من بلده ففيه معنيان.

أحدهما: حمل النفوس عـلى الثقة بـالله تعالى والتـوكل عليـه، والصبر على أقضيته والرضى.

---

(١) جاء في الحديث (إياك و«لو» فإن «لو» من الشيطان) رواه مسلم.

(٢) في زاد المعاد ٤/٤٢.

والثاني: ما قاله أئمة الطب أنه يجب على من كان يحترز من الوباء أن يخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه، والخروج من أرض الوباء والسفر منها لا يكون إلا بحركة شديدة، وهي مضرة جداً. هذا كلام أفضل المتأخرين من الأطباء، فظهر المعنى الطبي من الحديث النبوي، وما فيه من علاج القلب والبدن وصلاحهما، انتهى.

ذكر طبه ﷺ من السلعة

أخرج البخاري في تاريخه، والطبراني والبيهقي عن شرحبيل الجعفي قال: أتيت النبي ﷺ وبكفي سلعة[1]، فقلت يا رسول الله قد آذتني، تحول بيني وبين قائم السيف أن أقبض عليه وعنان الدابة، فنفث في كفي، ووضع كفه على السلعة فما زال يطحنها[2] بكفه حتى رفعها عنها وما أرى أثرها.

ومسح ﷺ وجه أبيض بن جمال وكان به القوباء[3] فلم يمس من ذلك اليوم ومنها أثر، رواه البيهقي وغيره.

ذكر طبه ﷺ من الحمى

روى البخاري[4] من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء البارد).

---

(١) شيء كالغدة في كفه يتحرك بالتحريك، غير ملتصق باللحم ولها غلاف ويقبل الزيادة.

(٢) أي يدلكها.

(٣) قال الشارح: داء معروف.

(٤) ورواه مسلم.

واختلف في نسبتها إلى جهنم، فقيل: حقيقة، واللهب الحاصل في جسم المحموم قطعة من جهنم، وقدر الله ظهورها بأسباب تقتضيها ليعتبر العباد بذلك، كما أن أنواع الفرح واللذة من نعيم الجنة، أظهرَها في هذه الدار عبرة ودلالة.

وقيل: الخبر ورد مورد التشبيه، والمعنى: أن حر الحمى شبيه بحر جهنم، تنبيهاً للنفوس على شدة حر النار، وأن هذه الحرارة الشديدة شبيهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها.

قوله «فأطفئوها» بهمزة قطع، أمر من: أطفأ.

وروى الطبراني (الحمى حظ المؤمن من النار).

وفي رواية نافع عن ابن عمر، عند الشيخين: قال رسول الله ﷺ (إن الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء) بهمزة وصل والراء مضمومة على المشهور وحكي كسر الراء. وفي رواية ابن ماجه[1] (بالماء البارد).

وفي رواية أبي جمرة - بالجيم - عند البخاري، قال: كنت أجالس ابن عباس بمكة، فأخذتني الحمى، فاحتبست أياماً، فقال: ما حبسك؟ فقلت: الحمى، قال: أبردها بماء زمزم، فإن رسول الله ﷺ قال: الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء، أو بماء زمزم، شك[2].

قال ابن القيم: قوله «بالماء» فيه قولان: أحدهما: أنه كل ماء، وهو الصحيح. والثاني: أنه ماء زمزم. ثم قال بعد أن روى حديث أبي جمرة هذا، وراوي هذا قد شك فيه، ولو جزم به لكان أمراً لأهل

(١) هو من حديث أبي هريرة لا من حديث ابن عمر كما يوهمه المصنف.

(٢) شك همام راوي الحديث عن أبي جمرة [م].

مكة بماء زمزم، إذ هو متيسر عندهم، وأخبرهم بما عندهم من الماء[1]، انتهى.

وتعقب: بأنه وقع في رواية أحمد عن عفان بن همام: (فابردوها بماء زمزم) ولم يشك، وكذا أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم.

قال ابن القيم: واختلف من قال إنه على عمومه: هل المراد به الصدقة بالماء أو استعماله على قولين، والصحيح أنه استعماله، وأظن أن الذي حمل من قال إن المراد به الصدقة به أنه أشكل عليه استعمال الماء البارد في الحمى/ . ولم يفهم وجهه، مع أن لقوله وجهاً حسناً وهو أن الجزاء من جنس العمل، فكما أخمد لهيب العطش عن الظمآن بالماء البارد أخمد الله لهيب الحمى عنه جزاء وفاقاً، انتهى.

٣٠٥/ب

وقال الخطابي وغيره: اعترض بعض سخفاء الأطباء على هذا الحديث، بأن اغتسال المحموم بالماء خطر يقربه من الهلاك، لأنه يجمع المسام، ويحقن البخار ويعكس الحرارة التي في داخل الجسم، فيكون ذلك سبباً للتلف. وقد غلط بعض من ينسب إلى العمل[2]، فانغمس في الماء لما أصابته الحمى، فاحتقنت الحرارة في باطن بدنه، فأصابته علة صعبة كادت تهلكه، فلما خرج من علته قال قولاً سيئاً لا يحسن ذكره، وإنما أوقعه في ذلك جهله بمعنى الحديث.

والجواب: أن هذا الإشكال[3] صدر عن صدر مرتاب في صدق

---

(١) هذه الجملة هكذا في المخطوطات، وفي (ط، ش): وأمر غيرهم بما عندهم من الماء، وفي الأصل ـ زاد المعاد ـ : ولغيرهم بما عندهم من الماء.
(٢) كذا في جميع النسخ، والذي في فتح الباري: إلى العلم، والمقصود: العلم بالأحاديث.
(٣) في (ا، د، ط): استشكال.

الخبر، فيقال له أولاً: من أين حملت الأمر على الاغتسال، وليس في الحديث الصحيح بيان الكيفية فضلاً عن اختصاصها بالغسل، وإنما في الحديث الإرشاد إلى تبريد الحمى بالماء، فإن أظهر الوجود أو اقتضت صناعة الطب أن انغماس كل محموم في الماء أو صبه إياه على جميع بدنه يضره فليس هو المراد، وإنما قصده ﷺ استعمال الماء على وجه ينفع فليبحث عن ذلك الوجه ليحصل الانتفاع به، وهذا كما وقع في أمره العائن بالاغتسال وأطلق، وقد ظهر من الحديث الآخر أنه لم يرد مطلق الاغتسال، وإنما أراد الاغتسال على كيفية مخصوصة، وأولى ما يحمل عليه كيفية تبريد الحمى بالماء ما صنعته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: فإنها كانت ترش على بدن المحموم شيئاً من الماء بين ثدييه وثوبه، فيكون ذلك من باب النشرة المأذون فيها، والصحابي ولا سيما مثل أسماء بنت أبي بكر التي هي كانت تلازم بيت النبي ﷺ أعلم بالمراد من غيرها.

وقد ذكر أبو نعيم وغيره، من حديث أنس يرفعه: إذا حم أحدكم فليرش عليه الماء البارد ثلاث ليال من السحر.

وقال المازري: لا شك أن علم الطب من أكثر العلوم احتياجاً إلى التفصيل حتى إن المريض يكون الشيء دواءه في ساعة فيكون داءه في الساعة التي تليها لعارض يعرض له من غضب يحمي مزاجه مثلاً فيتغير علاجه، ومثل ذلك كثير. فإذا فرض وجود الشفاء لشخص بشيء في حالة ما لم يلزم منه وجود الشفاء به له أو لغيره في سائر الأحوال. والأطباء مجمعون على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السن والزمان والعادة والغذاء المتقدم والتأثير المألوف، وقوة الطباع. ويحتمل أن يكون هذا في وقت مخصوص فيكون من الخواص

التي اطلع عليها النبي ﷺ بالوحي، ويضمحل عند ذلك جميع كلام أهل الطب.

وجعل ابن القيم خطابه ﷺ في هذا الحديث خاصاً لأهل الحجاز وما والاهم، إذ كان أكثر الحميات التي تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية، الحادثة من شدة حرارة الشمس. قال: هذه ينفعها الماء البارد شرباً واغتسالاً، لأن الحمى حراة غريبة تشتعل في القلب، وتنتشر منه بتوسط الروح والدم في العروق إلى جميع البدن وهي قسمان: عرضية وهي الحادثة عن ورم أو حركة أو إصابة حرارة الشمس، أو القيظ الشديد ونحو ذلك، ومرضية وهي ثلاثة أنواع، وتكون عن مادة، ثم منها ما يسخن جميع البدن، فإن كان مبدأ تعلقها بالروح فهي حمى يوم، لا تقلع غالباً في يوم ونهايتها إلى ثلاث[1]، وإن كان تعلقها بالأعضاء الأصلية فهي حمى دق، وهي أخطرها، وإن كان تعلقها بالأخلاط سميت عفينية، وهي بعدد الأخلاط الأربعة: أعني صفراوية، سوداوية، بلغمية، دموية[2]، وتحت هذه الأنواع المذكورة أصناف كثيرة بسبب الأفراد والتركيب. انتهى.

١/٣٠٦ وإذا تقرر هذا فيجوز أن يكون المراد النوع الأول. / فإنها تسكن بالانغماس في الماء البارد، وشرب الماء المبرد بالثلج وبغيره، ولا يحتاج إلى علاج آخر.

وقد قال جالينوس: لو أن شاباً خشن اللحم خصب البدن ليس

---

(١) كذا في جميع النسخ، وعبارة زاد المعاد: حمى يوم، لأنها في الغالب تزول في يوم ونهايتها إلى ثلاثة أيام [م].

(٢) هي في زاد المعاد بوجود «واو» العطف بينها. [زاد المعاد ٤/٢٦].

في أحشائه ورم استحم بماء بارد و سبح فيه في وقت القيظ عند منتهى الحمى لانتفع بذلك.

وقد تكرر في الحديث استعماله ﷺ الماء البارد في علته، كما في الحديث: (صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن)[1]. وفي المسند وغيره من حديث الحسن عن سمرة يرفعه (الحمى قطعة من النار فأبردوها عنكم بالماء البارد). وكان ﷺ إذا حم دعا بقربة من ماء فأفرغها على رأسه فاغتسل، وصححه الحاكم، ولكن قال[2]: في إسناده راو ضعيف.

وعن أنس رفعه: إذا حم أحدكم فليشن عليه من الماء البارد من السحر ثلاث ليال. أخرجه الطحاوي وأبو نعيم في الطب.

وأخرج الطبراني من حديث عبد الرحمن بن المرقع، رفعه: الحمى رائد الموت، وهي سجن الله في الأرض، فبردوا لها الماء في الشنان[3] وصبوه عليكم فيما بين الأذانين المغرب والعشاء. قال ففعلوا فذهب عنهم.

وقد أخرج الترمذي من حديث ثوبان مرفوعاً: إذا أصاب أحدكم الحمى وهي قطعة من النار فليطفئها عنه بالماء، يستنقع في نهر جار، ويستقبل جريته، وليقل: بسم الله، اللهم اشف عبدك، وصدق رسولك، بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس، ولينغمس فيه ثلاث

(١) أوكيتهن: جمع وكاء وهو الخيط الذي يربط به. والحديث في الصحيح بلفظ: هريقوا...

(٢) سقط من قلم المصنف هنا كلمة (غيره) فليس من المعقول أن يصححه ويقول عنه ضعيف.

(٣) جمع شن: وهو القربة البالية.

غمسات، ثلاثة أيام، فإن لم يبرأ فخمس، وإلا فسبع، وإلا فتسع، فإنها لا تكاد تجاوز تسعاً بإذن الله. قال الترمذي: غريب، وفي سنده سعيد بن زرعة مختلف فيه.

ذكر طبه ﷺ من حكة الجسد وما يولد القمل

لما كانت الحكة لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة رخص ﷺ للزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف في لبس الحرير لحكة كانت بهما، كما في البخاري عن قتادة أن أنساً حدثهم أن النبي ﷺ رخص لعبد الرحمن بن عوف والزبير في قميص من حرير من حكة كانت بهما.

وفي رواية[1] أن عبد الرحمن والزبير شكيا إلى النبي ﷺ - يعني القمل - فأرخص لهما في الحرير، فرأيته عليهما في غزاة.

وفي رواية[2] رخص النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام في الحرير.

وفي رواية[3] رخص النبي ﷺ، أو رُخِصَ لحكة كانت بهما.

ويحتمل أن تكون إحدى العلتين بأحد الرجلين، أو أن الحكة حصلت من القمل فنسبت العلة تارة إلى السبب وتارة إلى المسبب.

قال النووي: هذا الحديث صريح في الدلالة لمذهب الشافعي وموافقيه: أنه يجوز لبس الحرير للرجل إذا كانت به حكة لما فيه من

---

(١) للبخاري.

(٢) للبخاري.

(٣) للبخاري.

البرودة، وكذا للقمل وما في معنى ذلك. وقال مالك: لا يجوز، وهذا الحديث حجة عليه، انتهى.

وتعقب قوله: «لما فيه من البرودة» بأن الحرير حار.

والصواب: أن الحكمة فيه إنما هي لخاصية فيه تدفع الحكة والقمل.

وقال ابن القيم: وإذا اتخذ منه ملبوس كان معتدل الحرارة في مزاجه، مسخناً للبدن، وربما برد البدن بتسمينه إياه.

وقال الرازي: الابريسم أسخن من الكتان وأبرد من القطن، يربي اللحم، وكل لباس خشن فإنه يهزل ويصلب البشرة، فملابس الأوبار والأصواف تسخن وتدفىء وملابس الكتان والحرير والقطن تدفىء ولا تسخن، فثياب الكتان باردة يابسة، وثياب الصوف حارة يابسة، وثياب القطن معتدلة الحرارة، وثياب الحرير ألين من ثياب القطن وأقل حرارة منه، ولما كانت ثياب الحرير ليس فيها من اليبس والخشونة كغيرها صارت نافعة من الحكة، لأن الحكة ـ كما قدمته ـ لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة، فلذلك رخص ﷺ لهما في الحرير لمداواة الحكة.

ذكر طبه ﷺ من السم الذي أصابه بخيبر

تقدم في غزوتها قصة اليهودية التي أهدت إليه الشاة المسمومة، وقد روى عبد الرزاق عن معمر/ عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن امرأة يهودية أهدت للنبي ﷺ شاة مصلية بخيبر، فقال: ما هذه؟ قالت: هدية، وحذرت أن تقول صدقة فلا يأكل. فأكل النبي ﷺ وأكل أصحابه، ثم قال: أمسكوا، ثم قال للمرأة:

٣٠٦/ب

هل سميت هذه الشاة؟ قالت من أخبرك؟ قال: هذا العظم، لساقها، وهو في يده، قالت: نعم، قال: لِمَ؟ قالت: أردت إن كنت كاذباً أن يستريح منك الناس، وإن كنت نبياً لم يضرك. قال: فاحتجم النبي ﷺ ثلاثاً على كاهله.

وقد ذكروا في علاج السم أنه يكون بالاستفراغات وبالأدوية التي تعارض فعل السم وتبطله، إما بكيفياتها وإما بخواصها، فمن عدم الدواء فليبادر إلى الدواء الكلي، وأنفعه الحجامة، ولا سيما إذا كان البلد حاراً، فإن القوة السمية تسري في الدم، فتبعثه في العروق والمجاري، حتى تصل إلى القلب والأعضاء، فإذا بادر المسموم وأخرج الدم خرجت معه تلك الكيفية السمية التي خالطته، فإن كان استفراغاً تاماً لم يضره السم، بل إما أن يذهب، وإما أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة فتبطل فعله، أو تضعفه.

ولما احتجم ﷺ احتجم على الكاهل، لأنه أقرب إلى القلب، فخرجت المادة السمية مع الدم، لا خروجاً كلياً بل بقي أثرها مع ضعفه لما يريد الله تعالى من تكميل مراتب الفضل كلها له بالشهادة زاده الله فضلاً وشرفاً.

النوع الثالث

في طبه ﷺ بالأدوية المركبة من الإلهية والطبيعية

ذكر طبه ﷺ من القرحة والجرح وكل شكوى

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول للمريض: بسم الله تربة أرضنا، وريقة بعضنا، يشفى سقيمنا[1].

وفي رواية: كان يقول في الرقية [بسم الله][2] تربة أرضنا، وريقة[3] بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا. رواه البخاري.

وفي رواية لمسلم: كان إذا اشتكى الإنسان، أو كانت به قرحة أو جرح قال بإصبعه هكذا ووضع سفيان سبابته بالأرض، الحديث[4].

وقوله: «تربة أرضنا» خبر مبتدأ محذوف، أي هذه تربة أرضنا.

وقوله: «يشفى سقيمنا»: ضبط بوجهين، بضم أوله على البناء

---

(١) رواه البخاري. وهذه الرواية لم ترد في ط.

(٢) في ش.

(٣) الريق: الرضاب وماء الفم.

(٤) تتمته: ثم رفعها وقال: بسم الله.. فذكره.

للمجهول، وسقيمنا بالرفع، وبفتح أوله على أن الفاعل مقدر، وسقيمنا بالنصب على المفعولية.

قال النووي: معنى الحديث: أنه أخذ من ريق نفسه، على أصبعه السبابة، ثم وضعها على التراب فعلق بها شيء منه، ثم مسح به على الموضع العليل أو الجرح قائلاً الكلام المذكور في حالة المسح.

وقال القرطبي: زعم بعض الناس أن السر فيه أن تراب الأرض لبرودته ويبسه يبرىء الموضع الذي به الألم، ويمنع انصباب المواد إليه ليبسه، مع منفعته في تجفيف الجراح واندمالها. وقال في الريق: إنه يختص بالتحليل والإنضاج وإبراء الجرح والورم، ولا سيما من الصائم والجائع.

وتعقبه القرطبي: بأن ذلك إنما يتم إذا وقعت المعالجة على قوانينها من مراعاة مقدار التراب والريق، وملازمة ذلك في أوقاته، وإلا فالنفث ووضع السبابة على الأرض إنما يعلق بها ما ليس له بال ولا أثر، وإنما هذا من باب التبرك بأسماء الله تعالى وآثار رسوله ﷺ. وأما وضع الأصبع بالأرض فلعله لخاصية في ذلك، أو لحكمة إخفاء آثار القدرة بمباشرة الأسباب المعتادة.

وقال البيضاوي: قد شهدت المباحث الطبية على أن للريق مدخلاً في النضج وتعديل المزاج، وتراب الوطن له تأثير في حفظ المزاج ودفع الضرر، فقد ذكروا أنه ينبغي للمسافر أن يستصحب تراب/ أرضه إن عجز عن استصحاب مائها، حتى إذا ورد المياه المختلفة جعل شيئاً منه في سقائه ليأمن مضرة ذلك، ثم إن الرقى والعزائم لها آثار عجيبة تتقاعد العقول عن الوصول إلى كنهها. ١/٣٠٧

وقال التوربشتي: كأن المراد بالتربة الإشارة إلى النطفة، كأنه

تضرع بلسان الحال: إنك اخترعت الأصل الأول من التراب ثم أبدعته من ماء مهين، فهين عليك أن تشفي من كانت هذه نشأته.

وقال النووي: وقيل المراد «بأرضنا» أرض المدينة لبركتها، و«بعضنا» رسول الله ﷺ لشرف ريقه، فيكون ذلك مخصوصاً. وفيه نظر[1].

وفي حديث عائشة عند أبي داود والنسائي: أن النبي ﷺ دخل على ثابت بن قيس بن شماس وهو مريض، فقال: اكشف الباس رب الناس، ثم أخذ تراباً من بطحان فجعله في قدح ثم نفث عليه، ثم صبه عليه. قال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث تفرد به الشخص المرقي.

ذكر طبه ﷺ من لدغة العقرب:

عن عبدالله بن مسعود قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي إذ سجد فلدغته عقرب في إصبعه، فانصرف رسول الله ﷺ وقال: لعن الله العقرب، ما تدع نبياً ولا غيره، ثم دعا بإناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة في الماء والملح، ويقرأ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ والمعوذتين حتى سكنت، رواه ابن أبي شيبة في مسنده.

وقال ابن عبد البر: رقى رسول الله ﷺ من العقرب بالمعوذتين، وكان يمسح الموضع بماء فيه ملح.

وهذا طب مركب من الطبيعي والإلهي، فإن سورة الإخلاص قد جمعت الأصول الثلاثة، التي هي مجامع التوحيد، وفي المعوذتين

---

(١) إذ لا دليل على التخصيص.

استعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً. ولهذا أوصى ﷺ عقبة بن عامر أن يقرأهما عقب كل صلاة. رواه الترمذي.

وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. وقال: ما تعوذ المتعوذون بمثلهما[1].

وأما الماء والملح فهو الطب الطبيعي، فإن في الملح نفعاً لكثير من السموم ولا سيما لدغة العقرب، وفيه من القوة الجاذبة ما يجذب السموم ويحللها، ولما كان في لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد وجذب استعمل ﷺ الماء والملح لذلك.

ذكر الطب من النملة

وهي بفتح النون وإسكان الميم، قروح تخرج في الجنب، وسمي نملة لأن صاحبه يحس في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه.

وفي حديث مسلم عن أنس أنه ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة.

وروى الخلال أن الشفاء بنت عبدالله كانت ترقي في الجاهلية من النملة، فلما هاجرت إلى النبي ﷺ وكانت بايعته بمكة قالت: يا رسول الله إني كنت أرقي في الجاهلية من النملة، وأريد أن أعرضها عليك، فعرضتها فقالت: بسم الله ضلت حتى تعود من أفواهها ولا تضر أحداً، اللهم اكشف الباس رب الناس. قال: ترقي بها على عود

(١) رواه أبو داود بلفظ (يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما) برقم ١٤٦٣ [م].

سبع مرات، وتقصد به مكاناً نظيفاً وتدلكه على حجر بخل خمر حاذق وتطليه على النملة[١].

ذكر طبه ﷺ من البثرة

روى النسائي عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: عندك ذريرة[٢]؟ قلت: نعم، فدعا بها فوضعها على بثرة بين أصبعين من أصابع رجله، ثم قال: اللهم مطفىء الكبير، ومكبر الصغير، أطفئها عني، فطفئت.

ذكر طبه ﷺ من حرق النار

روى النسائي عن محمد بن حاطب قال: تناولت قدراً، فأصاب كفي من مائها، فاحترق ظهر كفي، فانطلقت بي أمي إلى النبي ﷺ، فقال: أذهب الباس رب الناس، قال: وأحسبه قال: واشف أنت الشافي وتفل.

ذكر طبه ﷺ بالحمية

وهي قسمان: حمية عما يجلب المرض، وحمية عما يزيده فيقف على حاله.

فالأولى: حمية الأصحاء.

والثانية: حمية المرضى، فإن المريض إذا احتمى/ وقف مرضه عن التزايد، وأخذت القوى في دفعه. ٣٠٧/ب

---

(١) أخرجه أبو نعيم.

(٢) المخاطب عائشة، كما في التقريب. والذريرة: نوع من الطيب.

والأصل في الحمية قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر**﴾ إلى قوله: ﴿**فتيمموا صعيداً طيباً**﴾[1] فحمى المريض من استعمال الماء لأنه يضره، كما وقعت الإشارة لذلك في أوائل هذا المقصد.

وقد قال بعض أفاضل الأطباء: رأس الطب الحمية.

والحمية للصحيح عندهم في المضرة بمنزلة التخليط للمريض والناقه[2]، وأنفع ما تكون الحمية للناقه من المرض، لأن التخليط يوجب الانتكاس، والانتكاس أصعب من ابتداء المرض.

والفاكهة تضر الناقه من المرض، لسرعة استحالتها وضعف الطبيعة عن دفعها لعدم القوة، وفي سنن ابن ماجه عن صهيب قال: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر، فقال: ادن وكل، فأخذت تمراً فأكلت، فقال أتأكل تمراً وبك رمد؟ فقلت يا رسول الله أمضغ من الناحية الأخرى، فتبسم رسول الله ﷺ.

ففيه الإشارة إلى الحمية وعدم التخليط، وأن الرمد يضر به التمر.

وعن أم المنذر بنت قيس الأنصارية قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ومعه علي، وهو ناقه من مرض، ولنا دوال[3] معلقة، فقام رسول الله ﷺ يأكل منها، وقام علي يأكل منها، فطفق النبي ﷺ يقول لعلي: إنك ناقه، حتى كف. قالت: وصنعت شعيراً وسلقاً فجئت به فقال ﷺ لعلي: من هذا أصب فإنه أنفع لك، رواه ابن ماجه.

---

(١) سورة النساء، الآية ٤٣.
(٢) أي الذي برىء من المرض لكنه في عقبه.
(٣) أشجار عنب.

وإنما منعه ﷺ من أكله من الدوالي لأن في الفاكهة نوع ثقل على المعدة، ولم يمنعه من السلق والشعير لأنه من أنفع الأغذية للناقه، ففي ماء الشعير التغذية والتلطيف والتليين وتقوية الطبيعة.

فالحمية من أكبر الأدوية للناقه قبل زوال الداء، لكي يمتنع تزايده وانتشاره.

قال ابن القيم: ومما ينبغي أن يعلم أن كثيراً مما يحمى عنه العليل والناقه والصحيح إذا اشتدت الشهوة إليه، ومالت إليه الطبيعة، فتناول منه الشيء اليسير الذي لا تعجز الطبيعة عن هضمه لم يضره تناوله، بل ربما انتفع به، فإن الطبيعة والمعدة يتلقيانه بالقبول والمحبة، فيصلحان ما يخشى من ضرره، وقد يكون أنفع من تناوله ما تكرهه الطبيعة وتدفعه من الدواء. ولهذا أقر النبي ﷺ صهيباً وهو أرمد على تناول التمرات اليسيرة وعلم أنها لا تضره. ففي هذا الحديث - يعني حديث صهيب - سر طبي لطيف، فإن المريض إذا تناول ما يشتهيه عن جوع صادق وكان فيه ضرر ما، كان أنفع وأقل ضرراً مما لا يشتهيه عن جوع صادق وإن كان نافعاً في نفسه. فإن صدق شهوته ومحبة الطبيعة له تدفع ضرره، وكذلك بالعكس.

ذكر حمية المريض من الماء

عن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحب الله العبد حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء. قال الترمذي حديث حسن غريب.

وروى الحميدي مرفوعاً: لو أن الناس أقلوا من شرب الماء لاستقامت أبدانهم.

وللطبراني في الأوسط عن أبي سعيد مرفوعاً: من شرب الماء على الريق انتقصت قوته. وفيه محمد بن مخلد الرعيني، وهو ضعيف.

ذكر أمره ﷺ بالحمية من الماء المشمس خوف البرص

روى الدارقطني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا تغتسلوا بالماء المشمس فإنه يورث البرص[1].

وروى الدارقطني هذا المعنى مرفوعاً من حديث عامر عن النبي ﷺ، وهو ضعيف.

وكذا خرج العقيلي نحوه عن أنس بن مالك، ورواه الشافعي عن عمر.

فعلى هذا يكره استعمال الماء المشمس شرعاً خوف البرص، لكنهم اشترطوا شروطاً: أن يكون في البلاد الحارة، والأوقات الحارة دون الباردة، وفي الأواني المنطبعة[2] على الأصح دون الحجر/ والخشب ونحوهما. واستثني النقدان لصفائهما. وقال الجويني بالتسوية، حكاه ابن الصلاح. ولا يكره المشمس في الحياض والبرك قطعاً، وأن يكون الاستعمال في البدن لا في الثوب، وأن يكون مستعملاً حال حرارته، فلو برد زالت الكراهة في الأصح، في الروضة وصحح في الشرح الصغير عدم الزوال. واشترط صاحب التهذيب ـ كما قاله الجيلي ـ أن يكون رأس الإناء منسداً لتنحبس الحرارة، وفي شرح المهذب أنها[3]

١/٣٠٨

(١) إسناده صحيح.
(٢) التي تتأثر وتمتد تحت المطرقة كحديد ونحاس.
(٣) أي كراهة المشمس.

شرعية يثاب تاركها وقال في شرح التنبيه: إن اعتبرنا القصد فشرعية وإلا فإرشادية، وإذا قلنا بالكراهة فكراهة تنزيه لا تمنع صحة الطهارة. وقال الطبري: إن خاف الأذى حرم، وقال ابن عبد السلام: لو لم يجد غيره وجب استعماله، واختار النووي في الروضة عدم الكراهة مطلقاً، وحكاه الروياني في البحر عن النص[١].

ذكر الحمية من طعام البخلاء

عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: طعام البخيل داء وطعام الأسخياء شفاء. رواه التنيسي عن مالك في غير الموطأ، كما ذكره عبد الحق في الأحكام.

ذكر الحمية من داء الكسل

روى أبو داود في المراسيل عن يونس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن: أنه رآه مضطجعاً في الشمس، قال يونس فنهاني وقال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: إنها تورث الكسل وتثير الداء الدفين.

ذكر الحمية من داء البواسير

عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ لا يجامعن أحدكم وبه حقن[٢] خلاء، فإنه يكون منه البواسير، رواه أبو أحمد والحاكم.

---

(١) أي نص الإمام الشافعي.

(٢) أي احتباس بول زائد محوج إلى الخروج إلى الخلاء.

ذكر حماية الشراب من سم أحد جناحي الذباب بانغماس الثاني

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء[1].

وفي رواية أبي داود (فإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء، فليغمسه كله).

وفي رواية الطحاوي: فإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء.

وفي قوله «كله» دفع توهم المجاز في الاكتفاء بالبعض.

قال شيخ شيوخنا[2]: لم يقع لي في شيء من الطرق تعيين الجناح الذي فيه الشفاء من غيره. لكن ذكر بعض العلماء أنه تأمله فوجده يتقي بجناحه الأيسر، فعرف أن الأيمن هو الذي فيه الشفاء.

وأخرج أبو يعلى عن ابن عمر مرفوعاً: عمر الذباب أربعون ليلة. والذباب كله في النار إلا النحل. وسنده لا بأس به.

قال الجاحظ: كونه في النار ليس تعذيباً له بل ليعذب أهل النار به، ويتولد من العفونة. ومن عجيب أمره أن رجيعه يقع على الثوب الأسود أبيض وبالعكس، وأكثر ما يظهر في أماكن العفونة، ومبدأ خلقه منها ثم من التوالد، وهو أكثر الطيور سفاداً، وربما بقي عامة اليوم على الأنثى. ويحكى أن بعض الخلفاء سأل الشافعي: لأي علة خلق الذباب؟ فقال: مذلة للملوك، وكان ألحت عليه ذبابة. وقال

---

(١) رواه البخاري.

(٢) الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

الشافعي: سألني ولم يكن عندي جواب فاستنبطت ذلك من الهيئة الحاصلة، فرحمة الله عليه ورضوانه.

ذكر أمره ﷺ بالحمية من الوباء النازل في الإناء بالليل بتغطيته

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ غطوا الإناء وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا ينزل فيه من ذلك الوباء. رواه مسلم في صحيحه.

قيل: وذلك في آخر شهور السنة الرومية.

ذكر حمية الوليد من إرضاع الحمقى

روى أبو داود في المراسيل بإسناد صحيح عن زياد السهمي[1] قال: نهى رسول الله ﷺ أن نسترضع الحمقاء، فإن اللبن يشبه[2]. وعند ابن حبيب: يعدي، وعند القضاعي بسند حسن من حديث ابن عباس مرفوعاً: الرضاع يغير الطباع[3].

وعند ابن حبيب أيضاً مرفوعاً: أنه نهى عن استرضاع/ ٣٠٨/ب الفاجرة.

وعن عمر بن الخطاب: أن اللبن ينزع لمن تسترضع.

---

(١) مجهول ويقال هو مولى عمرو بن العاص.

(٢) أي يورث شبهاً بين الرضيع والمرضعة.

(٣) فيه صالح بن عبد الجبار. قال في الميزان: أتى بخبر منكر جداً وساق هذا الحديث. وفيه عبد الملك بن مسلمة ضعيف.

[الحمية من البرد]

وأما الحمية من البرد فاشتهر على الألسنة: اتقوا البرد فإنه قتل أبا الدرداء. لكن قال شيخ الحفاظ ابن حجر: لا أعرفه. فإن كان وارداً فيحتاج إلى تأويل، فإن أبا الدرداء عاش بعد النبي دهراً. انتهى.

وأما ما اشتهر أيضاً: أصل كل داء البردة، فقال شيخنا[(١)]: رواه أبو نعيم والمستغفري معاً في الطب النبوي والدارقطني في العلل، كلهم من طريق تمام بن نجيح عن الحسن البصري عن أنس رفعه. وتمام: ضعفه الدارقطني وغيره، ووثقه ابن معين.

ولأبي نعيم أيضاً من حديث ابن المبارك عن السائب بن عبدالله ابن علي بن زحر عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

ومن حديث عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رفعه: أصل كل داء من البردة.

وقد قال الدارقطني عقب حديث أنس من علله:[(٢)] عباد بن منصور عن الحسن من قوله[(٣)]، وهو أشبه بالصواب.

وجعله الزمخشري في «الفائق» من كلام ابن مسعود.

قال الدارقطني في كتاب التصحيف: قال أهل اللغة «البردة» يعني بإسكان الراء، والصواب «البردة» يعني بالفتح، وهي التخمة،

---

(١) السخاوي في المقاصد.

(٢) سقط من قلم المصنف هنا (وقد رواه) وهو ثابت عند شيخه.

(٣) أي من قول الحسن أي ليس مرفوعاً [م].

لأنها تبرد حرارة الشهوة، أو لأنها ثقيلة على المعدة بطيئة الذهاب. من «برد» إذا ثبت وسكن.

وقد أورد أبو نعيم مضموماً لهذه الأحاديث، حديث الحارث بن فضيل عن زياد بن ميناء عن أبي هريرة رفعه: استدفئوا من الحر والبرد. وكذا أورد المستغفري مع ما عنده منها حديث اسحاق بن نجيح عن أبان عن أنس رفعه: إن الملائكة لتفرح بفراغ البرد عن أمتي، أصل كل داء البرد. وهما ضعيفان وذلك شاهد لما حكي عن اللغويين في كون المحدثين رووه بالسكون. انتهى.

الفصل الثاني

في تعبيره ﷺ الرؤيا

[حقيقة الرؤيا]

يقال: عبرت الرؤيا بالتخفيف: إذا فسرتها، وعبرتها بالتشديد للمبالغة في ذلك.

وأما «الرؤيا» بوزن فعلى ـ وقد تسهل الهمزة ـ فهي ما يراه الشخص في منامه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: الرؤيا إدراكات يخلقها الله تعالى في قلب العبد على يد ملك أو شيطان، إما بأسمائها، أي حقيقتها، وإما بكناها أي بعبارتها، وإما تخليطاً.

وذهب أبو بكر بن الطيب[1]: إلى أنها اعتقادات، واحتج بأن الرائي قد يرى نفسه بهيمة أو طائراً مثلاً، وليس هذا إدراكاً، فوجب أن يكون اعتقاداً، لأن الاعتقاد قد يكون على خلاف المعتقد.

قال ابن العربي: والأول أولى، والذي ذكره ابن الطيب من قبيل المثل[2] فالإدراك يتعلق به لا بأصل الذات.

---

(١) هو الباقلاني.

(٢) في ش: التمثيل.

وقال المازري: كثر كلام الناس في حقيقة الرؤيا، وقال فيها غير الإسلاميين أقاويل كثيرة منكرة، لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لا تدرك بالعقل، ولا يقوم عليها برهان، وهم لا يصدقون بالسمع، فاضطربت أقاويلهم، فمن ينتمي إلى الطب ينسب جميع الرؤيا[1] إلى الأخلاط، فيقول: من غلب عليه البلغم رأى أنه يسبح في الماء ونحو ذلك لمناسبة الماء طبيعة البلغم، ومن غلبت عليه الصفراء رأى النيران والصعود في الجو وهكذا إلى آخره. وهذا وإن جوزه العقل، وجاز أن يجري الله العادة به لكنه لم يقم عليه دليل، ولا اطردت به عادة، والقطع في موضع التجويز غلط.

ومن ينتمي إلى الفلسفة يقول: إن صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي كالنقوش، فما حاذى بعض النفوس منها انتقش فيها. قال: وهذا أشد فساداً من الأول، لكونه تحكماً لا برهان عليه. والانتقاش من صفات الأجسام، وأكثر ما يجري في العالم العلوي الأعراض، والأعراض لا ينتقش[2] فيها.

قال[3]: والصحيح ما عليه أهل السنة، أن الله تعالى يخلق في النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان/، فإذا خلقها جعلها علماً على أمور أخرى خلقها أو يخلقها في ثاني الحال، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن الله تعالى خلق الغيم علامة على المطر، وقد يتخلف. وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة

١/٣٠٩

(١) كذا في النسخ بالإفراد، وفي ش: الروايا. قال في القاموس: جمعها رؤى [م].
(٢) في ش: لا انتقاش.
(٣) أي المازري، فما زال الكلام نقلاً عنه.

الملك فيقع بعدها ما يسره، وتارة بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضره، والعلم عند الله.

[حديثان ضعيفان]

وأخرج الحاكم والعقيلي من رواية محمد بن عجلان عن سالم بن عبدالله بن عمر، عن أبيه قال: لقي عمر علياً فقال: يا أبا الحسن، الرجل يرى الرؤيا، فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب، قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد ولا أمة ينام فيمتلىء نوماً إلا تخرج روحه إلى العرش، فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي صدق، والذي يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تكذب. قال الذهبي في تلخيصه: هذا حديث منكر، ولم يصححه المؤلف[1].

وذكر ابن القيم حديثاً مرفوعاً غير معزو: أن رؤيا المؤمن كلام يكلمه ربه به في المنام. ووجد الحديث للترمذي في «نوادر الأصول» من حديث عبادة بن الصامت، أخرجه في الأصل الثامن والسبعين[2]، وهو من روايته عن شيخه عمر بن أبي عمر، وهو واه، وفي سنده جند ابن ميمون عن حمزة بن الزبير عن عبادة.

[قول الحكيم الترمذي]

قال الحكيم: قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب**﴾[3] أي في المنام.

(١) أي لم يصرح الحاكم بأنه صحيح.

(٢) في ش: والتسعين.

(٣) سورة الشورى، الآية ٥١.

ورؤيا الأنبياء وحي بخلاف غيرهم، فالوحي لا يدخله خلل لأنه محروس، بخلاف رؤيا غير الأنبياء فإنه قد يحضرها الشيطان.

وقال الحكيم أيضاً: وكل الله بالرؤيا ملكاً اطلع على أحوال بني آدم من اللوح المحفوظ فينسخ منها، ويضرب لكل على قصته مثلاً، فإذا نام مثلت له تلك الأشياء على طريق الحكمة الإلهية لتكون له بشرى أو نذارة أو معاتبة، والآدمي قد يسلط عليه الشيطان لشدة العداوة بينهما، فهو يكيده بكل وجه، ويريد إفساد أموره بكل طريق، فيلبس عليه رؤياه إما بتغليطه فيها أو بغفلته عنها.

الرؤيا الصالحة جزء من النبوة

وفي البخاري من حديث أنس: أن رسول الله ﷺ قال: (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة).

والمراد غالب رؤيا الصالحين، وإلا فالصالح قد يرى الأضغاث، ولكنه نادر لقلة تمكن الشيطان منهم، بخلاف عكسهم، فإن الصدق فيها نادر لغلبة تسلطه عليهم.

وقد استشكل كون الرؤيا جزءاً من النبوة، مع أن النبوة انقطعت بموته ﷺ.

وأجيب: بأن الرؤيا إن وقعت منه ﷺ فهي جزء من أجزاء النبوة حقيقة، وإن وقعت من غير النبي فهي جزء من أجزاء النبوة على سبيل المجاز.

وقيل: المعنى أنها جزء من علم النبوة، لأن النبوة وإن انقطعت فعلمها باق.

وتعقب بقول مالك ـ كما حكاه ابن عبد البر ـ أنه سئل: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يلعب. ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة.

وأجيب: بأنه لم يرد أنها نبوة باقية، وإنما أراد أنها أشبهت النبوة من جهة الاطلاع على بعض الغيب لا ينبغي أن يتكلم فيها بغير علم، فليس المراد أن الرؤيا الصالحة نبوة، لأن المراد تشبيه الرؤيا بالنبوة، وجزء الشيء لا يستلزم ثبوت وصفه، كمن قال: أشهد أن لا إله إلا الله رافعاً صوته لا يسمى مؤذناً، وفي حديث أم كرز الكعبية عند أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان: (ذهبت النبوة وبقيت المبشرات). وعند أحمد من حديث عائشة مرفوعاً: (لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا)، وفي حديث/ ابن عباس عند مسلم وأبي داود: (أنه ﷺ كشف الستارة ورأسه معصوب في مرضه الذي مات فيه، والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له)، والتعبير بالمبشرات خرج مخرج الغالب، فإن من الرؤيا ما تكون منذرة وهي صادقة يريها الله للمؤمن رفقاً به ليستعد لما يقع قبل وقوعه.

٣٠/ب

وقوله: «من الرجل الصالح» لا مفهوم له، فإن المرأة الصالحة كذلك، وحكى ابن بطال الاتفاق عليه.

وقوله: «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» كذا في أكثر الأحاديث. وروى مسلم من حديث أبي هريرة (جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة)، وعنده أيضاً من حديث ابن عمر (جزء من سبعين جزءاً)، وعند الطبراني: جزء من ستة وسبعين، وسنده ضعيف، وعنه عن عبد البر من طريق عبد العزيز بن المختار عن ثابت

عن أنس مرفوعاً: جزء من ستة وعشرين جزءاً. ووقع في شرح مسلم للنووي وفي رواية عبادة: أربعة وعشرين.

والذي يتحصل من الروايات عشرة، أقلها ما عند النووي، وأكثرها: من ستة وسبعين، وأضربنا عن باقيها خوف الإطالة.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: أجزاء النبوة لا يعلم حقيقتها إلا ملك أو نبي، وإنما القدر الذي أراده النبي ﷺ أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة في الجملة، لأن فيها اطلاعاً على الغيب من وجه ما، وأما تفصيل النسبة فيختص بمعرفته درجة النبوة.

وقال المازري: لا يلزم العالم أن يعرف كل شيء جملة وتفصيلاً، فقد جعل الله للعالم حداً يقف عنده، فمنه ما يعلم به المراد جملة وتفصيلاً، ومنه ما يعلمه جملة لا تفصيلاً، وهذا من هذا القبيل.

وقد تكلم بعضهم على الرواية المشهورة وأبدى لها مناسبة، فنقل ابن بطال عن أبي سعيد السفاقسي أن بعض أهل العلم ذكر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه في المنام ستة أشهر، ثم أوحى إليه بعد ذلك في اليقظة بقية مدة حياته، ونسبتها إلى الوحي في المنام جزء من ستة وأربعين جزءاً، لأنه عاش بعد النبوة ثلاثاً وعشرين سنة على الصحيح.

قال ابن بطال: هذا التأويل بعيد من وجهين:

أحدهما: أنه قد اختلف في قدر المدة التي بعد بعثته ﷺ.

والثاني: أنه يبقى حديث السبعين جزءاً بغير معنى.

وهذا الذي قاله من الإنكار في هذه المسألة سبقه إليه الخطابي **فقال**: كان بعض أهل العلم يقولون في تأويل هذا العدد قولاً لا يكاد

يتحقق، وذلك أنه ﷺ أقام بعد الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، وكان يوحى إليه في منامه ستة أشهر، وهي نصف سنة، فهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. قال الخطابي: وهذا وإن كان وجهاً تحتمله قسمة الحساب والعدد، فأول ما يجب على من قاله أن يثبت ما ادعاه خبراً، ولم نسمع فيه أثراً ولا ذكر مدعيه في ذلك خبراً، فكأنه قاله على سبيل الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً. وليس كل ما خفي علينا علمه يلزمنا حجته، كأعداد الركعات وأيام الصيام، ورمي الجمرات، فإنا لا نصل من علمها إلى أمر يوجب حصرها تحت أعدادها، ولم يقدح ذلك في موجب اعتقادنا للزومها. وقد ذكروا في المناسبات غير ذلك مما يطول ذكره.

[أصدق الرؤيا]

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: أصدق الرؤيا بالأسحار. رواه الترمذي والدارمي.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً).

قال الخطابي في «المعالم» في قوله: «إذا اقترب الزمان» قولان:

١/٣١٠ أحدهما: أن يكون/ معناه تقارب زمان الليل وزمان النهار، وهو وقت استهوائهما، أيام الربيع، وذلك وقت اعتدال الطبائع الأربع غالباً، قال: والمعبرون يقولون: أصدق الرؤيا ما كان عند اعتدال الليل والنهار وإدراك الثمار.

والثاني: أن اقتراب الزمان انتهاء مدته، إذا دنا قيام الساعة.

وتعقب الأول: بأنه يبعده التقييد بالمؤمن، فإن الوقت الذي تعتدل فيه الطبائع لا يختص به.

وجزم ابن بطال بأن الثاني هو الصواب، واستند إلى ما أخرجه الترمذي من طريق معمر عن أيوب في هذا الحديث بلفظ: في آخر الزمان لا تكذب رؤيا المؤمن.

وقيل: المراد بالزمان المذكور زمان المهدي عند بسط العدل وكثرة الأمن وبسط الخير والرزق، فإن ذلك الزمان يستقصر لاستلذاذه فتتقارب أطرافه.

وقال القرطبي في «المفهم»: المراد ـ والله أعلم ـ بآخر الزمان المذكور في الحديث، زمان الطائفة الباقية مع عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ بعد قتله الدجال، فأهل هذا الزمان أحسن هذه الأمة حالاً بعد الصدر الأول، وأصدقهم أقوالاً، فكانت رؤياهم لا تكذب، ومن ثم قال عقب هذا: وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، وإنما كانت كذلك لأن من كثر صدقه تنور قلبه وقوي إدراكه، وانتقشت فيه المعاني على وجه الصحة، وكذلك من كان غالب أحواله الصدق في يقظته فإنه يستصحب ذلك في نومه فلا يرى إلا صدقاً، وهذا بخلاف الكاذب والمخلط، فإنه يفسد قلبه ويظلم، فلا يرى إلا تخليطاً وأضغاثاً، وقد يندر المنام أحياناً، فيرى الصادق ما لا يصح، ويرى الكاذب ما يصح، ولكن الأغلب الأكثر ما تقدم. انتهى ملخصاً.

[آداب الرؤيا]

وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: (إذا رأى

أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليتحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها، فإنها لا تضره) رواه البخاري.

وفي رواية لمسلم: (ورؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا وكره منها شيئاً فلينفث عن يساره وليتعوذ بالله من الشيطان، ولا يخبر بها أحداً، فإن رأى رؤيا حسنة فليبشر ولا يخبر بها إلا من يحب).

وقوله: «فليبشر» بفتح التحتانية وسكون الموحدة وضم المعجمة، من البشرى.

وفي حديث أبي رزين عند الترمذي: ولا يقصها إلا على وادّ. ـ بتشديد الدال، اسم فاعل من الود ـ أو ذي رأي. وفي أخرى[1]: ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً. وفي أخرى: لا تقص رؤياك إلا على عالم أو ناصح.

وفي حديث أبي سعيد عند مسلم: فليحمد الله عليها وليحدث بها.

وحاصل ما ذكر من آداب الرؤيا الصالحة ثلاثة أشياء: أن يحمد الله عليها، وأن يبشر بها، وأن يتحدث بها لكن لمن يحب دون من يكره.

وحاصل ما ذكر من آداب الرؤيا المكروهة أربعة أشياء: أن يتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، ويتفل حين يهب من نومه، ولا يذكرها لأحد أصلاً. في البخاري من حديث أبي هريرة خامسة: وهي الصلاة، ولفظه: (فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد

---

(١) للترمذي أيضاً.

وليقم فليصل. لكن لم يصرح البخاري بوصله، وصرح به مسلم، وزاد مسلم سادسة: وهي التحول من جنبه الذي كان عليه فقال: عن جابر رفعه: إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه.

قال النووي: وينبغي أن تجمع هذه الروايات/ كلها، ويعمل بجميع ما تضمنته، فإن اقتصر على بعضها أجزأ في رفع ضررها كما صرحت به الأحاديث. ٣١٠/ب

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأنه لم ير في شيء من الأحاديث الاقتصار على واحد، ثم قال: لكن أشار المهلب إلى أن الاستعاذة كافية في دفع شرها. انتهى.

ولا ريب أن الصلاة تجمع ذلك كله كما قاله القرطبي، لأنه إذا قام يصلي تحول عن جنبه، وبصق ونفث عند المضمضة في الوضوء، واستعاذ قبل القراءة، ثم دعا الله في أقرب الأحوال إليه، فيكفيه الله شرها.

وذكر بعضهم سابعة: وهي قراءة آية الكرسي، ولم يذكر لذلك مستنداً، فإن أخذه من عموم قوله في حديث أبي هريرة[1]: (ولا يقربك شيطان) فيتجه، قال: وينبغي أن يقرأها في صلاته المذكورة.

[حكمة ما ورد بشأن الرؤيا]

وحكمة التفل ـ كما قال القاضي عياض ـ أمر به طرداً للشيطان

(١) عند البخاري: (إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية.. ولن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح).

الذي حضر الرؤيا المكروهة، تحقيراً له واستقذاراً، وخصت به اليسار لأنها محل الأقذار ونحوها، والتثليث للتأكيد.

وقد ورد التفل والنفث والبصق، قال النووي في الكلام على النفث على الرقية ـ تبعاً للقاضي عياض ـ : اختلف في التفل والنفث، فقيل: هما بمعنى واحد ولا يكونان إلا بريق. وقال أبو عبيد: يشترط في التفل ريق يسير، ولا يكون في النفث، وقيل عكسه. وسئلت عائشة عن النفث في الرقية فقالت: كما ينفث آكل الزبيب، لا ريق معه. قال: ولا اعتبار بما يخرج معه من بلة بغير قصد. قال: وقد جاء في حديث أبي سعيد في الرقية بفاتحة الكتاب: فجعل يجمع بزاقه.

قال القاضي: وفائدة التفل التبرك بتلك الرطوبة والهواء والنفس المباشر للرقية المقارن للذكر الحسن، كما يتبرك بغسالة ما يكتب من الذكر والأسماء.

وقال النووي أيضاً: وأكثر الروايات في الرؤيا «فلينفث» وهو النفخ اللطيف بلا ريق، فيكون التفل والبصق محمولين عليه مجازاً.

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأن المطلوب في الموضعين مختلف، لأن المطلوب في الرقية التبرك برطوبة الذكر كما تقدم، والمطلوب هنا طرد الشيطان، وإظهار احتقاره واستقذاره كما نقله هو عن عياض كما تقدم.

فالذي يجمع الثلاثة، الحمل على التفل، فإنه نفخ معه ريق لطيف، فبالنظر إلى النفخ قيل له نفث، وبالنظر إلى الريق قيل له بصق.

وأما قوله: «فإنها لا تضره» فمعناه ـ كما قاله النووي ـ : أن الله

تعالى جعل ما ذكر سبباً للسلامة من المكروه المرتب على الرؤيا، كما جعل الصدقة وقاية للمال.

وأما التحول، فللتفاؤل بتحول تلك الحال التي كان عليها.

والحكمة في قوله في الرؤيا الحسنة: «ولا يخبر بها إلا من يحب» لأنه إذا حدث بها من لا يحب قد يفسرها له بما لا يحب، إما بغضاً وإما حسداً، فقد تقع على تلك الصفة، أو يتعجل لنفسه من ذلك حزناً ونكداً، فأمر بترك تحديث من لا يحب بسبب ذلك.

[الرؤيا والعابر الأول]

وقد روي من حديث أنس مرفوعاً: الرؤيا لأول عابر. وهو حديث ضعيف، فيه يزيد الرقاشي، ولكن له شاهد أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه، بسند حسن، وصححه الحاكم عن أبي رزين العقيلي رفعه: الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت.

وعند الدارمي[1] بسند حسن عن سليمان بن يسار عن عائشة قالت: كانت امرأة من أهل المدينة لها زوج تاجر يختلف في التجارة، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي غائب، وتركني حاملاً، فرأيت في منامي أن سارية بيتي انكسرت وأني ولدت غلاماً أعور، فقال: خير يرجع زوجك إن شاء الله تعالى صالحاً، وتلدين غلاماً برّاً، فذكرت

(١) عبدالله بن عبد الرحمن السمرقندي، الحافظ، صاحب المسند، شيخ مسلم وأبي داود والترمذي وغيرهم، ثقة متقن فاضل، مات سنة خمس وخمسين ومائتين.

ذلك ثلاثاً[١]، فجاءت ورسول الله ﷺ غائب، فسألتُها[٢] فأخبرتني بالمنام، فقلت لها: لئن صدقت رؤياك ليموتن زوجك، وتلدين/ غلاماً فاجراً، فقعدت تبكي، فجاء رسول الله ﷺ فقال: مه يا عائشة، إذا عبرتم للمسلم الرؤيا فاعبروها على خير، فإن الرؤيا تكون على ما يعبرها صاحبها[٣].

١/٣١١

وعند سعيد بن منصور بن مرسل عطاء بن أبي رباح: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني رأيت كأن جائزة بيتي[٤] انكسرت، وكان زوجها غائباً، فقال: رد الله عليك زوجك، فرجع سالماً، الحديث.

قال أبو عبيد وغيره: معنى قوله: «الرؤيا لأول عابر» إذا كان العابر الأول عالماً، فعبر وأصاب وجه التعبير، وإلا فهي لمن أصاب بعده، إذ ليس المدار إلا على إصابة الصواب في تعبير المنام ليتوصل بذلك إلى مراد الله تعالى فيما ضربه من المثل، فإن أصاب فلا ينبغي أن يسأل غيره، وإن لم يصب فليسأل الثاني، وعليه أن يخبر بما عنده ويبين ما جهل الأول. هكذا قال، وفيه بحث يطول ذكره.

[من آداب المعبر]

ومن آداب المعبر، ما أخرجه عبد الرزاق عن معمر أنه كتب إلى

---

(١) لتتأكد وتطمئن.

(٢) أي سألتها عائشة عن سبب تعدد مجيئها.

(٣) أي العابر الذي تقص عليه.

(٤) أي ساريته.

أبي موسى: فإذا رأى أحدكم رؤيا فقصها على أخيه فليقل: خير لنا وشر لأعدائنا. ورجاله ثقات، ولكن سنده منقطع.

وفي حديث ابن زمل عند الطبراني والبيهقي في الدلائل: لما قص على النبي ﷺ رؤياه، فقال ﷺ: خير تتلقاه وشر تتوقاه، وخير لنا وشر على أعدائنا والحمد لله رب العالمين اقصص علي رؤياك. الحديث، وسنده ضعيف جداً، ويأتي إن شاء الله تعالى.

ومن آداب المعبر أن لا يعبرها عند طلوع الشمس ولا عند غروبها، ولا عند الزوال، ولا في الليل، وأن لا يقصها على امرأة، لكن ثبت أنه ﷺ كان إذا صلى الغداة يقول: هل رأى أحد الليلة رؤيا، فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، ويعبر لهم ما يقصون، ويبوب عليه البخاري: باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح.

قالوا: وفيه إشارة إلى ضعف ما أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن سعيد بن عبد الرحمن عن بعض علمائهم قال: لا تقص رؤياك على امرأة، ولا تخبر بها حتى تطلع الشمس، وفيه إشارة إلى الرد على من قال من أهل التعبير: إن المستحب أن يكون التعبير من بعد طلوع الشمس إلى الرابعة، ومن العصر إلى قبل الغروب، فإن الحديث دل على استحباب تعبيرها قبل طلوع الشمس، فلا يخالف قولهم بكراهة تعبيرها في أوقات كراهة الصلاة.

قال المهلب[1]: تعبير الرؤيا عند صلاة الصبح أولى من غيره من

(١) المهلب: أبو القاسم بن أحمد بن أسيد بن أبي صفرة التميمي الأندلسي، من العلماء الراسخين في الفقه والحديث والعبادة، أحيا صحيح البخاري بالأندلس وشرحه، مات سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

الأوقات، لحفظ صاحبها لها لقرب عهده بها، وقبل ما يعرض له نسيانها، ولحضور ذهن العابر وقلة شغله بالفكرة فيما يتعلق بمعاشه، وليعرف الرائي ما يعرض له بسبب رؤياه، فيستبشر بالخير ويحذر من الشر، ويتأهب لذلك، فربما كان في الرؤيا تحذير من معصية فكيف عنها، وربما كانت إنذاراً لأمر فيكون له مترقباً. قال: فهذه عدة فوائد لتعبير الرؤيا أول النهار. قاله في فتح الباري.

[آداب الرائي]

وذكر أئمة التعبير أن من آداب الرائي أن يكون صادق اللهجة، وأن ينام على وضوء، على جنبه الأيمن، وأن يقرأ عند نومه والشمس، والليل، والتين، وسورة الإخلاص والمعوذتين وأن يقول: اللهم إني أعوذ بك من سيء الأحلام، وأستجير بك من تلاعب الشيطان في اليقظة والمنام، اللهم إني أسألك رؤيا صالحة صادقة نافعة حافظة غير منسية، اللهم أرني في منامي ما أحب. وأن لا يقصها على عدو ولا جاهل.

[أنواع المرائي]

إذا علمت هذا، فاعلم أن جميع المرائي تنحصر في قسمين:

- أضغاث أحلام وهي لا تنذر بشيء وهي أنواع:

الأول: تلاعب الشيطان ليحزن الرائي، كأن يرى أنه قطع رأسه وهو يتبعه، أو رأى أنه واقع في هول ولا يجد من ينجده ونحو ذلك. وروى مسلم عن جابر: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله، إني

حلمت أن رأسي/ قطع وأنا أتبعه، فزجره ﷺ وقال: لا تخبر بتلعب الشيطان بك في المنام. ٣١١/ب

الثاني: أن يرى أن بعض الملائكة يأمره أن يفعل المحرمات ونحوه من المحال عقلاً.

الثالث: ما يحدث به نفسه في اليقظة أو يتمناه، فيراه كما هو في المنام، وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة، أو ما يغلب على مزاجه ويقع على المستقبل غالباً، وعن الحال كثيراً، وعن الماضي قليلاً.

● **القسم الثاني**: الرؤيا الصادقة، وهي رؤيا الأنبياء، ومن تبعهم من الصالحين، وقد تقع لغيرهم بندور، وهي التي تقع في اليقظة على وفق ما وقعت في النوم، وقد وقع لنبينا ﷺ من الرؤيا الصادقة التي كفلق الصبح ما لا يعد ولا يحد.

قالت عائشة: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. الحديث رواه البخاري.

وفي رواية[1]: الرؤيا الصالحة.

وهما بمعنى واحد بالنسبة إلى أمور الآخرة في حق الأنبياء، وأما بالنسبة إلى أمور الدنيا، فالصالحة في الأصل أخص. فرؤيا النبي ﷺ كلها صادقة، وقد تكون صالحة وهو الأكثر، وغير صالحة بالنسبة إلى الدنيا، كما وقع في الرؤيا يوم أحد، فإنه ﷺ رأى بقراً تذبح، ورأى

(١) هي للشيخين كالتي قبلها.

في سيفه ثلماً، فأول البقر ما أصاب أصحابه يوم أحد، والثلم الذي في سيفه برجل من أهل بيته يقتل، ثم كانت العاقبة للمتقين، وكان بعد ذلك النصر والفتح على الخلق أجمعين.

وأما رؤيا غير الأنبياء، فبينهما عموم وخصوص إن فسرنا الصادقة بأنها التي لا تحتاج إلى تفسير، وأما إن فسرناها بأنها غير الأضغاث فالصالحة أخص مطلقاً.

وقال الإمام نصر بن يعقوب الدينوري في «التعبير القادري»: الرؤيا الصالحة ما يقع بعينه، أو ما يعبر في المنام، أو يخبر به من لا يكذب، والصالحة ما فسر.

[درجات الناس في الرؤيا]

وأعلم أن الناس في الرؤيا على ثلاث درجات:

الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ورؤياهم كلها صدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير.

والصالحون: والأغلب على رؤياهم الصدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير.

ومن عداهم، يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث، وهم على ثلاثة أقسام: مستورون، فالغالب استواء الحال في حقهم، وفسقة فالغالب على رؤياهم الأضغاث ويقل فيها الصدق، وكفار: ويندر في رؤياهم الصدق جداً، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقد وقعت الصادقة من بعض الكفار كما في رؤيا صاحبي السجن مع يوسف عليه السلام، ورؤيا ملكهما وغير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد مرفوعاً، وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد: أصدق الرؤيا بالأسحار. وذكر الإمام نصر بن يعقوب الدينوري أن الرؤيا أول الليل يبطىء تأويلها، ومن النصف الثاني يسرع بتفاوت أجزاء الليل، وإن أسرعها تأويلاً رؤيا السحر، ولا سيما عند طلوع الفجر، وعن جعفر الصادق أسرعها تأويلاً رؤيا القيلولة، وعن محمد بن سيرين: رؤيا النهار مثل رؤيا الليل، والنساء مثل الرجال، وعن القيرواني: أن المرأة إذا رأت ما ليست له أهلاً فهو لزوجها، وكذا حكم العبد لسيده، كما أن رؤيا الطفل لأبويه.

[من مرائيه ﷺ]

[شرب اللبن]

ومن مرائيه الكريمة ﷺ: شربه اللبن وتعبره بالعلم، كما في حديث ابن عمر عند البخاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه، حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري، ثم أعطيت فضلي، يعني عمر، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم.

١/٣١٢ وفي/ رواية الكشميهني: من أظافيري، وفي رواية صالح بن كيسان: من أطرافي.

وهذه الرؤية يحتمل أن تكون بصرية، وهو الظاهر، ويحتمل أن

تكون علمية، ويؤيد الأول: ما أخرجه الحاكم والطبراني من طريق أبي بكر بن عبدالله بن عمر عن أبيه عن جده في هذا الحديث: فشربت حتى رأيته يجري في عروقي بين الجلد واللحم، على أنه محتمل أيضاً[1].

قال بعض العارفين[2]: الذي خلص اللبن من بين فرث ودم قادر على أن يخلق المعرفة من بين شك وجهل، وهو كما قال، لكن اطردت العادة بأن العلم بالتعلم والذي ذكره قد يكون خارقاً للعادة فيكون من باب الكرامة.

وقال العارف ابن أبي جمرة: تأول النبي ﷺ اللبن بالعلم اعتباراً بما بين له أول الأمر حين أتي بقدح خمر وقدح لبن، فأخذ اللبن فقال له جبريل: أخذت الفطرة، انتهى.

وقد جاء في بعض الأحاديث المرفوعة تأويله بالفطرة، كما أخرجه البزار من حديث أبي هريرة رفعه: اللبن في المنام فطرة.

وذكر الدينوري: أن اللبن المذكور في هذا يختص بلبن الإبل، وأنه لشاربه مال حلال وعلم، قال: ولبن البقر خصب السنة ومال حلال وفطرة أيضاً، ولبن الشاة مال وسرور وصحة جسم، وألبان الوحش شك في الدين، وألبان السباع غير محمودة، إلا أن لبن اللبوة مال مع عداوة لذي أمر.

وفي الحديث: أن علم النبي ﷺ بالله لا يبلغ أحد درجته فيه، لأنه شرب حتى رأى الري يخرج من أطرافه.

---

(١) أي محتمل لأن تكون رؤيا علمية.

(٢) هو القاضي أبو بكر بن العربي.

وأما إعطاؤه فضله لعمر، ففيه إشارة إلى ما حصل لعمر من العلم بالله بحيث كان لا تأخذه في الله لومة لائم، ووجه التعبير في الحديث بذلك من جهة اشتراك اللبن والعلم في كثرة النفع، وكونهما سبباً للصلاح، فاللبن للغذاء البدني، والعلم للغذاء المعنوي.

[تعبير القميص بالدين]

ومن ذلك رؤيته ﷺ القميص وتعبيره بالدين.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومرَّ عليَّ عمر وعليه قميص يجره. قالوا: ما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين، رواه البخاري.

وفي رواية الترمذي الحكيم من طريق أخرى في هذا الحديث، فقال أبو بكر: علامَ تؤول[1] هذا يا رسول الله.

و«الثدي» بضم المثلثة وكسر الدال وتشديد الياء، جمع ثدي، بفتح ثم سكون، والمعنى: أن القميص قصير جداً بحيث لا يستر من الحلق إلى نحو السرة بل فوقها.

وقوله: «ومنها ما يبلغ دون ذلك» يحتمل أن يريد به من جهة السفل، وهو الظاهر فيكون أطول، ويحتمل أن يكون دونه من جهة العلو فيكون أقصر، ويؤيد الأول ما في رواية الترمذي الحكيم المذكورة: فمنهم من كان قميصه إلى سرته، ومنهم من كان قميصه إلى ركبته، ومنهم من كان قميصه إلى أنصاف ساقيه.

---

(١) في (ش، د): تأولت.

ويجوز النصب في قوله «الدين» والتقدير: أولته الدين، ويجوز الرفع.

وفي رواية الحكيم المذكورة: على الإيمان.

وقد قيل في وجه تعبير القميص بالدين أن القميص يستر العورة في الدنيا، والدين يسترها في الآخرة ويحجبها عن كل مكروه، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿**ولباس التقوى ذلك خير**﴾(١).

واتفق أهل التعبير على أن القميص يعبر بالدين، وأن طوله يدل على بقاء آثار صاحبه من بعده. وقال ابن العربي: إنما أول ﷺ القميص بالدين، لأن الدين يستر عورة الجهل، كما يستر القميص عورة البدن. قال: وأما غير عمر فالذي كان يبلغ الثدي هو الذي/ ٣١/ب يستر قلبه عن الكفر ولو كان يتعاطى المعاصي، والذي كان يبلغ أسفل من ذلك وفرجه بادٍ هو الذي لم يستر رجله عن المشي إلى المعصية، والذي يستر رجله هو الذي احتجب بالتقوى من جميع الوجوه، والذي يجر قميصه زاد على ذلك بالعمل الصالح الخالص.

وأشار العارف ابن أبي جمرة: إلى أن المراد بالناس في الحديث: المؤمنون، لتأويله القميص بالدين، قال: والذي يظهر أن المراد خصوص هذه الأمة المحمدية، بل بعضها، والمراد بالدين العمل بمقتضاه، كالحرص على امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وكان لعمر في ذلك المقام العالي.

قال: ويؤخذ من هذا الحديث، أن كل ما يرى في القميص من حسن أو غيره فإنه يعبر بدين لابسه، قال: والنكتة في القميص أن

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

لابسه إذا اختار نزعه، وإذا اختار أبقاه، فلما ألبس الله المؤمنين لباس الإيمان واتصفوا به كان الكامل في ذلك سابغ الأثواب، ومن لا فلا، وقد يكون نقص الثوب بسبب نقص الإيمان، وقد يكون بسبب نقص العمل.

وفي الحديث: أن أهل الدين يتفاضلون في الدين بالقلة والكثرة، وبالقوة والضعف، وهذا من أمثلة ما يحمد في المنام ويذم في اليقظة شرعاً، أعني جر القميص، لما روي من الوعيد في تطويله.

[سواران من ذهب]

ومن ذلك رؤيته ﷺ السوارين الذهب في يده الشريفة وتعبيرهما بالكذابين.

روى البخاري عن عبيدالله بن عبدالله قال: سألت عبدالله بن عباس عن رؤيا النبي ﷺ التي ذكر فقال ابن عباس ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم إذ رأيت أنه وضع في يديّ سواران من ذهب فقطعتهما وكرهتهما، فأُذِنَ لي فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان. فقال عبيدالله: أحدهما العنبسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة.

وفي رواية أبي هريرة عند الشيخين: بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يديّ سواران من ذهب، فكبرا علي وأهماني، فأوحي إلي أن أنفخهما، فأولتهما الكذابين أنا بينهما، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة.

قال المهلب: هذه الرؤيا ليست على وجهها، وإنما هي ضرب من المثل، وإنما أول النبي ﷺ السوارين بالكذابين لأن الكذب وضع

الشيء في غير موضعه، فلما رأى في يديه سوارين من ذهب وليسا من لبسه، لأنهما من حلية النساء، عرف أنه سيظهر من يدعي ما ليس له. وأيضاً: ففي كونهما من ذهب، والذهب منهي عن لبسه، دليل على الكذب، وأيضاً: فالذهب مشتق من الذهاب، فعلم أنه شيء يذهب عنه، وتأكد ذلك بالإذن له في نفخهما فطارا، فعرف أنه لا ينسب إليهما أمر، وأن كلامه بالوحي الذي جاء به يزيلهما من موضعهما.

وقال ابن العربي: كان النبي ﷺ يتوقع بطلان أمر مسيلمة والعنسي، فأول الرؤيا عليهما ليكونا ذلك، إخراجاً للمنام عليهما، فإن الرؤيا إذا عبرت خرجت. ويحتمل أن يكون بوحي.

والمراد بـ «خزائن الأرض» التي ذكر، ما فتح على أمته من الغنائم، ومن ذخائر كسرى وقيصر وغيرهما، ويحتمل معادن الأرض التي فيها الذهب والفضة.

وقال القرطبي: إنما كبر عليه السواران لكون الذهب من حلية النساء، ومما حرم على الرجال، وفي طيرانهما إشارة إلى اضمحلال أمرهما، ومناسبة هذا التأويل لهذه الرؤيا، أن أهل صنعاء وأهل اليمامة كانوا أسلموا، فكانوا كالساعدين للإسلام، فلما ظهر الكذابان، وبهرجا على أهلهما بزخرف أقوالهما ودعاويهما الباطلة انخدع أكثرهم بذلك، فكأن اليدين بمنزلة البلدين، والسوارين بمنزلة الكذابين، وكونهما من ذهب إشارة إلى ما زخرفا، والزخرف من أسماء الذهب.

١/٣١٣ وقال أهل التعبير: من رأى أنه يطير/، فإن كان إلى جهة السماء تعريجاً ناله ضرر، فإن غاب في السماء ولم يرجع مات، وإن رجع أفاق من مرضه، وإن كان يطير عرضاً سافر ونال رفعة بقدر طيرانه.

[المرأة السوداء الثائرة الرأس]

ومن ذلك: رؤيته ﷺ المرأة السوداء الثائرة الرأس، وتعبيرها بنقل وباء المدينة إلى الجحفة.

روى البخاري من حديث عبدالله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس، خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة ـ وهي الجحفة ـ فأولت أن وباء المدينة نقل إليها.

وهذا من قسم الرؤيا المعبرة، وهي مما ضرب به المثل، ووجه التمثيل أنه شق من اسم السوداء: السوء والداء، فتأول خروجها بما جمع اسمها، وتأول من ثوران شعرها أن الذي يسوء ويثير الشر يخرج من المدينة.

وقال القيرواني من أهل التعبير: كل شيء غلبت عليه السوداء في أكثر وجوهها فهو مكروه، وقال غيره: ثوران الرأس يؤول بالحمى لأنها تثير البدن بالاقشعرار وبارتفاع الرأس، لا سيما من السوداء فإنها أكثر استيحاشاً.

[درع حصينة وبقر تنحر]

ومن ذلك: رؤيته ﷺ أنه في درع حصينة وبقراً تنحر وتعبير ذلك.

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي[1] إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا

---

(١) أي وهمي واعتقادي. وهي في (ا): ذهني.

هي المدينة يثرب، ورأيت فيها بقراً، والله خير، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعد، وثواب الصدق الذي أتانا[1] بعد يوم بدر. رواه البخاري ومسلم.

وروى الإمام أحمد وغيره عن جابر: أن النبي ﷺ قال: رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت بقراً تنحر، فأولت الدرع الحصينة بالمدينة، والبقر بَقْراً.

وهذه اللفظة الأخيرة وهي «بقر» بفتح الموحدة، وسكون القاف، مصدر بقره يبقره بقراً.

ولهذا الحديث سبب جاء بيانه في حديث ابن عباس عند أحمد أيضاً والنسائي والطبراني، وصححه الحاكم من طريق أبي الزناد عن عبيدالله بن عبدالله[2] بن عتبة عن ابن عباس في قصة أحد، وإشارة النبي ﷺ عليهم أن لا يبرحوا من المدينة، وإيثارهم الخروج لطلب الشهادة، ولبسه اللأمة[3] وندامتهم على ذلك، وقوله ﷺ: لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، وفيه: إني رأيت أني في درع حصينة الحديث، بنحو حديث جابر، وأتم منه، وقد تقدمت الإشارة إليه في غزوة أحد من المقصد الأول.

والمراد بقوله: «وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا الله بعد يوم بدر» فتح خيبر ثم مكة، أي ما جاء الله به بعد بدر الثانية من تثبيت قلوب المؤمنين.

---

(١) سقط من قلم المصنف لفظ الجلالة هنا (الله) وهو ثابت في الصحيحين.

(٢) ابن عبدالله، سقطت من (ا).

(٣) الدرع.

قال في فتح الباري: وفي هذا السياق إشعار بأن قوله في الخبر «والله خير» من جملة الرؤيا. قال: والذي يظهـر لي أن لفظة «والله خير» لم يتحرر إيراده[1]، وأن رواية ابن إسحاق هي المحررة، وأنه رأى بقراً ورأى خيراً، فأول البقر على من قتل من الصحابة يوم أحد، وأول الخير على ما حصل لهم من ثواب الصدق في القتال والصبر على الجهاد يوم بدر وبعده إلى فتح مكة، والمراد بالبعدية على هذا لا يختص بما بين بدر وأحد نبه عليه ابن بطال.

[رؤيته ﷺ الرطب]

ومن ذلك رؤيته ﷺ أنه أتي برطب. روى مسلم عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رأيت الليلة فيما يرى النائم، كأني في دار عقبة بن رافع[2]، وأتيت برطب من رطب ابن طاب[3]، فأولته بأن الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب.

[رؤيته ﷺ سيفاً يهزه]

٣١٣/ب ومن ذلك: رؤيته ﷺ سيفاً يهزه، وتعبـيره/ [ما روي][4] في حديث أبي موسى المتقدم أنه قال: ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب به المؤمنون يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان. فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين. رواه الشيخان.

---

(١) أي من راويه.

(٢) صحابي أنصاري.

(٣) نوع من أنواع تمر المدينة منسوب إلى ابن طاب، رجل من أهلها.

(٤) في (د، ط، ش).

وهذه أيضاً من ضرب المثل، ولما كان ﷺ يصول بالصحابة عبر عن السيف بهم، وبهزه عن أمره لهم بالحرب، وعن القطع فيه بالقتل فيهم، وفي الهزة الأخرى لما عاد إلى حالته من الاستواء عبر به عن اجتماعهم والفتح عليهم.

وقال أهل التعبير: السيف يصرف على أوجه؛ منها أن من نال سيفاً فإنه ينال سلطاناً، وإما ولاية وإما وديعة، وإما زوجة وإما ولداً، فإن سله من غمده فانثلم سلمت زوجته وأصيب ولده، فإن انكسر الغمد وسلم السيف فبالعكس، فإن سلما أو عطبا فكذلك. وقائم السيف يتعلق بالأب والعصبات، ونعله بالأم وذوي الرحم، وإن جرد السيف وأراد قتل شخص فهو لسانه يجرده في خصومة. وربما عبر السيف بسلطان جائر.

وقال بعض أهل التعبير أيضاً: من رأى أنه أغمد سيفاً فإنه يتزوج، أو ضرب شخصاً بسيف فإنه يبسط لسانه فيه، ومن رأى أنه يقاتل آخر وسيفه أطول من سيفه فإنه يغلبه، ومن رأى سيفاً عظيماً فهو فتنة، ومن قلد سيفاً قلد أمراً، فإن كان قصيراً لم يدم أمره.

[رؤيته ﷺ أنه على قليب]

ومن ذلك: رؤيته ﷺ أنه على قليب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم، رأيتني على قليب[1]، وعليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم

---

(١) بئر لم يطو.

أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين[1]، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غرباً[2] فأخذها عمر بن الخطاب، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع ابن الخطاب حتى ضرب الناس بعطن[3].

وعبقري القوم: سيدهم وكبيرهم وقويهم.

وفي رواية: فلم يزل ينزع حتى تولى الناس والحوض يتفجر.

وفي رواية: فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليريحني.

وفي رواية موسى عن سالم عن أبيه: رأيت الناس اجتمعوا فقام أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم قام عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً، فما رأيت من الناس يفري فريه حتى ضرب الناس بعطن. رواه البخاري.

قال النووي: قالوا هذا المنام مثال لما جرى للخليفتين، من ظهور آثارهما الصالحة، وانتفاع الناس بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبي ﷺ، لأنه صاحب الأمر، فقام به أكمل مقام، وقرر به قواعد الدين، ثم خلفه أبو بكر فقاتل أهل الردة وقطع دابرهم، ثم خلفه عمر فاتسع الإسلام في زمنه. فشبه أمر المسلمين بقليب فيه الماء الذي فيه حياتهم وصلاحهم، وأميرهم المستقي لهم منها، وفي قوله: «فأخذ الدلو من يدي ليريحني» إشارة إلى خلافة أبي بكر بعد موته ﷺ، لأن الموت راحة من كد الدنيا وتعبها، فقام أبو بكر بتدبير أمر الأمة ومعاناة أحوالهم. وأما قوله: «وفي نزعه ضعف» فهو إخبار عن حاله في قصر مدة ولايته، وأما ولاية عمر فإنها لما طالت كثر انتفاع الناس بها

---

(١) الذنوب: الدلو الممتلىء.

(٢) أي دلواً عظيماً.

(٣) أي رويت إبلهم.

واتسعت دائرة الإسلام بكثرة الفتوح وتمصير الأمصار وتدوين الدواوين، وليس في قوله ﷺ: «والله يغفر له» نقص، ولا إشارة إلى أنه وقع منه ذنب، وإنما هي كلمة كانوا يقولونها. وقوله: «فاستحالت في يده غرباً» أي تحولت الدلو غرباً - بفتح المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة - أي: دلواً عظيماً.

وأخرج أحمد وأبو داود عن سمرة بن جندب أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيت كأن دلواً عظيماً دلي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً،/ ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء علي فانتشطت[١] وانتضح[٢] عليه منها شيء. ١/٣١٤

والعراقي: جمع عرقوة الدلو، وهي الخشبة المعروضة على فم الدلو، وهما عرقوتان كالصليب، وقد يقال: عرقيت الدلو إذا ركبت العرقوة فيها.

وانتشطت: أي جذبت ورفعت.

فهذه نبذة من مرائيه الكريمة ﷺ مع تعبيرها.

[تعبيره ﷺ ما رآه الصحابة]

وأما ما رآه غيره فعبر ﷺ له بما يخص ويعم من أمور الدنيا والآخرة.

---

(١) أي نزعت منه فاضطرب وسقط بعض ما فيها.

(٢) رش.

[سؤاله ﷺ الصحابة عن رؤياهم]

فقد كان ﷺ إذا انفتل من صلاة الصبح أقبل على الصحابة فيقول: من رأى منكم الليلة رؤيا فليقصها علي أعبرها له، فيقص الناس عليه مرائيهم.

وروى البخاري والترمذي عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وأنه قال ذات غداة: هل رأى أحد منكم رؤيا، وقالوا: ما منا أحد رأى شيئاً، قال: لكني أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني فقالا لي: انطلق، فانطلقت فأتيت على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فتثْلَغ[١] رأسه، الحديث[٢].

[تركه ﷺ سؤال الصحابة عن مرائيهم]

وأقام ﷺ يسأل أصحابه: هل رأى منكم الليلة أحد رؤيا، ما شاء الله، ثم ترك السؤال، فكان يعبر لمن قص متبرعاً. واختلف النقلة في سبب تركه السؤال:

فقيل: سبب ذلك حديث أبي بكرة ـ عند الترمذي وأبي داود ـ أنه ﷺ قال ذات يوم: من رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله، رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء، فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر، ووزن أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر، ووزن عمر

---

(١) أي تشدخ.

(٢) رواه البخاري بطوله برقم ٧٠٤٧.

وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان. فرأينا الكراهة في وجه رسول الله ﷺ. انتهى. قالوا: فمن حينئذ لم يسأل رسول الله ﷺ أحداً عن رؤيا.

قال بعضهم: وسبب كراهته ﷺ إيثاره لستر العواقب وإخفاء المراتب، فلما كانت هذه الرؤيا كاشفة لمنازلهم مبينة لفضل بعضهم على بعض في التعيين خشي أن يتواتر ويتوالى ما هو أبلغ في الكشف من ذلك، ولله في ستر خلقه حكمة بالغة ومشيئة نافذة.

[حديث ضعيف جداً]

وقال ابن قتيبة - فيما ذكره ابن المنير -: سبب تركه السؤال في حديث ابن زمل: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال ﷺ وهو ثان رجليه: سبحان الله وبحمده واستغفر الله، إن الله كان تـواباً، سبعين مرة، ثم يقول: سبعون بسبعمائة، لا خير فيمن كانت ذنوبه في يوم أكثر من سبعمائة، ثم يستقبل الناس بوجهه فيقول: هل رأى أحد منكم شيئاً؟ قال ابن زمل: فقلت ذات يوم أنا يا رسول الله، قال: خير تتلقاه وشر تتوقاه، وخير لنا وشر لأعدائنا، والحمد لله رب العالمين اقصص رؤياك.

قال: رأيت جميع النـاس على طـريق رحب لاحب سهل[1]، والناس على الجادة منطلقون، فبينما هم كذلك أشفى[2] ذلك الطريق بهم على مرج لم ترعيني مثله، يرف رفيفاً[3]، يقطر نداه، فيه من أنواع

---

(١) الرحب: الواسع، واللاحب: الواضح، والسهل: الذي لا صعوبة فيه.
(٢) أي أشرف.
(٣) أي يكثر ماؤه.

الكلأ، فكأني بالرعلة[1] الأولى حين أشرفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم[2] في الطريق فلم يضلوه يميناً وشمالاً، ثم جاءت الـرعلة الثانية من بعدهم، وهم أكثر منهم أضعافاً، فلما أشفـوا على المـرج كبروا، ثم أكبوا رواحلهم في الطريق، فمنهم المرتع[3]، ومنهم الآخذ الضغث[4]،ومضوا على ذلك. قال: ثم قدم عظم الناس، فلما أشفوا على المرج كبروا وقالوا: هذا خير المنزل، فمالوا في المرج يمينا وشمالاً، فلما رأيت ذلك لزمت الطريق حتى أتيت أقصى المرج، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات، وأنت في أعلاها درجة، وإذا عن يمينك رجل أقنى آدم[5]، إذا هو/ تكلم يسمو[6]، يكاد يفزع الرجال طولاً، وإذا عن يسارك رجل ربعة تارّ[7]أحمر، كثير خيلان[8]الوجه، إذا هو تكلم أصغيتم إليه إكراماً له، وإذا أمام ذلك شيخ كأنكم تقتدون به، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف[9]، وإذا أنت كأنك تبعثها يا رسول الله.

٣١٤/ب

قال: فانتقع[10] لون رسول الله ﷺ ساعة، ثم سري عنه[11]،

---

(١) القطعة من الفرسان.
(٢) أي أرسلوها.
(٣) الذي يخلي ركابه ترتع تسعى وترعى كيف شاءت.
(٤) قبضة من حشيش مختلط.
(٥) الأقنى: المرتفع وسط الأنف، والآدم: الأسمر.
(٦) في ط: يسمع.
(٧) أي: مسترخ من جوع أو غيره.
(٨) جمع خال: أي شامات.
(٩) عجفاء: مهزولة، شارف: مسنة.
(١٠) تغير.
(١١) كشف عنه.

فقال: أما ما رأيت من الطريق الرحب اللاحب السهل، فذلك ما حملتكم عليه من الهدى، فأنتم عليه، وأما المرج الذي رأيت فالدنيا وغضارة[1] عيشها، لم نتعلق بها ولم تردنا ولم نردها، وأما الرعلة الثانية والثالثة ـ وقص كلامه ـ فإنا لله وإنا إليه راجون، وأما أنت فعلى طريقة صالحة، فلن تزال عليها حتى تلقاني، وأما المنبر فالدنيا سبعة آلاف سنة، أنا في آخرها ألفاً، وأما الرجل الطويل الآدم فذلك موسى، نكرمه بفضل الله إياه، وأما الرجل الربعة التار الأحمر، فذلك عيسى عليه السلام نكرمه بفضل منزلته من الله، وأما الشيخ الذي رأيت كأننا نقتدي به فذلك إبراهيم عليه السلام، وأما الناقة العجفاء الشارف التي رأيتني أبعثها فهي الساعة علينا، أي على الأمة تقوم، لأنه لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمتي.

قال الراوي: فما سأل رسول الله ﷺ بعد هذا أحداً عن رؤيا، إلا أن يجيء الرجل متبرعاً فيحدثه بها. رواه ابن قتيبة والطبراني والبيهقي في الدلائل، وسنده ضعيف جداً.

[رؤيا زرارة النخعي]

ومن غريب ما نقل عنه ﷺ من التعبير، أن زرارة بن عمرو النخعي قدم على رسول الله ﷺ في وفد النخع، فقال: يا رسول الله، إني رأيت في طريقي هذا رؤيا، رأيت أتانا تركتها في الحي ولدت جدياً أسفع أحوى، فقال له رسول الله ﷺ: هل لك من أمة تركتها مصرة حملاً؟ قال: نعم، تركت أمة أظنها قد حملت، قال: فقد ولدت غلاماً

---

(١) أي طيب.

وهو ابنك، قال: فما باله أسفع أحوى؟ قال: ادن مني، فدنا منه، قال: هل بك برص تكتمه؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق ما رآه مخلوق ولا علم به أحد، قال فهو ذاك.

قال: ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان[1] ومسكتان، قال: ذلك مُلْك العرب عاد إلى أفضل زيه وبهجته.

قال: ورأيت عجوزاً شمطاء تخرج من الأرض، قال: تلك بقية الدنيا.

قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو، ورأيتها تقول: لظى لظى، بصير وأعمى، آكلكم وأهلكم ومالكم فقال النبي ﷺ: تلك فتنة تكون في آخر الزمان، قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: يفتك الناس بإمامهم ثم يشتجرون اشتجار أطباق الرأس، وخالف ﷺ بين أصابعه، يحسب المسيء أنه محسن، ودم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء البارد[2].

فانظر إلى هذا التعبير البارز من مشكاة النبوة، محشواً حلاوة الحق، مكسواً طلاوة الصدق مجلواً بأنوار الوحي.

والأسفع: الذي أصاب جسده لون آخر.

والأحوى: الأسود الذي ليس بالشديد.

والمسكتان: السواران من ذهب.

وأطباق الرأس: عظامه.

والاشتجار: الاختلاف والاشتباك.

---

(١) دملجان: شيء يشبه السوار.

(٢) سبق ذكر هذه الرؤيا بتمامها في ج٢ ص٢١٠.

فإن قلت: تعبيره ﷺ السوارين هنا يرجع إلى بشرى، وعبرهما بالكذابين فيما مر.

أجيب: بأن النعمان بن المنذر كان ملك العرب، وكان مملكاً من جهة الأكاسرة، وكانوا يسورون الملوك ويحلونهم، وكان السواران من زي النعمان ليسا بمنكرين في حقه، ولا موضوعين في غير موضعهما عرفاً، وأما النبي فنهى عن لباس الذهب لآحاد أمته فجدير أن يهمه ذلك لأنه ليس من زيه، فاستدل به على أمر يوضع في غير موضعه، ولكن حمدت العاقبة بذهابهما، ولله الحمد.

[رؤيا ابن سلام]

ومن ذلك: ما روي عن قيس بن عباد ـ بضم العين وتخفيف الموحدة ـ قال: كنت في حلقة فيها سعد بن مالك[1] وابن عمر، فمر عبدالله بن سلام/ فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فقلت له: إنهم قالوا كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم، إنما رأيت كأنما عمود وضع في روضة خضراء، فنصب فيها، وفي رأسها عروة، وفي أسفلها منصف ـ والمنصف الوصيف[2] ـ فقال: ارقه، فرقيته حتى أخذت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: يموت عبدالله وهو آخذ بالعروة الوثقى. رواه البخاري[3].

1/315

---

(1) هو ابن أبي وقاص.

(2) المنصف: الخادم.

(3) وكذا رواه مسلم، وروى الشيخان من حديث سعد بن أبي وقاص: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام.

وفي رواية خرشة: بينما[1] أنا نائم أتاني رجل فقال لي قم، فأخذ بيدي فانطلقت معه، فإذا أنا بجوادّ ـ بجيم ودال مشددة، جمع جادة وهي الطريق المسلوك ـ عن شمالي، قال: فأخذت لآخذ فيها ـ أي أسير ـ فقال: لا تأخذ فيها فإنها طريق أهل الشمال.

وفي رواية النسائي من طريقه: فبينا أنا أمشي إذ عرض لي طريق عن شمالي، فأردت أن أسلكها، فقال: إنك لست من أهلها.

وفي رواية مسلم: فإذا منهج عن يميني، فقال لي خذ ها هنا، فأتى بي جبلاً فقال لي: اصعد، قال فجعلت إذا أردت أن أصعد خررت، حتى فعلت ذلك مراراً.

وفي رواية ابن عون: فقال تلك الروضة روضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة، العروة الوثقى، لا تزال متمسكاً بالإسلام حتى تموت.

وفي رواية خرشة عند النسائي وابن ماجه قال: رأيت خيراً، أما المنهج فالمحشر وأما الجبل فهو منزل الشهداء، زاد مسلم: ولن تناله.

وهذا علم من أعلام نبوة نبينا ﷺ فإن عبدالله بن سلام لم يمت شهيداً، وإنما مات على فراشه في أول خلافة معاوية بالمدينة.

وقولهم إنه من أهل الجنة، أخذوه من قوله لما ذكر طريق الشمال: إنك لست من أهلها.

وإنما قال: «ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم» على سبيل التواضع وكراهية أن يشار إليه بالأصابع، خشية أن يدخله العجب، عافانا الله من سائر المكاره.

---

(١) في (ش، د) بينا.

وقال القيرواني: الـروضة التي لا يعـرف نبتها تعـبر بالإسـلام لنضارتها وحسن بهجتها، وتعبر أيضاً بكل مكان فاضـل، وقد تعـبر بالمصحف وكتب العلم والعالم ونحو ذلك انتهى.

وقال غيره من المعـبرين: الحلقة والعـروة المجهولـة، تدل لمن تمسك بها على قوته في دينه، وإخلاصه فيه.

[رؤيا أم العلاء الأنصارية]

ومن ذلك، ما رواه البخاري عن أم العلاء، وهي امرأة من نسائهم، بايعت رسول الله: وأريت لعثمان بن مظعون بعد موته في النوم عينا تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ذاك عمله يجري له.

وقد قيل: يحتمل أنه كان لعثمان شيء من عمله بقي له ثوابه جارياً كالصدقة،

وأنكره مغلطاي وقال: لم يكن له شيء من الأمور الثلاثة التي ذكرها مسلم في حديث أبي هريرة رفعه: إذا مـات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث.

وتعقبه شيخ الحفاظ ابن حجر: بأنه كان له ولد صالح شهد بدراً وما بعدها، وهو السائب، مات في خلافة أبي بكر، فهو أحد الثلاث. قال: وقد كان عثمان من الأغنياء، فلا يبعد أن يكـون له صدقة استمرت بعد موته.

وقال المهلب: العين الجارية تحتمل وجوهـاً، فإن كـان ماؤهـا صافياً عبرت بالعمل الصالح، وإلا فلا.

وقال غيره: العين الجارية عمل جار من صدقة أو معروف لحي أو ميت.

وقال آخر: عين الماء نعمة وبركة وخير، وبلوغ أمنية إن كان صاحبها مستوراً، فإن كان غير عفيف أصابته مصيبة يبكي لها أهل داره، والله أعلم.

* * *

فهذا طرف من تعبيره ﷺ، يهدي إلى غيره مما يشبهه، وإلا فالذي نقل عنه ﷺ من غرائب التأويل، ولطائف التعبير ـ كما قاله ابن المنير ـ لا تحصره المجلدات.

وأنت إذا تأملت أن كل كرامة أوتيها واحد من هذه الأمة في علم أو عمل، هي من آثار معجزة نبيه ﷺ، وسر تصديقه، وبركات طريقه، وثمرات الاهتداء بهديه وتوفيقه، واستحضرت ما أوتيه الإمام محمد/ بن سيرين من لطائف التعبير، مما شاع وذاع، وامتلأت به الأسماع، طبق الأرض صدقاً وصواباً، وعجباً عجاباً، بل بحراً عبابا، قضيت بأن ما منحه ﷺ من العلوم والمعارف، لا تحيط به العبارات، ولا تدرك حقيقة كنهه الإشارات، وإذا كان هذا ابن سيرين واحد من أمته ﷺ نقل عنه في فن التعبير ما لا يعد لكثرته، فكيف به ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه، وأفاض علينا من سحائب علومه ومعارفه، وتعطف علينا بعواطفه.

٣١٥/ب

الفصل الثالث

في إنبائه ﷺ بالأنباء المغيبات

اعلم أن الغيب يختص به تعالى، وما وقع منه على لسان رسوله ﷺ وغيره فمن الله تعالى، إما بوحي أو إلهام، والشاهد لهذا قوله تعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**﴾[1] ليكون معجزة له.

واستدل به على إبطال الكرامات.

وأجيب: بتخصيص الرسول بالملك، والإظهار بما يكون بغير توسطه، وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون برؤيا الملائكة، كاطلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء، وفي حديث مرَّ: أنه ﷺ قال: «والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي» فكل ما ورد عنه ﷺ من الأنباء المنبئة عن الغيوب ليس هو إلا من إعلام الله له به، إعلاماً على ثبوت نبوته، ودلائل على صدق رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ بين أصحابه بالاطلاع على الغيوب، حتى إن كان بعضهم ليقول لصاحبه: اسكت فوالله لو لم يكن عندنا من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء، ويشهد له قول ابن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

---

(١) سورة الجن، الآية ٢٧.

وقول حسان بن ثابت:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد
فإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد

وهذا الفصل ينقسم قسمين:

[ما أخبر به ﷺ مما نطق به القرآن]

الأول: فيما أخبر به ﷺ مما نطق به القرآن.

من ذلك: في قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله**﴾ إلى قوله: ﴿**فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا**﴾[1] فقوله ﴿**ولن تفعلوا**﴾ إخبار عن غيب تقضي العادة بخلافه.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**﴾ الآية[2]، فإنه قد كان لقريش قافلتان: إحداهما ذات غنيمة دون الأخرى، فأخبر الله تعالى عما في ضمائرهم، وأنجز ما وعد، ولا شك أن الوعد كان قبل اللقاء، لأن الوعد بالشيء بعد وقوعه غير جائز.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾[3]، وهذا إخبار عن المستقبل، لأن «السين» بمعنى الاستقبال، يعني كفار قريش يوم بدر، وقد كان عددهم ما بين التسعمائة إلى الألف، وكانوا مستعدين بالمال والسلاح، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وليس معهم إلا فرسان، إحداهما للزبير بن العوام، والأخرى

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٧.
(٣) سورة القمر، الآية ٤٥.

للمقداد، فهزم الله المشركين ومكن المسلمين من قتل أبطالهم واغتنام أموالهم.

ومن ذلك: قوله تعالى في كفار قريش ﴿**سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً**﴾[1]، يريد ما قذف الله في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، ونادى أبو سفيان: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل/ إن شئت، فقال ﷺ: إن شاء الله، وقيل: لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا، وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب.

١/٣١٦

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين**﴾ إلى قوله: ﴿**لا يخلف الله وعده**﴾[2]، سبب نزول هذه الآية أن كسرى وقيصر تقاتلا فغلب كسرى قيصر، فساء المسلمين ذلك، لأن الروم أهل كتاب، ولتعظيم قيصر كتاب النبي ﷺ[3]، وتمزيق كسرى كتابه، وفرح المشركون به، فأخبر الله تعالى بأن الروم بعد أن غلبوا سيغلبون في بضع سنين، والبضع ما بين الثلاثة إلى العشر، فغلبت الروم أهل فارس يوم الحديبية[4]، وأخرجوهم من بلادهم، وذلك بعد سبع سنين.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥١.

(٢) سورة الروم. الآيات ١ ـ ٦.

(٣) كانت الكتابة إلى الملوك في العام السابع من الهجرة وما بعده، وآية الروم مكية، ولذا فموقف كسرى وقيصر من الكتابين ليس علة في الموضوع. [م]

(٤) للمفسرين قولان في وقت غلبة الروم على أهل فارس. يوم الحديبية ويوم بدر، وينقل عن ابن عباس قوله: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان وعبدة النيران، وهو الأقرب إلى الصواب [م].

ومن ذلك، قوله تعالى: **﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً﴾**[1] فأخبر أنهم لا يتمنون الموت بالقلب ولا بالنطق باللسان مع قدرتهم عليه أبداً، فأخبر فوجد مخبره كما أخبر، فلو لم يعلموا ما يلحقهم من الموت لسارعوا إلى تكذيبه بالتمني، ولو لم يعلم ذلك لخشي أن يجيبوا إليه فيقضى عليه بالكذب، قال البيضاوي: وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا الموت لنقل واشتهر، فإن التمني ليس من عمل القلب فيخفى. وروي مرفوعاً: لو تمنوا الموت لغص كل إنسان منهم بريقه فمات وما بقي يهودي على وجه الأرض[2].

ومن ذلك: قوله تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾**[3] **الآية.**

هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، وأئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعل تعالى ذلك ولله الحمد والمنة، فإنه لم يمت ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم،

---

(١) سورة الجمعة، الآية ٧.

(٢) أخرج البخاري والترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه.

(٣) سورة النور، الآية ٥٥.

وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فلمَّ شعث ما وهى عند موته ﷺ ووطد جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ففتحوا طرفاً منها، وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة إلى أرض الشام، وجيشاً ثالثاً صحبة عمرو بن العاص إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفها من بلاد حوران وما والاها. وتوفاه الله تعالى واختار له ما عنده. ومنَّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق.

فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيره وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده من بلاد الشام، فانحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ﷺ.

ثم لما كانت الدولة العثمانية[١] امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً،

(١) نسبة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وجيء بالخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين/ عثمان ٣١٦/ب
ابن عفان، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه للأمة على حفظ القرآن،
فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**﴾[1]،
فاليهود أذل الكفار في كل مكان وزمان كما أخبر.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾[2]، وهذا ظاهر في
العباد بأن دين الإسلام كما أخبر عال على سائر الأديان.

ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾[3] إلى
آخرها، فكان كما أخبر، دخل الناس في الإسلام أفواجاً، فما مات ﷺ
وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام. إلى غير ذلك مما
يطول استقصاؤه.

[ما أخبر به ﷺ من الغيوب]

القسم الثاني: فيما أخبر به ﷺ من الغيوب سوى ما في القرآن
العزيز فكان كما أخبر به في حياته وبعد مماته.

أخرج الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: **إن الله قد
رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة،
كأنما أنظر إلى كفي هذه**.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٦١، وقد وردت في جميع النسخ بإسقاط الواو من أولها
وهو غلط.
(٢) سورة التوبة، الآية ٣٣.
(٣) سورة النصر.

وعن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، ثم قال حذيفة: ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته. رواه أبو داود[1].

وروى مسلم من حديث ابن مسعود في الدجال: فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، وهم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ.

فوضح من هذا الخبر وغيره مما يأتي من الأخبار، وسنح من خواطر الأبرار الأخيار أنه ﷺ عرفهم بما يقع في حياته وبعد موته، وما قد انحتم وقوعه فلا سبيل إلى فوته.

وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحه في السماء إلا ذكرنا منه علما[2].

ولا شك أن الله تعالى قد أطلعه على أزيد من ذلك، وألقى عليه علم الأولين والآخرين. وأما علم عوارف المعارف الإلهية فتلك لا يتناهى عددها، وإليه ﷺ ينتهي مددها.

ومن ذلك: ما رواه الشيخان عن أبي هريرة (أن النبي ﷺ نعى

---

(١) روى الشيخان صدر هذا الحديث حتى قوله (عرفه..).

(٢) رواه أحمد والطبراني.

النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى وصف بهم وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات).

وفي حديث أنس عند أحمد والبخاري: (أن رسول الله ﷺ صعد أحداً، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله وقال له: أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان) فكان كما أخبر ﷺ.

ومن ذلك: ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله)، قال النووي قال الشافعي وسائر العلماء: معناه لا يكون كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام، كما كان في زمنه ﷺ، فأعلمنا ﷺ بانقطاع ملكهما من هذين الإقليمين، وكان كما قال، فأما كسرى فانقطع ملكه وزال بالكلية من جميع الأرض، وتمزق ملكه كل ممزق، واضمحل بدعوة النبي ﷺ، وأما قيصر فانهزم من/ الشام ودخل أقصى بلاده، فافتتح المسلمون بلاده واستقرت للمسلمين ولله الحمد، انتهى. 1/317

وقد وقع ذلك في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب كما قدمته، وقال ﷺ لسراقة: كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ فلما أتي بهما عمر ألبسهما إياه وقال: الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة.

ومن ذلك: إخباره ﷺ بالمال الذي تركه عمه العباس عند أم الفضل، بعد أن كتمه، فقال: ما علمه غيري وغيرها وأسلم كما تقدم ذلك في غزوة بدر من المقصد الأول.

وإخباره بشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة.

وبموضع ناقته حين ضلت وكيف تعلقت بخطامها في الشجرة.

ولما رجع المشركون يوم الأحزاب، قال النبي ﷺ: الآن نغزوهم ولا يغزونا، فلم يُغْزَ ﷺ بعدها.

وبعث ﷺ جيشاً إلى مؤتة، وأمر عليهم زيد بن حارثة ثم قال: فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبدالله بن رواحة، فلما التقى المسلمون بمؤتة جلس النبي ﷺ على المنبر، فكشف له حتى نظر إلى معركتهم فقال: أخذ الراية زيد بن حارثة حتى استشهد، فصلى عليه ثم قال: استغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب حتى استشهد، فصلى عليه ثم قال: استغفروا لأخيكم جعفر، ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة فاستشهد فصلى عليه، ثم قال: استغفروا لأخيكم. فأخبر أصحابه بقتلهم في الساعة التي قتلوا فيها، ومؤتة دون دمشق بأرض البلقاء.

وعن أسماء بنت عميس قالت: دخل رسول الله ﷺ صبيحة اليوم الذي قتل فيه جعفر وأصحابه فقال: يا أسماء، أين بنو جعفر فجئت بهم، فضمهم وشمهم ثم ذرفت عيناه بالدموع فبكى، فقلت: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شيء؟ قال: نعم قتل اليوم، رواه يعقوب الاسفرايني في كتاب دلائل الإعجاز، وخرجه ابن إسحاق والبغوي.

ومن ذلك، قوله ﷺ: زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها، فكان كذلك امتدت في المشارق والمغارب ما بين أقصى الهند إلى أقصى المشرق إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أية أمة من الأمم.

ومن ذلك: إعلامه قريشاً بأكل الأرضة ما في صحيفتهم التي

تظاهروا بها على بني هاشم، وقطعوا بها رحمهم، وأنها أبقت فيها كل اسم لله، فوجدوها كما قال ﷺ.

ومن ذلك: ما رواه الطبراني في الكبير، والبزار من حديث ابن عمر قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في مسجد منى، فأتى رجل من الأنصار ورجل من ثقيف فسلما ثم قالا: يا رسول الله، جئنا نسألك فقال: إن شئتما أن أخبركما بما جئتما تسألاني عنه فعلت، وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت، فقالا: أخبرنا يا رسول الله، فقال الثقفي للأنصاري: سل، فقال: أخبرني يا رسول الله، قال: جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام، ومالك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما، وعن سعيك بين الصفا والمروة ومالك فيه، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيه، وعن نحرك ومالك فيه، وعن حلاقك رأسك ومالك فيه مع الإفاضة. فقال: والذي بعثك بالحق لعنْ هذا جئت أسألك.

ومن ذلك: ما روي عن واثلة بن الأسقع قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو في نفر من أصحابه يحدثهم، فجلست وسط الحلقة، فقال بعضهم: يا واثلة قم عن هذا المجلس، فقد نهينا عنه، فقال رسول الله ﷺ: دعوني وإياه/ فإني أعلم بالذي أخرجه من منزله، قلت: يا رسول الله ما الذي أخرجني؟ قال: أخرجك من منزلك لتسأل عن البر وعن الشك، قال: قلت والذي بعثك بالحق ما أخرجني غيره، فقال ﷺ: البر ما استقر في الصدر، واطمأن إليه القلب، والشك ما لم يستقر في الصدر، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك وإن أفتاك المفتون[1].

٣١٧/ب

---

(١) وأخرج أحمد والدارمي أن وابصة جاء حتى جلس إلى النبي ﷺ فقال يا =

ومن ذلك: قوله لفاطمة رضي الله عنها في مرضه: إنك أول أهلي لحوقاً بي[1]، فعاشت بعده ثمانية أشهر، وقيل ستة أشهر[2].

وقوله ﷺ لنسائه: أسرعكن بي لحوقاً، أطولكن يداً، فكانت زينب بنت جحش لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق[3].

ومن ذلك، قوله ﷺ لعلي: أتدري من أشقى الآخرين؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: قاتلك. أخرجه أحمد في المناقب. وعند ابن أبي حاتم: الذي يضربك على هذا، وأشار إلى يافوخه، وعند المحاملي: قال علي: عهد إلي رسول الله ﷺ، لتخضبن هذه من هذه، وأشار إلى لحيته ورأسه، وعند الضحكاك: الذي يضربك على هذه[4] فتبتل منها هذه وأخذ بلحيته. فضربه عبد الرحمن بن ملجم. وعند الطبراني وأبي نعيم، من حديث جابر مرفوعاً: إنك مؤمر مستخلف، وإنك مقتول، وإن هذه مخضوبة من هذه.

وقال ﷺ لمعاوية: أما إنك ستلي أمر أمتي من بعدي، فإذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم. قال معاوية: فما زلت أرجوها حتى قمت مقامي هذا. رواه ابن عساكر[5].

= وابصة تحدثني بما جئت له أو أحدثك قال: بل أنت يا رسول الله قال جئت تسأل عن البر والإثم... وأخرج مسلم عن النواس سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس.

(١) رواه الشيخان.
(٢) هو القول الصحيح المشهور الذي في البخاري.
(٣) رواه مسلم والنسائي.
(٤) أي هامته.
(٥) سنده ضعيف.

وأخرج ابن عساكر أيضاً من حديث عروة بن رويم مرفوعاً: لن يغلب معاوية أبداً، وإن علياً قال يوم صفين: لو ذكرت هذا الحديث ما قاتلت معاوية[1].

ومن ذلك قوله ﷺ: يقتل هذا مظلوماً وأشار إلى عثمان رضي الله عنه. خرجه البغوي في المصابيح من الحسان[2] والترمذي وقال حسن غريب، وخرجه أحمد، فكان كما قال ﷺ، فاستشهد في الدار وبين يديه المصحف، فنضح الدم على هذه الآية ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾[3].

وفي الشفاء أنه ﷺ قال: يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف، وإن الله عسى أن يلبسه قميصاً، وإنهم يريدون خلعه وإنه سيقطر دمه على قوله: ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾. وقد أخرجه الحاكم عن ابن عباس بلفظ: إن رسول الله ﷺ قال: يا عثمان تقتل وأنت تقرأ سورة البقرة فتقع قطرة من دمك على قوله: ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾، لكن قال الذهبي: إنه حديث موضوع.

وقد روى مسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أشرف على أطم من آطام المدينة ثم قال: (هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر). فوقعت فتنة قتلة عثمان وتتابعت الفتن إلى فتنة الحرة وكانت لثلاث بقين من ذي الحجة سنة

---

(١) هو معضل بل قيل إنه موضوع وعلائم الوضع ظاهرة فإن علياً ما رجع عن رأيه. وكان عازماً على قتاله ولكن شغله عنه قتال الخوارج.

(٢) من الأحاديث الحسان، فإنه قسم الكتاب إلى صحاح وهو ما أخرجه الشيخان. وحسان ما كان في السنن.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٣٧.

ثلاث وستين من الهجرة، وجرت فيها مواقع كثيرة موجودة في كتب التواريخ.

وأخرج البيهقي عن الحسن[1] قال: لما كان يوم الحرة قتل أهلي، حتى لا يكاد ينفلت منهم أحد. وأخرج أيضاً عن أنس بن مالك قال: قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن، منهم ثلاثمائة من الصحابة[2]، وذلك في خلافة يزيد. وأخرج أيضاً عن مغيرة قال: انتهب أبو مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وافتض فيها ألف عذراء.

وقال ﷺ لأبي موسى وهو قاعد على قف بئر أريس، لما طرق عثمان الباب: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه إشارة إلى ما تقدم من استشهاده يوم الدار، بل أصرح من ذلك كله ما رواه أحمد عن ابن عمر قال ذكر رسول الله ﷺ فتنة، فمر رجل فقال: يقتل فيها هذا يومئذ/ ظلماً، قال: فنظرت فإذا هو عثمان. وإسناده صحيح. ١/٣١٨

وأخبر ﷺ بوقعة الجمل وصفين وقتال عائشة والزبير علياً، كما أخرجه الحاكم وصححه البيهقي عن أم سلمة قالت: ذكر رسول الله ﷺ خروج بعض أمهات المؤمنين، فضحكت عائشة فقال: انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت، ثم التفت إلى علي فقال له: إن وليت من أمرها شيئاً فارفق بها.

وعن ابن عباس مرفوعاً: أيتكن صاحبة الجمل الأدبب[3]،

---

(١) الحسن البصري.

(٢) وفي البخاري عن سعيد بن المسيب أن هذه الوقعة لم تبق من أصحاب الحديبية أحداً.

(٣) أي: كثير الشعر.

تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب[1]، ويقتل حولها قتلى كثيرة، تنجو بعدما كادت. رواه البزار وأبو نعيم.

وأخرج الحاكم وصححه البيهقي عن أبي الأسود قال: شهدت الزبير خرج يريد علياً فقال علي: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقاتله وأنت له ظالم، فمضى الزبير منصرفاً. وفي رواية أبي يعلى والبيهقي قال الزبير: بلى ولكن نسيت.

ومن ذلك قوله ﷺ في الحسن بن علي: إن ابني هـذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. رواه البخـاري، فكان كما قال ﷺ، لأنه لما قتل علي بن أبي طالب بايع الحسن أكثر من أربعين ألفاً، فبقي سبعة أشهر خليفـة بالعـراق وما وراء النهـر من خراسان، ثم سار إلى معاوية وسار معاوية إليه، فلما تراء الجمعـان بموضع يقال له بستكين بناحية الأنبار من أرض السواد، فعلم أن لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى، فكتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه دون غيره على أن يشترط عليه أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان في أيام أبيه، فأجابه معاوية إلا عشرة، فلم يزل يراجعه حتى بعث إليه برق أبيض وقال: اكتب فيه ما شئت فأنا ألتزمه، واصطلحا على ذلك، فكان الأمر كما قال النبي ﷺ: إن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

وأخرج الدولابي أن الحسن قال: كانت جماجم العرب بيـدي يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء المسلمين.

---

(١) اسم ماء أو قرية فيها ماء بطريق البصرة.

ومن ذلك: إعلامه ﷺ بقتل الحسين بالطف، وأخرج بيده تربة وقال: فيها مضجعه، رواه البغوي في معجمه من حديث أنس بن مالك بلفظ: استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبي ﷺ فأذن له وكان في يوم أم سلمة، فقال النبي ﷺ: يا أم سلمة احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فبينما هي على الباب إذ دخل الحسين فاقتحم فوثب على رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يلثمه ويقبله، فقال له الملك: أتحبه؟ قال: نعم، قال: إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل به، فأراه فجاء بسهلة أو تراب أحمر، فأخذته أم سلمة فجعلته في ثوبها. قال: ثابت: كنا نقول: إنها كربلاء. وخرجه أبو حاتم في صحيحه ورواه أحمد بنحوه.

والسهلة ـ بالكسر ـ: رمل خشن ليس بالدقاق الناعم.

وفي رواية الملاء، قالت: ثم ناولني كفاً من تراب أحمر، وقال: إن هذا من تربة الأرض التي يقتل بها فمتى صار دماً فاعلمي أنه قد قتل. قالت أم سلمة: فوضعته في قارورة عندي وكنت أقول: إن يوماً يتحول فيه دماً ليوم عظيم. الحديث»(1).

فاستشهد الحسين كما قال ﷺ بكربلاء من أرض العراق، بناحية الكوفة، ويعرف الموضع بالطف، وقتله سنان بن أنس النخعي وقيل غيره، ولما قتلوه بعثوا برأسه إلى يزيد، فنزلوا أول مرحلة فجعلوا يشربون بالرأس، فبينما هم كذلك إذ خرجت عليهم من الحائط يد معها قلم من حديد فكتبت سطراً بدم:

---

(1) هذا الخبر أورده اليعقوبي المؤرخ الشيعي في تاريخه ٢/٢٤٦ [عن منهج كتابة التاريخ الإسلامي لمحمد السلمي ص ٥١٦].

أترجو أمة قتلت حسيناً   شفاعة جده يوم الحساب

فهربوا وتركوا الرأس. خرجه منصور بن عمار [؟!]

وذكر أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة عن نضرة الأزدية أنها قالت: لما قتل الحسين بن علي أمطرت السماء دماً فأصبحنا وجبابنا وجرارنا مملوءة دماً. وكذا روي في أحاديث غير هذا [؟!]

وقال ﷺ لعمار: تقتلك الفئة الباغية. رواه البخاري فكان كما قال صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك: ما رواه أبو عمر بن عبد البر أن عبدالله بن عمر رأى رجلاً مع النبي ﷺ فلم يعرفه، فقال النبي ﷺ أرأيته؟ قال: نعم، قال: ذاك جبريل، أما إنك ستفقد بصرك، فعمي في آخر عمره.

ومن ذلك: قوله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: تعيش حميداً وتقتل شهيداً. رواه الحاكم وصححه، والبيهقي وأبو نعيم، فقتل يوم مسيلمة الكذاب باليمامة.

ومن ذلك: قوله لعبدالله بن الزبير: ويل لك من الناس، وويل للناس منك. فكان من أمره مع الحجاج ما كان.

ومن ذلك: حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: إن هذا الدين بدأ نبوة ورحمة ثم يكون خلافه ورحمة، ثم يكون ملكاً عضوضاً، ثم يكون سلطاناً وجبرية.(١)

وقوله: ملكاً عضوضاً أي يصيب الرعية فيه عسف وظلم، كأنهم يعضون فيه عضاً.

(١) رواه البزار والبيهقي، كما ذكره محقق الشفاء [م].

وفي حديث سفينة عند أبي داود والترمذي قال قال رسول الله ﷺ: الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك. قال سعيد بن جمعان[1]: أمسك[2] خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان وخلافة علي فوجدناها ثلاثين سنة، فقيل له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم فقال: كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك.

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس أن أم الفضل مرت به ﷺ فقال: إنك حامل بغلام فإذا ولدتيه فائتني به، قالت: فلما ولدته أتيته به فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وألبأه[3] من ريقه وسماه عبدالله وقال: اذهبي بأبي الخلفاء فأخبرت العباس فأتاه فذكر له ذلك فقال: هو ما أخبرتك، هذا أبو الخلفاء حتى يكون منهم السفاح، حتى يكون منهم المهدي، حتى يكون منهم من يصلي بعيسى بن مريم.

وأخرج أبو يعلى عن معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح والقيصوم.

ومن ذلك: إخباره ﷺ بعالم المدينة، أخرج الحاكم[4] وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلم يجدوا عالماً أعلم من عالم المدينة. قال سفيان بن عيينة: نرى هذا العالم مالك بن أنس، وقال عبد الرزاق: ولم يعرف بهذا الاسم غيره ولا ضربت أكباد الإبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه، وقال أبو مصعب: كان الناس يزدحمون على باب مالك ويقتتلون عليه

---

(١) تابعي صغير صدوق. روى له أصحاب السنن مات سنة ست وثلاثين ومائة.

(٢) أي أمسك عليك، أي احبس نفسك عن عد خلافتهم فقد حسبناها.

(٣) أي صب في فيه.

(٤) وكذا رواه الترمذي وحسنه والنسائي.

من الزحام، يعني لطلب العلم. وممن روى عنه من الأئمة المشهورين: محمد بن شهاب الزهري، والسفيانان والشافعي والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث بن سعد إمام أهل مصر، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام، وصاحباه: أبو يوسف ومحمد بن الحسن، وعبد الرحمن بن مهدي شيخ الإمام أحمد، ويحيى بن يحيى شيخ البخاري، وأبو رجاء قتيبة بن سعيد شيخ البخاري، وذو النون المصري، والفضيل بن عياض، وعبدالله بن المبارك، وإبراهيم بن أدهم. كما نقله العلامة عيسى بن مسعود الزواوي في كتابه «المنهج السالم إلى معرفة قدر الإمام مالك».

وإخباره بعالم قريش؛ عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً. رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وفيه الجارود مجهول، لكن له شواهد عن أبي هريرة في تاريخ بغداد للخطيب/ وعن علي وابن عباس في المدخل للبيهقي. قال الإمام أحمد وغيره: هذا العالم هو الشافعي، لأنه لم ينتشر في طباق الأرض من علم عالم قريش من الصحابة وغيرهم ما انتشر من علم الشافعي، وما كان الإمام أحمد ليذكر حديثاً موضوعاً يحتج أو يستأنس به في أمر شيخه الشافعي. وأما قوله: «وروي عن النبي ﷺ أنه قال عالم قريش» الخ، بصيغة التمريض احتياطاً للشك في ضعفه، فإن إسناده لا يخلو من ضعف. قاله العراقي رداً على الصغاني في زعمه أنه موضوع، وقد جمع الحافظ ابن حجر طرقه في كتابه سماه: لذة العيش في طرق حديث الأئمة من قريش، كما أفاده شيخنا.

1/319

وأخبر ﷺ بأن طائفة من أمته لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله. رواه الشيخان من حديث المغيرة بن شعبة وبأن الله تعالى

يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. رواه الحاكم من حديث أبي هريرة. وبذهاب الأمثل فالأمثل رواه الحاكم وصححه بلفظ: تذهبون الخير فالخير.

وبالخوارج؛ رواه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخويصرة، فقال: يا رسول الله، اعدل، فقال: ويلك، ومن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل، فقال: عمر يا رسول الله دعني أضرب عنقه، فقال ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر(١)، يخرجون على حين فرقة من الناس. قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته.

وأخبر ﷺ أيضاً بالرافضة، أخرجه البيهقي عن علي قال قال رسول الله ﷺ: يكون في أمتي قوم يسمون الرافضة، يرفضون الإسلام.

وأخبر أيضاً بالقدرية والمرجئة وقال: هم مجوس هذه الأمة، رواه الطبراني في الأوسط عن أنس.

وقد أخبر ﷺ أصحابه بأشياء بين موته وبين الساعة، وحذر من

---

(١) مثل قطعة اللحم، تتحرك وتذهب وتجيء.

مفاجأتها، كما يحذر من حاد عن الطاعة، وأن الساعة لا تقوم حتى تظهر جملة الأمارات في العالم، فإذا جاءت الطامة الكبرى، يطيش منها الجاهل والعالم. كما روي من رفع الأمانة والقرآن، واشتهار الخيانة وحسد الأقران وقلة الرجال، وكثرة النسوان، إلى غير ذلك مما شهدت بصحته الأخبار، وقضى بحقيقة وقوعه الاعتبار. وقد تعين أن نلمّ بذكر طرف من الآثار الصحاح والحسان:

فروى البخاري من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج - وهو القتل - وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم الرجل من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي فيه، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، / ٣١٩/ب ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ولا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط[1] حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها.

فهذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد، ولم يبق بعد هذا ما ينظر من صحيح العلامات والأشراط. وقد ظهر أكثر هذه العلامات:

---

(١) أي يصلحه بالطين.

فأما قوله: «حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة» يريد فتنة معاوية وعلي بصفين. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهذا أول خطب طرق الإسلام.

وتعقبه القرطبي بأن أول أمر دهم الإسلام موت النبي ﷺ، ثم بعد موته موت عمر، لأن بموته ﷺ انقطع الوحي وكان أول ظهور الشر ارتداد العرب وغير ذلك، وبموت عمر سل سيف الفتنة بقتل عثمان. وكان من قضاء الله وقدره ما كان وما يكون.

وأما قوله: «دجالون كذابون قريب من ثلاثين» فقد جاء عددهم معيناً من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: يكون في أمتي دجالون كذابون سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة. وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. أخرجه الحافظ أبو نعيم وقال: هذا حديث غريب. قال القاضي عياض: هذا الحديث قد ظهر، فلو عدَّ من تنبأ من زمن النبي ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك لوجد هذا العدد، ومن طالع كتب التاريخ عرف صحة هذا.

وقوله: «حتى يقبض العلم» فقد قبض ولم يبق إلا رسمه.

وأما: «الزلازل» فوقع منها شيء كثير، وقد شاهدنا بعضها.

وأما قوله: «حتى يكثر فيكم المال فيفيض وحتى يهمَّ رب المال(١) من يقبل صدقته» فهذا مما لم يقع.

وقوله: «حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه» لما يرى من عظيم البلاء ورياسة الجهلاء وخمول العلماء وغير ذلك، مما ظهر كثير منه.

---

(١) قوله: «رب المال» موافق لنص البخاري ولكنه مغاير لما قدم في الحديث من قوله: «يهم الرجل».

وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين أن رسول الله ﷺ قال: **لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى.** وقد خرجت نار عظيمة على قرب مرحلة من المدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العشاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، وفي يوم الثلاثاء اشتدت حركتها، وعظمت رجفتها، وتتابعت حطمتها، وارتجت الأرض بمن عليها، وعجت الأصوات لباريها، ودامت الحركة إثر الحركة، حتى أيقن أهل المدينة بوقوع الهلكة، وزلزلوا زلزالاً شديداً، من جملة ثمانية عشر حركة في يوم واحد دون ليلته.

قال القرطبي: وكان يأتي المدينة ببركته ﷺ نسيم بارد. وشوهد من هذه النار غليان كغليان البحر، وانتهت إلى قرية من قرى اليمن فأحرقتها. قال: وقال لي بعض أصحابنا: ولقد رأيتها صاعدة في الهواء من مسيرة خمسة أيام. قال: وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى.

وقال الشيخ قطب الدين القسطلاني: أقامت اثنين وخمسين يوماً، وكان انطفاؤها في السابع والعشرين من رجب ليلة الإسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم.

وبالجملة فاستيفاء الكلام على هذه النار يخرج عن المقصود، وقد نبه عليه القرطبي في التذكرة، وأفردها بالتأليف قطب الدين القسطلاني في كتاب سماه «جمل الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز» فأتى فيه من دقائق الحقائق بالعجب العجاب، والله الموفق للصواب.

تم بعونه تعالى الجزء الثالث
من المواهب اللدنية ويليه
الجزء الرابع وأوله
المقصد التاسع

فهرس الجزء الثالث من المواهب اللدنية

المقصد الخامس: الاسراء والمعراج

المقصد السادس

آيات من التنزيل في تعظيم قدره صلى الله عليه وسلم

المقصد السابع
في وجوب محبته ﷺ واتباع سنته

المقصد الثامن
في طبه ﷺ وتعبيره الرؤيا وإنبائه بالمغيبات